

من رسائل أبي حيان التوحيدى

وزارة الثقافة

(المختار من التراث العربي)

من

رسائل أبي حيان التوحيدي

اختيار ودراسة

الدكتور عزت السيد أحمد



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ٢٠٠١



أبو حيان التوحّيدي كما تخيله مُعدُّ الكتاب

الإهداء

إن صحَّ قولهم بالوراثة أساساً للأخلاق والمواهب
الإبداعية فليس من هو أحقُّ من أبويَّ بإهدائي
وإن كانت التربية والبيئة هما أساسِي التخلُّق
وصانعتي المواهب الإبداعية فليس هناك أجدر من أبويَّ
بإهدائي.

إلى أبي وأمي

أهدي عنز بن جهدي وثمره فكري.

عنز بن جهدي

مُقَلَّمَاتُ

كما أنه أمرٌ طبيعيٌّ أن نجدَ، في كلِّ آنٍ ومكانٍ، مَنْ يُعطي كلَّ شيءٍ حقَّهُ أو على الأقلِّ لا يبخسهُ هذا الحقَّ فمن الطبيعيِّ كذلك أن يكونَ هناك من لم يأبه بحقِّ شيءٍ أو أحدٍ مع اعتقادٍ كلِّ منهما بصحَّةِ وجهةِ نظرهِ ودفاعه عنها؛ الأمرُ طبيعيٌّ لأنَّ طبائعَ البشرِ مجبولةٌ على المتناقضاتِ، ومن دونِ وجودِ هذه المتناقضاتِ قد لا تستمرُّ الحياةُ. ولكنَّ هذا ليس يعني أن كلَّ طبيعيٍّ أو معقولٍ بالمعنى الهيجليِّ مُستحسنٌ أو مقبولٌ، ففي غيرِ مكنتنا إنكارُ معقوليَّةِ الشرِّ، ورُبَّما ضرورتهُ، ولكننا لا نستمرُّه عوضاً ولا نقبله.

استناداً إلى ذلك فإنَّه من الطبيعيِّ أن نلقى في كلِّ الأوقاتِ والمكاناتِ من يلعنُ الأجدادَ ويحقِّرُ الأسلافَ ولا يرى عندهم ما يستحقُّ أقلَّ وقفةٍ تأمُّلٍ أو نظريِّ. ولكنَّ العودةَ إلى التراثِ، على أيِّ حالٍ، ليست كما يتوهمُّ بعضهم ميلاً إلى التشرُّقِ، ولا حبَّ انغلاقٍ على الذاتِ، ولا عجزاً عن تجاوزِ الحاضرِ، وإنما هي عودةٌ إلى الجذورِ وكشفٌ عن المعالمِ المضيئةِ في ماضينا. بلُّ مهما كان ما تمخَّرتْ بُورهُ العودةِ إلى التراثِ حوله فإنَّه ينبغي أن تكونَ تمهيداً للانطلاقِ والانعقادِ؛ إن بحثنا عن المثالبِ والعثارِ والأخطاءِ والمعاييبِ فيجب أن تكونَ غايتنا من ذلك تلافيتها

وَاتَّقَاهَا لَا هُزْءَ وَالتَّفَكُّهُ وَالتَّنَدُّرُ بِأَسْلَافِنَا، وَإِنْ بَحَثْنَا عَنِ الْجَوَانِبِ
الْمُشْرِقَةِ الْمَشْرِقَةِ فَمِنْ أَجْلِ تَمَثُّلِهَا وَتَجَاوُزِهَا إِلَى مَا يَفْضُلُهَا
وَيَسْمُو بِهَا وَعَلَيْهَا لَا بِقَصْدٍ مَحْضٍ التَّغْنِي بِهَا وَالتَّوَقُّفُ عِنْدَهَا
لِلْمُبَاهَاةِ بِمَا فِيهَا مِنْ سَبْقٍ عَلَى الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَإِنْ كَانَ الْفَخْرُ
بِمَا أَنْجَزَ الْأَسْلَافُ حَقًّا وَوَجِبًا مَعًا.

انطلاقاً من هذا الموقف والاعتقاد كانت عودتنا إلى أبي
حيان التوحيدي؛ أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، أول واضع
لعلم الجمال العربي. ولا أعني بذلك أن العودة إلى التراث بحاجة
إلى مسوغات وجوازات سفر مؤشّرة من رجالات جُمرك حدود
الزّمان، ولكن اغبرار الجوّاء قد يحجب نُجوم السّماء ولكنّه ليس
ينفي وجودها، مثلما ظلام الليل توارى للشمس لا غياب لها، ولذلك
قد يضطرّ الماشي في حلك الدّجى أن يفتبس من النور مجنّباً
يتّقي به فُجاءات المتخبّطين على الدّرب والواقفين في الرّوايا.

إنّ الذي دعانا إلى محاولة إحياء تراث أبي **حيان التوحيدي**
وجمع ما تناثر من آثاره، إلى جانب وضع ثبت بما كتب عنه،
غير واحدٍ من الأسباب يُمكننا إجمالها فيما يلي:

أولاً: التوحيديّ مفكّر مهمّ في تاريخ فكرنا وأدبنا، لم يحظ
بما يستحقّ من الدّراسة والاهتمام، فعلى الرّغم من الأبحاث
الكثيرة التي كتبت عنه فإنّ ثمة جوانب كثيرة لم تُوضع تحت

مفاحصِ البَحْثِ حَتَّى الْآنَ. وَتَتَجَلَّى أَهْمِيَّةُ هَذَا الْمَفْكَرِ الْفَيْلسُوفِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ الْوَحْهَاءِ لِلذَّهْنِ جَلِيلِ إِسْهَامَاتِهِ فِي الْحَرَكَةِ الْفِكْرِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي عَصْرِهِ وَتَأْثِيرُهُ فِيمَنْ تَلَاهُ فِي الْعُصُورِ الْوَالْحَقَّةِ؛ هَذِهِ الْإِسْهَامَاتُ الْمُتَجَسِّدَةُ فِي نُصُوعِ أَدْبِهِ وَإِشْرَاقِ فِكْرِهِ وَدَقَّةِ بَيَانِهِ حَتَّى اسْتَحَقَّ مِنْ غَيْرِ تَأَلُّ عَلَى الْحَقِّ أَنْ يُعَدَّ بَيْنَ شُدُورِ الْعَبَقْرِيَّاتِ فِي التَّارِيخِ.

لَقَدْ جَمَعَ إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ بَيْنَ مَحَاسِنِ أَسَالِيبِ التَّعْبِيرِ الْجَمَالِيِّ الْعَرَبِيِّ جُلُهَا بَرُونِقٍ مُؤْتَلَقٍ مُطَيَّبٍ، وَرُوءَاءٍ مُبْهَرٍ مُعْجَبٍ، فَقَدْ آفَ بِاِقْتِدَارِ الْعَبَاقَةِ وَالْمَعْيَاتِهِمْ بَيْنَ مُوسِيقَى اللَّفْظِ وَدَلَالَتِهِ، وَرَقَّةِ التَّعْبِيرِ وَدَقَّتِهِ، وَأَلْقَ التَّصْوِيرِ وَرُوعَتِهِ، فَجَاءَ فِكْرُهُ مُفْعَمَ الْجَمَالِ خَصَبَ الْمَعَانِي، لَمْ يِنَّا عَنْ دَقَائِقِ التَّعْبِيرِ عَنْ خِصَائِصِ الْأَفْكَارِ، وَلَمْ تَقْنَهُ جَمَالِيَّاتُ الْأَلْفَاظِ وَرَقَّةُ حَوَاشِيهَا.

إِنَّ أَوَّلَ مَا تَفَعَّلَهُ الْأُمَّةُ الَّتِي تُرِيدُ النُّهُوضَ حَقًّا هُوَ الْعُودَةُ الْفَاعِلَةُ إِلَى تَرَاثِهَا الْفِكْرِيِّ وَإِرْثِهَا الْحَضَارِيِّ لِتَجْعَلَ مِنْهُ أُسَاسًا عَمِيقًا قَوِيمًا تُشِيدُ عَلَيْهِ بُنْيَانَهَا حَتَّى يَدُومَ أَكْثَرَ، وَالْمُشْكَلَةُ الْمُعْضَلَةُ أَنَّنَا نَلْقَفُنَا مِنَ الْأُمَّمِ الْأُخْرَى بِالِاخْتِضَانِ الدَّافِي الْحُنُونِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، أَكْثَرْنَا فِيهَا مِمَّا لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ أُمَّتِنَا وَخُصُوصِيَّتِهَا وَتَنَاسَبًا مَا يَنْقُصُنَا وَيُمْكِنُ أَنْ نَفِيدَ مِنْهُ، وَمَسْأَلَةُ الْعُودَةِ الْفَاعِلَةِ إِلَى التُّرَاثِ مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْمُتَجَاهِلَةِ.

ثانياً: لم يلق تراثنا العربي بمجمله حتى الآن ما يُوازي أهميته وعظمته، وقد بان لنا من خلال أنموذجنا المدرّوس بعض من هذه الجوانب المُشرقة المُشرقة التي لا تقلّ عما قدّمته الحضارات الأخرى بعد مئات السنين، وثمة جوانب أخرى عديدة عند أبي حيان وسواه من عباقرة تاريخنا تنتظر من يجلو عنها غبار الأيام. على أن ما تجدر الإشارة إليه هنا أن الكشف عن أيّ سبقٍ فكريٍّ لأمتنا على الأمم الأخرى يعني أشياء كثيرة سيان اطلع مفكرو الأمم الأخرى على تراثنا السباق هذا أم لم يطلعوا، والشواهد الحقائق التي تنجلي بين اليوم واليوم تؤكد مدى عظمة أمتنا وعبقريتها التي تملأ حُدود الزمان؛ في الأخلاق والعادات واللغة والآداب والعلوم.

ثالثاً: لم يُفرش تراث التّوحيديّ بعد على بساط البحث بما فيه ما يفيه حقّه من تبسّط العناية والاهتمام، على الرغم من الأبحاث والدراسات التي تبدو كثيرة في ظاهرها، وما جهدنا هذا إلا محاولة لبسط أوجه من جوانب أهميّة هذا المفكر الفذّ، وتقديم عونٍ للباحثين في تراثه يبسر عليهم البحث ويُقدّم لهم عرضاً شاملاً، حتى تاريخه، لما كتبت عن هذا المفكر، إلى جانب جمع آثاره الصّغرى المتناثرة وغير المنشورة أو المجموعة، بين دفتي كتابٍ واحدٍ.

أخيراً: هذا ما أثمره دأبنا، وانجلي عن كادنا وعزير جهدينا.
كُنَّا نَطْمَحُ أَنْ نَرْقَى بِهِ إِلَى ذُرَى الْكَمَالِ، فَسَلَخْنَا لَهُ مِنَ الْوَقْتِ
أَغْلَاهُ، وَمِنَ الْجُهْدِ أَعَزَّهُ، وَإِذْ بِنَا بَعْدَمَا سَرَفْنَا الْوَقْتَ، وَأَلْقَيْنَا الْقَلَمَ،
وَتَأَمَّلْنَا الْأُورَاقَ، وَنَظَرْنَا إِلَى الْأَمَامِ وَجَدْنَا الْآفَاقَ مَفْتُوحَةً، وَمَا
يُمْكِنُ فَعَلُهُ أَكْبَرُ بِكَثِيرٍ مِمَّا فَعَلْنَاهُ، وَلَكِنَّ عِزَاءَنَا أَنَّنَا لَمْ نَأَلْ جَهْدًا،
وَلَمْ نَتْرُكْ سَعِيًّا أَوْ مُحَاوَلَةً لَتَوْظِيفِ كُلِّ مَا لَاحَ فِيهِ إِمْكَانٌ يُعَزِّزُ
مَسْعَانَا وَيُغْنِيهِ. وَلِذَلِكَ لَا أَرْعُمُ أَنِّي أَوْصَدْتُ بَابَ الْبَحْثِ فِي هَذَا
الْمَوْضُوعِ وَرَائِي، وَلَا أَدَّعِي أَنِّي اسْتَوْفَيْتُهُ، فَالْبَابُ مُشْرَعٌ وَمَجَالُ
الْقَوْلِ مَفْتُوحٌ.



دمشق . ق . ١٩٩٧م

الاختصارات والمُوز

- « » : استخدمنا هذين القوسين لحصر المقبوسات الحرفية.
- (()) : استخدمنا هذين القوسين لحصر عناوين الكتب المذكورة في المتن.
- () : استخدمنا هذين القوسين لحصر المفردات ذات الدلالة الخاصة. أو لذكر معنى بعض المفردات في المتن.
- [] : استخدمنا هذين القوسين لحصر المفردات التي أضفناها إلى النصوص المقبوسة؛ لنقص في المعنى أو لتصحيح خطأ.
- د.ب : من دون تاريخ نشر.
- د.م : من دون مكان نشر.
- د.ن : من دون ناشر.
- الإشارات الإلهية (ق): النسخة التي حققتها الدكتورة و داد القاضي، وهي التي النسخة اعتمدنا عليها.
- البصائر والذخائر (ك): النسخة التي حققتها الدكتور إبراهيم الكيلاني.
- البصائر والذخائر (ق): النسخة التي حققتها الدكتورة و داد القاضي.
- البصائر والذخائر (م): النسخة التي حققتها الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين. ولم يصدر منها إلا الجزء الأول.
- المقابسات (ح): النسخة التي حققتها الأستاذ محمد توفيق حسين.
- المقابسات (س): النسخة التي حققتها الأستاذ حسن السندوبي.



الباب الأول

أبو حيان التوحيدي

الفصل الأول

مخطات في حياة التوحيد

عَاشَ التَّوْحِيدِي طُفُولَةً مَمْلُوءَةً بِالْبُؤْسِ
وَالْعَدَابِ، مَخْشُوفَةً بِالْفَقْرِ وَالْحِرْمَانِ، وَلَقَدْ وَعَى
مَا لَدَيْهِ مِنْ مَوَاهِبَ وَمَلَكَاتٍ تَتَحَيَّنُ الْفُرْصَةَ
الْمُنَاسِبَةَ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ ذَاتِهَا. وَلَكِنَّ الْعَقَبَاتِ
وَالْعَرَاقِيلَ حَائِلَةٌ دُونَ مَا تَصْبُو إِلَيْهِ، وَلِذَلِكَ
صَارَتْ مُعَانَاثُهُ مُضَاعَفَةً، وَخَرَجَتْ شَخْصِيَّتُهُ عَنِ
الْإِتِّزَانِ وَالتَّوَازُنِ إِلَى الْإِزْدَوَاجِيَةِ وَفَرَطِ
الْحَسَّاسِيَةِ، وَصَبَّغَتْ فِكْرَهُ وَأَدَبَهُ بِالْأَوَانِ
شَخْصِيَّتِهِ هَذِهِ.

اسمه ونسبه

أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي هو الاسمُ الَّذِي اشْتَهَرَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ
الْعَبَّاسِ بِإِجْمَاعِ الْمُؤَرِّحِينَ. وَانْفَرَدَ عَنْ هَذَا الْإِجْمَاعِ مُعِينُ الدِّينِ أَبُو الْقَاسِمِ
الْجُنَيْدُ الشَّيرَازِي، مِنْ رِجَالِ الْقَرْنِ السَّابِعِ، فِي كِتَابِهِ ((شُدُّ الْإِزَارِ عَنْ حَطِّ
الْأَوْزَارِ))، فَقَدْ سَمَّاهُ هَكَذَا: «أَبُو حَيَّانِ أَحْمَدُ بْنُ الْعَبَّاسِ الصُّوفِي
التَّوْحِيدِي»^(١).

أَمَّا النِّسْبَةُ فِي التَّوْحِيدِيِّ ففِي فَهْمِهَا اخْتِلَافٌ؛ ذَهَبَ مُعْظَمُ الْمُؤَرِّحِينَ
إِلَى أَنَّهَا نِسْبَةٌ إِلَى مَهْنَةِ وَالِدِهِ الَّذِي كَانَ يَبِيعُ بِالْعِرَاقِ نَوْعاً مِنَ التَّمْرِ يُسَمَّى

(١) . الشَّيرَازِي: شُدُّ الْإِزَارِ عَنْ حَطِّ الْأَوْزَارِ . ج ٢ . ص ١٢٤ . وَانظُرْ ذَلِكَ أَيْضاً فِي: عَبْدَ الرَّزَاقِ مَحْبِي الدِّينِ: أَبُو
حَيَّانِ التَّوْحِيدِي؛ سِيرَتُهُ وَأَثَارُهُ . ص ٧ .

(التَّوْحِيدُ)^(٢)، مُسْتَشْهِدِينَ بِمَا «ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ شُرَاحِ الْمُتَنَبِّيِّ الَّذِينَ حَمَلُوا
(التَّوْحِيدَ) فِي الْبَيْتِ التَّالِيِ عَلَى الْمَعْنَى السَّابِقِ»^(٣):

يَتَرَشَّفَنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ

هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ

ولكنَّ فريقاً آخر من شُرَاحِ الْمُتَنَبِّيِّ اتَّجَهَ إِلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ التَّوْحِيدِ فِي
الْبَيْتِ السَّابِقِ . وَلَا يُسْتَبْعَدُ مِثْلُ هَذَا عَنِ الْمُتَنَبِّيِّ . هُوَ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٤)،
وَتَبَايَنُوا فِي الْكَشْفِ عَمَّا أَرَادَهُ أَبُو الطَّيِّبِ ضَمَّنَ هَذَا الْإِطَارَ . وَالْأَمْرُ ذَاتُهُ حَدِثٌ
مَعَ النَّسْبَةِ فِي التَّوْحِيدِيِّ، حَيْثُ اتَّجَهَ فَرِيقٌ آخَرُ إِلَى أَنَّ النَّسْبَةَ هُنَا نِسْبَةٌ إِلَى
عَقِيدَةِ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ الَّذِينَ عُرِفُوا بِالْمُعْتَزِلَةِ^(٥)، وَثَمَّةَ اخْتِلَافٍ آخَرَ هُنَا
أَيْضاً فِي انْتِمَاءِ أَبِي حَيَّانٍ إِلَى هَذِهِ الْفِرْقَةِ . وَالْحَقُّ أَنَّ سَبَبَ هَذَا الْإِرْيَاكِ هُوَ
التَّوْحِيدِيُّ ذَاتُهُ الَّذِي بَدَأَ فِي مُعْظَمِ كِتَابَاتِهِ «سُنِّيًّا شَدِيدَ التَّمَسُّكِ بِالسُّنَّةِ، وَلَعَلَّ
هَذَا هُوَ السَّبَبُ الْمُهْمُّ الَّذِي جَعَلَهُ يُهَاجِمُ . مُخْتَلِفِ الْفِرْقِ الدِّينِيَّةِ ؛ الْمُعْتَزِلَةِ
وَالْأَشَاعِرَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ ... مُهَاجِمَةً عَنِيفَةً»^(٦)، وَمِمَّا قَالَ فِيهِمْ: «لَمْ أَرِ مُتَكَلِّمًا فِي

(٢) . هذا ما أورده الزَّيْدِيُّ فِي كِتَابِهِ: تَاجِ الْعُرُوسِ . مَادَّةٌ: وَحِدٌ .

(٣) . ابْنُ خَلَّكَانَ: وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ . ج ٥ . ص ١١٣ . وَكَذَلِكَ: مُحَمَّدُ كَرْدِ عَلِيٍّ: أَبُو حَيَّانِ التَّوْحِيدِيِّ . ضَمَّنَ:

مَجْلَّةُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ . ١٩٢٨ م . ج ٣ . مَج ٨ . ص ١٣٢ .

(٤) . هَذَا قَوْلُ الْوَاحِدِيِّ، وَعَلَّقَ بِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ وَتَجَاوُزٌ حَدًّا . أَوْرَدَ هَذَا الْكَلَامَ أَبُو الْبَقَاءِ الْعَكْبَرِيُّ فِي شَرْحِهِ دِيْوَانَ أَبِي
الطَّيِّبِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِطْنَابِهِ فِي شَرْحِ هَذَا الْبَيْتِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَذْكَرْ أَبَدًا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّوْحِيدَ نَوْعٌ مِنْ
التَّمَرِّ . انظُرْ ذَلِكَ فِي: دِيْوَانِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيِّ بِشَرْحِ أَبِي الْبَقَاءِ الْعَكْبَرِيِّ . ص ٣١٥ .

(٥) . ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ: لِسَانُ الْمِيْزَانِ . ج ٧ . ص ٣٨ . وَهَذَا مَا وَرَدَ ذَكَرَهُ أَيْضًا عِنْدَ الزَّيْدِيِّ فِي: تَاجِ
الْعُرُوسِ . مَادَّةٌ: وَحِدٌ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْمَفْكَرِينَ مَعَ هَذَا الرَّأْيِ، مِنْهُمْ مُحَمَّدُ كَرْدِ عَلِيٍّ فِي: أَمْرَاءِ الْبِيَّانِ؛
(٤٤٩)، وَحَسَنُ السَّنْدُوبِيِّ فِي كِتَابِهِ عَنِ التَّوْحِيدِيِّ؛ (٩٨) . وَرَأَى إِحْسَانَ عَبَّاسٍ فِي كِتَابِهِ عَنِ التَّوْحِيدِيِّ «أَنَّ
هَذِهِ التَّسْمِيَةَ قَدْ تَكُونُ جَاءَتْهُ مِنْ تَسْخِيرِ كُلِّ عِلْمٍ لِبَلُوغِ التَّوْحِيدِ» .

(٦) . شَوْفِيٌّ ضَيْفٌ: عَصْرُ الدُّوَلِ وَالْإِمَارَاتِ . ص ٤٦١ .

مُدَّة عُمُرِهِ بَكَى خَشِيَّةً أَوْ دَمَعَتْ عَيْنُهُ خَوْفًا، أَوْ أَقْلَعَ عَنْ كَبِيرَةِ رَغْبَةٍ؛ يَتَنَاطَرُونَ مُسْتَهْزِئِينَ وَيَتَحَاسِدُونَ مُتَعَصِّبِينَ، وَيَتَلَاقُونَ مُتَخَادِعِينَ، وَيُصَنَّفُونَ مُتَحَامِلِينَ؛ جَدَّ اللَّهُ عُرُوقَهُمْ وَاسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهُمْ^(٧)، وَأَرَاخَ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ مِنْهُمْ^(٨). وَلَكِنَّهُ يَذْهَبُ فِي ((الْمُقَابَسَاتِ)) غَيْرَ مَرَّةٍ إِلَى تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَفَهْمِهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُعْتَزَلِيَّةِ، وَهَذَا مَا حَدَا بِيَاقُوتَ الْحَمَوِيِّ^(٩) وَابْنَ حَجَرَ الْعَسْقَلَانِيِّ^(١٠) وَطَاشَ كُبْرَى زَادَهُ^(١١) إِلَى عَدِّ أَبِي حَيَّانَ مُعْتَزَلِيٍّ التَّفْقِيرِ جَاحِظِي التَّعْبِيرِ. وَأَكَّدَ الْمَوْسَوِيُّ أَنَّ لِمُفَكِّرِنَا فِي التَّوْحِيدِ. أَوَّلَ الْأُصُولِ الْخُمْسَةِ عِنْدَ الْمُعْتَزَلَةِ. «لِسَانًا خَاصًّا»^(١٢).

مولده وأصله ونشأته

لَمْ تَصَلْنَا تَرْجَمَةً وَافِيَةً وَلَا دَقِيقَةً عَنْ مَوْلِدِ التَّوْحِيدِيِّ زَمَانًا وَلَا مَكَانًا، وَلَا عَنْ نَشَأَتِهِ وَلَا عَنْ أَصْلِهِ، حَتَّى تَكَادَ تَكُونُ مَحَطَّاتُ حَيَاتِهِ؛ الْمُهْمَمَةُ وَالْعَادِيَةُ، مَجْهُولَةً، وَلَا سِيَّمًا الْخُمْسِينَ الْأُولَى مِنْهَا، وَالَّتِي تُشَكِّلُ نَصْفَ حَيَاتِهِ. حَتَّى وَفَاتُهُ الَّتِي يُفْتَرَضُ الدَّقَّةُ فِي تَحْدِيدِهَا بَعْدَمَا نَالَ مَا نَالَ مِنَ الشُّهُرَةِ، لَمْ يَتَّفِقِ الْمُؤَرِّحُونَ عَلَى دَقِيقِ تَارِيخِهَا.

(٧) . الشَّافِعِيُّ فِي الْأَصْلِ قَرَحَهُ تَخْرُجُ فِي الْقَدَمِ، وَفِي الدُّعَاءِ: اسْتَأْصَلَ اللَّهُ شَأْفَتَهُمْ بِمَعْنَى أَذْهَبَهُمْ اللَّهُ كَمَا أَذْهَبَ الشَّافِعِيُّ الَّتِي تَكُونُ فَتْزَهَبُ. انظُرْ ذَلِكَ فِي: لِسَانِ الْعَرَبِ . مَادَّةُ؛ شَأْفَ .

(٨) . أَبُو حَيَّانَ التَّوْحِيدِيِّ: الْإِمْتَاعُ وَالْمَوَانِسَةُ . ج ١ . ص ١٤٢ .

(٩) . يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ: مَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ . ج ١٥ . ص ٥ .

(١٠) . ابْنُ حَجَرَ الْعَسْقَلَانِيُّ: لِسَانُ الْمِيزَانِ . ج ٧ . ص ٣٨ .

(١١) . طَاشُ كُبْرَى زَادَهُ: مِفْتَاحُ السَّعَادَةِ . ج ١ . ص ٢١٥ .

(١٢) . مُحَمَّدُ الْمَوْسَوِيُّ الْخُونَسَارِيُّ: رَوْضَاتُ الْجَنَّاتِ فِي أَحْوَالِ الْعُلَمَاءِ وَالسَّادَاتِ . ج ٤ . ص ٢٠٥ .

بل إنَّ ما وصلنا من هذه الأخبار مُتضاربٌ مُعظمُهُ ومُتناقضٌ، ويرجع ذلك إلى سببين رئيسين:

أولهما أنَّ أبا حيان ذاته لم يكتب سيرته الذاتية، كما لم يُعنِ بذكر ما يكفي من تفاصيل حياته.

وثانيهما إهمال المؤرِّخين المُعاصرين له واللاحقين عليه ذكر هذه التفاصيل، هذا الإهمال الذي قد يبدو مقصوداً، لاسيما أنَّه عبقريةٌ فذةٌ سبقت زَمَانَهَا، وكثُر حُسادُها. وهذا ما دعا ياقوت الحمويَّ إلى إبداء استغرابه ودهشته لما وجد أنَّ أحداً «لم يذكر التَّوحيديَّ في كتابٍ، ولا دجَّه ضمن خطابٍ»^(١٣).

١. ولادته

ثمَّة وثيقتان جاءتا عرضاً على لسان التَّوحيديَّ ذاته في رسالته إلى صديقه القاضي أبي سهل سنة أربعمئة للهجرة، وفي كتابه ((المقابسات)) نستطيع أن نستشفَّ منهما تاريخ ولادته؛ يقول في رسالته إلى القاضي أبي سهل: «وبعد، فقد أصبحْتُ هامةً اليوم أو غداً، فإني في عشر التسعين، وهَلْ بَعْدَ الكِبَرَةِ والعَجْزِ أَمَلٌ في حياةٍ لذيذة؟»^(١٤)، وقد كتبت هذه الرسالة سنة ١٠٠٩هـ/١٠٠٩م.

ويقول في كتاب ((المقابسات)) عن ذاته، وقد كتبه سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م: «وما يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجةً (سنة) وقد أضاع أكثرها، وقصَّر في باقيها»^(١٥). وهذا يعني على نحوٍ شبه دقيق أنَّه

(١٣) - ياقوت الحموي: معجم الأديباء. ج ١٥. ص ٥.

(١٤) - أبو حيان التَّوحيدي: رسالة إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد (الرسائل). ص ٤٠٧. ٤٠٨.

(١٥) - أبو حيان التَّوحيدي: المقابسات (س). ص ٣١.

قَدْ وُلِدَ نَحْوَ سَنَةِ ٣١٠هـ/٩٢٣م. وَعَلَى الرَّعْمِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ ثَمَّةَ بَعْضِ الْخِلَافِ فِي تَارِيخِ الْوَلَادَةِ، فَقَدْ ذَهَبَ السَّنْدَوِيُّ إِلَى تَارِيخٍ مُقَارِبٍ جَدًّا هُوَ ٣١٢هـ/٩٢٤م^(١٦)، بَيْنَمَا فَتَحَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ مُحْيِي الدِّينِ مَجَالَ تَارِيخِ الْوَلَادَةِ لِيَمْتَدَّ مَا بَيْنَ عَشْرِ سِنَوَاتٍ إِذْ جَعَلَهُ بَيْنَ ٣١٠هـ وَ ٣٢٠هـ/٩٣٢م^(١٧)، وَتَبِعَهُ فِي ذَلِكَ س.م. سْتِيرْن. S. M. Stern. فِي ((الْمَوْسُوعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ))^(١٨). أَمَّا مَكَانُ وِلَادَتِهِ فَقَدْ تَضَارَبَتِ الْأَقْوَالُ فِيهِ أَيْضًا وَتَبَايَنَتْ، فَقِيلَ إِنَّهُ وُلِدَ بِنِيسَابُورَ، وَقِيلَ بِشِيرَازَ فِي بِلَادِ فَارِسَ، وَقِيلَ بِوَأَسَطَ فِي جَنُوبِ الْعِرَاقِ، وَقِيلَ بِبَغْدَادَ دَارَ السَّلَامِ^(١٩) وَهَذَا مَا يُرَجِّحُهُ الْكَثِيرُونَ لِمَا اشْتَهَرَ عَنْ أَبِيهِ مِنْ أَنَّهُ قَدْ امْتَهَنَ بَيْعَ التَّمْرِ فِيهَا.

٢. أصله

لَمْ يَنْجُ التَّوْحِيدِيُّ مِنْ مُحَاوَلَاتِ الْمُعْرِضِينَ الَّذِينَ أَرَادُوا التَّيْلَ مِنْ أَصْلِهِ، وَطَمَسَ مَعَالِمَ انْتِمَائِهِ لِلْعُرُوبَةِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ الْمَصَادِرَ الْقَدِيمَةَ تَخْلُو مِنْ أَيِّ وَثِيقَةٍ تَدُلُّ عَلَى أَصْلِهِ، شَأْنُهُ فِي هَذِهِ الْاِفْتِرَاءَاتِ شَأْنُ مُعْظَمِ نَوَابِغِ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الَّذِينَ كَثُرَتْ حَوْلَهُمُ الْأَبَاطِيلُ لِلتَّشْكِيكِ فِي عُرُوبَتِهِمْ، وَانْقَسَمَ الْمُفَكِّرُونَ بِذَلِكَ إِلَى

(١٦) - حسن السندوي: مقدّمة المقابسات . ص ٨.

(١٧) - عبد الرزاق محيي الدين: أبو حيان التوحيدي؛ سيرته وآثاره. ص ١٠.

(18) - S.M. Stern: Abù Hayyàn Al-Tawhidi, in: **The Encyclopedia of Islam**. Vol 1. P126.

(١٩) - انظر ذلك في: معجم الأدباء. ج ١٥. ص ٥. وروضات الجنّات. ج ٤. ص ٢٠٥. ولسان الميزان. ج ٦.

ص ٣٦٩. ومفتاح السعادة. ج ١. ص ١٨٨. وكذلك تصدير رسائل أبي حيان التوحيدي للكلياني.

ص ٢٨٢٧. وأيضاً عصر الدول والإمارات ص ٤٥٣.

وذلك: Stern: Abù Hayyàn Al-Tawhidi. Vol 1. P126. S.M.

قائلين بأنّه فارسيّ، وإلى قائلين بأنّه عربيّ. ولعلّ أصل هذا الإشكال راجع إلى **ياقوت الحموي** الذي قال: «**التّوحيديّ**ُّ شيرازيُّ الأصل، وقيل نيسابوري، ووجدتُ بعض الفضلاء يقولُ له الواسطي»^(٢٠). وعندما عرّفه قال: «هو شيخُ في الصّوفيّة... وإمامُ البلغاء، وعمدَةُ **لبنِي ساسان**»^(٢١).

إنّ انتساب **أبي حيّان** إلى العروبة في اعتقادي ليس منارَ رأيٍّ ولا ظنٍّ ولا تخمينٍ، والأدلّة والشّواهدُ على ذلك جدُّ كثيرةٍ، وخيرُ ما فيها إنباتُ **التّوحيديّ** ذاته ذلك كما أورد **ياقوتُ الحموي** نفسه وأكّد أنّه لم يكنْ يعرفُ الفارسية البتّة، ويؤكّد ذلك **أبو حيّان** في المسألة الرّابعة والثلاثين من كتابه ((الهواملُ والشّواملُ))^(٢٢)، ويكرّره في المُقايسة الثّانية من كتاب ((المُقابسات)). هذا إلى جانب أنّ الكُتب الفارسيّة، مثل ((شيرازنامه)) لم تُقلْ بفارسيّته، وإنّما نسبته إلى بغداد^(٢٣). وليس هذا فحسب بل لقد وقّفَ أمام الشّعوبيين مُتصدّياً لهم بقلمه ولسانه، رادّاً على شُبّهاتهم وادّعاءاتهم، ودافع عن العرب والعروبة دفاعاً ماجداً يُنمُّ على أصالة انتمائه العربيّ، شأنه في ذلك شأنُ أستاذه **الجاحظ**، وفي اللّيلة السّادسة من كتاب ((الإمتاع والمؤانسة)) يكشفُ لنا عن اعتزازه بالعرب ولُغة العرب التي يعدّها أسْمَى اللّغات وأزوعها بياناً وبلاغَةً، وفي بعض هذا ما يكفي لتأكيد أنّ **أبا حيّان** عربيّ القلب والقالب، عربيّ اللّسان والجنّان.

(٢٠) - ياقوت الحموي: معجم الأديباء. ج ١٥. ص ٥.

(٢١) - ياقوت الحموي: معجم الأديباء. ج ١٥. ص ٥.

(٢٢) - التّوحيدي ومسكويه: الهوامل والشّوامل. ص ١٠٤.

(٢٣) - زركوب الشّيرازي: شيرازنامه. ص ١٠٨.

وعلى الرُّغم من ذلك، وعلى الرُّغم من شبه الإجماع على عُرُوبه
 أبي حَيَّان فقد ذَهَبَ الدُّكتورُ زكي مُبارك إلى القول: «يَكْفِي أَنْ تَعْرِفَ أَنَّهُ
 فَارِسِيٌّ الْأَصْلُ»^(٢٤). وَتَبِعَهُ فِي ذَلِكَ حَسَنُ السُّنْدُوبِي بِإِصْرَارٍ شَدِيدٍ فَقَالَ:
 «اِخْتَلَفَ الْمُؤَرِّخُونَ فِي أَصْلِهِ بَيْنَ أَنَّهُ شِيرَازِيٌّ أَوْ نَيْسَابُورِيٌّ أَوْ وَاسِطِيٌّ ... مَهْمَا
 يَكُنْ مِنْ خِلَافٍ فَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ فَارِسِيٌّ الْأَصْلُ، وَإِلَّا سَكَتُوا عَنِ التَّعْرِيفِ
 بِأَصْلِهِ»^(٢٥)، وَكَانَ مِنَ الْحَرِيٍّ بِهِ. عَلَى الْأَقْلِّ. التَّخْفِيفُ مِنْ حَدَّةِ نَفْيِ الشَّكِّ
 هَذَا لِأَنَّ دَعْوَاهُ بِالسُّكُوتِ لَيْسَتْ حُجَّةً، وَالتَّسَبُّبُ إِلَى الْمُدُنِ لَيْسَ إِثْبَاتٌ انْتِمَاءً.

٣. نشأته

على الرُّغم من أننا نفتقر إلى ما نستشهد به إلى نشأة التَّوْحِيدِي فِي
 المراحل الأولى من حياته لُنُكُونِ نَظَرَةٍ مُتَكَامِلَةٍ أَوْ شَبْهِهُ مُتَكَامِلَةٍ عَنِ سِيرَتِهِ فَإِنَّا
 نَسْتَطِيعُ مِنْ خِلَالِ بَعْضِ الْإِشَارَاتِ الْقَلِيلَةِ وَالْعَرَضِيَّةِ أَنْ نَذْهَبَ إِلَى أَنَّ نَشَأَتَهُ لَمْ
 تَكُنْ لِتَخْتَلِفَ عَنِ أَيِّ نَشْأَةٍ عَادِيَّةٍ فِي شَيْءٍ، إِذْ كَانَ «يَخْتَلِفُ إِلَى الْكُتَّابِ مِثْلُ
 لِدَاتِهِ، يَحْفَظُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَالشَّعْرَ وَيَتَعَلَّمُ الْخَطَّ وَالْحِسَابَ»^(٢٦) لَا سِيَّمَا أَنَّ
 حَلَقَاتِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي كَانَتْ تُعْقَدُ فِي الْمَسَاجِدِ مَفْتُوحَةً أَمَامَ كُلِّ رَاغِبٍ
 فِي طَلَبِ أَيِّ ضَرْبٍ مِنَ ضُرُوبِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، عَلَى قَدَمِ الْمُسَاوَاةِ.

وَأَعْلَبُ الظَّنِّ، كَمَا يَرَى الدُّكتورُ شُوقِي ضَيْفٌ، أَنَّ «أَبَاهُ لَاحِظٌ فِيهِ
 مَخَائِلَ ذِكَاةٍ مُنْذُ نُعُومَةِ أَطْفَارِهِ، مِمَّا جَعَلَهُ يَدْفَعُهُ إِلَى حَلَقَاتِ الْعُلَمَاءِ فِي

(٢٤) .د. زكي مبارك: النَّفَرُ الْفَنِّي فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ - ج ٢. ص ١٦١.

(٢٥) .حسن السُّنْدُوبِي - أَبُو حَيَّانِ التَّوْحِيدِي - ص ٨.

(٢٦) .د. شُوقِي ضَيْف: عَصْرُ الدُّوَلِ وَالْإِمَارَاتِ - ص ٤٥٤.

المساجد»^(٢٧)، إلا أن هذا الاهتمام لم يدم طويلاً على ما يبدو إذ فقدَ والديه مبكراً «فعاش يتيماً في كفالة عمّه الذي كان يُبغضُهُ ويُسيءُ معاملته»^(٢٨).

وفي اعتقادنا أن طفولة التوحيدِي كانت مملوءةً بالبؤس والعذاب، مخوفةً بالفقر والحُرمان، وأنَّ أبا حَيَّان كان يعي ما لديه من مواهب وملكاتٍ تتحيُّنُ الفرصةَ المناسبةَ للتعبير عن ذاتها. ولكنَّ العقبات والعراقيل حائلةٌ دون ما تصبو إليه، ولذلك صارتْ مُعاناةُهُ مُضاعفةً، الأمرُ الَّذي أخرج شخصيَّتهُ عن الاتزان والتوازن إلى الازدواجية وإفراط الحسَّاسية التي أوقعتهُ في مآزق كثيرةٍ في المراحل اللاحقة من حياته، أبرزها اختلافُهُ مع الوزيرين؛ ابن العميد و الصَّاحِب بن عبَّاد^(٢٩)، وكذلك عدمُ قُدْرته على التَّعائش مع الأوضاع السَّائدة التي كانت سيئةً وقاسيةً عليه، وواقفةً حجر عثرةٍ دائماً أمام طموحاته التي لا يُحْدِثُها حدٌّ.

وبالنَّظر إلى هذه الظروف التي لم تتوافق بحالٍ من الأحوال مع طموحات أبي حَيَّان وآماله، لم يجدْ خيراً من مُعايشة الكُتُب عملاً يُحقِّقُ له بعض طموحاته من جهة، ويُكسِبُهُ قوت يومه من جهةٍ ثانيةٍ، فاتَّخذ من الوِرَاقَةِ مهنةً له؛ هذه المهنة التي أكسبتهُ ثقافةً واسعةً، وشاملةً لمُعظم علوم عصره وفنونه، وعادتْ عليه بالشُّهرة والمكانة. وعلى الرُّغم من افتراض أنَّها درَّتْ عليه المال الوفير إلا أنَّه لم يألُ في شِكَايَةِ الفقر والقلةِ جهداً.

(٢٧). د. شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات. ص ٤٥٤.

(٢٨). د. إبراهيم الكيلاني: تصدير رسائل أبي حَيَّان التوحيدِي. ص ٢٨.

(٢٩). ابن عبَّاد: هو الصَّاحِب أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عبَّاد. ولد سنة ٣٢٦ هـ/٩٣٨ م وتوفي سنة ٣٨٥ هـ/٩٩٥ م بالري. كان وزيراً لمؤيد الدولة أبي منصور بن بويه الدَّيلمي، ثم وُزِّرَ لأخيه فجر الدولة أبي الحسن علي. وهو أوَّل من لُقِّب بالصَّاحِب من الوزراء، لأنَّه صَحِبَ مؤيد الدولة بن بويه منذ الصَّبَا. يتيمة الدهر. ج ٤. ص ٢٠٢، ١٨٨. وفيات الأعيان. ج ١. ص ٢٢٨، الأعلام. ج ١. ص ٣١٦.

ثقافته وشبوخه

يرجع الفضل في غنى ثقافة أبي حيان واتساع دائرة معارفه وشمولها، بالدرجة الأولى، إلى الوراقَة التي اتخذها مهنةً له، «فقد قرأ وكتب بيده كثيراً من الكتب في كلِّ فنٍّ وفي كلِّ علمٍ، وانطبع كثيرٌ ممَّا كتبه في ذهنه وحافظته؛ سواءً أكان نشراً [أم^(٣٠)] شعراً»^(٣١). وقد استعرب بعضُ النقاد والمؤرّخين أن يهجو أبو حيان هذه المهنة أشدَّ الهجاء، وينعتها بحرفة الشُّوم، وقد خصَّ لهذا الغرض فصلاً لا بأس به من كتابه: ((مثالب الوزيرين)).

والحقُّ أن تشاؤم التَّوحيديِّ من هذه المهنة، في اعتقادنا، ليس تنكراً لفضلها في اكتساب الثقافة والمعرفة، ولا لقلّة ما تعودُ به على صاحبها، فقد كانت مهنةً وفيرة المردود باعتراف الجميع، وقد اعترف التَّوحيديُّ ذاته بما أكسبته إياه هذه المهنة من مالٍ ومتاعٍ. ولكنّه نَفَرَ من هذه المهنة لأنّها لم تكن في نظره المهنة اللائقة بما يمتلكه من مواهب وملكاتٍ، وبما يتطلّع إليه من طُموحٍ واسعٍ عريضٍ، ولأنّها مهنةٌ مجهدَةٌ مُضنيةٌ، وفي ذلك يقول: «أيُّ إنسانٍ ينسخُ هذا القدر من الكتب. التي طلب إليه الصَّاحبُ بنُ عبَّاد أن ينسخها. وهو يرجو بعده أن يُمتعه الله ببصره، أو ينفعه بيده؟!»^(٣٢).

ولقد تعدّدت معارف التَّوحيديِّ وتنوّعت أيضاً لتعدّد أساتذته وتنوّع اختصاصاتهم، فشملت. إلى حدٍّ بعيدٍ. مختلف معارف عصره من علوم اللُّغة؛ كالنحو والبيان والبلاغة، إلى علوم الدِّين؛ كالقرآن والقراءات والفقه والحديث

(٣٠). في الأصل: أو.

(٣١). شوقي ضيف: عصر الدّول والإمارات. ص ٤٥٤.

(٣٢). أبو حيان التَّوحيدي: مثالب الوزيرين. ص ٣٢٦.

والتصوف، إلى المباحث الفلسفية وعلم الكلام ولذلك يمكننا الحديث على علوم مفكرنا وشيوخه بتقسيمها على النحو التالي:

١ . علوم اللغة

تفقه التوحيد في علوم اللغة العربية، لاسيما النحو منها، على فطري علم النحو في زمانه وهما أبو سعيد السيرافي^(٣٣) وعلي بن عيسى الرماني^(٣٤). وهما كلاهما إمام لا في علوم اللغة وحسب بل في علوم وفنون مختلفة، ويذكر لنا ياقوت الحموي أنه كان يقال: «النحويون في زماننا ثلاثة: واحد لا يفهم كلامه وهو الرماني، وواحد يفهم بعض كلامه وهو أبو علي الفارسي^(٣٥)، وواحد يفهم جميع كلامه بلا أستاذ وهو السيرافي^(٣٦)». أما الأول فأنه «كان يمزج النحو بالمنطق»^(٣٧) خرج عما كان مستأنساً مألوفاً إلى ما كان بالتجريد خفوفاً فبدأ كلامه بالعموض ملفوفاً. والثاني وهو الفارسي فقد كان معتدلاً. أما

(٣٣) . أبو سعيد السيرافي: هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السرياني النحوي المعروف؛ سكن بغداد وتولى القضاء بها، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين. من كتبه: أخبار النحويين البصريين. ولد سنة ٨٩٧/هـ ٢٨٤/م وتوفي سنة ٣٦٨/هـ ٩٧٩/م. معجم الأدباء . ج ٨ . ص ١٤٥، وفيات الأعيان . ج ٢ . ص ٧٨، الأعلام . ج ٢ . ص ١٩٥.

(٣٤) . الرماني: هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني؛ إمام في العربية، علامة في الأدب، إمام في النحو، بصير بالمقالات، معتزلي. ولد سنة ٢٩٦/هـ ٩٠٨/م وتوفي سنة ٣٨٤/هـ ٩٩٤/م. الأعلام . ج ٤ . ص ٣١٧.

(٣٥) . أبو علي الفارسي: هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسي النحوي. ولد بمدينة فسا سنة ٢٨٨/هـ ٩٠١/م. وكان إمام وقته في علم النحو، وله فيه كثير من المؤلفات الوافية النافعة. توفي سنة ٣٧٧/هـ ٩٨٨/م. وفيات الأعيان . ج ٢ . ص ٨٠، الأعلام . ج ٢ . ص ١٧٩.

(٣٦) . ياقوت الحموي: معجم الأدباء . ج ١٤ . ص ٧٥.

(٣٧) . السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . ص ٢٢٢ . وطاش كبرى زاده: مفتاح السعادة . ج ١ . ص ١٦٤.

الثَّالِثُ عَلَى مَا يُرْوَى فَقَدْ كَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِنَحْوِ الْبَصْرِيِّينَ حَتَّى اسْتَطَاعَ أَنْ يُقَدِّمَهُ لِلنَّاسِ عَلَى أَقْرَبِ مَا يَكُونُ إِلَى الْأَذْهَانِ، وَأَسْهَلَ حَتَّى قَالَ ابْنُهُ فِي ذَلِكَ: « وَضَعَ أَبِي النَّحْوِ فِي الْمَزَابِلِ فِي الْإِفْنَاعِ »^(٣٨).

٢ . علوم الدين

أَخَذَ مُفَكِّرُنَا الْفَقْهَ الْإِسْلَامِيَّ، وَلَا سِيَّمَا الْمَذْهَبَ الشَّافِعِيَّ، وَالْحَدِيثَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَسَاتِذَةٍ كَبَارٍ، لِكُلِّ مِنْهُمْ مَكَانَتُهُ الْمُهْمَمَةُ فِي عَصْرِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ: أَبُو حَامِدٍ الْمُرُورُودِي^(٣٩) وَأَبُو بَكْرٍ الشَّافِعِي^(٤٠) وَأَبُو الْفَرَجِ النَّهْرَوَانِي^(٤١).

تَأَثَّرَ التَّوْحِيدِي أَكْثَرَ مَا تَأَثَّرَ بِالْمُرُورُودِي الَّذِي عَدَّهُ ابْنُ خَلِّكَانَ إِمَامَ الْفَقْهِ «الَّذِي لَا يُشَقُّ غُبَارُهُ»^(٤٢) فِيهِ، وَوَصَفَهُ أَبُو حَيَّانَ بِقَوْلِهِ: «وَأَمَّا أَوْلَعُ بِذِكْرِ مَا يَقُولُهُ هَذَا الرَّجُلُ لِأَنَّهُ أَنْبَلُ مَنْ شَاهَدْتُهُ فِي عُمْرِي. وَكَانَ بَحْرًا يَتَدَقَّقُ حَفْظًا

(٣٨) . ياقوت الحموي: معجم الأديباء . ج ٨ . ص ١٤٩ .

(٣٩) . المرورودي: هو القاضي أبو حامد أحمد بن عامر بن بشر المرورودي نسبة إلى مكان ولادته؛ مرو الرود، وهذه هي النسبة عند السمعاني؛ المروالروذي، ولم نجد عنده نسبة؛ مرورودي. نزل البصرة. كان عالماً بفنون العلوم الدينية والأدبية. وصفه أبو حيان بما ذكرناه في المتن. توفي سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م. وفيات الأعيان . ج ١ . ص ٦٩، الأعلام . ج ١ . ص ١٤٢ .

(٤٠) . أبو بكر الشافعي: يرحح محققاً طبقات السبكي عند ترجمة التوحيد (٢٨٦ . ٥) أنه محدث بن عبد الله البغدادي البزار المحدث، عُرف بالحديث والإملاء. وهو صاحب الغيلانيات. ولد سنة ٢٦٦ هـ/٨٧٩ م وتوفي سنة ٣٥٤ هـ/٩٦٨ م. وفيات الأعيان . ج ٤ . ص ١٩٩، الأعلام . ج ٦ . ص ٢٢٤ .

(٤١) . النهرواني: هو المعافى بن زكريا بن يحيى بن حماد النهرواني الجريزي أبو الفرج المعروف بابن طرارة؛ علامة شهيرٌ وله عددٌ من المؤلفات. ولد سنة ٣٠٣ أو ٣٠٥ هـ/٩١٨ م وتوفي سنة ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م. الفهرست . ٣٢٨، وفيات الأعيان . ج ٥ . ص ٢٢١، الأعلام . ج ٧ . ص ٢٦٠ .

(٤٢) . ابن خلكان: وفيات الأعيان . ج ١ . ص ٦٩ .

للسَّير، وقياماً بالأخبار، واستنباطاً للمعاني، وثباتاً على الجِدَل، وصبراً على الخِصام»^(٤٣). وأما النَّهرواني فقد احتلَّ مكانةً ساميةً ورفيعةً بين علماء عصره لا تُساع ثقافته وتُمول معارفه حتَّى قال أهلُ زمانه فيه: «إِذَا حَضَرَ الْقَاضِي أَبُو الْفَرَجِ فَقَدْ حَضَرَتِ الْعُلُومُ كُلُّهَا»^(٤٤).

واستفاد التَّوحيديُّ في علوم الدِّين أيضاً من أستاذه أبي سعيد السِّيرافي الَّذي «أفتى في جامع الرُّصافة خمسين سنةً على مذهب أبي حنيفة فما وُجد له خطأ، ولا عُثِرَ له على زلَّةٍ»^(٤٥). ودرَسَ إلى جانبِ علوم اللُّغة والكلام والحِسابِ علومَ القرآنِ والقُرَّاتِ والفقه والفرائض.

٣. التَّصَوُّف

يرى المُستشرقُ الفرنسيُّ لوي ماسنيون Louis Massignon أنَّ أبا سعيد السِّيرافي قد علَّم تلميذه أسرار علم التَّصوُّف في سنِّ مُبكرةٍ^(٤٦) ولكنَّ التَّوحيديَّ لم يقتصرْ في دراسة التَّصوُّف على السِّيرافي فتلقَّاه أيضاً عن أبي مُحمَّد جعفر الخُلدي^(٤٧) الَّذي كان «رئيساً من رؤساء المُتصوِّفة»^(٤٨)

(٤٣) . أبو حيَّان التَّوحيدي: البصائر والدُّخائر (ق) . ج ٤ . ص ٦٥ .

(٤٤) . د . إبراهيم الكيلاني: تصدير رسائل أبي حيَّان التَّوحيدي . ص ٣٥٣٤ .

(٤٥) . ياقوت الحموي: معجم الأديباء . ج ٨ . ص ١٥٠ . وطاش كبرى زاده: مفتاح السَّعادة . ج ١ . ص ١٦٢ .

(٤٦) . د . إبراهيم الكيلاني: تصدير رسائل أبي حيَّان التَّوحيدي . ص ٣١ .

(٤٧) . الخُلدي: هوأبو محمد جعفر بن محمد الخُلدي، شيخ الصَّوفيَّة أيامه، وأعلمهم بالحديث . مولده ببغداد سنة ٨٣٩هـ/٨٢٢٤م ووفاته فيها سنة ٩٣٠هـ/٩٢٠م . الأعلام . ج ٢ . ص ١٢٨ .

(٤٨) . ابن النَّديم: الفهرست . ص ٢٦٠ .

وكذلك عن أبي الحسين مُحَمَّد بن أحمد بن سمعون^(٤٩) المشهود له
برجاحة العقل وشدّة التّفوى والرّهذ والورع.

ويذهبُ ياقوتُ الحَمَوِيُّ إلى أن أبا حَيَّان كان شيخاً من أشياخ
الصُّوفِيَّة، وقد بدا هذا واضحاً في بعض آثاره، ذلك أنّه لم يقتصر على تعاليم
الرّهذ والتّنسك والورع بل اتخذ منحيّ خاصّاً في التّصوّف هو الذي قاد مُعاصريه
واللاحقين عليه إلى نعته بالزّندقة واتّهامه بالإلحاد، ولاسيّما أنّه كان يدكّر بعض
عباراتٍ توحى باعتقاده بوخدة الوجود، وهذا جليّ في قوله: «اللّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا
من ضُروب الفساد ... وكُنْ لنا دليلاً، وبنجاتنا كفيلاً، يا من الكلُّ به واحدٌ،
وهو في الكلِّ موجودٌ»^(٥٠). ولو صدّر مثلُ هذا القول عن واحدٍ في غير ثقافة
التّوحيديّ وعلمه لأمكن حملُه محمّل السّهو أو الجهل، أمّا صاحبُ
(المقابسات) فلا شكّ في أنّه يعي ما يقول ويُرِيد. ولقد وضع أيضاً كتاباً
أسماهُ ((الحجّ العقليّ إذا ضاق الفضاء عن الحجّ الشّرعي))، هذا الكتابُ الذي
رأى المؤرّخون، ومنهمُ الحَوَنَساري أنّهُ «نظيرُ ما كتبهُ حسينُ بن منصورٍ
الحلاج^(٥١) في كفيّة حجّ الفقراء من اختراعاتٍ نفسه المخذولة، فصّار عمّدة

(٤٩) . ابن سمعون: هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس الواعظ المعروف بابن سمعون، كانوا
يقولون إنّه وحيد دهره وفريد عصره في الكلام على الخواطر والإشارات. توفي ببغداد سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م.

تاريخ بغداد. ج ١. ص ٢٧٤، الكنى والألقاب. ج ١. ص ٣١٧، الأعلام. ج ٥. ص ٣١٢.

(٥٠) . أبو حَيَّان التّوحيدي: المقابسات (س). ص ١٩.

(٥١) . الحلاج: حسين بن منصور الحلاج، أبو مغيث، فيلسوف يعدُّ تارة بين كبار المتعبّدين وتارة في زمرة
الملحدّين، أصله من بيضاء فارس، ظهر أمره سنة ٢٩٩هـ/٩١٢م. توفي تعذيباً فقتلاً سنة ٣٠٩هـ/٩٢٢م.
وفيات الأعيان. ج ٢. ص ١٤٠، الأعلام. ج ٢. ص ٢٦٠.

السَّبَبِ فِي قَتْلِهِ بِأَفْظَعِ مَا يَكُونُ»^(٥٢)، وليس هذا مكان اتِّهامِ التَّوْحِيدِيِّ أَوْ الدَّفَاعِ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ خُصُوصاً، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الْإِشَارَةِ هُنَا إِلَى أَنَّ مَسْأَلَةَ كَوْنِ صَاحِبِ ((الْإِشَارَاتِ الْإِلَهِيَّةِ)) مُتَّصِوفاً أَمْ لَا أَمْرٌ إِشْكَالِيٌّ شَعَبَ دَارِسِيهِ إِلَى مُصَرِّ عَلَى إِبَاسِهِ أَثْوَابِ التَّصَوُّفِ، وَمُسْتَنْكَرٌ عَلَيْهِ الْإِنْتِمَاءُ إِلَى الْمُتَّصِوْفَةِ.

٤ . الفِلسَفة

يُؤَكِّدُ الدُّكْتُورُ إِبْرَاهِيمُ الْكِيْلَانِي أَنَّ «مَنْ يَتَدَبَّرُ نَفْسِيَّةَ التَّوْحِيدِيِّ وَيَطَّلِعُ عَلَى آرَائِهِ الْأَدْبِيَّةِ وَأَفْكَارِهِ الْفَلْسَفيَّةِ يَظْهَرُ لَهُ انْعِكَاسُ آرَاءِ السِّيْرَافِيِّ وَأَفْكَارِهِ فِي عَقْلِيَّةِ تَلْمِيذِهِ، وَيَنْدُرُ أَنْ نَجِدَ أُسْتَاذاً وَمُرِيداً تَشَابَهاً فِي الْفِكْرِ وَالْعَاطِفَةِ»^(٥٣) كَمَا هِيَ الْحَالُ بَيْنَ التَّوْحِيدِيِّ وَأُسْتَاذِهِ السِّيْرَافِيِّ. وَلَكِنَّ الْإِفَادَةَ الْأَجَلَّ لِلتَّوْحِيدِيِّ فِي الْعُلُومِ الْفَلْسَفيَّةِ كَانَتْ عَلَى أَيْدِي عِلْمِيْنَ كَبِيرِيْنَ مِنْ أَعْلَامِ الْفَلْسَفةِ الْعَرَبِيَّةِ خَاصَّةً وَهُمَا: يَحْيَى بْنُ عَدِيٍّ^(٥٤) وَأَبِي سُلَيْمَانَ السَّجِسْتَانِيَّ^(٥٥)، الْمُنْطَقِيَّ، الَّذِينَ لَزِمَهُمَا رَدْحاً طَوِيلاً مِنَ الزَّمَنِ، وَأَفَادَ مِنْهُمَا الْكَثِيرَ. عَلَى أَنَّهُ أَفَادَ مِنْ كُتُبِ ابْنِ عَدِيٍّ وَتَرْجَمَاتِهِ . كَمَا يَبِينُ لَنَا . أَكْثَرَ مِمَّا أَفَادَ مِنْ دُرُوسِهِ وَحَلَقَاتِهِ، فِيمَا

(٥٢) . محمد الموسوي الخونساري: روضات الجنّات . ج ٤ . ص ٣٠٥ .

(٥٣) . د . إبراهيم الكيلاني: تصدير رسائل أبي حيّان التَّوْحِيدِيِّ . ص ٣١ .

(٥٤) . هو أبو زكريا يحيى بن عدي أخذ الفلسفة عن أبي نصر الفارابي وبشر بن مئى . صرف جلّ عنايته للمنطق فَعُرِفَ بالمنطقي . له مؤلّفات كثيرة . ولد سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٤م وتوفي سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٥م . الأعلام . ج ٨ ص ١٥٦ .

(٥٥) . أبو سليمان السجستاني: هو محمد بن طاهر بن بھرام، المنطقي السجستاني، أكبر علماء بغداد في عصر أبي حيّان في المنطق والحكمة والفلسفة . كان واسع الاطلاع في الفلسفة اليونانية . انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء . ص ١٨٥ . ١٨٦ .

كانت مُلازمته لأبي سليمان أكثر وأطول، وصلته به أعمق وأوثق، حتى قال القفطي فيه إنّه: «أحد أصحابه المُعتصمين به»^(٥٦)، وذهب شتيرن. Stern إلى أن آراء أبي سليمان تنعكس في كلِّ ما خاضه التَّوحيديُّ من مسائل فلسفيَّة^(٥٧).

٥. أثر الجاحظ

عُرِفَ عن التَّوحيديِّ شغفه بكُتُب الجاحظ وتوافره على نسخها وتصحيحها، وخصوصاً كتاب الحيوان، حتى غدت النُّسخ التي يُخطُّها بقلمه ذات قيمة وأهميَّة بالغة، وتُباع بالأثمان الباهظة. والحقُّ أن هذا الشَّغف قد كان لإعجاب التَّوحيديِّ الشَّديد بفكر الجاحظ وأسلوبه، ويروى عنه أنه قال: «الجاحظُ واحدُ الدُّنيا»^(٥٨).

ولقد بلَغ إعجابُه به الحدَّ الذي أوقد عزمته لوضع رسالةٍ في مدحه وتبيان محاسنه، أسماها ((رسالةٌ في تقرُّب الجاحظ))، وذهب إلى الاعتقاد أنه مهمَّا قُرْطٌ ومُدِحٌ فلن يوفِّي بعض ما يستحقُّ من ذلك، وهذا ما عبَّر عنه بقوله: «والذي أقول، وأعتقد، وأخذ به، وأسْتَهْمُ^(٥٩) عليه، أيُّ لم أجد في جميع من تَقَدَّمَ وتأخَّر إلاَّ ثلاثةً لو اجتمع الثَّقَلانُ على تقرُّبهم، ومدحهم، ونشر فضائلهم، في أخلاقهم، وعلمهم، ومُصنِّفاتهم ورسائلهم، مدى الدُّنيا إلى أن يأذن الله بزوالها، لما بلغوا آخر ما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منهم، أحدهم هذا الشَّيخُ

(٥٦). القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء. ص ١٨٦.

(57) - S.M. Stern: Abù Hayyàn Al-Tawhidi. Vol 1. P127.

(٥٨). ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان. ج ٧. ص ٤٠.

(٥٩). أسْتَهْمُ عَلَيْهِ: أراهن عليه. لسان العرب. سهم.

الَّذِي أَنْشَأْنَا لَهُ هَذِهِ الرَّسَالَةَ، وَبِسَبَبِهِ حُشِّمْنَا هَذِهِ الْكَلْفَةَ، أَعْنِي أَبَا عُثْمَانَ
عَمْرَ بْنَ بَخْرٍ»^(٦٠).

تَجَلَّتْ آثَارُ نَهْمِ التَّوْحِيدِيِّ عَلَى مُطَالَعَةِ كُتُبِ الْجَاحِظِ وَإِعْجَابَهُ بِهِ وَبِهَا،
فِي أَفْكَارِهِ وَآرَائِهِ وَأُسْلُوبِهِ إِلَى حَدِّ جَدِّ بَعِيدٍ، حَتَّى نَكَادُ نَجِدُ تَطَابُقًا بَيْنَ مَحَاسِنِ
أُسْلُوبِيهِمَا وَمَعَايِمِهِمَا مَعًا، وَكَأَنَّ التَّوْحِيدِيَّ يَفْتَنِي خُطَا أَسْتَاذِهِ خُطُوءَ مُحْطُوءَةٍ،
«يَسْئَلُكَ فِي تَصَانِفِهِ مَسْئَلَهُ، وَيَشْتَهِي أَنْ يَنْتَظِمَ فِي سَلْكِهِ»^(٦١)، وَلَعَلَّ
«انْكَبَابِ . التَّوْحِيدِيِّ . عَلَى كُتُبِ الْجَاحِظِ فِي سَنِّ مُبَكَّرَةٍ . هُوَ الَّذِي قَادَ .
تَفْتُحُ ذَهْنَهُ وَإِنْمَاءَ مَوَاهِبِهِ الْأَصِيلَةَ الَّتِي لَا نَجِدُهَا مِثْلَهُ فِي عُنَاصِرِ أُسْلُوبِهِ الْعَامَّةِ
فَحَسْبُ؛ كَالْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى، وَالْوُضُوحِ وَالصَّفَاءِ، وَالذِّقَّةِ، وَالطَّرَافَةِ،
وَالْبُعْدِ عَنِ التَّكْلُفِ وَالتَّزْوِيقِ الْمُصْطَنَعِ بَلْ نَجِدُهَا فِي ضُرُوبِ الصَّنْعَةِ؛
كَاسْتِعْمَالِ الْإِزْدَوَاجِ، وَالْمُقَابَلَةِ، وَالتَّقْسِيمِ، وَالنَّفْرَةِ مِنَ السَّجْعِ إِلَّا مَا جَاءَ عَفْوًا،
وَالْتَوَفُّرِ عَلَى إِجْمَادِ إِيقَاعَاتٍ صَوْتِيَّةٍ وَمَوْسِيقِيَّةٍ نَاشِئَةٍ عَنِ نَقَاءِ الْأَلْفَاظِ، وَإِحْكَامِ
بِنَاءِ الْجُمْلِ وَتَوَازُنِهَا»^(٦٢) . وَعَلَى الرُّعْمِ مِنْ نَزْعَةِ التَّوْحِيدِيِّ التَّشَاؤْمِيَّةِ، وَقُرْبِهِ مِنْ
الْكَآبَةِ وَالْحُزْنِ، خِلَافِ الْجَاحِظِ تَمَامًا، فَقَدْ انْطَبَعُ بِطَبْعِ أَسْتَاذِهِ فِي الْمِيلِ إِلَى
التَّهْكُمِ وَالِإِضْحَاقِ.

وَالطَّرِيفُ فِي الْأَمْرِ أَنَّنا نَجِدُ مِنْ مَعَايِبِ الْجَاحِظِ مَعَايِبَ تَكَادُ تَكُونُ
مُطَابَقَةً لَهَا عِنْدَ التَّوْحِيدِيِّ؛ كَالِاسْتِطْرَادِ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى الْأَصْلِ، وَخَلْطِ الْجَدِّ
بِالْهَزْلِ، وَعَدَمِ التَّرْتِيبِ وَالتَّبْوِيبِ، وَغَلْبَةِ لُغَةِ الْأَدَبِ وَأُسْلُوبِهِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ

(٦٠) . ياقوت الحموي: معجم الأديباء . ج ٣ . ٢٨ .

(٦١) . ياقوت الحموي: معجم الأديباء . ج ١٥ . ص ٥ .

(٦٢) . د . إبراهيم الكيلاني: تصدير رسائل أبي حيان التوحيدى . ص ١٢٧ . ١٢٨ .

الموضوعات التي كانت، مُعْظَمُهَا، كَلَامِيَّةً وَفَلَسْفِيَّةً وَعِلْمِيَّةً. عَلَى أَنَّ فِي مُكْتَنَاتِنَا الْقَوْلَ: إِنَّ لِكُلِّ مَثَلٍ مَا يُسَوِّغُهُ وَيُخْرِجُهُ مِنْ حَيْزِ الْعَيْبِ لِيَدْخُلَهُ إِطَارُ الْخُصُوصِيَّةِ.

وفاته

أَمْضَى التَّوْحِيدِيُّ قُرَابَةَ الثَّلَاثِينَ عَاماً. مِنْ ٣٧٠هـ/٩٨١م حَتَّى ٤٠٠هـ/١٠٠٩م. يَبْعَدَادَ بَعْدَ هُرُوبِهِ مِنْ ابْنِ عَبَّادِ الَّذِي «طَلَبَهُ لِيَقْتُلَهُ»^(٦٣) عَلَى حَدِّ زَعْمِ الْخَوْنَسَارِيِّ. عَاشَ نَصْفَ ثُلُثِهَا الْأَوَّلِ فِي كَنْفِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْعَارِضِ^(٦٤)؛ وَزِيرَ صَمَّامِ الدَّوْلَةِ الْبُوَيْهِيِّ، الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ، وَأَكْرَمَهُ غَايَةَ الْإِكْرَامِ حَتَّى وَصَفَهُ بِقَوْلِهِ: «يَتَحَلَّى بِالْجُودِ، وَيَرْتَدِي بِالْعَفْوِ، وَيَتَأَزَّرُ بِالْحَلْمِ، وَيُعْطِي بِالْجُزَافِ، وَيَفْرُخُ بِالْأَضْيَافِ، وَيَهْبُ الدَّرْهَمَ وَالِدِينَارَ كَأَنَّهُ غَضْبَانٌ عَلَيْهِمَا، وَيُطْعَمُ الصَّادِرَ وَالْوَارِدَ وَكَأَنَّ اللَّهَ قَدْ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى رِزْقِهِمَا، ثُمَّ يَتَجَاوَزُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ إِلَى الثِّيَابِ الْعَزِيزَةِ وَالْخَلْعِ النَّفِيسَةِ، وَالْخَيْلِ الْعِتَاقِ، وَالْمَرَكَبِ الثَّقَالِ، وَالْعُلَمَانَ وَالْجُوَارِي، حَتَّى الْكُتُبِ وَالذَّفَاتِرِ وَمَا يَضُنُّ بِهِ كُلُّ جَوَادٍ»^(٦٥). فَانْقَضَتْهُ بِذَلِكَ مِنْ رُجُوعِ الْوُقُوعِ فِي غَائِلَةِ الْفَقْرِ، وَبِرَاثِنِ الْبُؤْسِ،

(٦٣) . محمد الموسوي الخونساري: روضات الجنّات . ج ٤ . ص ٢٠٥ .

(٦٤) . أبو عبد الله العارض: هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان . كان وزيراً لصمصام الدولة بن عضد الدولة من سنة ٣٧٢ هـ/٩٨٢م إلى سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٦م . والعارض لقب له ، وهو كما في الأنساب للسَّمْعَانِيِّ (ج ٨ . ص ٣١٢) : «مَنْ يُعْرِفُ الْعَسْكَرَ وَيَحْفَظُ أَرْزَاقَهُمْ وَيُوصِلُهُمَا إِلَيْهِمْ ، وَيَعْرِضُ الْعَسْكَرَ عَلَى الْمَلِكِ إِذَا احْتِيجَ إِلَى ذَلِكَ» . يَبْدُو مِنْ حَدِيثِ التَّوْحِيدِيِّ عَنْهُ أَنَّهُ وَاسِعُ الْإِطْلَاقِ ، وَلَهُ مِشَارَكَةٌ جَيِّدَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ مِيَادِينِ الْمَعْرِفَةِ؛ الْأَدَبِ وَالْفَلَسَفَةِ وَالطَّبِيعَةِ وَالْإِلَهِيَّاتِ وَالْأَخْلَاقِ . لَمْ نَجِدْ مُتَرَجِّماً لَهُ خَيْراً مِنَ التَّوْحِيدِيِّ فِي الْإِمْتِنَاعِ وَالْمَوَانَسَةِ .

(٦٥) . أبو حيان التَّوْحِيدِيِّ: الْإِمْتِنَاعُ وَالْمَوَانَسَةُ . ج ٣ . ص ٢٢٣ .

وأشراك الشقاء، لتكون بداية علاقة «ندية مطمئنة»^(٦٦)، ولاسيما أن هذه الصلة جاءت بعد «خيبة أملٍ مريّةٍ أرجعته ثانيةً إلى بغداد ليلتقي الحظّ مرّةً»^(٦٧) وقد كان ذلك بوساطة أبي الوفاء البوزجاني^(٦٨) الذي أخلص كلّ الإخلاص لصديقه.

وتنقطع آثار أبي حيّان منذ سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م. ولا عرابة في ذلك إذ إنّ آخر أثر كتبه هو رسالته إلى صديقه القاضي أبي سهل ليبيّن له فيها سبب إحراق كتبه. ولذلك اختلفت الروايات في تحديد تاريخ وفاته والأماكن التي حلّ فيها بعد مغادرته بغداد سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م. والثابت أنّ الشطر الأعظم منها قد كان في شيراز؛ حيثُ توفي فيها ودُفن ٤١٤هـ / ١٠٢٤م.

* * *

(٦٦). أحمد الحوفي: أبو حيّان التّوحّيديّ. ج ١. ص ٦٨.

(67) - L. Kopf : **The Zoological Chapter of the Kitab Al-Imta' wal-Mu'anasa of Abu Hayyan al - Tauhidi (10th century)**. Vol.7. P392.

(٦٨) . البوزجاني: هو أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس البوزجاني، ولد ببوزجان من بلاد نيسابور سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠م، وانتقل إلى العراق سنة ٣٤٨، وكان إماماً في الحساب والجبر والفلك. توفي سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧م كما ذكر ابن الأثير أو سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨م كما ورد في تاريخ الحكماء. وهو الذي ألف له أبو حيّان كتاب الإمتاع والمؤانسة. وفيات الأعيان . ج ٥. ص ١٦٧، أخبار الحكماء . ص ١٨٨. ١٨٩. الأعلام . ج ٧. ص ٢١.

الفصل الثَّانِي

شَخْصِيَّةُ التَّوْحِيدِ وَمَكَاتِهِ

اتَّسَمَتِ التَّوْحِيدِيَّ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ السَّمَاتِ
 وَالْخُصَائِصِ الَّتِي إِنْ نَظَرْنَا إِلَيْهَا؛ كُلٌّ مِنْ وَجْهٍ عَلَى مَا
 تَسْتَقِلُّ بِهِ، وَجَدْنَا أَنَّ أَبَا حَيَّانَ مَلِيٌّ بِالْعُقْدِ وَالْمُتَنَاقِضَاتِ
 الْغَرِيبَةِ الَّتِي قَدْ يُظَنُّ فِيهَا مُبَالِغَةً. فَهُوَ إِلَى جَانِبِ بُؤْسِهِ
 وَيَأْسِهِ وَتَشَاؤُمِهِ يَنْطَوِي عَلَى نُزُوعٍ شَدِيدٍ إِلَى الْإِضْحَاقِ بِمَا
 يَمْتَلِكُهُ مِنْ مَوَاهِبٍ فَنِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ فِي هَذَا الْإِطَارِ، وَمَا يَحْفَظُهُ
 مِنْ نُكْتٍ تَنْتَزِعُ الضَّحْكَ مِنْ فِيهِ الْمُسْتَمِعِ أَوْ الْقَارِئِ
 انْتِرَاعًا. هَذَا إِلَى جَانِبِ مِيلِهِ الْجَلِيِّ إِلَى اصْطِنَاعِ الْمَوَاقِفِ
 الْمُضْحَكَةِ بِتَهْكُمِهِ اللَّادِعِ وَأَجْوَبَتِهِ الْمُفْحَمَةِ أحيانًا
 وَالْمُنْطَوِيَّةِ عَلَى مُفَارَقَةِ مُضْحَكَةِ أحيانًا أُخْرَى. ثُمَّ هُوَ أَدِيبٌ
 لَهُ أُسْلُوبُهُ الْمُتَمَيِّزُ بَيْنَ أُسَالِيبِ أَدْبَاءِ الْعَرَبِيَّةِ، وَفِي الْوَقْتِ
 ذَاتِهِ كَانَ عَالِمًا وَبَاحِثًا شَارَكَ مُعَاَصِرِيهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْبَاحِثِينَ
 وَالْفَلَسَفَةِ؛ عَلَى اخْتِلَافِ اخْتِصَاصَاتِهِمْ، بِمُنَظَرَاتِهِمْ
 وَمُبَاحَثَاتِهِمْ، وَدَوْنَهَا.

وَالْحَقُّ أَنَّنَا نَجْهَلُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ عَنْ شَخْصِيَّةِ التَّوْحِيدِيِّ، وَخُصَائِصِهَا،
 وَالْمَرَاكِلَ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا، عَلَى نَحْوِ مِنَ الدَّقَّةِ، وَلَا سِيَّما النَّصْفُ الْأَوَّلُ مِنْهَا،
 الَّذِي يَعْدُو الْخُمْسِينَ عَامًا، لِقَلَّةِ مَنْ تَرَحَّمَ لَهُ مِنْ مُعَاَصِرِيهِ، وَعَدَمِ عِنَايَتِهِمْ
 بِالتَّأْرِيخِ لَهُ. وَلَكِنَّ مَا تَرَكَهُ هُوَ ذَاتُهُ مِنْ آثَارٍ كَانَتْ ذَاتَ دَلَالَاتٍ عَمِيقَةٍ
 وَوَاضِحَةٍ تَشْفُ عَنْ شَخْصِيَّةِ كَاتِبِهَا. وَهَذَا مَا أَنْتَبَهَ إِلَيْهِ آدَمُ مَيْتَزُ فَقَالَ: «لَمْ
 يُكْتَبْ فِي النَّثْرِ الْعَرَبِيِّ بَعْدَ أَبِي حَيَّانَ مَا هُوَ أَسْهَلُ وَأَقْوَى وَأَشَدُّ تَعْبِيرًا عَنْ

شخصية صاحبه مما كتبه أبو حيان»^(٦٩). ولعلَّ سبب ذلك اتِّسامُها بالطَّابع الأدبيِّ الَّذي يُمكنُ الأديبَ أو الكاتبَ من إضفاءِ مسحةٍ من نوازعه عليها، وبثِّها هُمومَه وشكواه، والتَّعبيرَ عن مُعاناته وآلامه. ويبدو ذلك جليًّا في ضُرُوبِ أحاديثه المُختلفة عن النَّفسِ والأخلاقِ، والفنِّ، والجَمالِ، والعقلِ، و((الصِّداقة والصِّديق))، وفي حديثه عن ((مثالب الوزيرين))، وفي تساؤلاته في ((الهوامل والشوامل)). وإذا وصلنا ذلك بما وصلنا من أحواله، وأخباره، وعلاقاته مع الوزراء، وما ناله من بعضهم، وغير ذلك ... استطعنا أن نكشف عن بعض أهمِّ جوانبِ شخصيته المُعقَّدة.

ولكن، وقبل أن نعرضَ لجوانبِ هذه الشَّخصية لا بدَّ أن نأخذَ بعين النَّظرَ أمرين مُهمَّين، أولهما أنَّ بعضَ هذه الجوانبِ لا تعدُّو كونها تأويلاً وفهماً على وجهٍ ما لبعضِ نُصوصِ التَّوحيديِّ. وثانيهما أنَّ هذه المتناقضاتِ . على افتراضِ وجودها الفعليِّ . لها ما يُفسِّرُها ويُسوِّعُها في علمِ النَّفسِ المُعاصر، ولاسيَّما ما يختصُّ منه بالتَّعاملِ مع العباقرة والمُبدعين.

عبقريَّةُ التَّوحيديِّ

قد لا يكونُ عددُ الكُتبِ الَّتِي يتركها العالمُ أو الأديبُ أو الباحثُ معياراً يُؤكِّدُ عبقريةَ صاحبها ولكنَّه، من النَّاحيةِ الكميَّةِ، لا يخلُو من مُؤشِّرٍ على هذه العبقريةِ، أمَّا النَّاحيةُ الكيفيَّةُ فهي المُستندُ المحكُّ الَّذي يُختكمُ إليه في تحديدِ هذه العبقريةِ وتبيانِ جوانبها. والآثارُ الَّتِي خَلَّفها أبو حيان تشهدُ بتألُّقِ العبقريةِ وعمقها وأبعادها الإبداعيةِ الَّتِي لا تنبجسُ إلاَّ عن موهبةٍ أصيلةٍ وقريحةٍ مُتقدِّة.

(٦٩). آدم ميتز: الحضارة الإسلامية. ج ١. ص ٤١٦.

واستناداً إلى ذلك؛ عُرِفَ التَّوْحِيدِيُّ بِأَنَّهُ «فيلسوفُ الأدباءِ وأديبُ الفلاسفةِ. فَرَدُّ الدُّنْيَا الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ؛ ذِكَاؤُ وَفِطْنَةُ وَفِصَاحَةُ وَمُكْنَةُ»^(٧٠). وَهُوَ «أديبٌ وحكيمٌ وفيلسوفٌ صُوفِيٌّ بِمَرْتَبَةِ الْجَاحِظِ أَوْ يُفَوِّقُهُ وَلَعَلَّهُ أَوَّلُ عَرَبِيٍّ وَضَعَ عِلْمَ الْجَمَالِ الْعَرَبِيِّ»^(٧١).

وقد كان فنّاناً مُبدِعاً حقيقيّاً، مَارَسَ أَكْثَرَ مِنْ عَمَلٍ فَنِّيٍّ «فَكَانَ فَنّاناً أصيلاً لَا يَعْجُزُ عَنِ الاضْطِلَاعِ بِأَكْثَرِ الْحَقَائِقِ الْفَلْسُفِيَّةِ دَقَّةً؛ فَنّاناً يُؤْمِنُ بِأَنَّ فَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَمْسَحَ كُلَّ شَيْءٍ بِصَبْغَتِهِ، وَرَفٌّ رَيفِ الْجَمَالِ عَلَى الْحَقَائِقِ الْجَافِيَةِ، وَالْأَفْكَارِ الْمُعَقَّدَةِ»^(٧٢).

كما تميّزَ بِأُسْلُوبٍ بَدِيعِيٍّ قَلَّ أَنْ يَجِدَ نَظِيرَهُ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، «وَقَدْ بَلَغَ أَبُو حَيَّانٍ مَرْتَبَةَ الْأُسْتَاذِيَّةِ لِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَأَوَّلُ مَا نُلَاحِظُهُ أَنَّهُ كَانَ عَالِماً بِدَقَائِقِ الْأُسْلُوبِ الرَّائِعِ، وَقَادِراً عَلَيْهِ، غَيْرَ أَنَّنَا لَا نَكَادُ نُلَاحِظُ فِي أُسْلُوبِهِ ذَلِكَ التَّكَلُّفَ الَّذِي نَجِدُهُ عِنْدَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَدْبَاءِ. وَلَقَدْ كَانَ أَبُو حَيَّانٍ فَنّاناً غَرِيباً بَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ، وَكَانَ يُعَانِي وَحْشَةً مِنْ يَرْتَفِعُ عَنِ أَهْلِ زَمَانِهِ وَيَتَقَدَّمُ عَلَيْهِمْ»^(٧٣).

وَالْقَارِئُ لِكُتُبِ أَبِي حَيَّانٍ قَرَاءَةً مُتَبَصِّرٍ خَبِيرٍ يَجِدُ فِيهَا مِنَ الْإِمْتِنَاعِ وَالْمُؤَانَسَةِ مَا يُفَوِّقُ الْوَصْفَ حَقّاً؛ إِذْ تَكَادُ لَا تَخْلُو عِبَارَةً مِنْ صُورٍ بَدِيعِيَّةٍ تُوشِحُهَا بَلْبُوسٌ فَنِّيٌّ وَجَمَالِيٌّ مُؤْتَلَقٌ تَنْفِذُ بِهِ إِلَى أَعْمَاقِ النَّفْسِ، مُحَرِّكَةً فِيهَا الْمُتَعَةَ وَالْأَحَاسِيسَ الْجَمَالِيَّةَ، فَتَنجِدُهُ «يُحَدِّثُنَا هَامِساً حِيناً وَمُنَاقِشاً حِيناً آخَرَ،

(٧٠) - ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ج ١٥. ص ٦.

(٧١) - د. عفيف بهنسي: فلسفة الفن عند التَّوْحِيدِيِّ. ص ١٤.

(٧٢) - إحسان عبّاس: أَبُو حَيَّانِ التَّوْحِيدِيِّ. ص ١٣٤.

(٧٣) - آدم ميتز: الحضارة الإسلامية. ج ١. ص ٣٩٥.

مُتَحَرِّجاً حيناً ثالثاً، يُواجهه طوراً، ويتوارى على خَفَرٍ يَنْقُلُ آراءَ مُعاصِرِهِ وسابقِهِ طوراً آخر، ويُحاولُ أَنْ يَكُونَ حَدِيثُهُ أَحْذاً بَعْضُهُ بِرِقَابِ بَعْضٍ»^(٧٤) حتَّى لا يجد المَلَكُ إلى قَلْبِ القارِئِ سبيلاً، ويتأبَّى سَمْعَ السَّامِعِ الشُّرُودَ عَنْهُ، ولو قليلاً.

بِأَسْهٍ وَنَشَاؤِهِ

لَقَدْ وَعَى التَّوْحِيدِيُّ عِبْقَرِيَّتَهُ، وَوَقَفَ عَلَى أْبْعَادِ إِمْكَانَاتِهِ الإِبْدَاعِيَّةِ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ ذُو ذِكَاةٍ مُتَّقِدٍ وَقَرِيحَةٍ مُلْهَمَةٍ فَعَقَدَ عَلَى ذَلِكَ الآمَالَ فِي أَنْ يُصِيبَ الحَيَاةَ الرَّغِيدَةَ السَّعِيدَةَ البَعِيدَةَ عَنِ الفَقْرِ والحُزْمَانِ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا حَمَلَ هَذِهِ المَوَاهِبَ وَالمُقَدَّرَاتِ وَاتَّجَهَ بِهَا إِلَى «الزَّمانِ يَطْلُبُ إِلَيْهِ مَكَانَهُ فِيهِ، وَمَوْضِعَهُ مِنْهُ، رَأَى طَرْفَهُ نَائِباً، وَعَنَانَهُ فِي رِضَاةٍ مُنْتَشِباً، وَجَانِبَهُ مِنْ مُرَادِهِ حَشَنًا، وَارْتِقَاءَهُ فِي أَسْبَابِهِ نَائِباً. فَمَا كَانَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ تَكَرَّرَ لَهُ زَمَانُهُ وَأَهْلُ زَمَانِهِ إِلَّا أَنْ . يَطْوِي مَنْشُورَ أَمَلِهِ مُتَنْزِّهًا، وَيَجْمَعُ شَتِيَّتَ رِجَائِهِ سَالِيًا، وَيَدَّعِي الصَّبْرَ مُسْتَمِرًّا»^(٧٥)، وَلِيَجْعَلَ مِنْ أَمَلِهِ هَذَا مَنبَعًا مِنْ مَنَابِعِ إِلهَامِهِ الَّتِي يَنْهَلُ مِنْ رَفْرَاقِهَا مَوَادَّ جَمَالِيَّاتِهِ المَلْفُوفَةِ غَالِبًا بِأَوْشَحَةٍ قَائِمَةٍ تُؤْمِي إِلَى صَدَقِ عَذَابِهِ وَعُمَقِ مُعَانَاتِهِ الَّتِي تَنْمُ عَلَى «رَغْبَتِهِ، وَتُزَوِّعِ العُقْلِيَّ العَمِيقِ، وَإِنْسَانِيَّةَ أَدَبِهِ؛ لَقَدْ قَارَنَ التَّوْحِيدِيُّ بَيْنَ ذَاتِهِ وَأَفْكَارِهِ مُضَافَةً إِلَى اخْشُوشَانِ ثِيَابِهِ وَقِسْوَةِ حَيَاتِهِ»^(٧٦).

«وَمِنَ الحَقَائِقِ النَّفْسِيَّةِ المُقَرَّرَةِ أَنَّهُ إِذَا رَافَقَتِ التَّبَعَاءُ أَحْوََالَ مَادِّيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ سَيِّئَةً فِي حَيَاتِهِمْ، اسْتَحَالَتْ عَوَاطِفُهُمُ المَكْبُوتَةُ مَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ إِلَى بَعْضَاءِ

(٧٤) . عبد النبي أصطيف: أصالة ومعاصرة في مفاهيم الشعر عند التوحيدى . ص ١٠٩ .

(٧٥) . ياقوت الحموي: معجم الأدياء . ج ١٥ . ص ٣٧ . اللفظ في المعجم بلسان التوحيدى .

(76) - Marc Bergé: **Tawhidi un Humaniste Arabe du IVE/Xe Siécle.**

ومرارة، وحقدٍ على الأحياء، ونفرةٍ من المُجتمع ... والتَّوْحِيدِيُّ كما نعلمُ كان شديد الاعتداد بأدبه ومواهبه؛ يتألمُ من جهل مُعاصريه، واستخفافهم بقدره، فلم يجد مناصاً من اللُّجوءِ إلى العزلة والانكماش»^(٧٧).

لَعَلْنَا لَا نَعْلَمُ إِذَا قُلْنَا إِنَّ هَذِهِ الْحَالُ هِيَ الْمَصْدَرُ الرَّئِيسُ لِأَلَمْ الْمُبْدِعِ وَمُعَانَاتِهِ؛ الألم والمُعَانَاةُ اللَّذِينَ يُمْتَلَانِ الْمَعِينِ الَّذِي يَنْضَحُ مِنْهُ الْمُبْدِعُ مَادَّتَهُ، وَقَدْ عَبَّرَ صَاحِبُ ((مِثَالِ الْوَزِيرِينَ)) غَيْرَ مَرَّةٍ، وَفِي عَدَدٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ مِنْ كُتُبِهِ وَرِسَائِلِهِ عَنْ هَذَا الْيَأْسِ وَالتَّشَاؤُمِ؛ الْيَأْسُ مِنْ تَحْصِيلِ الْمُرَادِ أَوْ بَعْضِهِ، وَالتَّشَاؤُمُ مِنَ الْحَيَاةِ بِمَنْ حَوَتْ، وَعَدَمِ الثَّقَةِ فِي الْآخَرِينَ.

وَلَعَلَّ فِي رِسَالَتِهِ الَّتِي كَتَبَهَا إِلَى صَدِيقِهِ الْقَاضِي أَبِي سَهْلٍ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ لِتَعْلِيلِ إِخْرَاقِ كُتُبِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ خَيْرٌ دَلَالَةٍ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّهُ كَانَتْ فِي أَوَاخِرِ حَيَاتِهِ، وَفِيهَا التَّعْبِيرُ الدَّقِيقُ عَمَّا جَنَاهُ طَوَالَ رِحْلَتِهِ مَعَ الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ. يَقُولُ «عَجِبْتُ مِنْ انْزَوَاءِ وَجْهِ الْعُذْرِ عَنْكَ فِي ذَلِكَ، كَأَنَّكَ لَمْ تَقْرَأْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٧٨).

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَأْبَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(٧٩).

(٧٧) .د. إبراهيم الكيلاني : تصدير الرسائل - ص ٦٧.

(٧٨) . القرآن الكريم . سورة القصص . الآية ٨٨.

(٧٩) . القرآن الكريم . سورة الرحمن . الآية ٢٦.

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَا ثَبَاتَ لِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ شَرِيفَ الْجَوْهَرِ،
كَرِيمَ الْعُنْصُرِ»^(٨٠).

والْحَقُّ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَيْسَ دَلِيلَ يَأْسٍ وَلَا تَشَاؤُمٍ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَ فِي غَيْرِ
هَذَا السِّيَاقِ الَّذِي يُسَوِّغُ فِيهِ أَبُو حَيَّانَ إِحْرَاقَهُ كُتُبَهُ. وَالَّذِي يُؤَكِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ
الَّذِي أَعْقَبَهُ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةُ، وَفِيهِ: «ثُمَّ اعْلَمَ . عَلَّمَكَ اللَّهُ الْخَيْرَ . أَنَّ هَذِهِ الْكُتُبُ
حَوَتْ مِنْ أَصْنَافِ الْعِلْمِ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ؛ فَأَمَّا مَا كَانَ سِرًّا فَلَمْ أَجِدْ لَهُ مَنْ يَتَحَلَّى
بِحَقِيقَتِهِ رَاغِبًا، وَأَمَّا مَا كَانَ عِلْمًا فَلَمْ أُصِبْ مَنْ يَحْرُصُ عَلَيْهِ طَالِبًا. عَلَى أُنِّي
جَمَعْتُ أَكْثَرَهَا لِلنَّاسِ، وَلَطَلَبِ الْمِثَالَةِ مِنْهُمْ، وَلِعَقْدِ الرِّيَاسَةِ بَيْنَهُمْ، وَلِمَدِّ الْجَاهِ
عِنْدَهُمْ، فَحَرَفْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَلَا شَكَّ فِي حُسْنِ مَا اخْتَارَهُ اللَّهُ لِي، وَنَاطَهُ
بِنَاصِيَتِي، وَرَبَطَهُ بِأَمْرِي، وَكَرِهْتُ مَعَ هَذَا وَغَيْرِهِ أَنْ تَكُونَ حُجَّةً عَلَيَّ لَا لِي»^(٨١).
ثُمَّ يُعَقِّبُ قَائِلًا: «فَشَقَّ عَلَيَّ أَنْ أَدْعَاهَا لِقَوْمٍ يَتَلَاعَبُونَ بِهَا، وَيُدْنَسُونَ
عِرْضِي إِذَا نَظَرُوا فِيهَا، وَيَشْتُمُونَ بِسَهْوِي وَعَاطِي إِذَا تَصَفَّحُوهَا، وَيَتَرَاءَوْنَ
نَفْسِي وَعَيِّي مِنْ أَجْلِهَا»^(٨٢). وَلَعَلَّ الْأَسْبَابَ ذَاتَهَا هِيَ الَّتِي قَادَتْ فِرَانز
كَافْكَا . Franz Kafka إِلَى التَّوَصِيَةِ بِإِحْرَاقِ كُتُبِهِ^(٨٣)، وَحَفَزَتْ مَارْغَرِيْت
مَيْتَشِيلَ . عَلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ بِذَاتِهَا؛ خَشْيَةً أَنْ تُمَسَّ أُسْطُورَةُ مَارْغَرِيْت مَيْتَشِيلَ .

(٨٠) . أَبُو حَيَّانَ التَّوْجِيدِي: رِسَالَةٌ إِلَى الْقَاضِي أَبِي سَهْلٍ (الرِّسَالُ) . ص ٤٠٥ .

(٨١) . أَبُو حَيَّانَ التَّوْجِيدِي: رِسَالَةٌ إِلَى الْقَاضِي أَبِي سَهْلٍ (الرِّسَالُ) . ص ٤٠٦ .

(٨٢) . أَبُو حَيَّانَ التَّوْجِيدِي: رِسَالَةٌ إِلَى الْقَاضِي أَبِي سَهْلٍ (الرِّسَالُ) . ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(٨٣) . طَلَبَ فِرَانزُ كَافْكَا إِلَى بَرُودِ أَنْ يَتَلَفَ أَعْمَالَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا تَفَاقَمَ مَرَضُهُ فِي شِتَاءِ
سَنَةِ ١٩٢١/١٠٢٢م، إِذْ كَانَ مَعْضِي أَيْامًا فِي الْمَصْحَى، وَلَكِنَّ بَرُودَ اخْتِارِ عَصِيَانِ هَذِهِ الرَّغْبَةِ، وَقَدْ عَلَّلَ
ذَلِكَ بِأَنَّ كَافْكَا قَدَّمَ طَلَبَهُ إِلَى رَجُلٍ يَعْرِفُ سَلْفًا أَنَّهُ سَيَخْتَارُ الْعَصِيَانَ . انظُرْ ذَلِكَ فِي: كَافْكَا: التَّحْوِيلُ .

ولقد تَكَرَّسَ يأسُهُ وَبَحَدَّرَ تشاؤمُهُ في أواخرِ حياته بشكْلٍ واضحٍ؛ فإذا لم يَحْظَ بِمَا أَمَلَ في كُلِّ ما مضى منْ عُمْرِهِ أفيكونُ لَهُ بعدما بَلَغَ منْ العُمْرِ ما بَلَغَ مَطْمَعٌ في ما كان يَرْجُوهُ فيما مضى؟! يُقولُ: «وبعدُ، فقدْ أَصْبَحْتُ هَامَةً اليومَ أوْ غداً، فإني في عَشْرِ التَّسْعِينَ، وهل لي بعدَ الكِبَرَةِ والعَجْزِ أَمَلٌ في حَيَاةٍ لَدِيدَةٍ؟ أو رجاءٌ لحالٍ جَدِيدَةٍ؟»^(٨٤).

هذا مع ما يَتْرُكُهُ طُولُ العُمْرِ منْ تَعَبٍ، وتَحامُلٍ في الأَعْضاء، وفُتُورِ الهِمَّةِ، وَقَلَّةِ العِزْمِ، يُقولُ: «مع ما أجْدُهُ منْ انْكَسارِ النَّشاطِ، وانْطواءِ الانْبساطِ، لِتَعَاوُدِ العِللِ عَلَيَّ، وَتَحَاذُلِ الأَعْضاءِ مِنِّي؛ فَقَدْ كَلَّ البَصْرُ، وانْعَقَدَ اللِّسانُ، وجمد الخاطرُ، وزهد البيانُ، وملك الوسواسُ، وغلب اليأسُ منْ جميعِ النَّاسِ ... فالثَّوَاءُ قَليلٌ، والمُضْجَعُ مُقْضًى، والمُقَامُ مُمَضًى، والطَّرِيقُ مَخُوفٌ، والمُعِينُ ضَعيفٌ»^(٨٥) «والشَّرُّ مُقْبِلٌ، والخَيْرُ مُدْبِرٌ»^(٨٦). وانطلاقاً منْ ذَلِكَ أَكَّدَ مارك بيرجيه . Marc Bergé أَنَّ التَّوْحِيدِيَّ «كان مُتَأَثِّراً بِشكْلٍ أَكيدٍ منْ عُسْرِ جُمُوعِهِ، إلى جانب حِرْفَتِهِ الَّتِي عملَ فيها وعانى مِنْها التَّائِجِ السَّيِّئَةَ، وَحَسَنَةَ النَّاسِ، وَسَطْوَةَ ذَوِي النُّفُوزِ»^(٨٧). فكان كتابُ ((الإشارات الإلهية)) «صِرْحَةً أليمةً لأَمَلٍ حائِبٍ تَكَسَّرَتْ عَلَيْهِ نِصَالُ الحَيَاةِ بعدَ الحَيَاةِ، وفيه عُرُوفٌ رقيقٌ، ولكنَّهُ عميقٌ، عَمَّا يَرِيطُهُ بالعاجلة، واستدعاءً مُتَوَسِّلًا لِكُلِّ ما تَلُوحُ مِنْهُ

(٨٤) . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: رسالة إلى القاضي أبي سهل . ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(٨٥) . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: رسالة إلى القاضي أبي سهل . ص ٤١٢ - ٤١٣ .

(٨٦) . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: الصَّدَاقَةُ وَالصَّدِيقُ . ص ٦ .

(87) - Marc Bergé: **Tawhidi un Humaniste Arabe du IVE/Xe Siécle.**

بوارق الآجلة، وفيه شعورٌ بهوّة هائلةٍ تَفْعُرُ فاها في نسيجِ وِحدةِ الوُجودِ، وفيه طعمُ الرّمادِ يَتَذَوِّقُهُ المرءُ في كُلِّ عبارةٍ وإشارةٍ»^(٨٨).

«كان تشاؤمُ التَّوْحِيدِيِّ إِذَنْ وِلِيدَ المِزاجِ والتَّجاربِ، وكان للشُّدُوذِ والكُربِيا أثرٌ في دَعْمِ هذا التَّشاؤمِ. والأديبُ الموهوبُ الَّذي وَهَبَ نَفْسَهُ لأدبِهِ وصنَعَتِهِ يعيشُ في عالمٍ خاصٍّ مُهملاً أحداثَ المُجتمعِ الَّذي يعيشُ فيه، فكُلِّما استغرَقَ الأديبُ في انْعزاله ووحدته بَعَدَ عن الواقعِ ومُقتضياته، ومن هُنا نشأ كُرُهُ النَّاسِ للتَّبَعاءِ والعباقرةِ، لخُرُوجهم عن المألوفِ، ومُخالفتهم أذواقِ مُعاصريهم وتقاليدهم واصطلاحاتهم، ومُجاهتهم بما لا يَسْتَسِيغُون ولا يَفْهَمُون»^(٨٩).

اتِّجاهُ الفِكرِ

أثمَّ التَّوْحِيدِيُّ مِنْ غَيْرِ واحِدٍ وفريقٍ بالكُفْرِ والرَّندقةِ حَتَّى وَصَلَ الأُمْرُ ببعضهم. ربَّما اعتماداً على دَعْوَى أَبِي الوِفاءِ ابْنِ عَقِيلٍ^(٩٠) الَّتِي ذَكَرَها ابْنُ الجوزيِّ^(٩١). إلى عَدَدِهِ أَحَدٌ «زنادقة الإسلام الثلاثة: ابن الرّاوندي^(٩٢) والتَّوْحِيدِيُّ وأبي العلاء المَعْرِيَّ. وقالوا: إِنَّ شَرَّهُم على الإسلامِ هُوَ التَّوْحِيدِيُّ لأنَّهُما صَرَّحا ولم يُصَرِّحْ»^(٩٣).

(٨٨) .د. عبد الرَّحمن بدوي: مقدّمة الإشارات الإلهية. ص ٣٤.

(٨٩) .د. إبراهيم الكيلاني: تصدير الرسائل. ص ٦٦. ٦٧.

(٩٠) . ابن عقيل: هو أبو الوفاء علي بن عقيل؛ شيخُ الحنابلة ببغداد. كان صاحب مشاركةٍ في العلوم. ولد سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م وتوفي سنة ٥١٣هـ/١١١٩م. الأعلام. ج ٤. ص ٣١٣.

(٩١) . ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم. ج ٨. ص ١٨٤. ١٨٥.

(٩٢) . ابن الرّاوندي: هو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين الرّاوندي. توفي سنة ٢٩٨هـ/١٠٠٩م. وفيات الأعيان. ج ١. ص ٩٤.

(٩٣) . محمد كرد علي: أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي. مجلة المجمع العلمي العربي. ج ٣. المجلد ٨. ص ١٣٩. وقد ورد

فهل كان التَّوْحِيدِيُّ كذلك فعلاً؟

ينفي صاحبُ طبقات الشَّافعيَّة هذا الاتِّهام بقوله: «وَمَ يَثْبُتُ عِنْدِي الْآنَ مِنْ حَالِ أَبِي حَيَّانَ مَا يُوجِبُ الْوَقِيعَةَ فِيهِ، وَوَقَعْتُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِ، فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ إِلَّا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَوِيَّ النَّفْسِ، مُزْدَرِيًّا بِأَهْلِ عَصْرِهِ، وَلَا يُوجِبُ هَذَا الْقَدْرُ أَنْ يُنَالَ مِنْهُ هَذَا النَّيْلُ»^(٩٤).

وَمَا وَصَفَهُ بِهِ يَاقُوتُ قَوْلُهُ إِنَّهُ: «صُويُّ السَّمْتِ وَالْهَيْئَةِ، مُتَعَبِّدٌ، وَالنَّاسُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ دِينِهِ»^(٩٥).

ويُدافعُ عَنْهُ الأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ كُرْدُ عَلِي بِأَنْ أَرْجِعَ السَّبَبَ الرَّئِيسَ فِي هَذِهِ الاتِّهَامَاتِ إِلَى الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَالغَيْرَةِ، فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ لِلْحَسَدِ وَالْجَهْلِ مَدْخَلٌ كَبِيرٌ فِي الطَّعْنِ عَلَى التَّوْحِيدِيِّ. وَالطَّاعِنُونَ إِمَّا حَسَدَةً سَاقَهُمْ لُؤْمُ الْغَرِيزَةِ إِلَى النَّيْلِ مِنْ عَظِيمٍ بَدَّهْمُ وَأَرْبَى عَلَيْهِمْ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مُشَارَكَتَهُ وَمُنَافَسَتَهُ، أَوْ أَنَّهُمْ جَهِلُوا حَقِيقَتَهُ، وَتَأَوَّلُوا كَلَامَهُ، وَبَابُ التَّأْوِيلِ مُتَّسِعٌ لِمَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يُسْقِطَ مُؤَلَّفًا مِثْلَهُ خَاضَ أَصْعَبَ الْمَسَائِلِ الْإِلَهِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ»^(٩٦).

وَالطَّرِيفُ هُنَا أَنْ يَخَالَ حَسَنُ الْمَلْطَاوِيِّ تَهْمَةَ الرِّزْدَقَةِ نَاجِمَةً عَنْ وَضْعِ التَّوْحِيدِيِّ رِسَالَةَ السَّقِيفَةِ^(٩٧) عَلَى مَا فِي نِسْبَةِ الرِّسَالَةِ إِلَى مُفَكَّرِنَا مِنْ شَكِّ. وَعَلَى الْعُمُومِ يَتَّضِحُ مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ، كُلُّهُ، أَكْثَرُ إِذَا مَا عَلَّمْنَا أَنَّ «تَهْمَةَ

ذلك بنصِّ قريب في تصدير الدكتور إبراهيم الكيلاني للرسائل. ص ١٠٤.

(٩٤) - نقلا عن د. إبراهيم الكيلاني: تصدير رسائل أبي حيان التَّوْحِيدِيِّ. ص ١٠٥.

(٩٥) - ياقوت الحموي: معجم الأديباء. ٥/١٥.

(٩٦) - محمد كرد علي: أمراء البيان. ج ٢. ص ٤٩٨. ومجلة المجمع العلمي العربي. ٨/٣. ص ١٤٠.

(٩٧) - حسن الملتاوي: الله والإنسان في فلسفة التَّوْحِيدِيِّ. ص ٥٧.

الرَّزْدَقَةُ قَدْ وُجِّهَتْ إِلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ تَوَسَّعُوا فِي عِلْمِ الْكَلَامِ أَوْ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ، أَوْ عُلُومِ الْأَوَائِلِ مِنْ: الْفَلَسَفَةِ وَالطَّبِيعِيِّ وَالرِّيَاضِيِّ مِمَّنْ اسْتَعْمَلُوا الْعَقْلَ وَلَمْ يَجْمُدُوا عَلَى التَّقْلِيدِ»^(٩٨).

ولكنَّ هذه الاتِّهامات، وإنَّ كانت باطلةً، فإنَّ لها جُذوراً في عقائد التَّوْحِيدِ الْفِكْرِيَّةِ الْمُتَمَثِّلَةِ بِاعْتِنَاقِهِ الْإِعْتِرَالِ فِكْراً، وَأَحَدِ طُرُقِ التَّصَوُّفِ مِنْهَا؛ فَذَهَبَ مَعَ الْمُعْتَزَلَةِ فِي أَصُولِهَا الْخُمْسَةِ^(٩٩)، وَمِنْهَا التَّعْطِيلُ الَّذِي يَعْنِي تَجْرِيدَ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ مِنَ الصِّفَاتِ، «وَمَنْ قَالَ بَوْصَفِ الْبَارِي عَزَّ اسْمُهُ فَقَدْ اعْتَرَلَ عَنِ الْحَقِّ»^(١٠٠)، وَهَذَا مَا يُعَدُّهُ فُقَهَاءُ السُّنَّةِ أَوْلَى دَرَجَاتِ الرَّزْدَقَةِ. وَفِي التَّصَوُّفِ وَضَعَ كِتَاباً جَعَلَ اسْمَهُ: ((الْحَجَّ الْعَقْلِيَّ إِذَا ضَاقَ الْفَضَاءُ عَنِ الْحَجِّ الشَّرْعِيِّ)).

مكانته

تَرْجِعُ مَكَانَةُ التَّوْحِيدِ وَأَهْمِيَّتُهُ فِي التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ؛ الْأَدْبِيِّ وَالْفِكْرِيِّ إِلَى جُمْلَةٍ مِنَ الْعَوَامِلِ الْمُتَدَاخِلَةِ وَالْمُتَكَامِلَةِ، لَعَلَّ أَكْثَرَهَا أَهْمِيَّةً أُسْلُوبُهُ الْكِتَابِيُّ الْفَدُو الرَّائِعُ الْمَلِيءُ بِالْمُتَعَةِ الَّتِي قَلَّ نَظِيرُهَا فِي تَارِيخِ أَدْبَانِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ، وَرُبَّمَا الْحَدِيثِ وَالْمُعَاصِرِ. وَلَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ إِذْ إِنَّهُ كَانَ أَحَدَ كِبَارِ مُنْظَرِّي فَنِّ الْبَلَاغَةِ وَكَيْفِيَّةِ الْوُصُولِ إِلَى الْكِتَابَةِ الْبَلِيغَةِ الْبَدِيعَةِ، إِلَى جَانِبِ تَفْصِيلِهِ فِي مَحَاسِنِ الشُّعْرِ وَالنَّثْرِ وَمَعَايِمِهَا، وَلَا نَعْدُو الْحَقِيقَةَ إِذَا قُلْنَا إِنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ طَبَقِ نَظَرِيَّتِهِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ حَصِيلَةً مَوْقِفِهِ، وَخُلَاصَةً رَائِعَةً لِتَجْرِبَتِهِ هُوَ ذَاتُهُ، وَلِتَجَارِبِ السَّابِقِينَ

(٩٨) . محمد كرد علي: أبو حيان التَّوْحِيدِ . ضمن: مجلة المجمع العلمي العربي . ج ٣ . المجلد ٨ . ص ١٤٠ .

(٩٩) . الأصول الخمسة هي: التَّوْحِيدُ أَوْ نَفْيُ الصِّفَاتِ الْمَعْرُوفِ بِالتَّعْطِيلِ، وَالْعَدْلُ، وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، وَالْمَنْزِلَةُ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ.

(١٠٠) . د. عادل العوَّال: المعتزلة والفكر الحر . ص ٢٨ . ٢٩ .

عليه وآرائهم، حتّى قيل عنه: إنّه أفضلُ كُتّابِ النّثرِ العربيّ على الإطلاق،
ووصفتُ كُتُبُه بأزوعِ الأوصافِ، ونُعتتُ بأفضلِ النُّعوتِ وأجملها، من قبل
مُؤرّخي الأدب العربيّ؛ عربٍ ومُسْتشرقين. هذا من دُونِ أنْ ننسى أنّ كُتُبُه كانت
تاريخاً وتوثيقاً للمرحلة التي عاش فيها؛ على جميع الصُّعدِ الفكريّة والعلميّة
والأدبيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة.

* * *

* * *

الفصل الثالث

لَوْحَةُ حَيَاةِ التَّوْحِيدِ

٣١٠هـ / ٩٢٣م: وُلِدَ ببغداد. وَثَمَّةٌ تَوَارِيخٌ مُخْتَلِفَةٌ لَوْلادته منها ٣١٢هـ و ٣٢٠هـ.
وَبَدَأَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ حَتَّى سَنَةِ ٣٥٠هـ لَا نَعْلَمُ شَيْئاً عَنْ حَيَاةِ
التَّوْحِيدِيِّ سِوَى أَنَّ الدَّاهِ تُوْفِّيَا فِي مَرِحَلَةٍ مُبَكَّرَةٍ مِنْ طُقُولَتِهِ
وَأَنَّهُ عَاشَ بَعْدَهُمَا عِنْدَ عَمِّهِ طُقُولَةً بَائِسَةً مَمْلُوءَةً بِالشَّقَاءِ.

٣٥٠هـ / ٩٦١م: بَدَأَ بَوْضِعِ كِتَابِ ((الْبَصَائِرِ وَالذِّخَائِرِ)).

٣٥٠هـ / ٩٦١م: مَا بَيْنَ هَذِهِ السَّنَةِ وَسَنَةِ ٣٥٢هـ / ٩٦٣م كَانَ اتِّصَالُهُ بِالْوَزِيرِ
أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ الْمُهَلَّبِيِّ^(١٠١).

٣٥٣هـ / ٩٦٤م: أَدَّى فَرِيضَةَ الْحَجِّ رَاجِلاً بِلا زَادٍ وَبِلا رَاحِلَةٍ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ:
«قُلْتُ لِابْنِ جَلَاءِ الرَّاهِدِ بِمَكَّةَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ
وَثَلَاثِمِئَةً...»^(١٠٢).

٣٥٤هـ / ٩٦٥م: عَادَ مِنَ الْحَجِّ مَعَ رِفَاقِهِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: «وَكُنْتُ فِي
الْبَادِيَةِ مِنْ سَفَرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِئَةً مُنْصَرَفاً مِنَ الْحَجِّ
وَمَعِي جَمَاعَةٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ...»^(١٠٣).

٣٥٤هـ / ٩٦٥م: تَعَرَّفَ فِي أَرْجَانِ؛ الْمَدِينَةِ الْفَارَسِيَّةِ، عَلَى أَبِي الْوَفَاءِ
الْمُهَنْدِسِ الْبُوزْجَانِيِّ^(١٠٤) الَّذِي غَدَا مِنْ خَيْرَةِ أَصْدِقَائِهِ.

(١٠١) - المهلبي: هو أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون الأزدي المهلبي الوزير؛ وزير معز الدولة البويهبي. ولد
بالبصرة سنة ٢٩١هـ / ٩٠٣م وتوفي سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م. يتيمة الدهر. ج ٢. ٢٢٣، معجم الأدباء. ج ٩.
ص ١١٨، وفيات الأعيان. ج ٢. ص ١٢٤، المنجد في الأعلام. ص ٦٩١.

(١٠٢) - أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة: ج ٢. ص ٧٩.

(١٠٣) - أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة: ج ٢. ص ١٥٧. ١٥٥.

(١٠٤) - البوزجاني: هو أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس البوزجاني، ولد ببوزجان

٣٥٥/هـ ٩٦٦م: وَقَفَ عَلِيٌّ بِأَبِي الْفَضْلِ بْنِ الْعَمِيدِ^(١٠٥) وَبَقِيَ عِنْدَهُ

ثَلَاثَ سِنَوَاتٍ. أَي حَتَّى سَنَةِ ٣٥٨/هـ ٩٦١م.

٣٥٥/هـ ٩٦٦م: تَعَرَّفَ عَلِيٌّ بِأَبِي عَلِيٍّ مَسْكُوبِيهِ^(١٠٦) الْقَيْمِ عَلَى خِزَانَةِ كُتُبِ

ابْنِ الْعَمِيدِ.

٣٥٦/هـ ٩٦٧م: أَخْرَجَ الْمُهَلَّبِيُّ التَّوْحِيدِيَّ مِنْ عِنْدِهِ.

٣٥٦/هـ ٩٦٧م: فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَلِيٌّ وَجَّهَ التَّقْرِيبَ أَنْصَرَفَ إِلَى مَجْلِسِ رَجُلٍ

مَشْهُورٍ بِالْفَلَسَفَةِ هُوَ أَبُو الْحَسَنِ الْعَامِرِيُّ^(١٠٧).

٣٥٨/هـ ٩٦٩م: عَادَ إِلَى الْمَشْرِقِ لِيَعْمَلَ بِالْوَرِاقَةِ مِنْ جَدِيدٍ، كَسَبًا لِلْقَمَةِ

الْعَيْشِ.

٣٥٨/هـ ٩٦٩م: وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَيْضًا التَّقَى بِالْبُوزْجَانِيِّ ثَانِيَةً.

٣٦٠/هـ ٩٧١م: قَدِمَ أَبُو الْحَسَنِ الْعَامِرِيُّ الْفَيْلَسُوفُ إِلَى بَعْدَادَ فَجَدَّدَ أَبُو

حَيَّانَ الْعَهْدَ مَعَهُ وَاسْتَطْرَفَ كَلَامَهُ فِي الْفِقْهِ بِالْفَلَاسِفَةِ.

٣٦١/هـ ٩٧٣م: دَعَا الْعَامِرِيُّ أَبَا حَيَّانَ لِلِقَاءِ يَحْيَى بْنِ عَدِيِّ الْفَيْلَسُوفُ

الْمَشْهُورُ.

سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م، وانتقل إلى العراق سنة ٣٤٨، وكان إماماً في الحساب والجبر والفلك. توفي

سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م. أخبار الحكماء. ص ١٨٨. ١٨٩.

(١٠٥) - ابن العميد: هو أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد، كاتبٌ وُزِّرَ لِرِكَانِ الدَّوْلَةِ الْبُوبِيَّةِ. توفي

سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م وقيل: سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م. يتيمة الدهر. ج ٣. ص ١٨١، وفيات الأعيان. ج ٥.

ص ١٠٣، الأعلام. ج ٦. ص ٩٨.

(١٠٦) - مسكويه: هو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه الخازن؛ اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق

والتاريخ والأدب والإنشاء. توفي سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م. الأعلام. ج ١. ص ٢١١.

(١٠٧) - أبو الحسن العامري: عالم بالمنطق والفلسفة اليونانية. من كتبه: إنقاذ البشر من الجبر والقدَر. توفي

سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م. الأعلام. ج ٨. ص ٢٢٠. ٢٢١.

٣٧٣ / هـ ٣٦٣: كَتَبَ رِسَالَتَهُ إِلَى أَبِي الْفَتْحِ بْنِ الْعَمِيدِ رَاحِيًا أَنْ يَلْقَى مِنْهُ خَيْرًا مِمَّا لَقِيَهُ مِنْ أَبِيهِ أَبِي الْفَضْلِ.

٣٦٣ / هـ ٩٧٤ م: سَطَا الْعِيَّارُونَ^(١٠٨) عَلَى مَنْزِلِهِ وَسَرَقُوا مِنْهُ كُلَّ مَا فِيهِ، ذَكَرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «جَاءَتِ النَّهَابَةُ إِلَيَّ ... وَشَنُوا الْغَارَةَ وَاکْتَسَحُوا مَا وَجَدُوا فِي مَنْزِلِي مِنْ ذَهَبٍ وَثِيَابٍ وَأَثَاثٍ ...»^(١٠٩).

٣٦٤ / هـ ٩٧٥ م: تَشَجَّعَ عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَى أَبِي الْفَتْحِ ابْنِ الْعَمِيدِ لِمَا ذَاعَ عَنْ مَجَالِسِهِ وَإِكْرَامِهِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ.

٣٦٥ / هـ ٩٧٦ م: أَمَّمَ وَضَعَ كِتَابَ ((الْبَصَائِرِ وَالذَّخَائِرِ)) الَّذِي بَدَأَهُ قَبْلَ خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا؛ ٣٥٠ / هـ ٩٦١ م.

٣٦٦ / هـ ٩٧٦ م: سَافَرَ إِلَى الرَّيِّ لِاتِّصَالِ بِأَبِي الْفَتْحِ ابْنِ الْعَمِيدِ، وَلَكِنَّ خَيْبَةَ الْأَمَلِ ظَلَّتْ لَصَيْقَةِ بِهِ. فَلَمْ يَمُكِّثْ عِنْدَهُ إِلَّا سَنَةً وَاحِدَةً.

٣٦٦ / هـ ٩٧٦ م: أَغْلِبَ الظَّنَّ أَنَّ أَبَا حَيَّانَ قَدْ وَجَّهَ أَسْأَلَتْهُ، الَّتِي سَمَّاهَا ((الْهُوَامِلِ))، إِلَى أَبِي عَلِيِّ مَسْكُوبِهِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِيمَا جَاءَتْهُ الْأَجُوبَةُ مُتَفَرِّقَةً. هَذَا الْاِفْتِرَاضُ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا رَأَهُ شَتِيرِن . Stern مِنْ أَنَّ مُفَكِّرَنَا قَدْ وَجَّهَ أَسْأَلَتْهُ هَذِهِ مِنَ الرَّيِّ.

(١٠٨) . الْعِيَّارُونَ: الشُّطَّارُ وَالْعِيَّارُونَ أَنَسَ أَعْلَنُوا تَمَرُّدَهُمْ عَلَى الْوَاقِعِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالْاِقْتِصَادِيِّ بِضَرْبٍ مِنَ اللَّصُوصِيَّةِ، فَقَدْ اِنْتَشَرَتْ عَادَةُ الْاِمْتِنَاعِ عَنِ دَفْعِ الزَّكَاةِ، وَجَاءَ هؤُلَاءِ الشُّطَّارُ وَالْعِيَّارُونَ لِيَنْتَزِعُوا أَمْوَالَ الزَّكَاةِ عَنُودًا. أَنْظَر: د. مُحَمَّدُ رَجَبُ النَّجَّارِ: حِكَايَاتُ الشُّطَّارِ وَالْعِيَّارِينَ فِي الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ . سِلْسِلَةُ عَالَمِ الْمَعْرِفَةِ الْكُوَيْتِيَّةِ . الْعِدَدُ ٤٥ .

(١٠٩) . أَبُو حَيَّانَ التَّوْحِيدِيُّ: الْاِمْتِنَاعُ وَالْمُؤَانَسَةُ: ج ٣ . ص ١٦٢-١٦١ .

٣٦٧هـ/٩٧٨م: دَخَلَ بِلَاطِ ابْنِ عَبَّادٍ وَاشْتَغَلَ عِنْدَهُ كَاتِباً لَهُ وَنَاسِخاً لِكُتُبِهِ
وَرِسَائِلِهِ حَتَّى سَنَةِ ٣٧٠هـ/٩٨١م.

٣٧٠هـ/٩٨٠م: فِي نَهَايَةِ هَذِهِ السَّنَةِ عَادَ إِلَى بَغْدَادٍ هَارِباً مِنْ ابْنِ عَبَّادٍ الَّذِي
طَلَبَهُ لِيَقْتُلَهُ.

٣٧٠هـ/٩٨٠م: أَرْجَحُ الظَّنَّ أَنَّهُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَضَعَ مُسَوَّدَةً ((مِثَالِبِ
الْوَزِيرِينَ)) فِي كُرَّاسَةٍ صَغِيرَةٍ تَقَعُ فِي نَحْوِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَرَقَةً^(١١٠)،
ثُمَّ أَمَّمَ الْكِتَابَ بَعْدَ مَوْتِ الْوَزِيرِينَ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ
ابْنِ سَعْدَانَ الَّذِي طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُحَدِّثَهُ عَنْهُمَا.

٣٧١هـ/٩٨١م: اشْتَغَلَ حَارِساً لِلْبَيْمَارِسْتَانِ الْعَضُدِيِّ بِبَغْدَادَ بِتَوْسُطِ أَبِي الْوَفَاءِ
الْمُهَنْدِسِ الْبُوزْجَانِيِّ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ أَبَا حَيَّانَ مِنْ مَرَارَةِ
الْحُزْنِ وَخِيبةِ الرَّجَاءِ الَّتِي لَحِقَتْهُ مِنْ ابْنِ عَبَّادٍ^(١١١).

٣٧١هـ/٩٨١م: وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَيْضاً بَدَأَ بِتَأْلِيفِ كِتَابِ ((الصَّدَاقَةِ
وَالصَّدِيقِ)).

٣٧١هـ/٩٨١م: وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَيْضاً بَدَأَ مُوَاطَبَتَهُ عَلَى الْإِتِّصَالِ بِأَبِي سُلَيْمَانَ
السَّجِسْتَانِيِّ الْمُنْطَقِيِّ لِيَدْرُسَ عَلَيْهِ الْفَلْسَفَةَ.

٣٧٣هـ/٩٨٣م: تَرَكَ الْعَمَلَ فِي الْبَيْمَارِسْتَانِ.

(١١٠) . عندما طلب منه ابن سعدان أن يحدثه عن الوزيرين قال: «... على أبي عملت رسالة في أخلاقه
وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسي العزيز، ولفظي الطويل والقصير» الإمتاع والمؤانسة: ج ١. ص ٥٤.
فقال الوزير: لا شك أن المسودة جامعة لهذا كله. فقلت: تلك تجزئ (تجزأ) في دست (أربع وعشرون ورقة)
كاغدي (ورق) فرعوني». الإمتاع والمؤانسة: ج ١. ص ٦١.

(١١١) . أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة: ج ١. ص ٣. ٤.

٣٧٣هـ / ٩٨٣م: وفي هذه السنّة أيضاً بدأت مرحلته الجديدة في العيش في
أكناف ابن سعدان التي كانت أسعد أيام حياة التوحيد،
ولكنّها لم يُكتب لها العُمر الطويل فقد انتهت
سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٦م.

٣٧٣هـ / ٩٨٣م: وفي أثناء هذه الفترة ذاتها التي قضاها في أكناف ابن سعدان
وضع كتابه ((الإمتاع والمؤانسة)) بناءً على طلب صديقه أبي
الوفاء المهندس البوزجاني^(١١٢).

٣٧٤هـ / ٩٨٤م: يبدو أنّ التوحيدي لم يخط بمأموه من ابن سعدان حتّى نهاية
هذه السنّة، لانّشغال الأخير عنه بحُصومه وحُساده.

٣٧٥هـ / ٩٨٦.٩٨٥م: عُزل ابن سعدان من الوزارة، وسُجن ثمّ قُتل بمساعي
حُصومه، فعاد التوحيدي إلى يأسه وشُغوره بالإحباط وثقل
الفقر.

٣٨٢هـ / ٩٩٢م: بدأ بوضع كتاب ((المحاضرات والمناظرات)) الذي أتمّه في
السنّة التالية؛ ٣٨٣هـ / ٩٩٣م.

٣٨٦هـ / ٩٩٦م: بعد هذه السنّة وُضع كتاب ((المقابسات))، وصار يتشاعل
بالفلسفة عن قسوة واقعه ويأسه منه^(١١٣).

(١١٢) . يُرَجِّحُ نور الدّين بن بلقاسم، اعتماداً على رأي محمد الحبيب حمادي في: التوحيد وقرآء جديدة في
الإمتاع والمؤانسة، أن يكون أبا حيّان قد وضع هذا الكتاب في بضعة أسابيع استناداً إلى اعتزازه إخاء
الجزء الثاني من هذا الكتاب في أسبوع إذ قال «وأنا حريصٌ على أن أتبعه بالجزء الثاني، وهو يصل
إليك بعد أسبوع إن شاء الله». الإمتاع والمؤانسة: ج ٢ - ص ١. أنظر ذلك في: أصداء المجتمع
والعصر في أدب أبي حيّان التوحيدي. ص ١٠٣-١٠٤.

(١١٣) . تقول الدكتورّة وداد القاضي في مقدّمة البصائر والدّخائر أنّ أبا حيّان «صار في وقتٍ من الأوقات

٤٠٠هـ/١٠٠٩م: بَيَّضَ كِتَابَ ((الصَّدَاقَةِ وَالصَّدِيقِ)) وَزَادَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ
بَعْدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً مِنْ تَحْرِيرِهِ. وَلَعَلَّهَا مُحَاوَلَةٌ أُخِيرَةٌ
لِلْخُرُوجِ مِنْ رِبْقَةِ الْيَأْسِ وَالتَّشَاؤُمِ. وَالْكِتَابُ بِحَدِّ ذَاتِهِ
صَرَخَةٌ مُدَوِّيَّةٌ تُعْلَنُ إِفْلَاسَ الْعَصْرِ مِنَ الصَّدَاقَةِ
وَالْأَصْدِقَاءِ الْحَقِيقِيِّينَ.

٤٠٠هـ/١٠٠٩م: وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةَ لَمْ تَكُنْ مُجْدِيَةً فِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَ قَدْ
عَمَرَهُ الْيَأْسُ فَأَحْرَقَ كُتُبَهُ.

٤٠٠هـ/١٠٠٩م: فِي رَمَضَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ دَبَّحَ رِسَالَتَهُ الْمَعْرُوفَةَ إِلَى صَدِيقِهِ
الْقَاضِي أَبِي سَهْلٍ كَاشِفًا لَهُ فِيهَا عَنْ أَسْبَابِ حَرْقِهِ كُتُبَهُ.

٤٠٠هـ/١٠٠٩م: بَعْدَ هَذِهِ السَّنَةِ وَهَذِهِ الرِّسَالَةَ تَنْقَطِعُ أَخْبَارُهُ وَأَثَارُهُ.

٤١٤هـ/١٠٢٣م: أَرْجَحُ الْأَخْبَارَ تُفِيدُ أَنَّ التَّوْحِيدِيَّ قَدْ تُوِّبِيَ فِي أُنْثَاءِ هَذِهِ
السَّنَةِ بِشِيرَازَ.

* * *

صاحب معرفة فلسفية دقيقة تبدو بشكلٍ دقيق في كتابه المقابسات، وهذه المعرفة لم تتكون لديه إلا في المرحلة الثانية من طلب العلم، أي بعد سنة ٣٧٠هـ / ٩٨٠م، وهو نفسه لم يشرع في الكتابة في أي موضوع فلسفي إلا بعد سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م. «مقدمة البصائر والدخائر - ج٧ - ص ٤٢.

الفصل الرَّابِع
آثار التَّوْحِيدِ

لم نفع في بحثنا عن آثار التوحيدِيّ إلا على اثنين
 وثلاثين أثراً، بين كتابٍ ورسالةٍ مُختلفة الموضوع والطول،
 كان نصيبُ قُرابة نصفها الفُقُودُ، حتّى عدم معرفة مضمون
 مُعظمها. فيما طُبِعَ سبعة عشر أثراً، هي الأكثر أهميّةً
 والأكثر شهرةً، ولا ندري إن كانت هذه الإثنين والثلاثين أثراً
 هي مؤلّفاتُ التوحيدِيّ كُلِّها أم ثَمَّة آثارٌ غيرها، إذ اشتهر
 عن فيلسوفنا أنّه أحرَقَ كُتُبَهُ في أواخر حياته، لأسبابٍ
 اختلفت اجتهاداتُ النُقَّاد والمؤرِّخين في حقيقتها على رُغم
 أنّ فيلسوفنا قد فصّل ذلك في رسالته التي كتبها إلى صديقه
 القاضي أبي سهلٍ عليّ بن محمدٍ للغرض ذاته، وممّا يقولُ
 فيها:

«ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ حَوَتْ مِنْ أَصْنَافِ الْعِلْمِ؛ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتُهُ. فَأَمَّا
 مَا كَانَ سِرًّا فَلَمْ أَجِدْ لَهُ مَنْ يَتَحَلَّى بِحَقِيقَتِهِ رَاغِبًا، وَأَمَّا مَا كَانَ عَلَانِيَةً فَلَمْ أُصَبِّ
 مَنْ يَخْرُصُ عَلَيْهِ طَالِبًا... وَمِمَّا شَحَدَ الْعَزَمَ عَلَى ذَلِكَ، وَرَفَعَ الْحِجَابَ عَنْهُ أَنِّي
 فَقَدْتُ وَلَدًا بَجِييًّا، وَصَدِيقًا حَبِييًّا، وَصَاحِبًا قَرِيبًا، وَتَابِعًا أَدِيبًا، وَرَئِيسًا مُنِيبًا،
 فَشَقَّ عَلَيَّ أَنْ أَدْعَهَا لِقَوْمٍ يَتَلَاعَبُونَ بِهَا، وَيُدَسُّونَ عَرَضِي إِذَا نَظَرُوا فِيهَا،
 وَيَشْمَتُونَ بِسَهْوِي وَعَاطِي إِذَا تَصَفَّحُوهَا، وَيَتَرَاءُونَ نَقْصِي وَعَيْبِي مِنْ
 أَجْلِهَا»^(١١٤).

(١١٤) . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: رسالة إلى القاضي أبي سهل (الرسائل). ص ٤٠٦ . ٤٠٧ .

وإن كان غير معروفٍ عددُ هذه الكُتُب التي أُحرقَتْ، ولا مضامينها، ولا فيما إذا كانت كُلتها أو بعضها نُسخاً وحيدةً أم لا، فقد ذهب السيوطي إلى أنَّ النُسخ الموجودة من تصانيف التَّوْحِيدِيَّ «قد كُتبت عنه إبان حياته، وخرجت من قبل إحراقها»^(١١٥). وكأنَّه يُشيرُ بذلك إلى أنَّ هذه الكُتُب قد بُحِتْ من ألسنة اللهب وقد كان مُمكناً أن تكونَ بين البقيَّة المحروقة، ويؤكدُ هذا الاعتقاد رسالة العتاب واللوم التي أرسلها له صديقه القاضي أبو سهلٍ عليُّ بنُ مُحَمَّدٍ. أمَّا الدكتور شوقي ضيف فقد ذهب في منحيين مُختلفين؛ فابَّه أولاً إلى الظنِّ أنَّ التَّوْحِيدِيَّ «لم يخرق جميع كُتبه، وإنما أحرق طائفةً منها [لا]^(١١٦) يُريدُ أن ينشرها بين النَّاس، ولعلَّه لم يرتضِ أن تُنسب إليه»^(١١٧). وابتَّه ثانياً إلى أنَّ كُتُب التَّوْحِيدِيَّ «قد ذاعت نُسخها في النَّاس (وشاعت)، فلم يُؤثِّر إحراقُها. إن كان قد أحرقتها. شيئاً»^(١١٨) ليشكَّك بذلك في قصَّة الإحراق بحدِّ ذاتها من جهة، وليقول: حتَّى إن كانت هذه القصَّة صحيحةً فإنَّها لم تُقدِّم أو تُؤخَّر في شيءٍ.

إنَّ البَحْث في قصَّة الإحراق أمرٌ يطولُ بنا كثيراً، ذلك أنَّنا مهتماً اجتهدنا في الآراء لن نستطيع إرتاجَ بابها، هذا إلى جانب كونها غير مُغيِّرةٍ في الواقع شيئاً. وعلى العُمووم فإنَّ ما بقي من آثار التَّوْحِيدِيَّ ينمُّ عن عبقريةٍ فدَّة، فريدةٍ في عالم الفكر والأدب؛ خصبةٍ، رحيبةٍ، عميقة التَّفكير، بارعة التَّعبير، رائعة التَّصوير.

(١١٥). السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. ص ٣٤٨.

(١١٦). [لا]: غير موجودة في الأصل، وأغلب الظنِّ أنَّها سقطت سهواً وإلا فإنَّ المعنى لن يستقيم.

(١١٧). د. شوقي ضيف: عصر الدُّول والإمارات. ص ٩٨.

(١١٨). د. شوقي ضيف: عصر الدُّول والإمارات. ص ٩٨.

ونحن إذ نقول ذلك فإننا لا نزعّم الإثيان بجديدٍ فهذه شهادة كبار النقاد ومؤرّخي الأدب العربيّ من عربٍ ومُستشرقين. وتعميماً للفائدة سنحاول فيما يلي أن نعرضَ لهذه الآثار بشكلٍ موجزٍ جداً، ولاسيّما الكُتُب المطبوعة، لنورد أغلب رسائله فيما اخترناه منها.

(١)

الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية

يقع الكتابُ في أربعٍ وخمسين رسالةً مُوجّهةً كلّها . على الأرحح . إلى من ضلُّوا طريقَ الهداية الإلهية. وقد ذهب الدكتور إبراهيم الكيلاني إلى أنّها مُوجّهة إلى طُلاب التوحيدِ ومُريديه^(١١٩) وهذا ليس بمُستبعدٍ، بل يُمكن القول إنّها مُوجّهة أيضاً إلى السالّكين بعض طُرُق الصوفيّة. هذا إلى جانب كون هذه الرسائل بمكانة الصّدى المُباشر للحالات النفسيّة التي مرّ بها التوحيدِ، ولاسيّما معاناته من العُزبة النفسيّة والضّياع والحُرمان والفقر ... وأغلب الظنّ أنّه بدأ كتابة هذه الرسائل مُنذ العُقَد الخامسِ من عُمره وحتى الثّامن منه، ولذلك فهي تتفاوتُ بين الاستغراقِ في المَلَكُوتِ الإلهيِّ من «مُناجياتٍ وأدعيةٍ وابتِهالاتٍ تُصوّرُ استشرافه إلى المَلَأِ الأعلى»^(١٢٠)، وبين الإشرع إلى التّفريج عن هُموم الدّات ومتاعبها، ومع أواخر العُمُر العُزوف عن ملاذّ الدُّنيا وتُرّهاتها.

عني الدكتور عبد الرحمن بدوي بتحقيق هذا الكتاب والتّقديم له في طبعته التي أُصدَرها في القاهرة عام ١٩٥٠م، عاقداً في تقديمه بعض المُقارنات

(١١٩) .د. إبراهيم الكيلاني: تصدير رسائل أبي حيان التّوحيدي . ص ٩٨ .

(١٢٠) .د. شوقي ضيف: عصر الدّول والإمارات . ص ٤٦٠ . وكذلك:

بين مُناجيات التَّوْحِيدِيّ في هذا الكتاب ومزامير داوود عليه السلام وبعض آيات الأناجيل. ولكنَّ الأخطاءَ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الدُّكْتُورُ بدوي أثارت عاصفةً بعض النَّقَّادِ ولا سيَّما الأستاذُ أحمدُ صَقْرُ^(١٢١)، فانبَرَّت الدُّكْتُورَةُ وداؤُ القَاضِي لِإِعَادَةِ تَحْقِيقِ هَذَا الْكِتَابِ بِالاعْتِمَادِ عَلَى عِدَّةِ مَحْطُوطَاتٍ لَهُ لِتَخْرُجَ بِطَبْعَةٍ جِدًّا جَيِّدَةٍ مِنْهُ صَدَرَتْ بِيْرُوتَ عَامَ ١٩٧٣ م.

(٢)

الإقناع

يُدرِجُ هَذَا الْكِتَابُ ضَمَنَ الْآثَارِ الْفَلَسَفِيَّةِ الَّتِي خَلَّفَهَا التَّوْحِيدِيُّ، وَهُوَ مِنْ الْكُتُبِ الْمَفْقُودَةِ، ذَكَرَهُ حَاجِي خَلِيفَةَ فِي كِتَابِهِ ((كَشْفُ الظُّنُونِ))^(١٢٢).

(٣)

الإمتاع والموانسة

يَتَّفِقُ النَّقَّادُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ أَثْمَنُ الْمَصَادِرِ لِدِرَاسَةِ أَدَبِ التَّوْحِيدِيّ وَفِكْرِهِ، إِلَى جَانِبِ كَوْنِهِ «وَتِيْقَةً مُهْمَةً لِلتَّعْرُفِ عَلَى الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ أَيَّامِ الْبُؤْيُهِيَّيْنَ»^(١٢٣). وَصَفَهُ الْقَفْطِيُّ بِقَوْلِهِ: «هُوَ كِتَابٌ مُتَمِّعٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ لَهُ مُشَارِكَةٌ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ خَاضَ كُلَّ بَحْرٍ وَغَاصَ كُلَّ جُحَّةٍ»^(١٢٤).

(١٢١) . السيد أحمد صقر: نقد الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي؛ تحقيق عبد الرحمن بدوي، في أربع حلقات . مجلة الثقافة . القاهرة . الأعداد: ٦٢٩، ٦٣٢، ٦٣٤، ٦٣٧ . ١٩٥١ م.

(١٢٢) . حاجي خليفة: هداية العارفين . ج ٥ . ص ٦٨٤ .

(123) - S.M. Stern: *Abù Hayyàn Al-Tawhidi*. Vol 1. P127.

(١٢٤) . القفطي: أخبار الحكماء . ص ٣٨٣ .

يُشبهُ الكتابُ كتابَ ((ألف ليلةٍ وليلةٍ)) في انقسامه إلى أربعين ليلةً، ويفترقُ عن الثاني في الموضوعات التي كانت في ((الإمتاع والمؤانسة)) موضوعاتٍ فلسفيةً وعلميةً ولغويةً وأدبيةً، يقترحُ أبو عبد الله العارض إحدى مسألتها مع بداية كلِّ ليلةٍ، ليرتجل التَّوْحِيدِيَّ الجوابَ عنها ارتجالاً، ولا سيَّما أنَّ معظمَ المسائلِ المُقترحةِ كانت وليدةَ ساعتها، الأمرُ الَّذي يُنمُّ عن سعةِ اطلاعِ أبي حَيَّانِ وثُمُولِيَّةِ ثقافته، إلى جانبِ أَلْمَعِيَّةِ وحُضُورِ بديهته، وبراعته في تطويع اللُّغة لأغراضه الإنشائية، فكان «الكتابُ كُلُّهُ مُكْرَساً لإمتاعِ العُقُولِ الجَادَّةِ والسَّامِيَةِ التَّعْلِيمِ، وإنَّ حَاولَ المُؤَلِّفُ أَنْ يَجْعَلَ عَمَلُهُ جَدَاباً فِي كُلِّ مَحْتَوِيَّاتِهِ وتَقْدِيمِهِ لِلْمَوْضُوعَاتِ»^(١٢٥).

عُني الأُسْتَاذَانِ أَحْمَدُ أَمِينٌ وَأَحْمَدُ الزَّيْنُ بِتَحْقِيقِ هَذَا الْكِتَابِ وَالتَّقْدِيمِ لَهُ وَنَشْرِهِ، فَصَدَرَ بِالْقَاهِرَةِ فِي ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ كَانَتْ عَلَى التَّوَالِي فِي الْأَعْوَامِ: ١٩٣٩ - ١٩٤٢ - ١٩٤٤ م.

(٤)

بصائر القدماء وذخائر الحكماء

((البصائرُ والذخائرُ)) هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي اشْتَهَرَ بِهِ كِتَابُ: ((بصائرُ القدماءِ وسرائرُ الحكماءِ))، وَضَعَهُ «بَيْنَ سِنِي ٣٥٠هـ/٩٦١م وَ ٣٦٥هـ/٩٧٥م»^{١٢٦}، وَهُوَ كِتَابٌ قِيمٌ وَمُفِيدٌ وَمُتَمِّعٌ، فَقَدْ آتَى فِيهِ عَلَى فُنُونٍ

(125) - L. Kopf : **The Zoological Chapter of the Kitab Al-Imta' wal-Mu'anasa of Abu Hayyan al-Tauhidi (10th century).** P395,396.

(126) - S.M. Stern: **Abù Hayyàn Al-Tawhidi.** Vol 1. P127.

وموضوعاتٍ مُختلفةٍ ومُتباينةٍ، سلك فيها طرائق **الجاحظ** في عدم التَّبويب والترتيب، مُتوخياً في ذلك جذب انتباه القارئ وتشويقه لإقصاء الملل والرتابة عنه، وفي ذلك يقول: «هذا الكتابُ كِبُستانٍ يجمعُ ألوانَ الزَّهر، وكبحرٍ يضمُّ على أصنافِ الدُّر» ويبيِّنُ غايتهُ من هذا التَّنوع فيقول: «وإنَّما أُقَلِّبُكَ من فنٍّ إلى فنٍّ لئلا تملَّ الأدب، فإنَّه ثقيلٌ على من لم تكن داعيتهُ من نفسه».

أمضى **التَّوحيديُّ** قرابةَ خمسةَ عشرَ عاماً في تأليفِ هذا الكتاب الضَّخم الذي وقَّع في عشرةَ أجزاء، مُنتهجاً الحرصَ على نقلِ الكلامِ بِدِقَّةٍ، ونسبِه بأمانةٍ، لا نقولُ إنَّها فريدةٌ ولا مُنقطعةُ النظيرِ لأنَّها كانتْ تقليداً راسخاً قلَّ وَندَرَ أن نجد من يَحيِدُ عنه، هذا إلى جانب ذكره المصادر التي قرأها واستمدَّ منها مادَّةَ كتابه. من دون أن نُغفل هنا أن نَمَّةً جدالاً أُثيرَ في الندوة الدُّوليَّة بمُناسبة الذِّكْرِ الألفيَّة لأبي حَيَّان التَّوحيديِّ، في طبيعة هذه الأمانة العلميَّة عند التَّوحيديِّ؛ هل كان نسبه الأُقوال دقيقتاً تماماً أم أنَّه كان يتوارى خلفها ليُطرح فكره ويُعلي من شأنها؟!

أصدر الدكتور إبراهيم الكيلانيُّ سبعةَ مجلِّداتٍ ضخمةٍ من هذا الكتاب بدمشق بدءاً من عام ١٩٦٤م. بتحقيقِ حسنٍ وتبويبٍ جيِّدٍ. وقد صدَّرها بمُقدِّمةٍ مُطوَّلةٍ عن أدبِ التَّوحيديِّ وأسلوبِه في التَّأليفِ والإنشاء. وقامتِ الدكتورَةُ وداؤُ القاضي بإعادة تحقيق هذا الكتاب تحقيقاً مُوثقاً دقيقتاً. صدرَ من هذا التَّحقيق تسعةُ أجزاءٍ في ستَّةِ مجلِّداتٍ آخرها للفهارس عام ١٩٧٨م في ليبيا وتونس. وكان قد همَّ بتحقيقه في مصرَ كُلُّ من أحمد أمين وأحمد صقر فأصدرا الجزءَ الأوَّل منه عام ١٩٥٣م ولم يتابعا بعد ذلك ما بقي منه. وفي

الوقت ذاته قام الدكتور عبد الرزاق محي الدين بإصدار الجزء الأول منه في بغداد أيضاً.

(٥)

التذكرة التوحيدية

يُصنّف هذا الكتاب ضمن الآثار الفلسفية للتوحيد، وهو كتاب مفقود، ذكره صاحب ((عُرر الخصائص الواضحة))^(١٢٧).

(٦)

تقريب الجاحظ

أوردنا ما استطعنا الكشف عنه من هذه الرسالة في هذا الكتاب.

(٧)

الحجّ العقلي إذا

ضاق الفضاء عن الحجّ الشرعي

هو واحد من الآثار الصوفية التي كتبها التوحيدي، وأغلب الظن أن هذا الكتاب مفقود. ورد ذكره في أكثر من مصدر؛ ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء^(١٢٨)، وذكره محمد باقر الموسوي الخونساري في ((روضات الجنّات

(١٢٧) . ورد ذكر اسم هذا الكتاب من دون ذكر اسم مؤلفه، في أثناء نقله أقوالاً عن إبراهيم الإمام الذي

تقدّمت ترجمته. على الرغم من أنه قد نقل عن التوحيدي أقوالاً في غير مرة. نظر: الوطواط: غرر

الخصائص الواضحة. ص ٧٩.

(١٢٨) . ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ج ١٥ ص ٨.

في أحوال العلماء والسادات))^(١٢٩)، وأشار مُحَمَّدُ كُرْدُ عَلِيٍّ إلى أَنَّ ثَمَّةَ نُسْخَةٍ
من هذا الكتاب في دار الكُتُبِ في لينين جراد^(١٣٠).

(٨)

الرَّدُّ عَلَى

ابن جَبِّي فِي شِعْرِ الْمَتْنَبِيِّ

هذا الكتابُ من الكُتُبِ المفقودة التي لا نَعْرِفُ عَنْ مَضْمُونِهَا شَيْئاً سِوَى
مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْعُنْوَانُ، وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُهُ عِنْدَ يَاقُوتِ الْحَمَوِيِّ فِي ((مُعْجَمِ
الْأُدْبَاءِ))^(١٣١).

(٩)

رِسَالَةٌ إِلَى

أَبِي بَكْرِ الطَّالِقَانِيِّ

هذه الرِّسَالَةُ جَهْلُولَةٌ الْمَضْمُونِ، وَلَعَلَّهَا بِمَّا فُقِدَ مِنْ رِسَائِلِ التَّوْحِيدِيِّ.
ذَكَرَهَا كَارْلُ بْرُوكْلِمَانُ . K. Brockelmann فِي كِتَابِهِ: ((تَارِيخُ الْأَدَبِ
الْعَرَبِيِّ))^(١٣٢).

(١٢٩) . الخونساري: روضات الجنات . ج ٢ . ص ٢٠٥ .

(١٣٠) . محمد كرد علي: أمراء البيان . ج ٣ . ص ٤٩٣ .

(١٣١) . ياقوت الحموي: معجم الأديباء . ج ١٥ . ص ٧ .

(١٣٢) . كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي . ج ٥ . ص ٨٥ .

(١٠)

رسالة إلى

أبي الفتح بن العميد

أوردنا هذه الرسالة في هذا الكتاب.

(١١)

رسالة إلى

أبي الفضل بن العميد

أوردنا هذه الرسالة في هذا الكتاب.

(١٢)

مرسالة إلى

أبي الوفاء المهندس البوزجاني

أوردنا هذه الرسالة في هذا الكتاب.

(١٣)

رسالة إلى

القاضي أبي سهل علي بن محمد

أوردنا هذه الرسالة في هذا الكتاب.

(١٤)

رسالة إلى

الوزير أبي عبد الله العارض (١)

أوردنا هذه الرسالة في هذا الكتاب.

(١٥)

رسالة إلى

الوزير أبي عبد الله العارض (٢)

أوردنا هذه الرسالة في هذا الكتاب.

(١٦)

رسالة الإمامة

اشتهرت هذه الرسالة برسالة السقيفة، وموضوعها رسالة توجّه بها أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب إلى علي بن أبي طالب لبيان أنه دون أبي بكر منزلة في استحقاق الخلافة. وإن ذهب الاعتقاد ببعضهم إلى واقعية هذه الرسالة فلا شك في أنها من تأليف التوحيديّ بدليل لغتها وأسلوبها والغاية منها، وقد ذهب ابن خلكان إلى أن التوحيديّ قد اعترف بوضع الرسالة^(١٣٣). نشرها حسن السندوبوي في مقدمة ((المقاسبات)) تحت عنوان ((رسالة السقيفة))

(١٣٣) . ابن خلكان . وفيات الأعيان . ج ٥ . ص ١١٣ .

عام ١٩٢٩ م. كما طُبعت بِدِمَشْقَ عامَ ١٩٥٢ مِ ضَمَّنَ ((ثلاث رسائل لأبي حَيَّان التَّوْحِيدِيَّ)) الَّتِي عُنِيَ بِتَحْقِيقِهَا وَنَشَرَهَا الدُّكْتُورُ إِبراهيمُ الكيلانيُّ؛ وأعاد طبعها ثانيةً ضَمَّنَ كتابَ ((رسائل أبي حَيَّان التَّوْحِيدِيَّ)) البَالِغَةَ تَسَعِ رسائل.

(١٧)

الرَّسالةُ البَغداديَّةُ

ذكرها ياقوتُ الحَمَوِيُّ في كتابه ((مُعْجَمُ الأَدبَاءِ))^(١٣٤). وقد كانت هذه الرَّسالةُ مَفْهُودَةً. وفي عام ١٩٨٠ م قَدَّمَا لَنَا عبُودُ الشَّالِجِيُّ بِتَحْقِيقِهِ عَن مَطْبَعَةِ الكُتُبِ بَيرُوتَ.

(١٨)

رسالةُ الحنينِ إلى الأوطان

هُنَاكَ رسالةٌ مَطْبُوعَةٌ بِالاسْمِ ذَاتِهِ مَنْسُوبَةٌ لِلْجَاحِظِ، اِخْتَلَفَ النُّقَّادُ فِي نَسْبَتِهَا إِلَيْهِ، وَكَذَلِكَ شَأْنُ هَذِهِ الرَّسالةِ الْمَفْهُودَةِ الَّتِي يُرَجَّحُ مُشَاهَدَتُهَا لِرِسالَةِ الْجَاحِظِ، بَلْ لَعَلَّهَا هِيَ ذَاتُهَا. ذَكَرَهَا ياقوتُ الحَمَوِيُّ فِي مُعْجَمِ الأَدبَاءِ مَنْسُوبَةً لِلتَّوْحِيدِيَّ^(١٣٥).

(١٩)

رسالةُ الحياةِ

أوردنا هذه الرسالة في هذا الكتاب.

(١٣٤) - ياقوت الحموي: معجم الأديباء. ج ١٥. ص ٧.

(١٣٥) - ياقوت الحموي: معجم الأديباء. ج ١٥. ص ٧.

(٢٠)

رسالة

في أخبار الصوفية

يرى الدكتور إبراهيم الكيلاني أن «عَرَضَ التَّوْحِيدِيَّ مِنْ رِسَالَتِهِ هَذِهِ مُحَارِبَةً الْبِدْعِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَى الطَّرِيقَةِ فَأُبْعِدْتُهَا عَنْ مَنَاجِحِ السُّنَّةِ»^(١٣٦)، فَقَدْ كَتَبَ الْقَاسِمُ عَبْدُ الْكَرِيمِ الْقُشَيْرِيُّ نَظِيرًا لِهَذِهِ الرَّسَالَةِ؛ هِيَ ((الرَّسَالَةُ الْقُشَيْرِيَّةُ))، الْمَعْرُوفَةُ، لِلْغَرَضِ ذَاتِهِ حَسْبَمَا رَأَى مُحَمَّدُ الْمَوْسَوِيُّ فِي كِتَابِهِ ((رَوْضَاتُ الْجَنَّاتِ))^(١٣٧)، وَرَدَ ذَكَرُ رِسَالَةَ التَّوْحِيدِيَّ عِنْدَ يَاقُوتِ الْحَمَوِيِّ فِي كِتَابِهِ ((مُعْجَمُ الْأَدْبَاءِ)).

(٢١)

رسالة

في بيان ثمرات العلوم

أوردنا هذه الرسالة في هذا الكتاب.

(١٣٦) . د. إبراهيم الكيلاني: مقدمة رسائل أبي حيان التوحيدى. ص ١٠٠.

(١٣٧) . محمد الموسوي الخونساري: روضات الجنات. ٢٠/٤.

(٢٢)

رسالة

في ضلالات الفقهاء في المناظرة

تُدْرَجُ هذه الرِّسالةُ ضمن الآثار الفلسفيَّة للتَّوْحِيدِ، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّها مفقودةٌ. ذكرها ياقوتُ الحمويُّ في ((مُعْجَم الأَدْبَاءِ))^(١٣٨).

(٢٣)

رسالة

في علم الكتابة

أوردنا هذه الرسالة في هذا الكتاب.

(٢٤)

رياض العارفين

يُدرَجُ هذا الكتابُ ضمن الآثار الصُّوفيَّة لأبي حَيَّان. أورد ياقوتُ الحمويُّ ذكره في ((مُعْجَم الأَدْبَاءِ))^(١٣٩)، ولعلَّه من الكُتُبِ المفقودة أيضاً.

(١٣٨) - ياقوت الحموي: معجم الأَدْبَاءِ - ج ١٥ - ص ٧.

(١٣٩) - ياقوت الحموي: معجم الأَدْبَاءِ - ج ١٥ - ص ٧.

(٢٥)

الزُّلْفَى

وهذا الكتابُ أيضاً ممَّا يندرجُ ضمنَ الآثارِ الصُّوفِيَّةِ للتَّوْحِيدِيِّ. ذكره
ياقوتُ الحمويُّ في ((معجم الأديباء))^(١٤٠).

(٢٦)

الصَّدَاقَةُ وَالصَّدِيقُ

حدَّدَ صاحبُ ((الصَّدَاقَةُ وَالصَّدِيقُ)) مضمونَ هذا الكتابِ وغايتهُ فيه في
مُقدِّمته بقوله: «سَمِعَ مِنِّي فِي وَقْتِ بَمْدِينَةِ السَّلَامِ كَلَامٌ فِي الصَّدَاقَةِ وَالْعَشْرَةِ
وَالْمُؤَاخَاةِ وَالْأُلْفَةِ وَمَا يَلْحَقُ بِهَا مِنْ الرَّعَايَةِ وَالْحِفَاظِ وَالْوَفَاءِ وَالْمُسَاعَدَةِ
وَالنَّصِيحَةِ وَالْبَدَلِ وَالْمُؤَاسَاةِ وَالْجُودِ وَالتَّكْرُمِ مِمَّا قَدْ ارْتَفَعَ رِسْمُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَعَفَى
أَثَرُهُ عِنْدَ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ، وَسُئِلْتُ إِثْبَاتَهُ ففَعَلْتُ، وَوَصَلْتُ ذَلِكَ بِجُمْلَةٍ مِمَّا قَالَ أَهْلُ
الْفَضْلِ وَالْحِكْمَةِ وَأَصْحَابُ الدِّيَانَةِ وَالْمُرُوءَةِ لِيَكُونَ ذَلِكَ كُلَّهُ رِسَالَةً تَامَّةً يُمَكِّنُ
أَنْ يُسْتَفَادَ مِنْهَا، وَيُنْتَفَعُ بِهَا فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ»^(١٤١).

وَلَمَّا بَلَغَ ابْنُ سَعْدَانَ هَذَا الْحَبْرُ شَجَعَ أَبُو حَيَّانَ عَلَى إِنْجَازِ رِسَالَتِهِ،
لَوْلَا أَنَّهُ لَمْ يُنْجِزْهُ لِلتَّوِّ، فَقَدْ ظَلَّ قُرَابَةَ الثَّلَاثِينَ عَاماً يُرَاجِعُهُ وَيَزِيدُ فِيهِ حَتَّى
انْتَهَى عَامَ أَرْبَعِمِئَةِ لِلْهَجْرَةِ؛ جَامِعاً فِيهِ جُلَّ مَا قِيلَ فِي الصَّدَاقَةِ وَالصَّدِيقِ؛ شِعْراً
وَنَثْراً، مِنْ أَقْوَالِ سَابِقِيهِ وَمُعَاصِرِيهِ؛ الْمَعْرُوفِينَ وَالْمَعْمُورِينَ.

(١٤٠) . ياقوت الحموي: معجم الأديباء . ج ١٥ . ص ٧.

(١٤١) . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: الصَّدَاقَةُ وَالصَّدِيقُ . ص ١.

نُشِرَ هذا الكتابُ لأوَّلَ مرَّةٍ على يدي أحمدُ فارسُ الشَّدِيقُ عام ١٨٨٤م في كتاب: رسالتان للعلامة الشَّهير أبي حَيَّان التَّوْحِيدِيّ. وقد عني الدُّكتورُ إبراهيمُ الكيلانيُّ بتحقيق هذا الكتاب ونشره بدمشق عام ١٩٦٤م، مُعتمداً على مخطوطةٍ قَدِيمَةٍ عَثَرَ عليها في إحدى مكْتَباتِ استانبُول. وبعد ذلك قام عليُّ مُتولِّي صلاح بشرح هذا الكتاب والتعليق عليه ونشره في القاهرة عام ١٩٧٢م.

(٢٧)

مثالب الوزيرين

هي رسالةٌ قَرِيبَةٌ الشَّبه؛ شكلاً ومضموناً من رسالة ((التَّرْبِيع والتَّدْوِير)) الَّتِي كَتَبَهَا الجاحظُ في الكاتب أحمد بن عبد الوهاب^(١٤٢). تناول التَّوْحِيدِيُّ فِيهَا ((أخلاق الوزيرين))؛ الصَّاحِبُ بن عَبَّاد وأبي الفَضْلِ بن العَمِيدِ بِصُورَةٍ نَفْدِيَّةٍ لاذِعَةٍ هي أَقْرَبُ ما تَكُونُ إلى التَّصْوِيرِ المُسْحِيّ: (الكاريكاتيريّ)، قاصداً لا مُحْضِ الهُجْوِ وإيماً للإساءة لهُمَا لما لَمْ يُلاقِهِ عِنْدَهُمَا مِنْ رِجاءٍ ومَأْمُولٍ، وخيبة أمله فِيهِمَا إذ صَدَّاهُ وَمَنَعَاهُ. هذا إلى جانب طرائف ولطائف وتعليقاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ أَكْسَبَتْها قِيمةٌ جَمالِيَّةٌ وأدبِيَّةٌ وفكرِيَّةٌ أَكْبَر.

طُبِعَتْ هذه الرِّسالةُ بدمشق عام ١٩٦١م في أُرْبعمئةِ صَفْحَةٍ، وقد عني الدُّكتورُ إبراهيمُ الكيلانيُّ بتحقيقها ونشرها. ولِلكتابِ نَشْرَةٌ بِعُنوان: ((ذمُّ

(١٤٢) . أحمد بن عبد الوهاب: ليس أحمد بن عبد الوهاب شخصية مرموقة في التاريخ العربي، ولم تكن لتذكر لولا رسالة الجاحظ فيه؛ رسالة التربيعة والتدوير، الَّتِي كَتَبَهَا - كما قيل - بناءً على طلب صديقه الوزير ابن الزيات بغية إظهار جهل هذا الرجل والخط من قيمته. ولهذا الموضوع قصَّةٌ طويْلَةٌ مذكورةٌ في مقدِّمة الرِّسالة الَّتِي حَقَّقَهَا فوزي عطوي؛ (الشركة اللبنانية للكتاب . بيروت).

الوزيرين))، وأخرى بعنوان: ((أخلاق الوزيرين؛ مثالب الوزيرين الصَّاحِب ابن عبَّاد وابن العميد))، عني بتحقيقها مُحَمَّدُ بْنُ تَاوَيْت الطَّنْجِي. وفي عام ١٩٨١م قامت دارُ القلم الكُويتِيَّةُ بضمِّ هذه الرِّسالة إلى رسالة ((التَّرْيِيع والتَّدْوِير)) و((الرِّسالة الهزليَّة)) لابن زيدون وأصدرتها تحت عنوان: ((ثلاثُ رسائل في الهجاء)).

(٢٨)

المحاضرات والمناظرات

يُدرِّج هذا الكتابُ ضمن الآثار الصُّوفيَّة التي خَلَفَهَا التَّوْحِيدِي، وقد اِفْتِطَف الغزوليُّ بعض فقره وضمَّنها في ((مطالع البُدور))^(١٤٣). ذكره ياقوتُ الحمويُّ مرَّةً تحتَ عنوان: ((محاضراتُ العلماء))^(١٤٤). وجاء بالعنوان ذاته عند الصَّفديِّ في ((الوافي بالوفيات))^(١٤٥). وعند السيوطيِّ في ((بُغْيَةُ الوُعَاة))^(١٤٦). انظُرْ مُقتطفات هذه الرِّسالة في الفصل الثَّاني عشر من هذا الباب.

(٢٩)

المقاسبات

ثُمَّ شَبَّه اِخْتِلافِ بَيْن النُّقَادِ والمُؤرِّخِينَ في مَدَى نِسْبَةِ مضمُون هذا الكُتابِ إلى أَبِي حَيَّان التَّوْحِيدِي، فَالثَّابِتُ الأَكِيدُ أَنَّ أبا حَيَّانَ هُوَ الَّذِي جَمَعَ هذا الكُتابَ وَنَظَّمَهُ وَرَتَّبَهُ، وَالثَّابِتُ أَيْضاً أَنَّ بَعْضاً غَيْرَ قَلِيلٍ مِنْ هذا الكُتابِ مِنْ

(١٤٣) . الغزولي: مطالع البُدور . ج٢ . ص٦٢ .

(١٤٤) . ياقوت الحموي: معجم الأُدباء . ج١ . ص٥٨ و ج١٥ . ص٨ .

(١٤٥) . الصَّفدي: الوافي بالوفيات . ج٢٢ . ص٤١ .

(١٤٦) . السيوطي: بغية الوعاة في طبقات الغويين والنحاة . ص٣٤٨ .

إملاء أبي سليمان السجستاني المنطقي على طلابه في حلقات العلم التي كان يعقدها، وغيره من المشتغلين بالفكر والفلسفة والأدب الذين كانوا يرتادون حلقاته ويشاركون في الحوار والنقاش.

تكمُنُ مشكلةُ نسبةِ الكتابِ في صياغته على الأقل؛ فمن قائلٍ بأنَّ الأفكارَ لأبي سليمان ورفاقه والصياغة والسبب والتنظيم لأبي حيان، ومن قائلٍ بأنَّ الكتابَ بكليته؛ شكلاً ومضموناً لأبي سليمان ورفاقه، ولم يكن للتوحيدي من دورٍ سوى الكتابة، وهذا رأيُّ الدكتور شوقي ضيف الذي احتجَّ بوجود بعضِ المقابسات بحرفيتها في بعضِ الكُتب الأخرى مثل: ((صَوَانِ الْحِكْمَةِ)) لأبي سليمان السجستاني. أستاذُ التَّوْحِيدِي، على أنَّه لم يَنْفِ بعضَ التَّدخُّلاتِ للتَّوْحِيدِيٍّ مِنْ حَذْفِ وَزِيَادَةِ وَإِضَافَةِ^(١٤٧). والحقُّ أنَّ وُجُودَ بعضِ المُقابساتِ بحرفيتها في كُتُبٍ أُخْرَى لَيْسَ دَلِيلًا كَافِيًا عَلَى أَنَّ الْكِتَابَ كُلَّهُ لِأَبِي سُلَيْمَانَ وَصَحْبِهِ. وَيَذْهَبُ الْمُسْتَشْرِقُ مَایرْهُوفُ إِلَى التَّشْكِيكِ فِي صِحَّةِ نِسْبَةِ قِسْمٍ مِنْ كِتَابِ ((المُقَابَسَاتِ)) إِلَى التَّوْحِيدِيٍّ بِقَوْلِهِ: «لَيْسَ لِهَذِهِ الْمُحَاوَرَاتِ الَّتِي كَتَبَ الْمُؤَلِّفُ بَعْضَهَا مِنْ قِيَمَةٍ كَبِيرَةٍ فِيهِ مَوْضُوعَةٌ فِي قَالِبِ أَدَبِيٍّ، وَالْمُلْحُ تَسْوُدُهَا إِلَى جَانِبِ التَّلَاعُبِ بِالْأَلْفَاظِ»^(١٤٨).

والكتابُ بِجُمْلَتِهِ فَلَسْفِي الصَّبْغَةِ، أَدَبِيُّ التَّرْعَةِ، فَمَوَاضِعُهُ كُلُّهَا، تَقْرِيْبًا، فَلَسْفِيَّةٌ؛ كَالْجَوْهَرِ وَالْمَادَّةِ، وَالتَّنْفُسِ وَالْعَقْلِ، وَالرَّيْمَانِ وَالْمَكَانِ، وَالْمَعَادِ وَالْمَعَاشِ ... هَذَا إِلَى جَانِبِ بَعْضِ الْمُبَاحِثِ الْأَدْبِيَّةِ وَالطَّرَائِفِ وَالْمُلْحِ وَالتَّوَادِرِ.

(١٤٧) . د. شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات. ص ٤٥٩.

(١٤٨) . ماكس مایر هوف: من الاسكندرية إلى بغداد. ص ٨٨ . ٩٠.

طُبِعَ هَذَا الْكِتَابُ أَكْثَرَ مِنْ طَبْعَةٍ مِنْهَا طَبَعْنَا بُوْمَبَايَ الْحَجْرِيَّتَيْنِ
عَامَ ١٣٠٥ هـ وَ ١٣٠٦ هـ بِعَنَايَةِ مِيرْزَا مُحَمَّدِ الشِّيرَازِيِّ، وَطُبِعَ فِي مِصْرَ
عَامَ ١٩٢٩ مَ بِتَحْقِيقِ حَسَنِ السَّنْدُوبِيِّ، وَبِعَنَايَةِ مُحَمَّدِ تَوْفِيقِ حُسَيْنِ صَدَرْتِ
طَبْعَةٌ أُخْرَى مِنْ الْكِتَابِ بِبَغْدَادِ عَامَ ١٩٧٠ مَ، وَقَامَ مُؤَخَّرًا الدُّكْتُورُ إِبْرَاهِيمُ
الْكِيْلَانِيُّ بِإِعْدَادِ طَبْعَةٍ مُخْتَصِرَةٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ أَصْدَرَتْهَا وَزَارَةُ الثَّقَافَةِ بِدَمَشَقَ
عَامَ ١٩٨٠ مَ.

(٣٠)

المناظرة بين أبي

سعيد السيرافي ومتي بن يونس القنائي

أوردنا هذه الرسالة في هذا الكتاب.

(٣١)

النَّوَادِر

ذَكَرَ التَّوْحِيدِيُّ ذَاتَهُ هَذَا الْكِتَابَ فِي ((الْمُقَابَسَاتِ))^(١٤٩)، وَهُوَ مِنْ
الْكَتُبِ الْمَفْقُودَةِ. وَلَكِنَّ السِّيَاقَ الَّذِي وَرَدَ فِيهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَضْمُونَ الْكِتَابِ
مُخْصُوصٌ بِعِلْمِ الْكَلَامِ، ذَلِكَ أَنَّ الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ كَانَتْ خَاتِمَةً لِمُقَابَسَةٍ يُحَاجِجُ فِيهَا
عُلَمَاءُ الْكَلَامِ وَيَنْتَقِدُهُمْ.

(١٤٩). أبو حَيَّانَ التَّوْحِيدِيُّ: الْمُقَابَسَاتِ (س). ٥٤م. ص ١٨٨.

الهوامل والشوامل

الكتاب أشبه ما يكونُ بحوارٍ بين أبي حَيَّان التَّوْحِيدِيّ وأبي عليّ مسكويه، فهو جُملةٌ من الأسئلة المُتنوّعة؛ الفُلسفيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والأدبيّة واللُّغويّة ... سمّاها أبو حَيَّان: (الهوامل^(١٥٠)) ووجّهها إلى مسكويه الذي أجاب بتفصيلٍ عن هذه الأسئلة وسمّى أجوبته: (الشوامل^(١٥١)). فهو إذن كتابٌ مُشتركٌ. وعلى الرُّغم من أنّ نصيب أبي عليّ مسكويه هو الأكبرُ فقد اشتهر منسوباً إلى التَّوْحِيدِيّ، نُشر هذا الكتابُ بالقاهرة عام ١٩٥١م بعناية الأستاذين أحمد أمين وأحمد صقر تحفيقاً وتقديمًا ونشرًا.

* * *

(١٥٠) . الهوامل هي الإبل السائمة، يهملها صاحبها ويتركها ترعى، وقد استعار أبو حَيَّان كلمة الهوامل لأسئلته

المبعثرة التي تنتظر الجواب.. الهوامل والشوامل . ص ج.

(١٥١) . الشوامل هي الحيوانات التي تضبطُ الإبل الهوامل فتجمعها. وقد استعمل مسكويه كلمة الشوامل إسمًا

لإجاباته التي أجاب التَّوْحِيدِيّ بها فضبطت هومله. الهوامل والشوامل . ص ج.

الباب الثاني
ثبت الكتابات عن التوحيد

المصادر والمراجع التي ترجمت للتّوحيدي
الكتب المؤلّفة عن التّوحيدي
المقالات والدّراسات المكتوبة عن التّوحيدي

الحقُّ إن كان من اليسير حصر المصادر التي ترجمت للتوحيدِيَّ فإنَّ المراجع التي خصَّته ببعض فصولها كثيرةٌ بما يجعل من المتعذَّر الوقوف عليها كلَّها ولذلك سندرج فيما يلي ثبناً بما استطعنا الوصول إليه، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من المصادر والمراجع التي ترجمت للتوحيدِيَّ أو خصَّته ببعض فصولها.

أولاً: المصادر والمراجع التي ترجمت للتوحيدِيَّ

- ١٠ الإسنوي: طبقات الشافعية؛ تحقيق عبد الله الجبوري . وزارة الأوقاف . بغداد . ١٣٩٠هـ . (ج ١ . ص ٣٠١-٣٠٣) .
- ٢٠ ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان . حيدر آباد الدكن . الهند . (ج ٦ . ص ٣٦٩-٣٧٩) .
- ٣٠ ابن خلكان: وفيات الأعيان؛ تحقيق إحسان عباس . دار صادر . بيروت . ١٩٦٧م . ١٩٧٣م . (ج ٥ . ص ١١٢-١١٣) .
- ٤٠ بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي؛ ترجمة . دار المعرف بمصر . القاهرة . ط ٤ . ١٩٧٧م . (ج ١ . ص ٢٨٣) .
- ٥٠ البشير المجذوب: حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى . الدار العربية للكتاب . تونس . ١٩٨٢م .
- ٦٠ حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . مكتبة المثنى . بغداد . د . ت . (ج ١ . ص ١٤٠ ، ١٧٦ ، ٢٤٦ ، ٥٢٢ ، ١٧٧٨) .
- ٧٠ الذهبي: سير أعلام النبلاء؛ تحقيق بشار عواد معروف وآخرين . مؤسسة الرسالة . بيروت . (ج ١٧ . ص ١١٩-١٢٣) .

- ٨ • الذَّهبي: ميزان الاعتدال؛ تحقيق علي محمد البجاوي . القاهرة . ١٩٦٣ م .
١٩٦٤ م . (ج ٤ . ص ٥١٨) .
- ٩ • الزركلي، خير الدِّين: الأعلام . ط ٤ . ١٩٧٩ م . (ج ٤ . ص ٣٢٦) .
- ١٠ • زكي مبارك: النَّثر الفِئِّي في القرن الرَّابِع الهجري . المكتبة التَّجاريَّة . القاهرة .
١٩٣٤ م . (ج ١ . ص ٢٨١ . ٢٨٥ ، ج ٢ . ص ١٣٣ . ١٤٤) .
- ١١ • السبكي: طبقات الشَّافعيَّة الكبرى؛ تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح
محمد الحلو . هجر للطباعة والنَّشر . القاهرة . ١٩٩٣ م . (ج ٥ . ص ٢٨٦ . ٢٨٩) .
- ١٢ • السيوطي، جلال الدِّين: بغية الوعاة . القاهرة . ١٣٢٦ هـ . (ص ٤٨٨ . ٤٩٣) .
- ١٣ • شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي؛ عصر الدول والإمارات: الجزيرة العربيَّة،
العراق، إيران . دار المعارف . القاهرة . ١٩٨٠ م . (٤٥٣ . ٤٦٥) .
- ١٤ • الصَّفدي: الوافي بالوفيات؛ تحقيق مجموعة من العلماء . النَّشرات الإسلاميَّة .
بيروت . ١٩٤٦ م . ١٩٩٢ م . (ج ٢٢ . ص ٩٣ . ٤١) .
- ١٥ • علي شلق: العقل في التُّراث الجمالي عند العرب . دار المدى . بيروت . ط ١ ،
١٩٨٥ م . (١٩٦ . ٢٠٧) .
- ١٦ • عمر رضا كحَّالة: معجم المؤلِّفين . دار إحياء التُّراث العربي . بيروت . د . ت .
(ج ٧ . ص ٢٠٥ . ٢٠٦) .
- ١٧ • فوقيَّة حسين: معجم أعلام الفكر الإنساني . الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب .
القاهرة . ١٩٨٤ م . (مادَّة: التَّوحيدي) .
- ١٨ • محمد عيسى صالحية: المعجم الشَّامل للتُّراث العربي المطبوع . معهد
المخطوطات العربيَّة . القاهرة . ١٩٩٢ م . ١٩٩٥ م . (ج ٢ . ص ٢٤١ . ٢٤٦) .
- ١٩ • محمد كرد علي: أمراء البيان . القاهرة . ١٩٣٧ م . (ج ٢ . ص ٤٨٨ . ٥٤٥) .

- ٢٠ محمد كرد علي: كنوز الأجداد. دمشق. ١٩٥٠ م. (ص ٢٢١-٢٣٢).
- ٢١ النّووي: تهذيب الأسماء واللغات. القاهرة. د.ت. (ج ٢. ص ٢٢٣).
- ٢٢ ياقوت الحموي: معجم الأدباء؛ تحقيق فريد الرّفاعي. القاهرة. ١٩٣٦ م. (ج ١٥. ص ٥٢٥).
- ٢٣ يوسف إيلان سركيس: معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة. القاهرة. ١٩٢٨. (ج ١. ص ٣٠٤-٣٠٦).
- ٢٤ يوسف شاروني: الحبّ والصّدّاقة في التّراث العربي. دار المعارف بمصر. القاهرة. ١٩٧٥ م.

- 25 Margoliouth, D. S: **Abu Hayyan Al Tawhidi**. in Ency. De L' Islam. ed.
- 26 Stern, S. M: **Abù Hayyàn Al-Tawhidi**. in The Encyclopaedia of Islam. Vol 1. Leiden. 1979.

* * *

ثانياً: الكتب المؤلفة عن التّوحيدي

- ندرج فيما يلي ثبناً بما استطعنا الوصول إليه، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من الكتب المؤلفة في فكر أبي حيّان التّوحيدي وأدبه. على أنّ الجدير ذكره أنّ معظم هذه الكتب قد طبع أكثر من طبعة وقد أثبتنا إحدى الطّبّعات على الأقل.
- ٢٧ أحمد محمّد الحوفي: أبو حيّان التّوحيدي. مكتبة نهضة مصر. القاهرة. ١٩٥٧ م.
 - ٢٨ إبراهيم الكيلاني: أبو حيّان التّوحيدي. دار المعارف. القاهرة. ١٩٥٧ م.

- ٢٩ إحصان عبّاس: أبو حيّان التّوحيدي . بيروت . ١٩٥٦م / دار جامعة الخرطوم .
الخرطوم . ط ٢ . ١٩٨٠م .
- ٣٠ حسن السّندوبي: أبو حيّان التّوحيدي . دار المعارف . سوسة . ١٩٩١م .
- ٣١ حسن السّندوبي: أبو حيّان التّوحيدي؛ آثاره ومروياته ضمن نشرة المقابسات .
المكتبة التّجاريّة الكبرى . مصر . ط ١ . ١٩٢٩م .
- ٣٢ حسن الملقاوي: الله والإنسان في فلسفة أبي حيّان التّوحيدي . مكتبة مدبولي .
القاهرة . ١٩٨٩م .
- ٣٣ حسين الصديق: القيم الجمالية عند التّوحيدي . رسالة ماجستير نوقشت في
جامعة حلب .
- ٣٤ حمادي المسعودي: هيكل الليلة ومدلوله الفكري والحضاري في الإمتاع
والمؤانسة لأبي حيّان التّوحيدي . مؤسّسة سعيدان . سوسة . ١٩٨٨م .
- ٣٥ خالد محيي الدين البرادعي: أبو حيّان التّوحيدي (مسرّحيّة) . اتّحاد الكتّاب
العرب . دمشق . ١٩٨٣م .
- ٣٦ زكريا إبراهيم: أبو حيّان التّوحيدي؛ أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء .
المؤسّسة المصريّة العامّة . القاهرة . ط ٢ ، ١٩٧٤م .
- ٣٧ عبد الأمير الأعسم: أبو حيّان التّوحيدي في كتاب المقابسات . دار الأندلس .
بيروت . ١٩٨٣م .
- ٣٨ عبد الرزّاق محيي الدين: أبو حيّان التّوحيدي؛ سيرته وآثاره . مكتبة الخانجي .
القاهرة . ط ١ . ١٩٤٩م .
- ٣٩ عبد الواحد حسن الشّيخ: أبو حيّان التّوحيدي وجهوده الأدبيّة والفنيّة .
الهيئة العامّة للكتاب . الإسكندريّة . ١٩٨٠م .

- ٤٠● عفيف بهنسي: علم الجمال عند أبي حيان التّوحيدي ومسائل الفن - وزارة الإعلام - بغداد - ط ١ - ١٩٧٢م.
- ٤١● عفيف بهنسي: فلسفة الفنّ عند التّوحيدي - دار الفكر - دمشق - ١٩٨٧م.
- ٤٢● عفيف بهنسي: الفكر الجمالي عند التّوحيدي - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - ١٩٩٧م.
- ٤٣● علي دب: الأديب المفكّر أبو حيان التّوحيدي - الدّار العربيّة للكتاب - طرابلس الغرب / تونس - د.ت.
- ٤٤● غازي عبد العزيز عاشير: أنماط الشّكل التّعبيري في كتابات التّوحيدي - رسالة ماجستير مخطوطة بالجامعة الأردنيّة - الأردن - ١٩٩٤م.
- ٤٥● كامل يوسف عتوم: نقد الشّعْر عند أبي حيان التّوحيدي - رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة اليرموك - الأردن - ١٩٩٢م.
- ٤٦● كمال عمران والمنصف الجزائر: أبو حيان بين الفكر والوجدان - تونس.
- ٤٧● محمد الحبيب حمادي: التّوحيدي وقراءة جديدة في الإمتاع والمؤانسة.
- ٤٨● محمد علي الصّباح: أبو حيان التّوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة - دار الكتب العلميّة - بيروت - ١٩٩٠م.
- ٤٩● محمود إبراهيم: أبو حيان التّوحيدي؛ في قضايا الإنسان واللغة والعلوم - الدّار المتّحدة للنشر - بيروت - ط ١: ١٩٧٤م. ط ٢: ١٩٨٥.
- ٥٠● محمّد عبد الغني الشّيخ: أبو حيان التّوحيدي؛ رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والتّقْد - الدّار العربيّة للكتاب - ١٩٨٣م.
- ٥١● مها مظلوم خضر وآخرون: أبو حيان التّوحيدي؛ ببلوغرافية مختارة - مطبعة دار الكتب المصريّة - القاهرة - ١٩٩٥م.

- ٥٢ نور الدّين بن بلقاسم: أصداء المجتمع والعصر في أدب أبي حيّان التّوحيدي . المنشأة العامّة للنّشر والتّوزيع والإعلان . ليبيا . ١٩٨٤م .
- ٥٣ وداد القاضي: مجتمع القرن الرّابع في مؤلّفات أبي حيّان التّوحيدي . رسالة ماجستير مخطوطة في الجامعة الأمريكيّة ببيروت . لبنان . ١٩٦٨م .
- ٥٤ وسيم إبراهيم: نظريّة الأخلاق والتّصوّف عند أبي حيّان التّوحيدي . دار دمشق . دمشق . ١٩٩٤م .

- 55 Arkoun, M: **L'humanisme Arabe au IV-X Siecle D'apres Le Kitab al Hawamil wal Sawamil. Studia - Islamica. Vol. XIV. 1961.**
- 56 Bergé, Marc: **Pour un Humanisme vécu: Abu Hayyan Al Tawhidi.** Institut Français de Damas. Damas. 1979.
- 57 Ibrahim Keilani: **Abu Hayyan Al Tawhidi; Introduction à son œuvre.** Institut Français de Damas. Beyrouth. 1950.

* * *

ثالثاً: المقالات والدراسات المكتوبة عن التّوحيدي

- ندرج فيما يلي ثبناً بما استطعنا الوصول إليه، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من المقالات والدراسات المخصوصة بفكر التّوحيدي وأدبه.
- ١ أحمد الحوفي: بين أبي حيّان وابن العميد . ضمن مجلّة؛ العربي . الكويت . العدد ١٦٥ . جمادى الآخرة ١٣٩٢هـ / آب ١٩٧٢م .

- ٢ أحمد بولوط: مخطوطات التّوحيدي في المكتبات التركيّة . ضمن مجلّة؛ فصول .
الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م .
- ٣ أحمد درويش: تمرد الحاكي والمحكي؛ دراسة في بنية «الإمتاع والمؤانسة» . ضمن
مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ .
شتاء ١٩٩٦م .
- ٤ أحمد عبد الفتّاح البرّي: التّوحيدي بين العلم والمعرفة؛ دراسة في قيمة العلم عند
أبي حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة .
مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٥ أحمد عبد المعطي حجازي: التّوحيدي؛ مغامرة اللغة الطّقسيّة . ضمن مجلّة؛
فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ .
ربيع ١٩٩٦م .
- ٦ أحمد فؤاد الأهواني: نقد الهوامل والشّوامل . ضمن مجلّة؛ الثّقافة . القاهرة . مج ١٣
العدد ٦٤٤ . ١٩٥٦م .
- ٧ أحمد كمال زكي: في الصّدّاقة والصّدّيق . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة
للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ٨ أنور لوقا: أبو حيّان والتّعامل مع الحداثة . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة
العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ٩ أيمن فؤاد السّيّد: أبو حيّان التّوحيدي؛ مؤلّفاته المخطوطة والمطبوعة . ضمن مجلّة؛
فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ .
خريف ١٩٩٦م .
- ١٠ ألّفت كمال الرّوي: التّوحيدي وأشكال الكتابة . ضمن مجلّة؛ الهلال . القاهرة .
العدد ١١ . كانون الأوّل ١٩٩٥م .

- ١١ ألفت كمال الرُّوي: محاورات التَّوحيدي وتعدد الأصوات . ضمن مجلَّة؛ فصول .
الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ١٢ إبراهيم السَّعافين: التَّوحيدي والتُّراث الشَّعبي . ضمن مجلَّة؛ فصول . الهيئة المصريَّة
العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ١٣ إحسان عبَّاس: أبو حيَّان التَّوحيدي وعلم الكلام . ضمن مجلَّة؛ أبحاث . الجامعة
الأمريكيَّة . بيروت . العدد ١٩ . ١٩٦٦م .
- ١٤ إحسان عبَّاس: التَّوحيدي معاصراً لنا . ضمن مجلَّة؛ فصول . الهيئة المصريَّة العامَّة
للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م .
- ١٥ إدوارد الحزَّاط: كتابة الغربية وأبو حيَّان التَّوحيدي . ضمن مجلَّة؛ فصول . الهيئة
المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م .
- ١٦ إنغريت روسون: السَّجع بين التَّوحيدي ومعاصريه . ضمن مجلَّة؛ فصول . الهيئة
المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ١٧ باول كراوس: أبو حيَّان التَّوحيدي . ضمن مجلَّة؛ الثَّقافة . القاهرة . مج ٦ .
١٩٤٤م .
- ١٨ البشير المجذوب: النَّقد الأدبي عند أبي حيَّان التَّوحيدي . ضمن مجلَّة؛ الحياة
الثَّقافيَّة . وزارة الشُّؤون الثَّقافيَّة . تونس . العدد ٢ . ١٩٧٧م .
- ١٩ جابر عصفور: مفتتح . ضمن مجلَّة؛ فصول . الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة
 . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ٢٠ جابر عصفور: مفتتح؛ أبو حيَّان التَّوحيدي بعد ألف عام . ضمن مجلَّة؛ فصول .
الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٢١ جابر عصفور: مفتتح؛ الرِّغبة الملتبسة للكتابة . ضمن مجلَّة؛ فصول . الهيئة المصريَّة
العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م .

- ٢٢ جعفر الكنسوسي: تعليقات على كتاب الإشارات الإلهية . ضمن مجلّة؛ فصول .
الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م .
- ٢٣ جعفر هادي حسن: دفاع عن أبي حيّان عن إحراقه لكتبه . ضمن مجلّة؛ العربي .
الكويت . العدد ٣٢٣ . تشرين الأول ١٩٨٥م .
- ٢٤ جمال الغيطاني: أخي الذي لم أره . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة
للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م .
- ٢٥ حامد إبراهيم الخطيب: بين التّوحيدي وأبي منصور الثّعالبي . ضمن مجلّة؛ الأزهر .
مج ٥٨ . ١٤٠٦/هـ ١٩٨٦م .
- ٢٦ حامد إبراهيم الخطيب: بين التّوحيدي والصّاحب بن عبّاد . ضمن مجلّة؛ الأزهر .
مج ٥٨ . ج ١٢ . ١٤٠٦/هـ ١٩٨٦م .
- ٢٧ حامد طاهر: فلسفة السّؤال والتّساؤل عند التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة
المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ٢٨ حسن حنفي: جدل الموروث والوافد؛ قراءة في المناظرة بين المنطق والتّحو بين
مئى بن يونس وأبي سعيد السّيرافي عند أبي حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول .
الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٢٩ حسن محمد حسن حماد: الاغتراب عند أبي حيّان التّوحيدي؛ دراسة فلسفيّة من
خلال الفكر الوجودي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب .
القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٣٠ حسن نور الدّين: الفرديّة أو الأنا في شخصيّة التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ الفكر
العربي . معهد الإنماء العربي . بيروت . العدد ٥٤ .
- ٣١ حسين الصديق: طبيعة الجمال عند أبي حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ الموقف
الأدبي . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد ١٨١/١٨٢/١٨٣ . ١٩٨٦م .

- ٣٢ حسين الصديق: العلاقة بين مفهومي الإنسان والأدب عند التّوحيدي . ضمن مجلة؛ بحوث جامعة حلب . العدد ٢٨ . ١٩٩٥ م.
- ٣٣ حلمي سالم: الرّؤية الجماليّة عند التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ أدب ونقد . القاهرة . عدد حزيران عام ١٩٩٤ م.
- ٣٤ حمادي صمود: المشافهة والكتابة؛ مدخل إلى قراءة منطق التّأليف في الإمتاع والمؤانسة «للتّوحيدي» . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦ م.
- ٣٥ خوان أنطونيو باتشيكو: أبو حيّان التّوحيدي أو العالمي الفرد . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦ م.
- ٣٦ خيرى شلبي: أبو حيّان؛ محنة المثقّف العربي الشّريف . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦ م.
- ٣٧ رشيد الذوادي: التّوحيدي ؛ المفكّر الموسوعي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦ م.
- ٣٨ زكريا إبراهيم: أبو حيّان عالم النّفس . ضمن مجلّة؛ الرّسالة . القاهرة . العدد ١٠٤٥ . كانون الثّاني ١٩٦٤ م.
- ٣٩ زكي نجيب محمود: عرض لكتاب الإمتاع والمؤانسة . ضمن مجلّة؛ تراث الإنسانيّة . القاهرة . المجلد الأوّل .
- ٤٠ زينب الخضيرى: أبو حيّان التّوحيدي والبحث عن السّعادة . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦ م.
- ٤١ سالم حميش: تجربة الوجود والكتابة عند التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦ م.

- ٤٢ سالم يفوت: مدخل لقراءة رسالة السَّقيفة لأبي حَيَّان التَّوحيدي . ضمن مجلَّة؛ فصول .
الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٤٣ سعيد حسين منصور: أدب أبي حَيَّان التَّوحيدي بين المرحلة الكلاميَّة والمرحلة
الفلسفيَّة من تاريخ النَّثر الفَنِّي . ضمن مجلَّة؛ فصول . الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب
القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٤٤ سعيد يقطين: المجلس، الكلام، الخطاب؛ مدخا إلى ليالي التَّوحيدي . ضمن مجلَّة؛
فصول . الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ .
شتاء ١٩٩٦م .
- ٤٥ سمر العطار: أبو حَيَّان التَّوحيدي ومضلة الصَّداقة . ضمن مجلَّة؛ فصول . الهيئة
المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٤٦ سوسن بشير: تقرير حول: النَّدوة الدوليَّة بمناسبة الذكرى الألفيَّة للعالم الفقيه
«أبو حيان التوحيدي» . ضمن مجلَّة؛ المستقبل العربي . مركز دراسات الوحدة
العربيَّة . بيروت . العدد . ١٩٩٧م .
- ٤٧ السَّيد أحمد صقر: نقد الإشارات الإلهيَّة لأبي حَيَّان التَّوحيدي؛ تحقيق عبد الرَّحمن
بدوي، في أربع حلقات . ضمن مجلَّة؛ الثَّقافة . القاهرة . الأعداد: ٦٢٩ ، ٦٣٢ ،
٦٣٤ ، ٦٣٧ . ١٩٥١م .
- ٤٨ السَّيد إبراهيم محمد: الضَّحك في أدب أبي حَيَّان التَّوحيدي . ضمن مجلَّة؛ فصول
الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ٤٩ شعيب حليفي: تحويل المتعة من البناء الشَّفوي إلى نسق المكتوب . ضمن مجلَّة؛ فصول
الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ٥٠ شوقي ضيف: مؤثَّرات في حياة أبي حَيَّان وأدبه . ضمن مجلَّة؛ فصول . الهيئة
المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م .

- ٥١ شوقي ضيف: نقد الهوامل والشوامل لأبي حيان التّوحيدي ومسكويه، نشره الأستاذان أحمد والسيد أحمد صقر. ضمن مجلّة؛ الكتاب. القاهرة. مج ١١. ج ٦. رمضان ١٣٧١هـ/ حزيران ١٩٥٢م.
- ٥٢ صلاح قانصوه: أفق العقل لدى التّوحيدي؛ مساهمة معاصرة في نقد العقلانيّة. ضمن مجلّة؛ فصول. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. القاهرة. مج ١٥. العدد ١. ربيع ١٩٩٦م.
- ٥٣ طه الحاجري: التّوحيدي بين ابن العميد الأب وابن العميد الابن؛ الميلاد والموت. ضمن مجلّة؛ العربي. الكويت. العدد ١٧٩. ١٩٧٣م.
- ٥٤ الطاهر أحمد مكي: التّوحيدي يبعث في القاهرة. ضمن مجلّة؛ الهلال. القاهرة. العدد ١١. كانون الأوّل ١٩٩٥م.
- ٥٥ ظافر القاسمي: الصّدقة والصّديق لأبي حيان التّوحيدي. ضمن مجلّة؛ المعرفة. وزارة الثّقافة. دمشق. العدد ٦. ١٩٦٦م.
- ٥٦ عاطف العراقي: مفهوم الإنسان عند أبي حيان التّوحيدي. ضمن مجلّة؛ فصول. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. القاهرة. مج ١٥. العدد ١. ربيع ١٩٩٦م.
- ٥٧ عبد الحميد سامي بيومي: أبو حيان التّوحيدي وفلسفته. ضمن مجلّة؛ الأزهر. المجلد العاشر. ١٣٥٨هـ.
- ٥٨ عبد السّلام المسدي: التّوحيدي وسؤال اللغة. ضمن مجلّة؛ فصول. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. القاهرة. مج ١٤. العدد ٣. خريف ١٩٩٦م.
- ٥٩ عبد السّلام هارون: نقد الهوامل والشوامل لأبي حيان ومسكويه، نشره الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر. ضمن مجلّة؛ الثّقافة. القاهرة. مج ١٣. العددان ٣٤٥، ٣٤٧. ١٩٥١م.
- ٦٠ عبد القادر الرّباعي: التّفكير النّقدي في كتاب المقابسات للتّوحيدي؛ مقاربات نصيّة وقرآنة ذاتيّة. ضمن مجلّة؛ فصول. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. القاهرة. مج ١٥. العدد ١. ربيع ١٩٩٦م.

- ٦١ عبد القادر فيدوح: وجود الحق ولواحق الوجود؛ مشروع التّفكير الجمالي لدى أبي حيّان التّوحيدي . ضمن مجلة؛ التراث العربي . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد ٧٣ . ١٩٩٨م .
- ٦٢ عبد القادر محمود: أبو حيّان التّوحيدي وقضيّة الفلسفة والدّين . ضمن مجلّة؛ القاهرة . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . العدد ٩٤ . ١٩٨٩م .
- ٦٣ عبد اللطيف عبد الحلّيم: رسالة إلى أبي حيّان التّوحيدي (قصيدة) . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م .
- ٦٤ عبد الحميد الشّرفي: حدائث أبي حيّان . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ٦٥ عبد النّبي أسطيف: أصالة ومعاصرة في مفاهيم الشّعْر عند التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ الموقف الأدبي اتّحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد ٩١ . ١٩٧٨م .
- ٦٦ عثمان موافى: أبو حيّان التّوحيدي؛ النّاقِد الاجتماعي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ٦٧ عزّت السيّد أحمد: التّهكّم وفنّ الإضحاك عند التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ الموقف الأدبي . اتّحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد ٢٧٧ . ١٩٩٤م .
- ٦٨ عزّت السيّد أحمد: التّوحيدي مؤسساً لعلم الجمال العربي . ضمن مجلّة؛ المعرفة . وزارة الثّقافة . دمشق . العدد ٣٣٤ . ١٩٩١م .
- ٦٩ عصام بجمي: الكلام على الكلام؛ قراءة في فكر أبي حيّان التّوحيدي الأدبي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٧٠ عفيف بهنسي: الحدس الفئّي عند أبي حيّان . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .

- ٧١ عمّار الطّالبي: أبو حيّان التّوحيدي والفلسفة . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م .
- ٧٢ غانم هنا: المعرفة والعلم في فكر أبي حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٧٣ فاروق حسني: التّوحيدي؛ الرّمز المضيء . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م .
- ٧٤ كمال أبو ديب: المجلسيّات والمقامات والأدب العجائبي؛ من الخيال المعقلن إلى الخيال الجموح . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ٧٥ كمال إسماعيل: الكتابة في أدب أبي حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٧٦ لؤي علي خليل: أبو حيان التّوحيدي مفكراً جماليّاً . ضمن مجلّة؛ الموقف الأدبي . اتّحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد ٢٩٨ . ١٩٩٦م .
- ٧٧ ماجد يوسف: التّوحيدي؛ حوار العقل وسؤال التجربة . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م .
- ٧٨ ماجدة مخناية: مفهوم الإنسان عند أبي حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ التراث العربي . اتّحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد ٧٣ . ١٩٩٨م .
- ٧٩ محسن جاسم الموسوي: سردية التّوحيدي؛ نظريّة السرد العربي الوسيط: مواصفاتها ومدلولاتها عند أبي حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٨٠ محمد أحمد المسعودي: أبو حيّان التّوحيدي؛ الجسد في حكاية (الرّغبة): الرّهبة والشّيطنة) . ضمن مجلّة؛ كتابات معاصرة . بيروت . العدد ٣١ . تموز/آب ١٩٩٧م .

٨١ محمد إبراهيم حور: الصداقة والصديق في تراث أبي حيان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛
فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ .
خريف ١٩٩٦م.

٨٢ محمد بريري: البعد الإشاري والبعد الرّمزي؛ مدخل لقراءة خطاب أبي حيان .
ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ .
شتاء ١٩٩٦م.

٨٣ محمد بغداداي: موسيقى الخطّ العربي أبي حيان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول .
الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م.

٨٤ محمد بنيس: تمارين الصداقة ومسارات الخطاب لدى أبي حيان التّوحيدي .
ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ .
شتاء ١٩٩٦م.

٨٥ محمد رجب النّجّار: قراءة فولكلوريّة في أدب أبي حيان التّوحيدي؛ الإمتاع
والمؤانسة نموذجاً . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة .
مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م.

٨٦ محمد زغلول سلام: الموسيقى والغناء عند أبي حيان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛
فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ .
ربيع ١٩٩٦م.

٨٧ محمد زغلول سلام: الموسيقى والغناء عند أبي حيان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛
فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ .
ربيع ١٩٩٦م.

٨٨ محمد علي الكردي: التّوحيدي وإشكال الصّوت والكتابة . ضمن مجلّة؛ فصول .
الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦م.

- ٨٩ محمد علي مكّي: بين أبي حيّان التّوحيدي وابن حيّان الأندلسي . ضمن مجلّة؛ الهلال . القاهرة . العدد ١١ . كانون الأوّل ١٩٩٥ م .
- ٩٠ محمد كرد علي: أبو حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ المجمع العلمي العربي . الجزء ٣ . المجلد ١٠ ، ٩ ، ٨ . دمشق . ١٩٢٨ م .
- ٩١ محمد مفتاح: من الفوضى إلى الانتظام؛ انتظام «البصائر» . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦ م .
- ٩٢ محمد نور الدّين أفاية: الاهتمام بالجمال عند التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦ م .
- ٩٣ محمود أمين العالم: تساؤلات حول تساؤلات «الهوامل والشّوامل» . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦ م .
- ٩٤ محمود إبراهيم: التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦ م .
- ٩٥ محمود فهمي حجازي: الفكر اللغوي في إطار لقاء الثّقافات عند التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦ م .
- ٩٦ محيي الدين اللاذقاني: منطق السلطة وهواجس المثقفين؛ ثنائيّة التّمرد والاستسلام في تجربة أبي حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ . شتاء ١٩٩٦ م .
- ٩٧ ميغيل كروث هيرنانديث: ثلاث نقاط . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦ م .

٩٨ نصر الدّين صالح سيد: الرّؤية اللغويّة عند أبي حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛
فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ .
ربيع ١٩٩٦م.

٩٩ هارتموت بوبتين: التّوحيدي بين الألمان . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة
للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م.

١٠٠ هاشم محمد سويفي محمد: النّصوص المنسوبة إلى السيرافي في كتابات
التّوحيدي؛ أنماطها وقضاياها . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب .
القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م.

١٠١ هالة أحمد فؤاد: تحولات حديث الوعي؛ قراءة في التّوحيدي . ضمن مجلّة؛
فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ .
شتاء ١٩٩٦م.

١٠٢ هاني العمدة: التّوحيدي مترجماً للرّجال من خلال كتاب الإمتاع والمؤانسة .
ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ .
ربيع ١٩٩٦م.

١٠٣ واسيني الأعرج: الكتابة تراجمياً التّوحيدي؛ نصّ الخيبة والثّور . ضمن مجلّة؛
فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ .
ربيع ١٩٩٦م.

١٠٤ وداد القاضي: الرّكائز الفكرية في نظر أبي حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛
أبحاث . الجامعة الأمريكيّة . بيروت . السّنة ٢٣؛ كانون الأوّل ١٩٧٠م.

١٠٥ وداد القاضي: الغريب في إشارات التّوحيدي . ضمن مجلّة؛
Mélanges de université St.Joseph . ٢/٥٠ . ١٩٨٤م.

- ١٠٦ وداد القاضي: اللغة والعجز عن التّعبير في أدب أبي حيّان . ضمن مجلّة؛
فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٤ .
شتاء ١٩٩٦م.
- ١٠٧ وليد منير: نزعة النّفي عند أبي حيّان التّوحيدي؛ عن البعد النّفس . اجتماعي
في الرّؤية الصّوفيّة . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة .
مج ١٤ . العدد ٣ . حريف ١٩٩٦م.
- ١٠٨ يعقوب أفرام منصور: فلنكرّم أبا حيان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ المنهل . بغداد
. مج ٢ . العدد ٤ . أيلول ١٩٦٤م.
- ١٠٩ يوسف أبو العدس: المبحث التّقدي والبلاغي في كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي
حيّان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة .
مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م.
- ١١٠ يوسف زيدان: التّوحيدي والصّوفيّة . ضمن مجلّة؛ الهلال . القاهرة . العدد ١١
. كانون الأوّل ١٩٩٥م.
- ١١١ يوسف زيدان: هل كان التّوحيدي صوفيّاً أو فيلسوفاً؟ . ضمن مجلّة؛ فصول .
الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م.

112 Arkoun, M: **L'Humanisme Arabe Au IVe IXe Siècle d'après le Kitab Al Hawamel wal Shawamel**. Studia Islamica. Lasc. auneé. 1961.

113 Bergé, Marc: **Continuité et Progression des études Tawhidiennes Modernes de 1883 a 1965**. en Arabica, XXII. 1965.

- 114 Bergé, Marc: **Essai sur la Personnalité Morale et Intellectuelle d'Abu Hayyūn Al-Tawhidi**. Styliste et Humaniste Arabe de IV/X Siècle. Lille. 1974.
- 115 Bergé, Marc: **Le Corpus Tawhidien**. in *Annales Islamologiques*. T XIII. du Caire. 1977.
- 116 Bergé, Marc: **Structure et Signification du Kitab Al-Basū'ir wa L-dakhū'ir d'Abu Hayyūn Al-Tawhidi**. in *Annales Islamologiques de l'I.F.A.O. du Caire*. 1972.
- 117 Bergé, Marc: **Tawhidi; un Humaniste Arabe du IVe/Xe Siècle**. Extrait de revue *Travaux et Jours* 23. avril-juin. 1967.
- 118 Kopf. L: **The Zoological Chapter of the Kitab Al-Imta' wal-Mu'anasa of Abu Hayyan al-Tauhidi (10th century)**. *Osiris*. Vol. XII. 1958.
- 119 Vajda, Georges: **Breves Notes sur la Risala Fii-L'Ulum d'Abu Hayyan Al Tawhidi**. dans *Arabica*, XXII. 1965.

* * *

الباب الثالث
منتخبات
من رسائل التوحيد

رسالة

إلى أبي الفتح بن العميد

كَتَبَ أَبُو حَيَّانَ هَذِهِ الرَّسَالَةَ سَنَةَ ٣٦٣ هـ عِنْدَمَا قَصَدَ الْوَزِيرَ
الْبُوَيْهِيَّ أَبَا الْفَتْحِ بَنَ الْعَمِيدِ آمِلًا بِجَزِيلِ عَطَائِهِ. طَبَعَهَا الدُّكْتُورُ
إِبْرَاهِيمُ الْكِيْلَانِيُّ فِي كِتَابٍ: ((رِسَائِلُ أَبِي حَيَّانَ التَّوْحِيدِيِّ))
بِدِمَشْقٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ هَيِّئْ لِي مِنْ أَمْرِي رَشْدًا، وَوَقِّفْنِي لِمَرْضَاتِكَ أَبَدًا، وَلَا تَجْعَلِ الْحَرَمَانَ عَلَيَّ رِصْدًا^(١٥٢).

أَقُولُ وَخَيْرُ الْقَوْلِ مَا انْعَقَدَ بِالصَّوَابِ، وَخَيْرُ الصَّوَابِ مَا تَضَمَّنَ الصَّدَقَ، وَخَيْرُ الصَّدَقِ مَا جَلَبَ النَّفْعَ، وَأَجْلَبُ النَّفْعِ مَا تَعَلَّقَ بِالْمَزِيدِ، وَخَيْرُ الْمَزِيدِ مَا بَدَأَ عَنِ شُكْرٍ، وَخَيْرُ الشُّكْرِ مَا بَدَأَ عَنِ إِخْلَاصٍ، وَخَيْرُ إِخْلَاصٍ مَا نَشَأَ عَنِ إِتْقَانٍ، وَخَيْرُ الْإِتْقَانِ مَا صَدَرَ عَنِ تَوْفِيقٍ.

لَمَّا رَأَيْتُ شَبَابِي هَرِمًا بِالْفَقْرِ، وَفَقْرِي غَنِيًّا بِالْقَنَاعَةِ، وَقَنَاعَتِي عَجْزًا عِنْدَ التَّحْصِيلِ، عَدَلْتُ إِلَى الزَّمَانِ أَطْلُبُ إِلَيْهِ مَكَانِي فِيهِ، وَمَوْضِعِي مِنْهُ، فَرَأَيْتُ طَرَفَهُ عَنِّي نَابِيًا، وَعَنَانَهُ عَنِ رِضَايَ مَنْتَبِيًا، وَجَانِبَهُ فِي مَرَادِي خَشِنًا، وَإِنْفَاقِي فِي أَسْبَابِهِ سَيِّئًا، وَالشَّامِتُ بِي عَلَى الْحَدَثَانِ مُتَمَادِيًا، طَمِعْتُ فِي السُّكُونِ بَجَلْدًا، وَانْتَحَلْتُ الْقَنَاعَةَ رِيَاضَةً، وَتَأَلَّفْتُ شَارِدَ حَرَصِي مُتَوَفِّفًا، وَطَوَيْتُ مَنَشُورَ أَمْرِي مُتَنَزِّهًا، وَجَمَعْتُ شَتِيَّةَ رَجَائِي سَالِيًا، وَأَدْرَعْتُ^(١٥٣) الصَّبْرَ

(١٥٢) . الرِّاصِدُ بِالشَّيْءِ: الرَّاقِبُ لَهُ، رِصْدَهُ بِالْخَيْرِ وَغَيْرِهِ، يَرِصِدُهُ رِصْدًا وَرِصْدًا: يَرْقِبُهُ، وَالتَّرِصْدُ: التَّرَقُّبُ. (لسان العرب . رصد).

(١٥٣) . ادَّرَعْتُ مِنَ الدَّرْعِ، وَالدَّرْعُ: لِبُوسُ الْحَدِيدِ، تَذَكَّرُ وَتَوَنَّنَتْ. يُقَالُ: ادَّرَعُ بِالْأَرْدِ وَتَدَّرَعُ بِهَا، وَادَّرَعَهَا

مستمراً، ولبستُ العفافَ محموداً، وأتخذتُ الانقباضَ صناعةً، وقيمتُ بالعلمِ
مجتهداً.

هذا بعد أن تصفحتُ النَّاسَ فَوَجَدْتُهم أَحَدَ رجلين: رجلٌ إِنْ نَطَقَ نَطَقَ
عن غِيظٍ وِدْمَنَةٍ^(١٥٤)، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عن ضِغْنٍ وَإِحْنَةٍ^(١٥٥)، وَرَجُلٌ إِنْ
بَدَلَ كَدَّرَ بامتنانه بذله، وَإِنْ مَنَعَ حَصَّنَ باحتياله بخله، فلم يَطُلْ دهري في أثنائه
متبرماً بطول الغربية، وشظفِ العيشِ، وكَلَبِ الزَّمانِ، وعَجَفِ المالِ، وجَفَاءِ
الأهلِ، وسوءِ الحالِ، وعاديةِ العدوِّ، وكُشوفِ البالِ، مُتَحَرِّقاً من الحَنَقِ على لئيمٍ
لا أَجِدُ مُنْصَرِّفاً عنه، متقطَّعاً من الشَّوقِ إلى كريمٍ لا أَجِدُ سبيلاً إليه، حَتَّى
لَا حَتَّ لِي عُزَّةُ الأستاذ فقلت:

حَلَّ بِي الوَيْلُ، وَسَالَ بِي السَّيْلُ، أَيَنَ أَنَا عن مَلِكِ الدُّنيا، وَالْفَلَكِ
الدَّائِرِ بِالتُّعْمَى؟ أَيَنَ أَنَا عن مَشْرِقِ الخَيْرِ وَمَغْرِبِ الجَمِيلِ؟ أَيَنَ أَنَا عن بَدْرِ
البَدورِ وَسَعْدِ السُّعودِ؟ أَيَنَ أَنَا عَمَّن يَرى البُخْلَ كَفْراً صَرِيحاً، وَيَرى
الإِفْضَالَ دِيناً صَحيحاً؟ أَيَنَ أَنَا عن سَمَاءٍ لا تَفْتُرُ عن الهَطْلَانِ، وعن بَحْرِ
لا يَقْذِفُ إلا بِاللُّؤلُؤِ والمَرْجانِ؟ أَيَنَ أَنَا عن فِضَاءٍ لا يُشَقُّ غُبَارُهُ، وعن حَرَمٍ
لا يَضَامُ جِوَارُهُ؟ أَيَنَ أَنَا عن مَنهْلِ لا صَدْرٌ^(١٥٦) لِفِرَاطِهِ^(١٥٧)، ولا مَنَعَ

وتدرَّعها، أي لبسها. (لسان العرب - درع).

(١٥٤) . الدمنة: الحقد المُدْمَنُ للصدر، ولا يكون الحقد دمنة حتى يأتي عليه الدهر وقد دمن عليه، ويقال:

دمنت على فلان أي: ضغنت. (لسان العرب - دمن).

(١٥٥) . الإحنة: الحقد في الصدر، وأجَنَ عليه أحنأً وإحنةً، والمؤاحنة المعادة، ويقال: آحنته مؤاحنةً. (لسان

العرب - أحن)

(١٥٦) . الصَّدْرُ بالتَّحريك: الاسم من قولك: صَدَرْتُ عن الماء والبلاد. يقال: صَدَرَ يَصْدُرُ صُدوراً وصدراً .

(لسان العرب - صدر)

لُورَّادَه؟ أين أنا عن ذَوْبٍ لا شَوْبٍ^(١٥٨) فيه، وعن صَدَدٍ^(١٥٩) لا حَدَدٍ^(١٦٠) دونه. بلى! أين أنا عَمَّنْ هو بُنْبُوءَةُ الْكَرِّمِ، وإمامة الإِفْضَالِ، وشريعة الجودِ، وخلافة البَدَلِ، وسياسة المجدِ. نَسِيمُهُ مَشِيمَةُ البوارقِ، ونفسه نفيسة الخلائق؟

أين أنا عن الباعِ الطَّوِيلِ، والأنفِ الأَشْمِ، والمَشْرَبِ العذبِ، والطَّرِيقِ الأَمِّمِ^(١٦١)؟ لِمَ لا أَقْصِدُ بلاده، لم لا أَقْتَدِحُ زِنَادَهُ، لِمَ لا أَتَجَعُّ جنابه وأرعى مَرَّادَهُ^(١٦٢)؟ لِمَ لا أَسْكُنُ رِبعه وأستدعي نفعه؟ لِمَ لا أَخْطُبُ جوده وأعتصرُ عوده؟ لِمَ لا أَسْتَمْطِرُ سَحَابَهُ وأستسقي رَبَابَهُ^(١٦٣)؟ لِمَ لا أَسْتَمْنَحُ نَيْلَهُ وأستسحبُ ذَيْلَهُ؟

(١٥٧). الفِرَّاطُ: جمع فارط، والفراط هو الذي يسبق القوم إلى الماء. (لسان العرب - فرط).

(١٥٨). اللَّذُوبُ: ضدُّ الجمود، والشَّوْبُ: الخلط، ومن ذلك: ذاب إذا سال، وذاب يذوب ذوباناً. وكذلك: شاب الشَّيْءُ شوباً إذا خلطه، واشتاب وانشاب: اختلط. ولكن المقصود هنا بعيد عن ذلك، فالذُّوبُ هنا العسل، انطلاقاً من قولهم: سقاه الذُّوبَ بالشَّوْبِ، أي سقاه العسل بما شَابَهُ به من ماءٍ أو لبن. ويكون مراد التوحيدى بذلك: العسل غير المشوب.

(١٥٩). الصَّدَدُ: الناحية، والصَّدَدُ: القرب، والصَّدَدُ: القَصْدُ، والصَّدَدُ: ما استقبلك به، وهذا صدد هذا وبصده وعلى صده أي قبالته. (لسان العرب - صدد).

(١٦٠). والحَدَدُ: يقال: أمرٌ حَدَدٌ: أي ممتنع باطل، وكذلك: دعوةٌ حدد. والأمر الحدد أيضاً: الذي لا يحل أن يرتكب. (لسان العرب - حدد).

(١٦١). الأَمِّمُ: اليسير. والأَمِّمُ كذلك: القرب، يقال: أخذت ذلك من أمم أي من قرب، وداري أمم داره أي مقابلتها. يقال: داركم أمم، وهو أمم منك، وكذلك الاثنان والجمع. (لسان العرب - أمم).

(١٦٢). المراد: المرعى، بل هو موضع الرود أو الرياد من رادت الإبل ترود روداً ورياداً وروداناً واسترادت أي: رعت واختلفت في المرعى مقبلة مدبرة، والموضع هو: المَرَادُ. (لسان العرب - رود).

(١٦٣). الرياب: السحاب، وهو الأبيض من السحاب. وقيل هو السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون

لَمْ لَا أَحُجُّ كَعْبَتِهِ وَأَسْتَلِمُ رُكْنَهُ ؟ لَمْ لَا أَصَلِّي إِلَى مَقَامِهِ مُؤْتَمًّا بِهِ ؟ لَمْ لَا
أَسْبِحُ بِشَنَائِهِ مُتَقَدِّسًا ؟

لَمْ لَا أَحْكُمُ فِي حَالِي:

فَتَى صَبِغَ مِنْ مَاءِ الْبِشَاشَةِ وَجْهَهُ

فَالْفَازِظُهُ جُودٌ وَأَنْفَاسُهُ مَجْدٌ

لَمْ لَا أَقْصِدُ:

فَتَى بَانَ لِلنَّاسِ فِي كَفِّهِ

مِنَ الْجُودِ عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ (١٦٤)

لَمْ لَا أَمْتَرِي مَعْرُوفَ:

فَتَى لَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِجِسْمِهِ

إِذَا نَالَ خِلَاتِ الْكِرَامِ شَحُوبُ

لَمْ لَا أَمْدَحُ:

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِرُوحِهِ

وَيَعْلَمُ أَعْقَابَ الْحَدِيثِ تَدْوِمُ

السحاب، وقيل: الرابطة: السحابة التي ركبت فوق بعضها بعضاً. (لسان العرب . رب).

(١٦٤) . نَضَّخَ المَاءَ عَلَيْهِ يَنْضِخُ نَضْخًا، وهو دون النضح، وقيل: النضخ ما كان على غير اعتماد، والنضح ما

كان على اعتماد. والنضخ: شدة فور الماء في جيشانه وانفجاره من ينبوعه. (لسان العرب . نضخ).

نعم، لَمْ لا أنتهي في تَقْرِيطِ فَنِّي لو كَانَ مِنَ الملائكة لَكَانَ مِنَ المَقْرَبِينَ،
ولو كَانَ مِنَ الأنبياءِ لَكَانَ مِنَ المرسلين، ولو كَانَ مِنَ الخلفاءِ لَكَانَ نَعْتُهُ اللائِدُ
بالله، أو المُنْصِيفُ في الله، أو المعتضدُ بالله، أو المُنْتَصِبُ لله، أو الغاضِبُ بِحَقِّ
الله، أو المحيي لدين الله.

أَيْهَا المُنْتَجِعُ قَرَنَ كَلْتَهُ^(١٦٥)، وَالْمُخْتَبِطُ وَرَقَ نِعْمَتِهِ، ارعَ عَرِيضَ البِطَانِ،
مُتَفَيِّئًا بِظِلِّهِ، وَكُلَّ حَضْمًا^(١٦٦) نَاعِمَ البَالِ، مُتَعَوِّذًا بِعِزِّهِ، وَعِشْ رِخِيَّ
اللبِّ^(١٦٧) معْتَصِمًا بِحَبْلِهِ، وَلُدَّ بِدُرَاهِ آمِنِ السَّرْبِ، وَاحْضُضْ^(١٦٨) وَدَّةَ بَانِيَّةِ
القلبِ، وَ قِ نَفْسَكَ مِنْ سَطْوَتِهِ بِحُسْنِ الحِفَاظِ، وَخَيَّرْ لَهُ أَلْطَفَ المَدْحِ تَقَرُّ مِنْهُ
بِأَيْمَنِ القَدْحِ^(١٦٩)، وَلَا تَحْرِمْ نَفْسَكَ بِقَوْلِكَ:

إِنِّي غَرِيبُ المَثْوَى، نَازِحُ الدَّارِ، بَعِيدُ النِّسْبِ، مَنْسِيُ المَكَانِ.

فَإِنَّكَ قَرِيبُ الدَّارِ بِالأَمَلِ.

دَانِي التُّجَعِ بِالقَصْدِ.

(١٦٥) . قرن الكالأ: خيره.

(١٦٦) . الحضم: الأكل عامة. وقيل: هو ملء الفم بالمأكل، وقيل: الحضم: الأكل بأقصى الأضراس والقضم بأدناها. (لسان العرب . حضم).

(١٦٧) . اللب: البال. ويقال: فلانٌ في لب رخي إذا كان في حال واسعة. ويقال: إنه لرخي اللب، وأيضاً: فلان في بال رخي ولب رخي أي: في سعة وخصب وأمن. (لسان العرب . لب).

(١٦٨) . محض اللبن يَمْخُضُهُ وَيَمْخُضُهُ وَمَخْضُهُ؛ ثلاث لغات، أي: أخذ زبده، فهو ممخوض ومخيض. (لسان العرب . مخض).

(١٦٩) . القدح بالكسر: السهم قبل أن يُنصَل، وقيل: القَدْحُ: العود إذا بلغ فُشْدَبَ عنه الغصن وقطع على مقدار النبل الذي يراد من الطول والقصر. (لسان العرب . قدح).

رحيب السّاحةِ بالمنى.

ملحوظ الحال بالحسد.

مشهورُ الحديث بالدرك.

واعلم علماً يلتحمُ باليقين، ويدراً من الشك: أنّه معروفُ الفخرِ بالمفاخر، ماثورُ الأثرِ بالمآثر. قد أصبحَ واحِدَ الأنامِ، تاريخَ الأيامِ. أسدُ الغياضِ يومَ الوغى، نورُ^(١٧٠) الرّياضِ يومَ الرّضا. إن حُرِّكَ عندَ مكرمةٍ حُرِّكَ عُصْناً تَحْتَ بارِح. وإن دُعِيَ إلى اللقاءِ دُعِيَ لَيْثاً فَوْقَ سَابِحِ.

وَقُلْ إِذَا أَتَيْتَهُ بِلِسَانِ التَّحَكُّمِ: أَصْلَحَ أَدِيمِي^(١٧١) فَقَدْ حَلِمَ^(١٧٢)، وَجَدَّدَ شَبَابِي فَقَدْ هَرَمَ، وَأَنْطِقْ لِسَانِي بِمَدْحِكَ فَقَدْ حَصِرَ، وَافْتَحْ بَصْرِي بِنِعْمَتِكَ فَإِنَّهُ سَدِرُ^(١٧٣)، وَاتْلُ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ فِي اصْطِنَاعِي فَقَدْ شَرَّدْتَ صَفَائِحَ التُّجَعِ عِنْدَ انْتِجَاعِي وَقُلْ: رِشْ عَظْمِي فَقَدْ بَرَّاهُ الرِّمَانُ، وَاكْسُ جِلْدِي فَقَدْ أَعْرَاهُ الْحَدَثَانُ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ: يَا مَالِكَ الدُّنْيَا جُدْ لِي بِبَعْضِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَجْرِمُكَ. وَلَكِنْ قُلْ: يَا مَالِكَ الدُّنْيَا هَبْ لِي الدُّنْيَا.

اللهم فأحيي به في بلادك، وانعش برحمته عبادك، وبلّغه مرصّاتك، وأسكنه فردوسك، وأدم له العزّ التّامى، والكعبَ العالى، والمجدَ التّليدَ، والجدَّ السّعيدَ، والحقّ الموروثَ، والخيرَ المبتوثَ، والوليّ المنصورَ، والشّانئَ المبتورَ، والدّعوةَ الشّاملةَ، والسّجّيةَ الفاضلةَ، والسّرّبَ المحروسَ، والرّبّعَ المأنوسَ، والجنابَ

(١٧٠). النور: الزّهر الأبيض، وجمعها: نُورٌ.

(١٧١). الأديم: الجلد ما كان، وقيل: الأحمر، وقيل: المدبوغ. (لسان العرب . آدم).

(١٧٢). حلّم الجلد: فسد في العمل ووقع فيه دود فتثقب، تقول: تعيب الجلد وحلم. (لسان العرب . حلم).

(١٧٣). السّدْر والسّادر: المتخير، وسدّير: تخير. (لسان العرب . سدر).

الخصيب، والعدوَّ الحَرِّيب^(١٧٤)، والمنهلَ القريب. واجعل أوليائه باذلينَ لِطَاعَتِهِ،
ناصرينَ لِأَعَزَّتِيهِ، ذابِّينَ عن حَرَمِهِ، مرفرفينَ على حوبائه^(١٧٥).
أَيُّهَا الشَّمْسُ المضيئةُ بالكرم، والقَمَرُ المنيرُ بالجمال، والنَّجْمُ الثَّاقِبُ
بالعلم، والكوكبُ الوَقَّادُ بالجود، والبحرُ القَيَّاضُ بالمواهب، قد سَقَطَ العشاء
بعبدك على سرحك، فَافْرِه من نعمتكِ بِمَا يَضَاهِي قَدْرَكَ، وَرَوِّجْ هَيْئَتَهُ تَرْبَهَا من
الغنى فطالما خَطَبَ كُفَّأها من المنى.

* * *

(١٧٤) . الحريب: الذي اشتد غضبه حتى خرج عن طوره.

(١٧٥) . الحوباء: النفس ممدودة ساكنة الواو، والجمع: حوباوات. (لسان العرب . حوب).

مشهد من الرسالة

لَمَّا رَأَيْتُ شَبَابِي هَرِمًا بِالْفَقْرِ، وَفَقْرِي غِنَى بِالْقِنَاعَةِ،
وَقِنَاعِي عَجْزًا عِنْدَ التَّحْصِيلِ، عَدَلْتُ إِلَى الزَّمَانِ أَطْلُبُ
إِلَيْهِ مَكَانِي فِيهِ، وَمَوْضِعِي مِنْهُ، فَرَأَيْتُ طَرْفَهُ عَنِّي نَابِيًا،
وَعَنَانَهُ عَنِ رِضَايَ مَنْتَشِيًا، وَجَانِبَهُ فِي مَرَادِي خَشِنًا،
وَإِنْفَاقِي فِي أَسْبَابِهِ سَيِّئًا، وَالشَّمَامَتُ بِي عَلَى الْحَدَثَانِ
مُتَمَادِيًا، طَمِعْتُ فِي السُّكُونِ بَجُلْدًا، وَانْتَحَلْتُ الْقِنَاعَةَ
رِيَاضَةً، وَتَأَلَّفْتُ شَارِدَ حَرْصِي مَتَوَقِّفًا، وَطَوَيْتُ
مَنْشُورَ أَمْرِي مَتَنَزِّهًا، وَجَمَعْتُ شَتِيَّتَ رَجَائِي سَالِيًا

مشهد من الرسالة

حَلَّ بِي الْوَيْلُ، وَسَالَ بِي السَّيْلُ، أَيْنَ أَنَا عَنْ مَلِكِ
الدُّنْيَا، وَالْفَلَكَ الدَّائِرِ بِالنُّعْمَى؟ أَيْنَ أَنَا عَنْ مَشْرِقِ
الْحَيْرِ وَمَغْرِبِ الْجَمِيلِ؟ أَيْنَ أَنَا عَنْ بَدْرِ الْبَدُورِ وَسَعْدِ
السُّعُودِ؟ أَيْنَ أَنَا عَمَّنْ يَرَى الْبُخْلَ كَفْرًا صَرِيحًا،
وَيَرَى الْإِفْضَالَ دِينًا صَحِيحًا؟ أَيْنَ أَنَا عَنْ سَمَاءٍ لَا
تَفْتَرُّ عَنِ الْمُهْطَلَانِ، وَعَنْ بَحْرِ لَا يَقْدَفُ إِلَّا بِاللُّؤْلُؤِ
وَالْمَرْجَانِ؟ أَيْنَ أَنَا عَنْ فِضَاءٍ لَا يُشَقُّ غُبَاؤُهُ، وَعَنْ
حَرَمٍ لَا يَضَامُ جَوَاؤُهُ؟

* * *

مرسالة

إلى أبي الوفاء المهندس البونرجاني

يُعَدُّ البُورْجَانِيُّ مِنْ أخلص أصدقَاء أَبِي حَيَّان، وهذه واحدةٌ مِنْ رسائل كثيرةٍ تبادلها الصَّدِيقَانُ، يشرح التَّوْحِيدِيَّ فيها ما وَصَلَ إليه حالُهُ مِنْ البُؤْس واليأس، ويرجو صاحبه أَنْ يُنْقِذَهُ. طبعها الدُّكْتُورُ الكيلانيُّ ضَمَّن كتاب: ((رسائلُ أَبِي حَيَّان التَّوْحِيدِيَّ)).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَيُّهَا الشَّيْخُ :

سَلَّمَكَ اللَّهُ بِالصُّنْعِ الْجَمِيلِ، وَحَقَّقَ لَكَ وَفَيْكَ وَبَكَ غَايَةَ الْمَأْمُولِ.
خَلَّصَنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنَ التَّكْفُفِ، وَأَنْقِذْنِي مِنْ لُبْسِ الْفَقْرِ، وَأَطْلِقْنِي مِنْ
قَبْدِ الضَّرِّ. اشْتَرِنِي بِالْإِحْسَانِ، اعْتَبِدْنِي بِالشُّكْرِ، اسْتَعْمَلْ لِسَانِي بِفُنُونِ
الْمَدْحِ، اكْفِنِي مَوْوَنَةَ الْغَدَاءِ وَالْعِشَاءِ.

إِلَى مَتَى الْكُسِيرَةُ الْيَابِسَةُ، وَالْبُقَيْلَةُ الدَّائِيَةُ، وَالْقَمِيصُ الرَّقْعُ، وَبِاقِلِي^(١٧٦)
دَرْبِ الْحَاجِبِ، وَسَدَابُ^(١٧٧) دَرْبِ الرَّوَاسِينِ ؟
إِلَى مَتَى التَّأْدُمُ بِالْحَبْزِ وَالرَّيْتُونِ ؟ قَدِ، وَاللَّهِ، بُحَّ الْحَلْقُ، وَتَعَيَّرَ الْحَلْقُ. اللَّهُ اللَّهُ
فِي أَمْرِي. اجْبِرْنِي فَإِنِّي مَكْسُورٌ، اسْقِنِي فَإِنِّي صَدِيدٌ، أَغْنِنِي فَإِنِّي مَلْهُوفٌ، شَهِّرْنِي
فَإِنِّي عُقْلٌ، حَلِّئْنِي فَإِنِّي عَاطِلٌ.
قَدْ أَذَلَّنِي السَّفَرُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَخَذَلَّنِي الْوَقُوفُ عَلَى بَابِ بَابٍ،
وَنَكَرْنِي الْعَارِفُ، وَتَبَاعَدَ عَنِّي الْقَرِيبُ مِنِّي.

(١٧٦) . الباقلي: الفول.

(١٧٧) . ضرب من الثِّبَاتِ زهره أبيض، نفى الجاحظ زعم أن ريحه يشتمد على الحيات. (الحيوان . ج ٥/١١١).

أغرَكَ مسكوبه حينَ قال لك: قد لقيتُ أبا حيان، وقد أخرجته مع
صاحب البريد إلى قرميسين.

والله، تُمَّ وحياتك التي هي حياتي، ما انقلبتُ من ذلك بنفقة شهرٍ، والله
نَظَرَ لي بالعودِ، فإنَّ الأراجيفَ^(١٧٨) اتَّصَلَتْ، والأرضَ اقشَعَرَتْ، وتَشَبَّهَ كُلُّ
تَعَلَبٍ بِأَسَدٍ، وفتلَ كُلُّ إنسانٍ لعدُوهِ حَبلاً من مَسَدٍ.

أَيُّهَا الْكَرِيمُ :

ارحم، والله ما يكفيني ما يصلُ إليَّ في كلِّ شَهْرٍ من هذا الرِّزْقِ المقترَّ
الذي يرجع بعدَ التَّقْتِيرِ والتَّيْسِيرِ إلى أربعين درهماً مع هذه المؤونة الغليظة، والسَّفرِ
الشَّاقِّ، والأبوابِ المحجَّبةِ، والوجوهِ المُقَطَّبةِ، والأيديِ المسمرَّةِ، والنُّفوسِ الضَّيِّقةِ،
والأخلاقِ الدَّنيئةِ.

أَيُّهَا السَّيِّدُ :

أفصِرْ تأميلي، ارعَ ذِمَامَ^(١٧٩) الملحِ بيني وبينك، وتذكَّرِ العهدَ في صحبتي،
طالِبِ نَفْسَكَ بِمَا يَقْطَعُ حُجَّتِي، دعني من التَّعليلِ الَّذِي لا مردَّ له، والتَّسْويفِ
الذي لا آخرَ معه.

ذكَّرِ الوَزيْرَ أَمْرِي، وَكَّرِرْ عَلَيَّ أُذُنَهُ ذَكَرِي. و املِ عليه سورةً من شكري،
وابعثه على الإحسانِ إليَّ.

(١٧٨) . الأراجيف: واحدها إرجاف، وهو الخبر، وقد أرجفوا في الشيء أي خاضوا فيه.

(١٧٩) . الذِّمام: كل حرمَةٍ تلزمك إذا ضيعتها المدمَّة، ومن ذلك يسمي أهل الذمَّة، ورجل ذميٌّ معناه رجل ذو
عهد في عنق من هو ذمي نسبةً إليه. (لسان العرب . ذم).

افتح عليه باباً يغري الرَّاعِبَ في اصطناعِ المعروفِ لا يستغني عن المرعِبِ،
والفاعل للخير لا يستوحش من الباعث عليه.
أنفق جاهك فإنه بِحَمْدِ الله عريضٌ، وإذا جُدتَ بالمالِ فَجُدْ أيضاً
بالجاه، فإِهما أخوان.

سَرَّخِنِي رَسُولاً إِلَى صَاحِبِ البَطَائِحِ^(١٨٠)، أو إلى أَبِي السُّؤْلِ الكَرْدِيِّ أو
إلى غيره مِمَّنْ هو في الجبال، هذا إن لم تَوْهِّلني برسالةٍ إلى سعد المعالمي
بأطراف البصرة، والي البصرة. فإِنِّي أبلغُ في تَحْمُلِ ما أحمل، وأداءِ ما أودِّي،
وتزيين ما أزيِّن، حدًّا أملكُ به الحمدَ، وأعرفُ فيه النَّصِيحَةَ، وأستوفي فيه على
الغاية.

دَعْ هذا، ودَعْ لي ألفَ دِرْهَمٍ، فَإِنِّي أَتَّخِذُ رَأْسَ مالٍ، وأشاركُ بِقَالَ المحلَّةِ
في دَرَبِ الحاجبِ. ولا أقلَّ من ذا، تقدَّم إلي كسج البقال حتى يستعين بي
لأبيعَ الدَّفَافِرَ.

قُلْتُ: الوزيرُ مشغولٌ. فَمَا أصنعُ بِهِ إذا فرَغَ، فالشَّاعرُ يقول:

* تناط بك الآمال ما اتَّصل الشُّغلُ^(١٨١) *

قَدْ والله نسيْتُ صَدَرَ هذا البيتِ، وما بالُ غيري يُنَوِّلُهُ وَيُمَوِّلُهُ مع شغله
وَأُحْرَمُ أنا؟! أنا كَمَا قال الشَّاعرُ:

(١٨٠) . البطائح: اسم مكان.

(١٨١) . رواه التَّوْحِيدِي بتمامه في الجزء الخامس من البصائر والذخائر (ق) ص ١٣٣، وهو من الطويل:

وَلَا تَعْتَذِرُ بالشُّغْلِ عَنَّا فَإِنَّمَا تَنَاطُ بِكُ الآمَالِ مَا اتَّصَلَ الشُّغْلُ

وَبَرَقَ أَضَاءُ الْأَرْضِ شَرْقاً وَمَغْرِباً
 وَمَوْضِعُ رِجْلِي مِنْهُ أَسْوَدٌ مُظْلِمٌ
 وَاللَّهُ، إِنَّ الْوَزِيرَ مَعَ أَشْغَالِهِ الْمُتَّصِلَةِ، وَأَثْقَالِهِ الْبَاهِظَةِ، وَفِكْرِهِ الْمَفْضُوضِ،
 ورأيه المشترك، لكريم ماجد، ومفضل محسن، يرعى القليل من الخزمة، ويعطي
 الجزيل من النعمة، ويحافظ على اليسير من الدمام، ويتقبل مذهب الكرام،
 ويتلذذ بالثناء إذا سمع، ويتعرض للشكر من كل منتجع، ويزرع الخير، ويحصد
 الأجر، ويواظب على كسب الجِدِّ، ويتأبر على اجتلاب الحمد، وينخدع
 للسائل، ويتهلل في وجه الآمل، ولا يتبوأ من الفضائل إلا في ذراها؛ رحيم
 بكل غادٍ ورائح، ولكل صالح وطالح.

وأنا الجار القديم، والعبء الشاكر، والصاحب المخبور^(١٨٢). ولكناك
 مُقْبِلٌ كَالْمُعْرِضِ، وَمُقَدِّمٌ كَالْمَوْخِرِ، وَمُوقِدٌ كَالْمُخْمِدِ، تُدْنِينِي إِلَى حَظِّي
 بِشِمَالِكَ، وَتَجْدِبُنِي عَنْ نَيْلِهِ بِيَمِينِكَ، وَتُعَدِّنِي بِوَعْدِ كَالْعَسَلِ، وَتُعَشِّنِي بِبِئْسِ
 كَالْحَنْظَلِ.

نعم، عتبت فأوجعت، وعرفت البراءة فهلاً نفعت؟
 والله ما أدري ما أقول؛ إن شكرتك على ظاهرك الصحيح لدعتك
 لباطنك السقيم، وإن حمدتك على أولك الجميل أفسدت لآخرك الذي ليس
 بجميل.

قد أطلت، ولكن ما شفيت. ونهلت وعللت، ولكن ما رويت.
 وآخر ما أقول: افعل ما ترى، واصنع ما تستحسن، وابلغ ما تهوى، فليس
 والله منك بد، ولا عنك غنى.

(١٨٢) - المخبور: الطيب الأدام. والرجل المخبور: المحرّب المختبر.

وَالصَّبْرُ عَلَيْكَ أَهْوَنُ مِنَ الصَّبْرِ عَنْكَ، لِأَنَّ الصَّبْرَ عَنْكَ مَقْرُونٌ بِالْيَأْسِ،
وَالصَّبْرُ عَلَيْكَ رَمًّا يُؤَدِّي إِلَى رَفْعِ هَذَا الْوَسْوَاسِ.

وَالسَّلَامُ لِأَهْلِ السَّلَامِ.

* * *

مرسالة

إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد

هذه هي الرسالة التي كتبها التَّوْحِيدِيُّ في أواخر حياته ردًّا على صديقه القاضي أبي سهل الذي لامه على إحراقه كُتُبَهُ، مُبَيِّنًا فيها الدَّوَالِعَ الَّتِي قَادَتْهُ إِلَى فَعَلْتِهِ هَذِهِ. أوردتها ياقوت الحموي في مُعْجَم الأَدْبَاءِ. طبعها حسن السُّنْدُوبِيُّ في مُقَدِّمَةِ كِتَابِ ((المُقَابَسَاتِ)) عام ١٩٢٩م. كما قام بطباعتها الدكتور إبراهيم الكيلاني ضمنَ ((رسائل أبي حيان التَّوْحِيدِيِّ)).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

... حَرَسَكَ اللَّهُ أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنْ سُوءِ ظِلِّي بِمَوَدَّتِكَ، وَطُولِ جَفَائِكَ،
وَأَعَاذَنِي مِنْ مَكَافَأَتِكَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَجَارَنَا جَمِيعاً مِمَّا يُسَوِّدُ وَجْهَ عَهْدٍ إِنْ رَعَيْنَاهُ
كُنَّا مُسْتَأْنَسِينَ، وَإِنْ أَهْمَلْنَاهُ كُنَّا مُسْتَوْحِشِينَ مِنْ أَجْلِهِ، وَأَدَامَ نِعْمَتَهُ عِنْدَكَ،
وَجَعَلَنِي عَلَى الْحَالَاتِ كُلِّهَا فِدَاكَ.

وإفاني كِتَابُكَ غَيْرَ مُحْتَسَبٍ وَلَا مُتَوَقَّعٍ، عَلَى ظَمَأٍ بَرَّحَ بِي إِلَيْهِ. وَشَكَرْتُ اللَّهَ
تَعَالَى عَلَى النِّعْمَةِ بِهِ عَلَيَّ. وَسَأَلْتُهُ الْمَزِيدَ مِنْ أَمْثَالِهِ، الَّذِي وَصَفْتَ فِيهِ ذِكْرَ
الشُّوقِ إِلَيَّ، وَالصَّبَابَةَ نُحْوِي مَا نَالَ قَلْبِكَ، وَالتَّهَبَ فِي صَدْرِكَ مِنَ الْحَبْرِ الَّذِي
نَمَى إِلَيْكَ فِيمَا كَانَ مِنِّي مِنْ إِحْرَاقِ كُتُبِي النَّفِيسَةِ بِالنَّارِ وَعَسَلِهَا بِالْمَاءِ، فَعَجِبْتُ
مِنْ انْزَوَاءِ وَجْهِ الْعُذْرِ عَنكَ فِي ذَلِكَ، كَأَنَّكَ لَمْ تَقْرَأْ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٨٣).

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَأْبَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (١٨٤).

(١٨٣) . سورة القصص . الآية ٨٨ .

(١٨٤) . سورة الرحمن . الآية ٢٦ .

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَا ثَبَاتَ لِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ شَرِيفَ الْجَوْهَرِ،
كَرِيمَ العُنْصُرِ، مَا دَامَ مُقَلَّبًا بِيَدِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، مَعْرُوضًا عَلَى أَحْدَاثِ الدَّهْرِ
وَتَعَاوِدِ الأَيَّامِ. ثُمَّ إِنِّي أَقُولُ: إِنْ كَانَ، أَيَّدَكَ اللهُ، قَدْ نَقَبَ حَقِّكَ مَا سَمِعْتُ، فَقَدْ
أَدْمَى أَظْلَمِي ^(١٨٥) مَا فَعَلْتُ، فَلْيُهِنْ عَلَيْكَ ذَلِكَ، فَمَا انْبَرَيْتُ لَهُ، وَلَا اجْتَرَأْتُ
عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَخَرْتُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ أَيَّامًا وَلِيَالٍ حَتَّى أَوْحَى إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ بِمَا
بَعَثَ رَاقِدَ العَزْمِ، وَأَجَدَّ فَارَهُ النَّيَّةِ، وَأَحْيَا مَيِّتَ الرَّأْيِ، وَحَثَّ عَلَى تَنْفِيذِ مَا وَقَعَ
فِي الرَّوْعِ، وَتَرَبَّعَ فِي الخَاطِرِ. وَأَنَا أَجُودُ عَلَيْكَ الآنَ بِالحِجَّةِ فِي ذَلِكَ إِنْ طَالِبْتَ
بِالعَذرِ، أَوْ إِنْ اسْتَوْضَحْتَ. لِيَتَّقَ بِي فِيمَا كَانَ مِنِّي، وَتَعْرِفَ صَنَعَ اللهُ تَعَالَى فِي
شَيْئِهِ لِي.

إِنَّ العِلْمَ، حَاطَكَ اللهُ، يُرَادُ لِلعَمَلِ، كَمَا أَنَّ العَمَلَ يُرَادُ لِلنَّجَاةِ، فَإِذَا كَانَ
العَمَلُ قَاصِرًا عَنِ العِلْمِ، كَانَ كَالَّذِي ^(١٨٦) عَلَى العَالِمِ، وَأَنَا أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ عَادَ
كَالًا، وَأُورِثَ ذُلًّا، وَصَارَ فِي رِقْبَةِ صَاحِبِهِ غُلًّا ^(١٨٧).

ثُمَّ اعْلَمْ . عِلْمَكَ اللهُ الخَيْرَ . أَنَّ هَذِهِ الكُتُبَ حَوَتْ مِنْ أَصْنَافِ
العِلْمِ سِرَّهُ وَعِلَانِيَتَهُ؛ فَأَمَّا مَا كَانَ سِرًّا فَلَمْ أَجِدْ لَهُ مَنْ يَتَحَلَّى بِحَقِيقَتِهِ رَاغِبًا،
وَأَمَّا مَا كَانَ عِلَانِيَةً فَلَمْ أُصِبْ مَنْ يَخْرُصُ عَلَيْهِ طَالِبًا. عَلَى أَيْ جَمَعْتُ
أَكْثَرَهَا لِلنَّاسِ، وَلِطَلَبِ المِثَالَةِ مِنْهُمْ، وَلِعَقْدِ الرِّيَاسَةِ بَيْنَهُمْ، وَلِمَدِّ

(١٨٥) . أظَلَّ الإنسانَ: بَطُونُ أَصْبَاعِهِ، وَهُوَ مِمَّا يَلِي صَدْرَ القَدَمِ مِنْ أَصْلِ الإِبْهَامِ إِلَى أَصْلِ الخَنْصَرِ. وَهُوَ مِنْ
الإِبِلِ بَاطِنِ المَنَسَمِ. وَقَالَ ابْنُ سَيِّدَةَ: الصُّوَابُ عِنْدِي أَنَّهُ بَاطِنُ الإِصْبَعِ.

(١٨٦) . الكَلُّ بِالْفَتْحِ: قَفَا السِّيفِ، وَالسَّكِينُ الَّذِي لَيْسَ بِحَادٍّ. وَالكَلُّ بِالْفَتْحِ أَيْضًا: المِصْبِيغَةُ تُحَدِّثُ، وَالْأَصْلُ مِنْ
كَلَّ عَنْهُ أَيُّ نَبَا وَضَعْفٍ.

(١٨٧) . الغُلُّ مُفْرَدَةٌ أَغْلَالٌ، وَهِيَ القِيُودُ.

الجَاهِ عِنْدَهُمْ، فَحَرَقْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَلَا شَكَّ فِي حُسْنِ مَا اخْتَارَهُ اللَّهُ لِي،
وَنَاطَةُ بِنَاصِيَتِي، وَرَبَطُهُ بِأَمْرِي، وَكَرِهْتُ مَعَ هَذَا وَغَيْرِهِ أَنْ تَكُونَ حُجَّةً عَلَيَّ
لَا لِي.

وَمِمَّا شَحَذَ الْعَزَمَ عَلَى ذَلِكَ، وَرَفَعَ الْحِجَابَ عَنْهُ أَيُّ فَقَدْتُ وَلَدًا نَجِيًّا،
وَصَدِيقًا حَبِيْبًا، وَصَاحِبًا قَرِيْبًا، وَتَابِعًا أَدِيْبًا، وَرَيْسًا مُنِيْبًا، فَشَقَّ عَلَيَّ أَنْ أَدْعَهَا
لِقَوْمٍ يَتَلَاعِبُونَ بِهَا، وَيُدْنَسُونَ عِرْضِي إِذَا نَظَرُوا فِيهَا، وَيَشْمَتُونَ بِسَهْوِي
وَغَلْطِي إِذَا تَصَفَّحُوهَا، وَيَتَرَاءُونَ نَقْصِي وَعَيْبِي مِنْ أَجْلِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ:

. وَلَمْ تَسْمُهُمْ بِسَوْءِ الظَّنِّ، وَتُقَرِّعَ جَمَاعَتَهُمْ بِهَذَا الْعَيْبِ؟

فَجَوَابِي لَكَ:

أَنَّ عِيَانِي مِنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ ظَنِّي [فِيهِمْ] بَعْدَ الْمَمَاتِ،
وَكَيفَ أَتْرَكُهَا لِأَنَاسٍ جَاوَزْتُهُمْ عَشْرِينَ سَنَةً فَمَا صَحَّ لِي مِنْ أَحَدِهِمْ وَدَادٌ؟!
وَلَا ظَهَرَ لِي مِنْ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ حِفَاطًا، وَلَقَدْ اضْطَرَّرْتُ بَيْنَهُمْ بَعْدَ الشُّهُرَةِ
وَالْمَعْرِفَةِ فِي أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ إِلَى أَكْلِ الحُضْرِ فِي الصَّحْرَاءِ وَإِلَى التَّكْفُفِ الْفَاضِحِ
عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَإِلَى بَيْعِ الدِّينِ وَالْمَرْوَةِ، وَإِلَى تَعَاطِي الرِّبَا بِالسُّمْعَةِ
وَالنَّفَاقِ، وَإِلَى مَا لَا يَحْسُنُ بِالْحَرِّ أَنْ يَرِسَ بِالْقَلَمِ، وَيَطْرَحَ فِي قَلْبِ مُحِبِّهِ الْأَمَّ.
وَأَحْوَالِ الرِّمَانِ بَادِيَةَ لَعِينِكَ، بَارِزَةً بَيْنَ مَسَائِكِ وَصَبَاحِكِ، وَلَيْسَ مَا قُلْتُهُ
بِخَافٍ عَلَيْكَ، مَعَ مَعْرِفَتِكَ وَفَطْنَتِكَ وَشِدَّةِ تَتَبُعِكَ وَتَفَرُّغِكَ، وَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ
تَرْتَابَ فِي صَوَابِ مَا فَعَلْتُهُ وَأَتَيْتُهُ بِمَا قَدَّمْتُهُ وَوَصَفْتُهُ، وَمَا أَمْسَكْتُ عَنْهُ وَطَوَيْتُهُ؛
إِنَّمَا هَرَبًا مِنَ التَّطْوِيلِ، وَإِنَّمَا خَوْفًا مِنَ الْقَالِ وَالْقِيلِ.

وَبَعْدُ، فقد أصبحتْ هَامَةً اليومَ أو غَدٍ، فَإِنِّي فِي عَشْرِ التَّسْعِينَ، وهل لي
بَعْدَ الكَبَرَةِ والعَجْزِ أَمَلٌ فِي حَيَاةٍ لَدِينَةٍ؟! أو رَجَاءٌ لِحَالٍ جَدِيدَةٍ؟ أَلَسْتُ مِنْ
زَمْرَةٍ مِنْ قَالِ القَائِلِ فِيهِمْ:

نَرُوحُ وَنَعْدُو كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ

وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا نَرُوحُ وَلَا نَعْدُو

وَكَمَا قَالَ الآخَرُ:

تَفَوَّقْتُ دَرَاتِ الصَّبَا فِي ظِلَالِهِ

إِلَى أَنْ أَتَانِي بِالْفَطَامِ مَشِيْبٌ

وهذا البيتُ للوردِ الجعديِّ، وتَمَامُهُ يَضِيْقُ عنه هذا المكانُ،
والله يا سيِّدي لو لَمْ أَتَعِظْ إِلَّا بِمَنْ فَقَدْتُهُ مِنَ الإِخْوَانِ والأَحْدَانِ فِي هذا
الصُّتْعِ مِنَ العُرَبَاءِ والأَدْبَاءِ والأَحْبَاءِ لَكَفَى، فكَيْفَ بِمَنْ كَانَتِ العَيْنُ تَقْرَأُ
بِهِمْ، والنَّفْسُ تَسْتَنْبِرُ بِقُرْبِهِمْ فَفَقَدْتُهُمْ بالعِرَاقِ والحِجَازِ والجَبَلِ والرِّيِّ، وما
وَالِي هَذِهِ المَوَاضِعِ، وَتَوَاتَرَ إِلَيَّ نَعْيُهُمْ، وَاسْتَدَّتْ الوَاعِيَةُ بِهِمْ، فَهَلْ أَنَا
إِلَّا مِنْ عَنصرِهِمْ؟ وهل لي مَحِيْدٌ عَنْ مَصيرِهِمْ؟ أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى رَبَّ
الأَوَّلِينَ أَنْ يَجْعَلَ اعْتِرَافِي بِمَا أَعْرَفَهُ مَوْصُولاً بِنزوعي عَمَّا أَقْتَرَفَهُ، إِنَّهُ قَرِيبٌ
مَجِيبٌ.

وَبَعْدُ، فَلِي فِي إِحْرَاقِ هَذِهِ الكُتُبِ أَسْوَةٌ بِأَيْمَةٍ يُقْتَدَى بِهِمْ، وَيُؤْخَذُ
بِهَدْيِهِمْ، وَيُعَشَى إِلَى نَارِهِمْ، مِنْهُمْ: أَبُو عَمْرِو بنِ العَلَاءِ^(١٨٨)، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ

(١٨٨) . أَبُو عَمْرِو بنِ العَلَاءِ: هُوَ زَيْنَ بنِ عَمَارِ التَّمِيمِيِّ المَازِنِيِّ البَصْرِيِّ أَحَدُ أَيْمَةِ العَرَبِيَّةِ، وَوَلِدُ
بِالبَصْرَةِ وَمَاتَ بِالكُوفَةِ سَنَةَ ١٥٤ هـ أَوْ ١٥٩ هـ.

الْعُلَمَاءِ مَعَ زُهْدٍ ظَاهِرٍ وَوَرَعٍ مَعْرُوفٍ، دَفَنَ كُتُبَهُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ فَلَمْ يُوجَدْ لَهَا
أَثَرٌ. وَهَذَا دَاوُدُ الطَّائِي^(١٨٩) وَكَانَ مِنْ خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ زُهْدًا، وَفِقْهًا، وَعِبَادَةً.
وَيُقَالُ لَهُ تَاجُ الْأُمَّةِ، طَرَحَ كِتَابَهُ فِي الْبَحْرِ وَقَالَ يِنَاجِيهَا:
. نِعَمَ الدَّلِيلُ كُنْتَ، وَالْوَقُوفُ مَعَ الدَّلِيلِ بَعْدَ الوَصُولِ عَنَاءٌ وَذُهُولٌ،
وَبِلَاءٌ وَخُمُولٌ.

وهذا يوسف بن أسباط^(١٩٠)، حَمَلَ كِتَابَهُ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ وَطَرَحَهَا فِيهِ
وَسَدَّ بَابَهُ، فَلَمَّا عُوْتِبَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ:
. دَلَّنَا الْعِلْمُ فِي الْأَوَّلِ ثُمَّ كَادَ يُضِلُّنَا فِي الثَّانِي، فَهَجَرْنَاهُ لَوَجْهِ مَنْ
وَصَلَّنَا، وَكَرِهْنَاهُ مِنْ أَجْلِ مَا أَرَدْنَا.
وهذا أبو سليمان الداراني^(١٩١) جَمَعَ كِتَابَهُ فِي تَنْوِيرٍ وَسَجَرَهَا^(١٩٢) بِالنَّارِ
ثُمَّ قَالَ:

. وَاللَّهِ مَا أَحْرَقْتُكَ حَتَّى كِدْتُ أُحْتَرِقُ بِكَ.
وهذا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ مَرَّقَ أَلْفَ جِزْءٍ وَطَيَّرَهَا فِي الرِّيحِ وَقَالَ:
. لَيْتَ يَدَيَّ قُطِعَتْ مِنْ هَا هُنَا، بَلْ مِنْ هَا هُنَا وَلَمْ أَكْتُبْ حَرْفًا.

(١٨٩) . داود الطائي: هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي؛ محدث زاهد، مات بالكوفة سنة
١٦٠ أو ١٦٥ هـ.

(١٩٠) . صوفي زاهد، قال فيه يحيى بن معين: أبو حاتم لا يحتج به، وقال البخاري: كان قد دفن كتبه، فكان لا
يحيى بمحدثه كما ينبغي.

(١٩١) . هو أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي الداراني، زاهد مشهور من كبار رجال الطريقة،
توفي سنة ٢١٥ هـ.

(١٩٢) . السجور: إيقادك في التَّنويرِ تَسْجُرُهُ بِالْوَقُودِ، وَالسُّجُورُ اسْمُ الحَطْبِ، وَالمَسْجُورَةُ: الخَشْبَةُ الَّتِي تَسُوطُ بِهَا فِيهِ
السُّجُورُ.

وهذا شَيْخُنَا أَبُو سَعِيدِ السَّيرَافِيِّ^(١٩٣)؛ سَيِّدُ العِلْمَاءِ قَالَ لِوَلَدِهِ مُحَمَّدٍ:
. قَدْ تَرَكْتُ لَكَ هَذِهِ الكُتُبَ تَكْتَسِبُ بِهَا خَيْرَ الأَجَلِ، فَإِذَا رَأَيْتَهَا
تَخُونَكَ فَاجْعَلْهَا طُعْمَةً لِلنَّارِ.

وَمَاذَا أَقُولُ وَسَامِعِي يُصَدِّقُ أَنَّ زَمَانًا أَحْوَجَ مِثْلِي إِلَى مَا بَلَغَكَ، لَزَمَانٌ
تَدْمَعُ لَهُ العَيْنُ حَزْنًا وَأَسَى، وَيَتَقَطَّعُ عَلَيْهِ القَلْبُ غِيظًا وَجَوَى، وَضَنَى وَشَجَى،
وَمَا يَصْنَعُ بِمَا كَانَ وَحَدَّثَ وَبَانَ؛ إِنْ احْتَجْتُ إِلَى العِلْمِ فِي خَاصَّةِ
نَفْسِي فَقَلِيلٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى شَافٍ كَافٍ، وَإِنْ احْتَجْتُ إِلَيْهِ لِلنَّاسِ فِي الصَّدْرِ
مِنْهُ مَا يَمَلَأُ القُرطَاسَ بَعْدَ القُرطَاسِ، إِلَى أَنْ تَفْنَى الأَنْفَاسُ بَعْدَ الأَنْفَاسِ،
﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ﴾^(١٩٤). فَلَمْ تُعَيِّنِي . أَيْدِكَ اللَّهُ - بَعْدَ هَذَا بِالْحَبْرِ وَالوَرَقِ

وَالجِلْدِ وَالقِرَاءَةِ وَالْمُقَابَلَةَ وَالتَّصْحِيحَ، وَبِالسَّوَادِ وَالبَيَاضِ، وَهَلْ أَدْرَكَ
السَّلْفُ الصَّالِحُ فِي الدِّينِ الدَّرَجَاتِ العُلَى إِلَّا بِالعَمَلِ الصَّالِحِ،
وَإِحْلَاصِ المَعْتَقَدِ، وَالرُّؤْيُ الدَّالِّ عَلَى العَالِمِ فِي كُلِّ مَا رَاقَ مِنَ الدُّنْيَا
وَخَدَعَ بِالزَّبْرِجِ^(١٩٥) وَهَوَى صَاحِبِهِ إِلَى الهَبُوطِ؟ وَهَلْ وَصَلَ الحُكَمَاءُ القُدَمَاءُ
إِلَى السَّعَادَةِ العَظْمَى إِلَّا بِالاقتِصَادِ فِي السَّعْيِ، وَإِلَّا بِالرِّضَا بِالمِيسُورِ، وَإِلَّا
بِئْذَلِ مَا فَضَلَ عَنِ الحَاجَةِ لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ؟ فَأَيْنَ يُذْهَبُ بِنَا وَعَلَى أَيِّ بَابٍ
نَحْطُ رِحَالِنَا؟ وَهَلْ جَامِعُ الكُتُبِ إِلَّا كجَامِعِ الفِضَّةِ وَالدَّهَبِ؟ وَهَلْ

(١٩٣) . وردت ترجمته.

(١٩٤) . سورة يوسف . الآية ٣٨ .

(١٩٥) . زبرج الشبيء: حسنه وزنه.

المنهوم^(١٩٦) هَا إِلَّا كَالْحَرِيصِ الْجَشِيعِ عَلَيْهِمَا؟ وَهَلِ الْمَغْرَمُ بِجَبِّهَا إِلَّا كَمَا كَثَرَتْهَا؟ هَيْهَاتَ الرَّحِيلِ وَاللَّهِ قَرِيبٌ، وَالثُّوَاءُ قَلِيلٌ، وَالْمَضْجَعُ مَقْضٌ^(١٩٧)، وَالْمَقَامُ مُمِضٌ^(١٩٨)، وَالطَّرِيقُ مَخَوْفٌ^(١٩٩)، وَالْمُعِينُ ضَعِيفٌ، وَالْإِغْتِرَارُ غَالِبٌ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ هَذَا كُلِّهِ طَالِبٌ.

نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى رَحْمَةً يُظِلُّنَا جَنَاحُهَا، وَيَسَهِّلُ عَلَيْنَا فِي الْعَاجِلَةِ عُذْوَهَا وَرَوَاحَهَا. فَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ بَعُدَ عَنِ رَحْمَتِهِ بَعْدَ أَنْ حَصَلَ تَحْتِ قَدْرِهِ فَهَذَا هَذَا.

ثُمَّ إِنِّي - أَيَّدَكَ اللَّهُ - مَا أَرَدْتُ أَنْ أَجِيْبَكَ عَنْ كِتَابِكَ لِطُورِ جَفَائِكَ، وَشِدَّةِ التَّوَانِكِ عَمَّنْ لَمْ يَزَلْ عَلَى رَأْيِكَ مَجْتَهِدًا، وَفِي مَحَبَّتِكَ عَلَى قُرْبِكَ وَنَأْيِكَ، مَعَ مَا أَحْدَهُ مِنْ انْكَسَارِ النَّشَاطِ، وَانْطَوَاءِ الْبِسَاطِ، لِتَعَاوُدِ الْعَلَلِ عَلَيَّ، وَتَخَاذُلِ الْأَعْضَاءِ مِنِّي؛ فَقَدْ كَلَّ الْبَصَرُ، وَانْعَقَدَ اللَّسَانُ، وَجَمَدَ الْخَاطِرُ، وَذَهَبَ الْبَيَانُ، وَمَلَكَ الْوَسْوَاسُ، وَغَلَبَ الْيَأْسُ^(٢٠٠) مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ، وَلَكِنِّي حَرَسْتُ مِنْكَ مَا أَضَعْتَهُ مِنِّي، وَوَقَيْتَ لَكَ بِمَا لَمْ تَفِ بِهِ لِي، وَيَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ لِي الْفَضْلُ عَلَيْكَ، أَوْ أَحْرَزُ الْمَرْيَةَ دُونَكَ. وَمَا حَدَانِي عَلَى مَكَاتِبِكَ إِلَّا مَا أَمْتَلَّهُ مِنْ تَشْوُوقِكَ إِلَيَّ، وَتَحَرُّقِكَ عَلَيَّ،

(١٩٦) . المنهوم: أي النهم.

(١٩٧) . أفض فعل لازم، ومعنا خشن، ويقال فضَّ أو أفض المكان أو الطعام أي: صار فيه القفض، والقفض صار الحصى.

(١٩٨) . الممض: الألم، وأمضه: ألمه.

(١٩٩) . المخاف والمخيف: موضع الخوف، وطريق مخوف أو مخيف أي: تخافه الناس. وكذلك وجع مخوف أو مخيف أي: يخيف من رآه.

(٢٠٠) . اليأس: اليأس.

وَأَنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي بَلَغَكَ قَدْ بَدَّدَ فِكْرَكَ وَأَعْظَمَ تَعْجُجِكَ، وَحَشَّدَ عَلَيْكَ
جَزَعَكَ وَالْأَوَّلُ يَقُولُ:

وَقَدْ يَجْزَعُ الْمَرْءُ الْجَلِيدُ وَيَبْتَلِي

عَزِيمَةَ رَأْيِ الْمَرْءِ نَائِبَةُ الدَّهْرِ

تُعَاوِدُهُ الْأَيَّامُ فَلَا يَنْوُءُ بِهِ

فَيَقْوَى عَلَى أَمْرٍ وَيَضْعَفُ عَنْ أَمْرٍ

على أيّ لو علمتُ في أيّ حالٍ غلبَ عليّ ما فعلتُهُ، وعندَ أيّ
مرَضٍ، وعلى أيّ عُسرَةٍ وفاقَةٍ لَعَرَفْتَ من عُذري أضعافَ ما
أبديتُهُ، واحتججتَ لي بأكثرَ ممّا نَشَرْتُهُ وطويتَهُ، وإذا أنعمتَ النَّظَرَ تَيَقَّنْتَ
أَنَّ لَهِ جَلًّا وَعَزًّا فِي خَلْقِهِ أَحْكَامًا لَا يُعَازُ^(٢٠١) عَلَيْهَا وَلَا يَغَالِبُ فِيهَا، لِأَنَّهُ
لَا يُبْلَغُ كُنْهَهَا، وَلَا يُنَالُ غَيْبَهَا، وَلَا يُعْرَفُ قَائِبَهَا^(٢٠٢)، وَلَا يُفْرَعُ بِأُهَا.
وهو تعالى أملك لنواصيها، وأطلع على أدانينا وأقاصينا. له الخلق والأمر،
وبيده الكسر والجبر، وعلينا الصَّمْتُ والصَّبْرُ، إلى أن يوارينا اللحدَ والقبرَ
والسَّلَامَ.

إِنْ سَرَّكَ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، أَنْ تَوَاصَلَنِي بِخَيْرِكَ، وَتُعَرِّفَنِي مَقَرَّ
خَطَابِي هَذَا مِنْ نَفْسِكَ فَافْعَلْ، فَإِنِّي لَا أَدْعُ جَوَابَكَ إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ تَعَالَى

(٢٠١) - يعازُ: يعارض، من عازَه معازَه: عارضه في العزّة.

(٢٠٢) - القابُ: ما بين المقبض والسّيئة (سبة القوس: طرف قابها)، ولكل قوسٍ قابان، وعمّا ما بين المقبض
والسبية، ومن ذلك قولهم: قاب قوس، ويقال أيضاً: قيب قوس، وقاد قوس، وقيد قوس، أي: قدر قوس.

تلاقياً يَسُرُّ النَّفْسَ، ويذكر حديثنا بالأمس، أو بفراقٍ نصيرُ به إلى
الرَّمْسِ، ونَقْدُ معه رؤية هذه الشَّمْسِ، والسَّلَامِ عليك خاصًّا بِحَقِّ الصَّفَاءِ
الذي بيني وبينك، وعلى جميع إخوانك عامًّا بِحَقِّ الوَفَاءِ الذي يجبُ عليَّ
وعليك السَّلَام.

* * *

مشهد من الرسالة

ثُمَّ اعْلَمْ . عَلَّمَكَ اللهُ الْخَيْرَ . أَنَّ هَذِهِ الْكُتُبُ
حَوَتْ مِنْ أَصْنَافِ الْعِلْمِ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ؛ فَأَمَّا مَا كَانَ
سِرًّا فَلَمْ أَجِدْ لَهُ مَنْ يَتَحَلَّى بِحَقِيقَتِهِ رَاجِبًا، وَأَمَّا مَا
كَانَ عِلْمًا فَلَمْ أُصِبْ مَنْ يَخْرُصُ عَلَيْهِ طَالِبًا. عَلَى
أَنِّي جَمَعْتُ أَكْثَرَهَا لِلنَّاسِ، وَلِطَلَبِ الْمِثَالَةِ مِنْهُمْ،
وَلِعَقْدِ الرِّيَاسَةِ بَيْنَهُمْ، وَلِمَدِّ الْجَاهِ عِنْدَهُمْ، فَحَرَقْتُ
ذَلِكَ كُلَّهُ.

مشهد من الرسالة

قد كَلَّ البَصْرُ، وانعقدَ اللسانُ، وجمدَ الخاطرُ،
وزهدَ البيانُ، وملكَ الوسواسُ، وغلبَ اليأسُ من
جميعِ النَّاسِ، وَلِكِنِّي حَرَسْتُ مِنْكَ ما أَضَعْتَهُ مِنِّي،
وَوَقَّيْتُ لَكَ بما لَمْ تَفِ بِهِ لِي، ويعزُّ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ لِي
الْفَضْلُ عَلَيْكَ، أَوْ أَحْرَزُ الْمَرْبَةَ دُونَكَ. وما حداني
على مكاتبتك إلا ما أتمَّله من تشوُّقِكَ إِلَيَّ، وتحرُّقِكَ
عَلَيَّ.

* * *

مرسالة

إلى الوزير أبي عبد الله العامر

انْعَقَدَتْ بَيْنَ التَّوْحِيدِيِّ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَزِيرِ صَمَّامِ الدَّوْلَةِ
البُويهيِّ صِدَاقَةً وَثِيْقَةً سَقَطَتْ الكُلْفَةُ فِيهَا بَيْنَهُمَا. وَفِي هَذِهِ
الرِّسَالَةِ يُحَاوَلُ التَّوْحِيدِيُّ تَوْجِيْهَ الوَازِرِ وَنُصَحَهُ فِي بَعْضِ أُمُورِ
الدَّوْلَةِ. طُبِعَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ ضِمْنَ كِتَابِ «رِسَائِلِ التَّوْحِيدِيِّ»
الَّتِي عُيِّنَ الدُّكْتُورُ الكِيْلَانِيُّ بِجَمْعِهَا وَالتَّقْسِيمِ لَهَا. وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي
الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ «الإِمْتَاعِ وَالمُؤَانَسَةِ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُمَّ حَلِّني بالتَّوْفِيقِ، وأيدني بالنُّصْرَةِ، وأقرُنْ منطقي بالسَّدَادِ،
واجعل لي من الوَازِرِ وَزِيرِ المَمَالِكِ عُقْبَى فَارِجَةً من العُغْمِ، وخاتمةً مُوَصِّلَةً
بالتَّحَاك، فَإِنَّكَ على ذلك قَدِيرٌ، وبالإجابة جدير.

كنتُ وصلتُ إلى مجلسِ الوَازِرِ، وفُزْتُ بالشَّرَفِ منه، وَخَدَمْتُ
دولتَهُ، وَعَلَاةً من صَدْرِي بِحَيِّئَتِهِ، ومن فَوَادِي بِمَحِيضَتِهِ، وَتَصَرَّفْتُ من
الحديثِ بِإِذْنِهِ في شَجُونِهِ وَفُنُونِهِ، كُلُّ ذلك آملاً في جَدْوَى آخِذُهَا،
وَحِظْوَةٍ أَحْظَى بِهَا، وَزُلْفَى أَمِيسُ مَعَهَا، وَمِثَالَةَ أُحْسَدُ عَلَيْهَا. فَتَقَبَّلْ
ذلك كُلَّهُ، وَوَعَدَ عَلَيْهِ خَيْراً ولم يزل أهله، وانقلبتُ إلى أهلي مسروراً
بوجهِ مُسْتَفْرِ، وَمُحْيِياً طَلِقٍ، وَطَرْفِ عَازِمٍ، وَأَمَلٍ قد سَدَّ ما بين أَفْقِ العِراقِ
إلى صِنْعَاءِ اليَمَنِ، حَتَّى إِذَا قَلْتُ لِلنَّفْسِ:

. هذا معانُ الوَازِرِ وَمَعْمَرُهُ، وَجَنَابُهُ وَمَحْضَرُهُ، فانشرحي مستفتحةً،
وَتَيْمَنِي مَقْتَرِحَةً، اطمئني راضيةً مَرْضِيَةً، لا كَدِرَةَ الشَّرْبِ، ولا مَذْعُورَةَ
السَّرْبِ.

حصلتُ من ذلك الوعدِ والضَّمانِ، على بعضِ فِعْلاتِ الزَّمانِ؛ ولا عَجَبَ في ذلك من الزَّمانِ فهو بِمِثْلِهِ مُلءٌ، وله فعول.

وبقيتُ محمولاً بيني وبين إذكاره . فَرَنَ اللهُ ساعاتِهِ بِسَعَادَاتِهِ، وَوَصَلَ عِزَّ يَوْمِهِ بِسَعَادَةِ عَدِيهِ؛ وَعَدَّهُ بِامْتِدَادِ يَدِهِ . حيرانٌ لا أريشٌ ولا أبري^(٢٠٣)، ثُمَّ رَفَعْتُ نَازِرِي، وَسَدَّدْتُ خَاطِرِي، وَفَصَّلْتُ الحِسابَ لي وَعَلِيَّ؛ فَوَضَّحَ العِذْرُ المَبِينُ، المانِعُ من استزادة المستزيدين، وذلك أَيْ رَأَيْتُ أَعْبَاءَ الوِزارَةِ تُؤوِدُ سِرَّهُ، وَتُتَعَبُ بِأَلِّهِ، وَالمَمْلَكَةُ تُفْزِعُ وَهَيَّ عَلَيْهِ، وَتُلْقِي بِجِرائِها لَه بَين يَدَيهِ، وَالدَّوْلَةُ تَسْتَمِدُّهُ التَّدْبِيرَ الثَّقِيلَ، وَالرَّايَ الصَّائِبَ، سَوى أُمُورٍ في خِلافِ ذلك لا يُحَرِّزُها رَسْمُ راسِمٍ، وَلا يُقَرِّزُها قَسَمُ قاسِمٍ، وَلا يَجْويها وَهْمٌ وَاهِمٍ، وَلا يَفوزُ بِها سَهمٌ مُسَاهِمٍ، وَهو يَحْطِرُ في حَواشي هَذه الأَحْوالِ، مَتَأَبَّطاً البَواهِظَ الثَّقَالَ، مَفْتَحاً عَويصَ الأَفْقالِ، سَامي الطَّرْفِ، فَسِيحَ الصِّدْرِ، بِسَاماً عَلى العَلاتِ، غَير مُكَتَرثَ بِهاكَ وَهاتِ، وَيتَلَقَّى ما أَعيا من ذلك بِاللِّي، وَما أَشْكَلَ بِالإِيضاحِ، وَما عَسَرَ بِالتَّدْبِيرِ، وَما فَسَدَ بِالإِصلاحِ، وَما أَرَقَ بِالعِثْقِ، وَما خَرَقَ بِالرِّتْقِ، وَما خَفِيَ بِالتَّكْشيفِ، وَما بَدَأَ بِالتَّصْرِيفِ، وَما أَوَدَ^(٢٠٤) بِالتَّثْقيفِ، وَما لَبَسَ^(٢٠٥) بِالتَّعْرِيفِ، حَتَّى أَجمَعُ عَلى هَواهِ قاصِيا وَدانِيا، وَجَري عَلى مَرادِهِ خافِيا وَبادِيا، وَاستِجابَ لِأَمْرِهِ

(٢٠٣) . رشئتُ السهمَ أُرَيْشُهُ أَي: أَعْمَلُ لَه رِيشاً . وَفَلاَن لا يَريشُ وَلا يَبري (من البري) أَي لا يَضر وَلا يَنفَع .

(٢٠٤) . أَوَدَ: أَصابَهُ العَوجُ .

(٢٠٥) . لَبَسَ: صارَ مَلتَبِساً .

أَيُّهَا وَمُنْقَادُهَا، وَأَتْلَفَ بِلَفْظِهِ نَادِرَهَا وَمَعْتَادَهَا. فَلَمَّا تَيَقَّنْتُ ذَلِكَ
كُلَّهُ وَقَتْلَتَهُ خُبْرًا، أَمْسَكْتُ عَنْ إِذْكَارِهِ . نَفَسَ اللَّهُ مُدَّتَهُ . سَالَفَ عَهْدَهُ،
وَمَتَقَدَّمَ وَعَدَهُ، عَالِمًا بَأَنَّ أَسْرَهُمَا مَرَعِيٌّ عِنْدَهُ فِي صَدْرِ الْكَلَامِ، وَمَكْتُوبٌ
لَدَيْهِ فِي صَحِيفَةِ الْمَجْدِ، وَثَابِتٌ قَبْلَهُ فِي دِيْوَانِ الْحُسْنَى .

وَلَكِنْ كَانَ ذَلِكَ الْاِمْتِنَانِ عَلَى رَغِمِ مَنِّي، لِأَنِّي قَتَلْتُ فِي أَثْنَائِهِ بَيْنَ
جَنِيٍّ قَلْبًا مَغْرُورَ الرَّجَاءِ، وَمَنْزُورَ^(٢٠٦) الْعَزَاءِ، عَلَى عَوَارِضَ لَمْ تَسْنَحْ فِي
خَلْدِي، وَلَمْ أَعْقُدْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا يَدِي .

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ مَعَاذِي إِلَى الْوَزِيرِ الْكَرِيمِ، الْبِرِّ الرَّحِيمِ،
وَالْمِنَّةَ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي مِنْ عُفَاةِ جُودِهِ، وَنَاشِئَةِ عُرْفِهِ، وَوَارِدِ عَدِّهِ،
وَقَادِحِي زَنْدِهِ، وَمَقْتَبَسِي نَوْرِهِ، وَمَصْطَلِي نَارِهِ، وَحَامِلِي نِعْمَتِهِ، وَطَالِي
خِدْمَتِهِ . وَجَعَلَ خَاصَّتِي وَخَالِصَّتِي مِنْ بَيْنِهِمْ رَوَايَةَ مَنَاقِبِهِ بِاللِّسَانِ الْأَبِينِ،
وَنَشَرَ فِضَائِلَهُ بِالشَّنَائِءِ الْأَحْسَنِ، وَذَكَرَ آيَاتِهِ بِاللَّفْظِ الْأَفْصَحِ، وَالِاحْتِجَاجِ
لِسَدَادِ آرَائِهِ بِالْمَعْنَى الْأَوْضَحِ؛ فَلَا زَالَ الْوَزِيرِ . وَزِيرِ الْمَمَالِكِ . مَمْدُوحًا فِي
أَطْوَارِ الْأَرْضِ وَالسَّنَةِ الْأَدْبَاءِ وَالْحُكَمَاءِ، وَفِي نَوَادِي الرُّؤَسَاءِ الْعِظَمَاءِ، مَا
أَبَّ آيِبَ، وَغَابَ غَائِبَ، بِمَنْنِهِ وَلَطْفِهِ .

قَدْ نَادَيْتَ الْوَزِيرَ حَيًّا سَامِعًا، وَخَيْرًا جَامِعًا، وَهَزَزْتُ مِنْهُ
صَارِمًا قَاطِعًا، وَشَهَابًا سَاطِعًا، وَاسْتَسْقَيْتُ مِنْ كَرَمِهِ سَحَابًا

(٢٠٦) . النزر والنزير والمنزور: القليل من كل شيء.

هاطلاً، ونقاخاً^(٢٠٧) سائلاً، وأسأله أن يُجِيبني مرارة الخيبة، وحسرة الإخفاق، وعذاب التَّسْوِيفِ، فقد تَلَطَّفْتُ بالسَّحْرِ الحلالِ، والعذبِ الزُّلالِ، جهد المقلِّ المحتالِ، وهو أولى بمجده، في تدبير عبده، إن شاء الله تعالى^(٢٠٨).

* * *

(٢٠٧). التُّقَاخُ: المقصود هنا: الماء البارد العذب الصافي الخالص الذي يكاد يَنْقُحُ الفؤاد ببرده.

(٢٠٨). لقد عقب التوحيدى في خاتمة هذه الرسالة، في الإمتاع والمؤانسة، بقوله: «وحضر وصولها إليه بهرام وتكلم بما يشبه نذالته وخسته ونتاج نيتته، فما كنت آمنه؛ وما أشد إشفاقى على هذا الوزير الخطير من شؤم ناصية بهرام، وغل صدره، وقله نصيحته، ولؤم طبعه، وخبث أصله، وسقوط فرعه، ودمامة منظره، ولأمة مخبره؛ حرس الله العباد من شره، وطهر البلاد من عُره وضره.

مشهد من الرسالة

وبقيتُ محمولاً بيني وبين إذكاره . قَرَنَ اللهُ سَاعَاتِهِ
بِسَعَادَاتِهِ، وَوَصَلَ عِزَّ يَوْمِهِ بِسَعَادَةِ غَدِهِ؛ وَغَدَهُ
بِامْتِدَادِ يَدِهِ . حَيْرَانُ لَا أَرِي شُ وَلَا أَبْرِي، ثُمَّ رَفَعْتُ
نَاطِرِي، وَسَدَّدْتُ خَاطِرِي، وَفَصَّلْتُ الْحِسَابَ لِي
وَعَلِيَّ؛ فَوَضَّحَ الْعِذْرُ الْمَبِينُ، الْمَانِعُ مِنْ اسْتِزَادَةِ
الْمُسْتِزِيدِينَ .

* * *

مرسالة

إلى الوزير أبي عبد الله العامر

وهذه رسالةٌ أُخرى إلى الوزير أبي عبد الله، وتختلفُ عن السابقة في موضوعها الذي اقتصَّ هنا بمدح الوزير وتملُّقه. طبعها الدكتور الكيلانيُّ ضمن «رسائل أبي حيان التوحيدِيِّ»، وهي موجودةٌ أيضاً في الجزء الثالث من «الإمتاع والمؤانسة».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَيُّهَا الْوَزِيرُ

جَعَلَ اللَّهُ أَفْدَارَ دَهْرِكَ جَارِيَةً عَلَى تَحْكُمِ آمَالِكَ، وَوَصَلَ تَوْفِيقَهُ بِمَبَالِغِ
مِرَادِكَ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ، وَمَكَّنَكَ مِنْ نَوَاصِي أَعْدَائِكَ، وَثَبَّتَ أَوَاحِي دَوْلَتِكَ
عَلَى مَا فِي نَفُوسِ أَوْلِيَائِكَ.

يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ رَأْيًا ثَابِتًا، وَنَصْحًا حَاضِرًا، وَتَنْبُهًا نَافِعًا أَنْ
يُخْدَمَكَ مُتَحَرِّيًا لِرُسُوخِ دَعَائِمِ الْمَمْلَكَةِ بِسِيَاسَتِكَ وَرِيَادَتِكَ، قَاضِيًا بِذَلِكَ
حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تَقْوِيَتِكَ وَحَيَاطَتِكَ. وَإِنِّي أَرَى عَلَى بَابِكَ جَمَاعَةً
لَيْسَتْ بِالكَثِيرَةِ . وَلَعَلَّهَا دُونَ الْعَشْرَةِ . يُؤَثِّرُونَ لِقَاءَكَ وَالْوَصُولَ إِلَيْكَ لِمَا
يُجْنُّ صَدُورَهُمْ مِنَ النَّصَائِحِ النَّافِعَةِ، وَالبَلَاغَاتِ الْمَجْدِيَةِ، وَالدَّلَالَاتِ الْمُقَيَّدَةِ،
وَيُرُونَ أَنَّهُمْ إِذْ أَهَلُّوا لَذَلِكَ فَقَدْ قَضَوْا حَقَّكَ، وَأَدُّوا مَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ
حَرَمَتِكَ، وَبَلَّغُوا بِذَلِكَ مِرَادَهُمْ مِنْ تَفْضِيلِكَ وَاصْطِنَاعِكَ، وَتَقْدِيمِكَ وَتَكْرِيمِكَ؛

والحجابُ قد حالَ بينهم وبينك، ولكلِّ منهم وسيلةٌ شافعةٌ، وخدمةٌ للخيرات
جامعةٌ:

منهم . وهو أهلُ الوفاءِ . ذوو كفايةٍ وأمانةٍ، ونباهةٍ ولباقةٍ .
ومنهم من يصلحُ للعملِ الجليلِ، وليرتقِ الفتقَ العظيمِ .
ومنهم من يمتنعُ إذا نادَمَ، ويشكرُ إذا اصطنعَ، ويبدلُ المجهودَ إذا رفعَ .
ومنهم من ينظمُ الدُرَّ إذا مدَحَ، ويضحكُ التَّعَرَّ إذا مزحَ .
ومنهم من قعد به الدهرُ لِسِنَّهِ العاليةِ، وجلابيهه الباليةِ، فهو موضعُ الأجرِ
المذخور^(٢٠٩)، وناطقٌ بالشُّكرِ المنظومِ والمنثورِ .
ومنهم طائفةٌ أخرى قد عكفوا في بيوتهم على ما يعنيههم من
أحوالِ أنفسهم، في تزجية عيشهم، وعمارة آخرتهم . وهم مع ذلك من وراء
خصاصةٍ مرة، ومؤن غليظة، وحاجات متوالية . ولهم العلم والحكمة
والبيان والتَّجربة، ولو وثقوا [في] أَنَّهُمْ إذا عَرَضُوا أَنفُسَهُمْ عليك، وجهزوا ما
معهم من الحبِّ والفضلِ إليك حظوا منك، واعتزُّوا بك، لحضروا بابك،
وجسَّموا المشقَّةَ إليك . لكنَّ اليأسَ قد غَلَبَ عليهم، وضعفت مَنَّتَهُمْ، وعكس
أملهم، ورأوا أَنَّ سَفَّ^(٢١٠) التُّرابِ أخفُّ من الوقوفِ على الأبوابِ، إذا دنوا
منها دُفِعُوا عنها .

فلو لحظتَ هؤلاء كُلتَهُم بفضلك، وأدניתهم بسعةِ دَرْعِكَ وكرمِ خيمك،
وأصغيتَ إلى مقاتلتهم بسمعك، وقابلتهم بملءِ عينك، كان في ذلك بقاءٌ للنَّعمةِ

(٢٠٩) . المذخور: من الذَّخِر .

(٢١٠) . اقتراح كلِّ شيءٍ يابسٍ سفًّا، والسَّفوف اسم لما يُسْتَفُّ .

عليك، وصيتٌ فاشٍ بذكرك، وثوابٌ مؤجَّلٌ في صحيفتك، وثناءٌ مُعَجَّلٌ عند قريبك وبعيدك. والأَيَّامُ معروفةٌ بالتَّقْلِبِ، والليالي ماخضةٌ^(٢١١) بما يَتَعَجَّبُ منه ذو اللبِّ، والمحدودُ من جُدِّ في جَدِّه، أعنى من كان جُدُّه في الدنيا موصولاً بحظه من الآخرة، ولئن يوكل العاقل بالاعتبار بغيره خيرٌ من أن يوكل غَيْرُهُ بالاعتبار به.

أَيُّهَا الْوَزِيرُ

اصطناعُ الرِّجَالِ صِنَاعَةٌ قَائِمَةٌ بِرَأْسِهَا، قَلَّ مِنْ يَفِي بِرَبِّهَا، أَوْ يَتَأْتَى لَهَا، أَوْ يَعْرِفُ حَلَاوَتَهَا. وهي غير الكتابة التي تتعلَّقُ بالبلاغة والحساب. وسمعتُ ابن سورين يقول: آخر من شاهدنا مِمَّنْ عَرَفَ الاصطناع، واستحلى الصَّنَائِعَ، وارتاح للذِّكْرِ الطَّيِّبِ، واهتَزَّ للمديح، وطَرِبَ على نعمة السَّائِلِ، واغتنمَ حِلَّةَ المحتاج، وانتهبَ الكَرَمَ انتهاباً، والتَّهَبَ في عَشْقِ التَّناء التهاباً، أبو محمد المهلبي^(٢١٢)، فَإِنَّهُ قَدَّمَ قوماً ونَوَّهَ بهم، ونَبَّهَ على فضلهم، وأحْوَجَ النَّاطِرِينَ في أمر الملك إليهم، وإلى كفايتهم، منهم: أبو الفضل العباس بن الحسين^(٢١٣). ومنهم ابن معروف القاضي^(٢١٤).

(٢١١) - من المخاض، وهو وجع الولادة أو الولادة، وهي هنا الولادة.

(٢١٢) - أبو محمد المهلبي: وردت ترجمته، ص ٣٥.

(٢١٣) - هو أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي، كان ظالماً بطَّاشاً، جعله معز الدولة كاتبه ثم استوزره، مات سنة ٣٦٣هـ/٩٤٧م.

(٢١٤) - هو أبو محمد عبيد الله بن أحمد ابن معروف، ولي قاضي القضاة ببغداد، وكان أديباً وشاعراً، وهو من العلماء الثقاة، مات سنة ٣٨١هـ/٩٩١م.

ومنهم أبو عبد الله اليفرنى.

ومنهم أبو إسحاق الصابى^(٢١٥).

وأبو الخطاب الصابى.

ومنهم أحمد الطويل.

ومنهم أبو العلاء صاعد^(٢١٦).

ومنهم أبو أحمد بن الهيثم.

وابن حفص صاحب الديوان، وفلان وفلان، هؤلاء إلى غير هؤلاء، كأبي تمام الزينى، وأبي بكر الزهرى^(٢١٧)، وابن قريعة^(٢١٨)، وأبي حامد المروروذى^(٢١٩)، وأبي عبد الله البصرى، وأبي سعيد السيرافى، وأبي محمد الفارسى، وابن درستويه^(٢٢٠)، وابن البقال^(٢٢١)، والسرى^(٢٢٢)، ومن لا يحصى كثرة من التجار والعُدول.

(٢١٥) . هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهران الحرانى الصابى، كان من كبار كتاب عصره ، مات سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م.

(٢١٦) . هو أبو العلاء صاعد بن مخلد الكاتب النصرانى، أسلم، وقد جعله الموفق كاتبه، ثم استوزره المعتمد، كان كثير الصدقة. مات سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م.

(٢١٧) . هو أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أحد أعلام التابعين بالمدينة، كان فقيهاً ومن كبار الحفاظ والمحدثين، مات على الأرجح سنة ١٢٤هـ/٧٤١م.

(٢١٨) . هو أبو بكر محمد بن عبد الرحمن المعروف باب قريعة، ولي القضاء ببغداد، اشتهر بإتقان السجع ارتجالاً، وهو صاحب نوادر، مات سنة ٣٦٧هـ/٩٧٨م.

(٢١٩) . أبو حامد المروروذى: وردت ترجمته . ص ٢٧ . ٢٨ .

(٢٢٠) . هو محمد بن عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان الفارسى الفسوى النحوى المعروف . مات سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م.

وقال لي ابن سورين: كان أبو محمد يطربُ على اصطناع الرجال كما يطرب سامعُ الغناءِ على الشبابير، ويرتاحُ كما يرتاح مديرُ الكأس على العشائر. وقال عنه: إنَّه قال: والله لأكوننَّ في دولةِ الدَّيلمِ أوَّل من يُذكر، إن فاتني أن كنتُ في دولةِ بني العباسِ آخر من يُذكر.

فلولا أنَّكَ . أدام الله دولتك . أذنت لي أن أكتب إليك كُلَّ ما هَجَسَ في النَّفس، وطلع به الرَّأي مِمَّا فيه مرَدُّ على ما أنت فيه من هذا الثَّقَلِ الباهظ، وتنبه على ما تباشره بكاهلك الصَّخَم، لم يكن خَطَرِي يبلغ مواجَهتك بلفظٍ يثقل، وإشارةٍ تغلظ، وكنايةٍ تخدش، لكنَّكَ والله يأخذ بيدك، ويقرن الصُّنْع الجميل بظاهرك وباطنك، قد رَخَّصت لي في ذلك، وَحَصَّصْتِي به من بين غاشية بابك، وخدم دولتك، فلذلك أقول ما أقول معتمداً على حسن تقبُّلك، وجميل تكفُّلك، ومنتظر تفضُّلك؛ وليس في أبواب السِّياسة شيءٌ أجدى وأنفع، وأنفى للفساد وأقمع، من الاعتبار الموقظ للنَّفْس، الباعث على أخذ الحزم، وتجريد العزم. فإن الوكَّال^(٢٢٣) والهوينا قلَّما يُفْضِيانِ بصاحبهما إلى دَرَكَ مأمول، ونَيْلٍ مُرادٍ، وإصابة متمي.

وقد قال رجلٌ كبيرُ الحكمة، معروفُ الحنكة: المُعْتَبَرُ كثيرٌ، والمُعْتَبَرُ قليلٌ. وصدقَ هذا الرَّجُلُ الصَّالح، وهو الحسن البصري^(٢٢٤):

(٢٢١) . ابن البقال هو الاسم الذي اشتهر به علي بن يوسف أبو الحسن، وهو شاعر وأديب بغدادى، كان مرَّاحاً كثير النوارد، نادم الوزير المهلبى.

(٢٢٢) . هو أبو الحسن السرى بن أحمد بن السرى الكندى، شاعر مشهور.

(٢٢٣) . الوكَّال: الضَّعْفُ. وواكلت الدَّابةُ وكالاً: أساءت السير.

(٢٢٤) . الحسن البصرى: زاهد واعظ معروف.

لو اَعْتَبَرَ مَنْ تَأَخَّرَ بِمَنْ تَقَدَّمَ، لم يكن من يتحسّر في النَّاسِ ويندم، ولكنَّ الله بنى هذه الدَّارَ على أن يكونَ أهلُها بين يقظةٍ ونومٍ، وبين فرحٍ وَتَرَحٍّ، وبين حيطةٍ وورطةٍ، وبين حزمٍ وغفلةٍ، وبين نزاعٍ وسَلْوَةٍ، لكنَّ الآخذ بالحزم، وإن جرى عليه مكرهٌ، أعذُرُ عند نفسه، ثوعندَ كُلِّ مَنْ كان في مَسْكِهِ، من الملقى بيده، والمتدليِّ بغيره، والسَّاعي في ثُبُورِهِ. وما وَهَبَ اللهُ العقلَ لأحدٍ إلا وقد عرضه للنَّجاةِ، ولا حلاهُ بالعلم إلا وقد دعاه إلى العمل بشرائطه، ولا هداه الطَّرِيقين (أعني الغيِّ والرُّشدَ) إلا ليزحف إلى أحدهما بحسن الاختيار.

هذا بالأمس أبو الفضل العباس بن الحسين الوزير^(٢٢٥). وهو في وزارته وبَسْطَةِ أمره ونهيه. قيل له ذات يوم: هذا التُّركِيُّ ساسنكر^(٢٢٦) تفيأ بِظِلِّهِ، واعتصمَ بجبله، واستسقى بِسِجْلِهِ، وارتوَّ من سُورِهِ، ولا يبلغه عنك ما يوحشه منك، ويجفيه عليك. وقد قيل:

* أَسْجُدُ لِقَرْدِ السُّوءِ فِي زَمَانِهِ *

وإذا لم تُقَدِّرْ على قَطْعِ يَدِ جَائِرَةٍ، فَمَبْلَهَا مُتْهِمَةٌ مُنْجِدَةٌ غَائِرَةٌ. فلم يفعل، حَتَّى وَجَدَ أَعْدَاؤُهُ طَرِيقاً إِلَيْهِ، فَسَلَكُوهُ وَأَوْقَعُوهُ.

ثمَّ قيل له في الوزارة الثَّانية: قد دُفِّتَ مَرارَةً التَّكْبِةُ، وَتَحَرَّقتَ بنار الشَّماتَةِ، وَتَأَرَّقَتْ على فرطات العجز والفِسَالَةِ^(٢٢٧)، وقد كان من ذلك

(٢٢٥). أبو الفضل العباس بن الحسين الوزير: تقدمت ترجمته قبل صفحات.

(٢٢٦). اسم غير معروف صاحبه.

(٢٢٧). الفِسالُ: الرُّذُلُ التَّدُلُّ الذي لا مروءة له ولا جلد، والجمع أفسل وفسول وفسال وفُسل.

كُلُّهُ مَا كَانَ، وَدَارَ لَكَ بِمَا تَمَنَّيْتَ الزَّمَانَ. فَانظُرْ أَيْنَ تَضَعُ الْآنَ قَدَمَكَ،
 وَبِأَيِّ شَيْءٍ تُدِيرُ لِسَانَكَ وَفَمَكَ، فَإِنَّ مُحَلِّصَكَ مِنْ وَرَطَتِكَ بِالْمُرْصَادِ، وَقَدْ
 وَعَدْتَ مِنْ نَفْسِكَ إِنْ عَادَ اللَّهُ يَدَكَ إِلَى الْبَسِطَةِ، وَرَدَّ حَالَكَ إِلَى
 السُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ، أَنَّكَ تُجْمَلُ بِالْمَعَامِلَةِ، وَتَنْسَى الْمَقَابِلَةَ، وَتَلْقَى وَلِيَّكَ وَعِدْوَكَ
 بِالْإِحْسَانِ إِلَى هَذَا، وَالْكَفِّ عَنْ هَذَا، حَتَّى يَتَسَاوَىا بِنَظْرِكَ، وَيَتَعَبَّدَا لَكَ
 بِتَفْضِيلِكَ.

فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِ مَا دَلَّ عَلَى عُنُوتِهِ وَتَبَاتِهِ، لِأَنَّهُ قَالَ:

أَمَا سَمِعْتُمْ اللَّهَ تَعَالَى حَيْثُ يَقُولُ:

﴿وَلَوْ مَرَدُّوا لَعَادُوا لَمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^{(٢٢٨)؟}

وَقَالَ لِي الْقَوْمِيسِيُّ^(٢٢٩). وَلَمْ يَعْلَمْ مَا فِي فَحْوَى هَذَا الْكَلَامِ .:

مَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: فَحَوَاهُ وَلَوْ عَادُوا إِلَى مَا نُهُوا عَنْهُ لَعُدْنَا إِلَى مَقَابِلَتِهِمْ بِمَا
 اسْتَحَقُّوا عَلَيْهِ.

وَصَدَقَ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، مَا لَبِثَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ إِلَّا
 قَلِيلًا حَتَّى أُوْرِدَهُ وَلَمْ يُصْدِرْهُ، وَأَعْتَرَهُ وَلَمْ يُنْعِشْهُ، وَسَلَّمْ إِلَى عِدْوِهِ حَتَّى أَسْتَلَّ رُوحَهُ
 مِنْ بَيْنِ جَنْبِيهِ، شَافِيًا بِهِ وَمَشْتَفِيًا مِنْهُ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ خُسْرًا، وَلَوْ اتَّقَى اللَّهُ
 لَكَانَ آخِرُ أَمْرِهِ يَسْرًا. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

(٢٢٨) . سورة الأنعام . الآية ٢٨ .

(٢٢٩) . هو أبو بكر القومسي، فيلسوف، علم من أعلام عصره.

وهذا بعده محمد بن بقیة طغی وبغی، واقتحم ظلماتِ الظلمِ
والعسفِ، وطار بجناح اللهو والعزفِ، والشربِ والقصفِ، ومَلَ نعمة الله عليه،
وضلَّ بين إمهالِ الله وإملائه، فحاقَّ به ما ذَهَبَتْ عليه نفسه وماله، وخرب
بيته، وافتضح أهله، وكيف كان يسلم؟ أم كيف كان ينجو وقد قتل
ابن السَّراج^(٢٣٠) بلا ذنبٍ، والجرجرائي بلا حُجَّةٍ،
وضربَ ابنَ معروف^(٢٣١) بالسَّياطِ وأبا القاسم - أحاً لأبي محمد القاضي -
وَشَهَّرَهُ على جَمَلٍ في الجانبِ الشَّرقيِّ!؟

والتَّشْفِي حلو العلابيَّة، ولكنَّهُ مُرُّ العاقبة، وكانَّ الحفيظة إئماً خلقت
لتعتقد، والحقْد إئماً وُجِدَ ليلِغ به ما يسرُّ الشَّيطان.

وكانَّ العفو حراماً، والكظمَ محظوراً، والمكافأة مأموراً بها.

وهذا بالأمس علي بن محمد ذو الكفائتين^(٢٣٢)، اغترَّ بشبابه، ولها عن
الحزم والأخذ به فيما كان أولى به، وظنَّ أنَّ كِفائتَهُ تحفظه، ونَسَبَهُ من أبيه
يكنفه، وبراءته تحتجُّ له، وذنوبه الصَّغيرة تُغتفر؛ لبلائه المذكور، وغنائه المشهور؛
وَمَشَى فَعَثَرَ، ورابَ فَخَثَرَ، والأول يقول:

مَنْ سَبَقَ الدَّهْرَ كَبَا كَبَوَةً لَمْ يَسْتَقْلِلْهَا آخِرُ الدَّهْرِ
فَاخْطُ مَعَ الدَّهْرِ إِذْ مَا خَطَا وَاجِرِ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَجْرِي

(٢٣٠) - هو أبو بكر محمد بن السري السراج، شاعر وأديب علم نم أعلام عصره، تتلمذ على المبرد، مات سنة
٣١٦هـ/٩٢٨م.

(٢٣١) - ابن معروف: وردت ترجمته قبل قليل.

(٢٣٢) - علي بن محمد ذو الكفائتين: هو أبو الفتح بن العميد وزير ركن الدولة، لقب بذي الكفائتين لجمعه
بين السيف والقلم. (وردت ترجمته).

وقال لي الخليل . وكان لطيف المحلّ عنده، لِمَا كَانَ يرى من اختصاص
أبيه له، ولما يظهر من فضله عنده .:

قلتُ له يوماً: يا هذا، في أيّ شيءٍ أنت؟! وبأيّ شيءٍ تَعْلَمُ؟! وقد
شَحَدْتُ المواسي، وَحَدَدْتُ الأنيابَ، وَفَتَلْتُ المَرَائِرَ، وَنَصَبْتُ الفِخَاخَ،
والعيون مُحَدِقَةً نحو القطيعة، والأعناق صوراً إلى الفطيعة، وأنت لاهٍ ساهٍ عمّاً
يُرَادُ بك بعدُ؛ يسبيك هذا المزرفن^(٢٣٣) وهذا المرخى وهذا المعرض، وهذا
الحليق، وهذا التتيف، وهذا المعقربُ الصُدغ، وهذا المصفوف الطُّرّة، وبالكاس
والطاس، والغناء والقصف، والنَّاي والعود، والصَّبُوح والغُبُوق، والشُّربِ المروِّقِ
العتيق. والله ما أدري ما أصنع، إن سكّتُ عنك كَمَدْتُ، وإن نصحتكُ
خفت منك؛ ونعوذ بالله من اشتباه الرّأي، واشتباك الأمر، وَقَلّةِ الاحتراس،
والإعراض عمّاً يجري من أفواه النَّاسِ.

يا هذا، سُوءُ الاستمساك خيرٌ من حُسنِ الصرعة، وتلقّي الأمرِ
بالحزم والشّهامةِ أولى من استدباره بالحسرة والتّدامة، ومن لا تجربة له
يقتبسُ مِنّ له تجربة، فإذا نَقَبَ الحفُّ دَمِي الأظْلَ. فقال: قد فَرَعَ اللهُ مما هو
كائن:

﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾^(٢٣٤)

(٢٣٣) . كلمة فارسية، من زرفين وهي: الحلق الصغيرة.

(٢٣٤) . سورة الأعراف . الآية ٣٤: (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون...)، وفي سورة يونس الآية ٤٩: (إذا

جاء أجلهم لا يستأخرون...)، وفي سورة النحل الآية ٦١: (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون...).

قال: قلتُ له: ما أطلعك الله على كائنات الأمور، ولا أعلمك بعواقب الأحوال، وإِنَّمَا عَرَفْتُكَ حَظَّكَ بَعْدَ أَنْ وَقَّرَ عَقْلُكَ، وَأَخْضَرَكَ اسْتِطَاعَتُكَ، وَأَوْضَحَ لِقَلْبِكَ مَا عَلَيْكَ وَلكَ، حَتَّى يَسْتَشِفَّ وَيَسْتَكْشِفَ، وَمَلَكَكَ النَّوَاصِي حَتَّى تَمَنَّ وَتُرْسَلَ، وَمَا طَالِبُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَزَاحَ عِلَّتَكَ، وَلَا عَاقِبُكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أُنْذِرَكَ وَأَنْظَرَكَ، وَمِثْلُ هَذَا تُطَالِبُ أَنْتَ مِمَّنْ هُوَ دُونَكَ مِنْ خِدْمِكَ وَحَشْمِكَ، وَأَوْلِيائِكَ وَأَعْدَائِكَ، وَهَذَا الَّذِي أَعْدَلْتُكَ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي بِهِ تَعْدُلُ غَيْرَكَ وَتَرَاهُ ضَالًّا فِي مَسْلَكَه، مُتَعَرِّضًا لِمَهْلِكِهِ.

فقال: أَيْظَلْمَنِي وَلِي نَعْمَتِي صُرَاحًا بِلَا ذَنْبٍ، وَيَجْتَاحَنِي بِلَا جَرِيمَةٍ؛ وَيَثْلُمُ دَوْلَتَهُ بِلَا حُجَّةٍ؟

قلتُ: اللهُ يَقيك وَيَكفِيك، نَزَاكَ بِلَا ذَنْبٍ، وَبِحُدُوكَ بَرِيئًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، وَغَيْرِكَ لَا يَرَاكَ بِهَذِهِ الْعَيْنِ، وَلَا يَحْكُمُ لَكَ بِهَذَا الْحُكْمِ. فَإِنْ كُنْتَ تَرَى فُرْصَةً فَانْتَهِزْهَا، وَإِنْ كُنْتَ تَحْلُمُ بَعْضَةَ فَاحْتَرِزْ مِنْهَا. فَأَبْوَابُ النَّجَاةِ مُفْتَحَةٌ، وَطُرُقُ الْأَمَانِ مُتَوَجِّهَةٌ، وَالْأَخْذُ بِالْإِحْتِيَاظِ وَاجِبٌ، قَدْ قَرَّبَ الشَّخْصُ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، وَالْقِيَامَةُ قَدْ قَامَتْ بِالْإِرْجَافِ، وَالطَّيْرَةُ قَشْعِرِيَّةُ النَّفْسِ، كَمَا أَنَّ الْقَشْعِرِيَّةَ طَيْرُهُ الْبَدَنِ، وَالْإِسْتِرْسَالُ كَلَالُ الْحَسَنِ، وَالْفَأْلُ لِسَانُ الزَّمَانِ، وَغُنْوَانُ الْحَدَثَانِ، وَلَا يَقَعُ فِي الْأَفْوَاهِ إِلَّا مَا يُجِبُّ الْحَدَرَ، وَيَبْعَثُ عَلَى الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ، وَاسْتِقْرَاءُ الْأَثَرِ وَالْحَبَرِ.

قال: أما أنا بعد التوكُّلِ على الله فقد استظهرتُ بِمُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ صَاحِبِ نَيْسَابُورِ، وَبِفَخْرِ الدَّوْلَةِ وَهُوَ بِهَمْدَانَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَبِعِزِّ الدَّوْلَةِ

وهو بمدينة السّلام؛ ومتى حَرَبَ حَارِبَ، وَرَابَ رَائِبَ، أُوَيْتُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ.

قال: قلتُ: ها هنا ما هو أسهلُ مِنْ هذا وإن كان أهولَ، وأنجى وإن كان أشجى، وأقرب وإن كان أعزب.

قال: ما هو؟ فَرَّجَ عَنِّي واهدني.

قلتُ: لما يدخلُ هذا الوارد الدَّارَ، ويدنو من طَرَفِ البِساطِ، تُنْدِرُ رَأْسَهُ عن كَاهِلِهِ، وتُلْقِي شِلْوَهُ^(٢٣٥) فِي مَزْبَلَةٍ، فَإِنَّ الهَيْبَةَ تَقَعُ، والنَّائِرَةُ تَجْبُو، والعَجَبُ يَغْمُرُ، والظَّنَّةُ تَزُولُ، والصَّدْرُ يَشْتَفِي، والاعتذارُ يَنْتَفِي؛ ويُكْتَبُ إِلَى مُوفدِهِ بِأَنَّ الرَّأْيَ أَوْجَبَ هذا الفعلَ، لَأَنَّهُ غَلَبَ على الظَّنِّ أَنَّهُ وافى لِكَيْدٍ يُوصِلُهُ إِلَى، وبِلاءٍ يُفْرِغُهُ عَليَّ، فأزلتُ هذا الظَّنَّ باليقينِ، ودَفَعْتُ الشُّبُهَةَ بالجلاءِ، واستخلصتُ النُّورَ بالظَّلامِ؛ ولأنَّ تُبْعِدَ ساقطاً من خَدَمِكَ، يسوء ظَنِّي [فيه] من جهتك، ويقدحُ في طاعتي لك، ويُضِرُّمُ في نارِ التُّهْمَةِ بيني وبينك؛ خَيْرٌ لي فِي نَصِيحَتِي لِدَوْلَتِكَ، وخَيْرٌ لَكَ فِي بَقَائِي على أَمْرِكَ ونَهْيِكَ، مِنْ أَنْ يَلْتَأَثَ^(٢٣٦) ضَمِيرِي فِي سِياسَةِ دَوْلَتِكَ، وَتُحْوَلُ نِيَّتِي عَمَّا عَهدتُ من القيامِ بِحَقِّ جُنْدِكَ وَرَعِيَّتِكَ، وَحِفْظِ قاصِيتِكَ وَدَانِيَتِكَ.

فقال: هذا أعظم، والله المستعان.

(٢٣٥) . الشلو والشلا: الجلد والجسد من كل شيء.

(٢٣٦) . الالتياث: الاختلاط والالتفاف.

وَلَيْتَنِي أَصَبْتُ بِهَذَا الرَّأْيِ أَمْرًا عَلَا عَقْلُهُ، فَيَقْبَلَهُ بَيَانٍ، أَوْ يَرُدُّهُ
بِبُرْهَانٍ، فَكَانَ يَقْوَى أَوْ يَضْعُفُ، وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَوْ يُجْحِمُ عَنْهُ، فَإِنَّ الْمَبْرَمَ أَقْوَى
مِنَ السَّحِيلِ، وَالسَّمِينُ أَحْمَدُ مِنَ النَّحِيلِ؛ ثُمَّ كَانَ مَا كَانَ وَكَانَ مَشَايخُ الْعِرَاقِ
وَالجَبَلِ يَرُونَ مَا حَدَّثَ بِذَلِكَ الْفَتَى أَمْرًا فَرِيًّا، وَظُلْمًا عَبْقَرِيًّا.

وَحَدَّثَنِي الْقَوْمِيسِيُّ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ بِذَلِكَ أَمْرًا، وَلَا سَبَقَ بِهِ إِذْنًا، وَلَكِنْ لَمَّا
حَدَّثَ مَا حَدَّثَ، وَقَعَ عَنْهُ إِمْسَاكٌ، وَسُتِرَتْ الْكِرَاهِيَّةُ وَالْإِنْكَارُ.
وَلِلْأُمُورِ أَيُّهَا الْوَزِيرُ ظُهُورٌ وَبُطُونٌ، وَهَوَادٍ^(٢٣٧) وَأَعْجَازٌ، وَأَوَاتِلٌ وَأَوَاخِرُ؛
وَلَيْسَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُدْرِكَ النَّجَاحَ فِي الْعَوَاقِبِ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَرَّرَ فِي
الْمَبَادِي؛ وَهَذَا قَالَ الْقَائِلُ:

لَأْمُرٍ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ صُدُورُهُ

وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ عَوَاقِبُهُ

وقال سليمان بن عبد الملك أو غيره من أهل بيته: ما لُمتُ نفسي
على فَوْتِ أَمْرٍ بَدَأْتُهُ بِحُزْمٍ، وَلَا حَمْدَتُهُ عَلَى دَرْكِ أَمْرٍ بَدَأْتُهُ بِعَجْزٍ.
ها هنا ناسٌ إذا تلاقوا ينفُثُ بعضهم إلى بعض بما هو صَرِيحٌ وَكِنَايَةٌ،
ويحتاج الأمرُ إلى ابن يوسف، ويستملي الخبيثُ من الجالس فوق مشرعة
مكان الروايا.

وليس يصحُّ كلُّ ما يقال فيروى على وجهه، وليس يخفى أيضاً كلُّ ما
يجري فيمسك عنه؛ والأُمُورُ مَرَجَةٌ، وَالصُّدُورُ حَرِجَةٌ، وَالاحْتِرَاسُ وَاجِبٌ،

(٢٣٧). كل متقدم: هاد، والجمع هواد. والهادية من كل شيء أوله وما تقدم منه.

والتُّصْحُ مقبولٌ، والرَّأْيُ مشتركٌ، والثَّقَّةُ بالله من اللوازم على من عَرَفَهُ وآمن به،
وليس من الله عَزَّ وَجَلَّ بُدٌّ على كلِّ حَالٍ.

والله أسألُ الدِّفَاعَ عنكَ، والوَقَايَةَ لكَ، فِي مُصَبِّحِكَ وَمُتَمَسِّكِكَ، وَفِي مَبِيتِكَ
وَمَقِيلِكَ، وَشَهَادَتِكَ وَعَيْبَتِكَ، وَلذَوِي مَلِيحاً فِي هَذَا الْبَابِ نَفْخٌ وَإِقَادٌ، وَتَنَاوُلٌ
وَائْتِمَارٌ، وَمَسْأَلَةٌ وَجَوَابٌ.

وعند الشَّيْخِ أَبِي الْوَفَاءِ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَمَنْ غَيْرِهِ مِمَّا يَتَّصِلُ بِهِ
مِنْ نَاحِيَةِ ابْنِ الْيَزِيدِ مَا يَجِبُ أَنْ يُصَاحَّ لَهُ بِالْأُذُنِ الْوَاعِيَةِ، وَيُقَابَلُ
بِالنَّفْسِ الرَّاعِيَةِ، وَيَدَاوَى بِالِدَّوَاءِ النَّاجِعِ، وَتُحَسَّمُ مَادَّتُهُ مِنَ الْأَصْلِ، فَإِنَّ
الْفَسَادَ إِذَا زَالَ حَصَلَ مَكَانُهُ الصَّلَاحُ. وَلَيْسَ بَعْدَ الْمَرَضِ إِلَّا الْإِفْرَاقُ،
وَلَا بَعْدَ التَّنَزِعِ إِلَّا الْإِغْرَاقُ.

إِلَى هَا هُنَا انْتَهَى نَفْسِي بِالتُّصْحِ وَإِنْ كَانَتْ شَفَقَتِي تَتَجَاوَزُهُ، وَحِرْصِي
يَسْتَعْلِي عَلَيْهِ، لَكِنِّي خَادِمٌ، وَكَمَا يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُحَدِّثَ بِنِيَاتِ الصَّدْرِ، فَيَنْبَغِي أَنْ
أَزِمَّ الْحَدَّ بِحُسْنِ الْأَدَبِ.

وَاللَّهُ إِلَيَّ لَوَادٌ مُخْلِصٌ، وَعَبْدٌ طَائِعٌ، وَرَجَائِي الْيَوْمَ أَقْوَى مِنْ رَجَائِي
أَمْسَ، وَأَمَلِي غَدًا أَبْسَطُ مِنْ أَمَلِي الْيَوْمِ. أَشْكُو إِلَيْكَ الْأَرْقَ بِاللَّيْلِ فِكْرًا فِيمَا
يُقَالُ، وَتَحْفُظًا مِمَّا يُنَالُ، وَتَوْهُمًا لِمَا لَا يَكُونُ إِنْ كَانَ، وَشَرُّ الْعِدَا، الَّذِينَ
يَتَمَنُّونَ لِأُولِي نِعْمَتِهِمُ الرَّدْيَ، وَيُبَيِّتُونَ النِّكَائِثَ^(٢٣٨)، وَيُكْرَسُونَ الْأَجْفَانَ،
وَيَتَخَازَرُونَ^(٢٣٩) بِالْأَعْيُنِ، وَيَتَجَاهَرُونَ بِالْأَذَى إِذَا تَلَاقَوْا، وَيَتَهَامَسُونَ

(٢٣٨) . من النكث، وهو النقض؛ نقض العهد أو الوعد أو البيع أو البيعة أو الصلح ...

(٢٣٩) . الخزر بالتحريك: كسر العين بصرها حلقة، وقيل: ضيقها وصغرها. وقيل: هو النظر كأنه بأحد
الشقين. وقيل أن يفتح عينه ويغمضها.

بالألسن إذا تدانوا، والله يصرع جُدودهم، ويضرع خُدودهم بين يديك. وهذه الرقة مني والحفاوة، وهذه الرعشة والقلق، وهذا التتبع والتفرغ كله، لأني ما رأيت مثلك، ولا شاهدت شبهك، كرم حيم، ولين عريكة، وجود بنان، وحضور بشر، وتهلل وجه، وحسن وعد، وقرب إنجاز، وبذل مال، وحب حكمة.

قد شاهدت ناساً في السفر والحضر، صغاراً وكباراً وأوساطاً، فما شاهدت من يدين بالمجد، ويتحلى بالجود، ويرتدي بالعمو، ويتأزر بالحلم، ويُعطي بالجزاف، ويفرح بالأضياف، ويصل الإسعاف بالإسعاف، والإتحاف بالإتحاف، غيرك.

والله إنك لتهب الدرهم والدينار وكأنك غضبان عليهما، وتطمع الصادر والوارد كأن الله قد استخلفك على رزقهما. ثم تتجاوز الذهب والفضة إلى الثياب العزيرة، والخلع النفيسة، والخيل العتاق، والمراكب الثقال، والغلمان والحواري، حتى الكتب والدفاتر وما يضمن به كل جواد. وما هذا من سجايا البشر إلا أن يكون فاعل هذا نبياً صادقاً، وولياً لله مجتبي، فإن الله قد آمن هذا الصنف من الفقير، ورفع من قلوبهم عز المال، وهون عليهم الإفراج عن كل منفس؛ ياقوتاً كان أو دُرّاً، ذهباً كان أو فضةً.

كفأك الله عين الحاسدين، ووقاك كيد المفسدين، الذين أنعمت عليهم بالأمس على رؤوس الأشهاد، وكانوا كحصي فجعلتهم كالأطواد؛ وهم يكفرون أياديك، ويوالون أعاديك، ويتمنون لك ما أرجو أن الله يعصبه برؤوسهم، ويُنزله على أرواحهم، ويُذيقهم وبال أمرهم،

ويجعلهم عِبْرَةً لِكُلِّ من يراهم ويسمعُ بهم، كان الله لك ومعك، وحافظك وناصرك.

أطلتُ الحديثَ تَلَدُّدًا بمواجهتك، وَوَصَلْتُهُ خِدْمَةً لدولتك، وَكَرَّرْتُهُ تَوْفَعًا لِحُسن موقعه عندك، وأعدته وأبديته طلباً للمكانة في نَفْسِكَ.
وأرجو ؟ إن شاء الله، ألا أُحْرِمَ هِبَةً من رِيحِكَ، ونسيماً من سِحْرِكَ، وخيرةً بنظرك. لم أُوقِفْ في هذه الكَلِمَةِ الأَخيرة، والله ما يَمُرُّ بي يَأْسٌ من إنعامك فأقويهِ بالرجاء، ولا يعتريني وهمٌ في الخيبة لديك فأتلافاهُ بالأمل. إِنَّمَا قُصَارَى أمنيّتي إذا حُكِّمْتُ أن أعطى فيك سؤلي بالبقاء المديد، والأمرِ الرَّشيد، والعدوِّ الصَّريح، والوليِّ الرَّفيع، والدولةِ المستتية، والأحوالِ المستحبة، والآمالِ المبلوغة، والأمانِ المدركة، مع الأمرِ والنهيِّ النَّافِذين، بين أهل الخافقين؛ والله يُلغني ذلك بطوله ومَنِّه.

وآخرُ ما أقول، أَيُّهَا الوَازِرُ:

مُرُّ بالصَّدَقَاتِ، فَإِنَّهَا مَجْلِبَةٌ السَّلَامَاتِ والكراماتِ، مَدْفَعَةٌ للمكاره والآفاتِ. واهجرِ الشَّرَابَ، وأدمِ النَّظَرَ في المصحفِ، وافزعْ إلى الله في الاستخارة، وإلى الثَّقَاتِ بالاستشارة. ولا تبخلْ على نفسك برأي غيرك، وإن كان حاملاً في نفسك، قليلاً في عينك، فَإِنَّ الرَّأْيَ كالدُّرَّةِ الَّتِي رُبَّمَا وُجِدَتْ في الطَّرِيقِ وفي المزبلة، وقلَّ من فَرَعَ إلى الله بالتَّوَكُّلِ عليه، وإلى الصَّدِيقِ بالإسعاد منه، إلا أراه الله النَّجَاحَ في مَسأَلَتِهِ، والقضاءَ لحاجته؛ والسَّلَامُ^(٢٤٠).

(٢٤٠) . ويختتم التوحيدى بقوله: فقال لي الوزير بعد ما قرأ الرسالة: يا أبا مزيد، بيضتها، وعجبت من تشقيق القول فيها، ومن لطف إيرادك لها، ومن بلة ريقك بها.

* * *

رسالة الإمامة (السقيفة)

في هذه الرسالة يقيم أبو حَيَّان التَّوْحِيدِيّ حواراً بَيِّنَ الصحابة الكرام أبي بكر وعمر وعلي حول مسألة الإمامة، الحوار بطبيعة الحال افتراضي لم يكن في الأصل، وفي هذا الحوار يكشف التوحيدى عن أمرين أولهما موقفه من الإمامة وثانيهما حقيقة الإمامة^{٢٤١}.

٢٤١ . هذه الرسالة أسقطت من طبعة الكتاب وقيمت بإثباتها هنا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي:

سَمَرْنَا لَيْلَةً عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي حَامِدٍ أَحْمَدَ بْنِ بَشْرِ الْمُرُوزِيِّ الْعَامِرِيِّ
بِبَغْدَادٍ فِي دَارِ أَبِي حَبْشَانَ فِي شَارِعِ الْمَادُبَانَ. فَتَصَرَّفَ الْحَدِيثَ بِهِ كُلُّ مُتَصَرِّفٍ،
وَكَانَ مَعْنَاً ٢٤٢، مِفْنًا ٢٤٣، مَخْلَطًا ٢٤٤، مَزِيلًا ٢٤٥، غَزِيرِ الرَّوَايَةِ، لَهُ فِي كُلِّ جَوِّ
مُتَنَفِّسٍ، وَمِنْ كُلِّ نَارٍ مُقْتَبَسٍ، فَجَرَى حَدِيثَ السَّقِيفَةِ، وَشَأْنَ الْخِلَافَةِ، فَكَبَّ
كُلُّ مَنْ مَاتَ، وَقَالَ قَوْلًا، وَعَرَضَ بِشَيْءٍ، وَنَزَعَ إِلَى فَنٍ، فَقَالَ:

هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَحْفَظُ رِسَالَةَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا وَجَوَابَ عَلِيِّ لَهُ وَمَبَايَعَتِهِ إِيَّاهُ عَقِبَ تِلْكَ الْمُنَازَرَةِ؟

فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْهِ: لَا وَاللَّهِ!

قال: هي من بنات الحقائق، ومخبآت الخزائن في الصناديق، ومُذِّحَفَتُهَا
مَا رُوِيَتْهَا إِلَّا لِلْمَهْلِيِّ فِي وَزَارَتِهِ، وَكَتَبَهَا عَنِّي فِي خُلُوعٍ. وَقَالَ: لَا أَعْرِفُ عَلِيَّ

٢٤٢. المعرئ: المتمكن الحسن التصرف في المعاني.

٢٤٣. المفرئ: المتمكن الحسن التصرف في كل فن.

٢٤٤. المخلط: الكثير الخلط بين الأمور، وهو هنا غزير الموضوعات القادر على التنقل بينها ببراعة.

٢٤٥. المزيل: الذي يزيل الخلط واللبس بين الأمور ويفصل بينها.

وجه الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين، وإنها لتدُلُّ على علم وحلم، وفصاحة وفقاهة، ودهاء ودين، وبُعد غور، وشدة غوص.

فقال له العباداني^{٢٤٦}: أيها القاضي! لو أتممت المنة بروايتها سمعناها مثله، ونحن أوعى لها عنك من المهلبي، وأوجب ذماماً عليك، فاندفع فقال:

حدثنا الخزاعي بمكة قال حدثنا ابن ميسرة عن محمد بن فليح عن عيسى بن دأب^{٢٤٧} عن صالح بن كيسان^{٢٤٨} ويزيد بن رومان^{٢٤٩} عن أبيه قال أخبرنا أبو التياح مولى أبي عبيدة بن الجراح قال سمعتُ أبا عبيدة بن الجراح يقول:

لما استقامت الخلافة لأبي بكر رضي الله عنه بين المهاجرين والأنصار، لحظَّ بعين الهيبة والوقار، وإن كان لم يزل كذلك، بعد هنةٍ كاد^{٢٥٠} الشيطان بها،

٢٤٦ . هو أبو بكر محمد بن الفضل بن محمد بن جعفر بن يحيى بن سعيد بن يسر القرشي العباداني، اشتهر بالصلاح والخير، توفي سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م. والعباداني نسبة إلى عبادان، وهي بليدة بناحية البصرة، كان يسكنها جماعة من العلماء والزهاد للعبادة الخلوة. نقلنا عن الدكتور إبراهيم الكيلاني: رسائل أبي حيان التوحيدي. ص ٢١٤.

٢٤٧ . هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب الليثي أبو بكر المدني، قدم بغداد وحَدَّث بها، كان وافر الأدب عالماً بالأنساب والأيام حافظاً للسير. انظر: تاريخ بغداد. ج ١١. ص ١٤٨.

٢٤٨ . هو أبو محمد صالح بن كيسان المدني، مؤدَّب أولاد عمر بن عبد العزيز، روى الأحاديث عن ابن عمر وعروة وسالم ونافع، وروى عنه ابن جريح ومعمر بن إسحاق ومالك وإبراهيم بن سعد وغيرهم. توفي سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م. انظر الدكتور الكيلاني: رسائل أبي حيان التوحيدي. ص ٢١٤.

٢٤٩ . يزيد بن رومان: مولى آل الزبير، روى الحديث عن ابن الزبير وعروة، وروى عنه جرير بن حازم وابن إسحاق ونافع القارئ وطائفة غيرهم، وصفه ابن سعد بقوله: إنَّه عالم ثقة في الحديث، توفي سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م. انظر الدكتور الكيلاني: رسائل أبي حيان التوحيدي. ص ٢١٤. ٢١٥.

٢٥٠ . كاد: من الكيد لا من الوشوك.

فدفع الله شرها، ودحض عُرَّها^{٢٥١}، ويسر خيرها، وأزاح ضيرها^{٢٥٢}، وردَّ كيدها، وقصم ظهر النفاق والفسق بين أهلها؛ بلغ أبا بكر الصديق عن علي رضي الله عنه تلكؤ وثمَّاس^{٢٥٣} وطمهم^{٢٥٤} ونُقَّاس^{٢٥٥}. وكره أن يتمادى الحال، وتبدو العورة، وتنفرج ذات البين، ويصير ذلك ذُرْبَةً^{٢٥٦} لجاهلٍ مغرور، أو عاقل ذي دهاء، أو صاحب سلامة ضعيف، حوار العنان^{٢٥٧}.

دعاني فحضرته في خلوة وعنده عمر بن الخطاب وحده، وكان عمر قبساً له، ظهيراً معه، يستضيء بنيرانه ويستملي على لسانه، قال لي:
يا أبا عبيدة! ما أيمن ناصيتك، وأبين الخير بين عارضيك، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط، والمحل المغبوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود:

((أبو عبيدة أمين هذه الأمة))

وطالما أعز الله بك الإسلام، وأصلح فساده على يديك، ولم تنزل للدين ملجأ، وللمؤمنين روحاً، ولأهلك ركناً، ولإخوانك ردعاً، قد أردتك لأمرٍ له ما بعده، خطره مخوف وصلاحه معروف، ولئن لم يندمل جرحه بيسارك ورفقك،

٢٥١ . من العار .

٢٥٢ . ضيرها: ضررها .

٢٥٣ . شمَّاس: الجموح والماعندة، من الشَّمْسِ والشموس (بتحريكهما)، وهي للدواب التي إذا نخست لم تستقر، ويقال: شَمَّست الدَّابَّةُ والفرس تشمس شمَّاساً وشموساً وهي شموس: شردت وجمحت ومنعت ظهرها، وبه شمَّاس .

٢٥٤ . من المهممة، وهي الكلام الخفي .

٢٥٥ . من المنافسة .

٢٥٦ . أي سيلاً يتدرب به الجاهل وغيره .

٢٥٧ . حوار العنان: مفعم النشاط سهل الانقياد .

ولم تُجَبَّ حَيْتَهُ بِرُقَيْتِكَ^{٢٥٨}، فقد وقع اليأس، وأعضل البأس، واحتيج بعدك إلى ما هو أمرٌ من ذلك وأعلق، وأعسر منه وأغلق، والله أسأل تمامه بك، ونظامه على يديك، فتأتَّ له يا أبا عبيدة، وتلطف فيه، وانصح لله تعالى ولرسوله ولهذه العصابة غير آلٍ جُهداً، ولا قالٍ حمداً، والله كالكف وناصرُك، وهاديك ومبصرُك، وبه الحول والتوفيق. امضِ إلى عليّ واخفض جناحك له، واغضض من صوتك عنده، واعلم أنه سُلالة أبي طالب، ومكانه ممن قد فقدناه بالأمس ﷺ مكانه، وقُل له:

البحر مغرقة، والبر مفرقة، والجو أكلف^{٢٥٩}، والليل أغلف^{٢٦٠}، والسماء جلواء^{٢٦١}، والأرض صلعاء، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق رؤوف عطوف، والباطل شنوف^{٢٦٢} عنوف^{٢٦٣}، والعُجب قدّاحة الشر، والضَّعن رائد البوار، والتعريض سجار^{٢٦٤} الفتنة، والقحة ثقوب العداوة، وهذا الشيطان متكى على شماله، متحيل يمينه، نافخ حُضنيه لأهله، ينتظر الشتات والفُرقة، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة، عناداً لله ولرسوله ولديته، يُوسوس بالفجور، ويُدلي بالغرور، ويُمني أهل الشرور، ويوحى إلى أوليائه بالباطل، دأباً له مذ كان على عهد أبينا آدم، وعاداً منه منذ أهانه الله في سالف الدهر، لا يُنجي منه إلا

٢٥٨ . من الرُقَيْة، وهي ما يرقى به.

٢٥٩ . أي بين الكلفة، من الكلف، وهي حرة يخالطها سواد.

٢٦٠ . أي مغلف أو موضوع في غرف، كناية عن شدّة الظلمة والخفاء.

٢٦١ . سماء جلواء: أي مصحبة وصافية، وليلة جلواء: مصحبة صافية مضيئة، وجبهة جلواء: واسعة.

٢٦٢ . من الشنّف: البغض والكره.

٢٦٣ . من العنف.

٢٦٤ . السجار والسجور: الوقود، ومنها: سجر التنور: ملأه سجورا أي وقوداً.

بعض الناجذ^{٢٦٥} على الحق، وغض الطرف عن الباطل، ووطء هامة عدوّ الله وعدوّ الدين بالأشدّ فالأشدّ، والأجدّ فالأجدّ، وإسلام النفس لله تعالى فيما حاز رضاه، وجنب سخطه.

ولا بدّ الآن من قولٍ ينفع إذ قد أضّرّ السُّكوت، وخيف غيبه^{٢٦٦}. ولقد أرشدك من أفاء ضالتك، وصافاك من أحيا مودته لك بعتابك، وأراد الخير بك من آثر البقيا معك.

ما هذا الذي تسول لك نفسك. ويدوي به قلبك، ويلتوي به عليك رأيك، ويتخاوص^{٢٦٧} دونه طرفك، ويسري فيه ظعنك^{٢٦٨} ويتراذّ معه نفسك، وتكثر معه صعداؤك^{٢٦٩}، ولا يفيض به لسانك؟

أعجمةً بعد إفصاح، أتلبس بعد إفصاح، أدين غير دين الله، أخلق غير خلق القرآن أهدي غير هُدى رسول الله، أمثلي تمشي له الضراء أو يدبُّ إليه الحمر^{٢٧٠}، أم مثلك يغصُّ عليه الفضاء، أو يُخسف في عينه القمر؟

ما هذه القعقة بالشنان، وما هذه الوعوعة باللسان؟ إنك جدُّ عارف باستجابتنا لله ورسوله، وخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحببتنا هجرة إلى

٢٦٥ - من الحديث النبوي: عليكم بسنتي ... وعضوا عليها بالنواجذ.

٢٦٦ - غبُّ الأمر ومغبته: عاقبته وآخره.

٢٦٧ - عين خصوصاً: صغيرة غائرة، ويتخاوص له: إذا غصَّ بصره محمداً كأنه يقوّم سهماً.

٢٦٨ - ظعنك: الظعن، جمع ظعينة، مثلها الأظعان والظعائن، وهي الجمال عليها الهواج.

٢٦٩ - يقال: تنفس الصعداء: إذا علا نفسه، كناية المشقة والإجهاد.

٢٧٠ - الحمر (بالتحريك): المستتر أو المتخفي، والحمر (بفتحتين): ما وارك من الشجر ونحوه.

الله تعالى، ونصرة لدينه، في زمانٍ أنت فيه في كن^{٢٧١} الصبا، وخذر الغرارة^{٢٧٢}، غافل، تُشبب وتربُّ لا تعي ما يُراد ويُشاد، ولا تحصِّل ما يُساق ويُقاد، سوى ما أنت جارٍ عليه إلى غايتك التي إليها عُدي بك، وعندها حُطَّ رحلك، غير مجهول القدر، ولا مجحود الفضل، ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالاً تزيل الرواسي، ونقاسي أهوالاً تُشيب النواصي، خائضين غمارها، راكبين تيارها، نتجرع صابها ونُشرِّج عياها^{٢٧٣}، ونكرعُ عياها، ونحكم أساسها، ونُبرم أمراسها. والعيون تحدِّج بالحسد، والأنوف تعطس بالكِبَر، والصدور تستعُر بالغيظ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشِّفار^{٢٧٤} تشحد بالمكر، والأرض تميد بالخوف، ولا ننتظر عند المساء صباحاً، ولا عند الصباح مساءً، ولا ندفع في نحر أمرٍ لنا إلا بعد أن نحسو الموت دونه، ولا نتبَّلغ إلى شيءٍ إلا بعد جزع العُصص معه، ولا نقوم مُناداً^{٢٧٥} إلا بعد اليأس من الحياة عنده، فادين في كل ذلك لرسول الله ﷺ بالأب والأم، والخال والعم، والمال والنشب^{٢٧٦}، والسَّبَد^{٢٧٧} واللبَد^{٢٧٨} والأهل والولد، بطيب أنفوس، وقررة أعين، ورحب

٢٧١ . الكنُّ والكنَّة والكنان: وقاء كل شيء وسيره، والكن البيت أيضاً؛ والجمع أكنان وأكنة.

٢٧٢ . الغرَّة من الغارِّ، والتغرَّة من التغرير، والغرارة من الغرِّ أي حداثة العهد بالشيء أو الأمر.

٢٧٣ . الشَّرِّج (بالتحريك): عرى المصحف والعيبة والخباء ونحو ذلك. شرحها وأشرحها وشَرَّجها: شدَّها، وأدخل بعض عراها في بعض، ودخل بين أشرحها، والعياب أوعية المتاع (سيأتي شرحها).

٢٧٤ . الشفار جمع شفر وهي: السكين العريض.

٢٧٥ . المتأد من الأود، وهو الاعوجاج والثني.

٢٧٦ . النشب: المال الأصيل.

٢٧٧ . السبَد: الشَّعر.

٢٧٨ . اللبد: الصوف، وفي ذلك كناية عن التضحية بالقليل والكثير، والغالي والرخيص، والعرب تقول: ما له سبَد ولا لبد، أي ما له ذو شعر ولا ذو صوف.

أعطان^{٢٧٩}، وثبات عزائم، وصحة عقول، وطلاقة أوجه، وذلاقة^{٢٨٠} ألسن، هذا إلى خفيات أسرار، ومكنونات أخبار كنت عنها غافلاً، ولولا سِنَّكَ لم تكن عنها ناكلاً، كيف وفؤادك مَشْهُوم^{٢٨١}، وَعُودُكَ معجوم^{٢٨٢}، وغيبك^{٢٨٣} مخبور^{٢٨٤}، والقول فيك كثير، والآن قد بلغ الله بك، وأرهص^{٢٨٥} الخير لك، وجعل مرادك بين يديك. وعن عِلْمٍ أقول ما تسمع، فارتقب زمانك وقصص^{٢٨٦} إليه أردانك ودع التحبُّس^{٢٨٧} والتعبُّس^{٢٨٨} لمن لا يظلع^{٢٨٩} إليك إذا خطا، ولا يترحز عنك إذا عطا والأمر غضُّ، والثَّفُوس فيها مضُّ^{٢٩٠}، وإنك أدبم هذه الأمة فلا تَحَلَّم لجاجاً، وسيفها الغضب فلا تنب اعوجاجاً، وماؤها العذب فلا تَحُلُّ أجاجاً.

٢٧٩. الأعطان جمع عَطَنَ، والعطن للإبل كالوطن للناس، وقد غلب على مبركها حول الحوض، والمعطن كذلك، وعندما يقال: رجل رحب العطن وواسع العطن يعني: رحب الذراع كثير المال واسع الرجل.
٢٨٠. الذلق: الحدة، ومن المجاز قولهم: في لسانه ذلاقه وذلق، وقد ذلق لسانه وهو ذليق اللسان تكلم بلسان طلق ذلق.

٢٨١. الشهم: الذكي الفؤاد المتوقد، الجلد، والجمع شهام، والمشهوم: الحديد الفؤاد.
٢٨٢. معجوم أي ذو سمينة، ويقولون: رجل صلب المعجم (يفتح الميم) للذي إذا أصابته الحوادث وجدته جلدأً، من قولهم: عود صلب المعجم.

٢٨٣. ما غاب منك عن الناس.
٢٨٤. مخبور: مختبر ممدوح، أو ليس الآن موضع اختبار لأنه قد اختبر فيما سبق.
٢٨٥. أرهص الخير لك: أسسك عليه وأسسك لك، لأنَّ الرهص العرق الأسفل من الحائط، ورهص الحائط وأرهصه إذا وضع فيه الرهص.

٢٨٦. التقليص معروف، ومراده التشمير عن ساعد الجد.
٢٨٧. التحبُّس: المبالغة في الاحتباس تشدداً في مطلب أو أمر.
٢٨٨. التعبس: المبالغة في العبوس وعدم البشاشة.
٢٨٩. يظلع: يعرج، والمقصود لا يأتيك وهو يعرج غمزاً إليك بمشيئه.
٢٩٠. المضُّ: الألم.

ولقد سألتُ رسولَ الله ﷺ عن هذا الأمر فقال لي:

يا أبا بكر! هو لمن قيل له: هو لك، لا لمن يقول: هو لي، ولمن يُقَادُ إليه، لا لمن يَتَنَفَّحُ إليه، والله! لقد شاورني رسول الله ﷺ في الصهر، فذكر فتياناً من قريش، فقلت:

أين أنت من عليّ؟

فقال: إني لأكره لفاطمة مِيعَةَ شبابها، وحدة سنة.

فقلت له: متى كنفته يديك، ورعته عينك، حَفَّتْ بهما البركة، وأسبَعَتْ عليهما النعمة، مع كلامٍ كثيرٍ خطبْتُ به عنك، ورَعَبْتُ فيك، وما كنت عرفت منك في ذلك حَوَجَاءَ ولا لوجاء^{٢٩١}، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك، وكنتُ لك إذ ذاك خيراً منك الآن لي، ولكن كان عَرَّضَ بك رسول الله ﷺ، فقد كَتَيْ عن غيرك، وإن كان قال فيك، فما سكت عن سواك، وإن تَخَلَّجَ^{٢٩٢} في نفسك شيءٌ فهلَمَّ فالحكم مَرَضِيٌّ والصوابُ مسموعٌ، والحقُّ مُطَاعٌ، ولقد نُقِلَ رسول الله ﷺ وهو عن هذه العصابة راضٍ، وعليها حَدِبٌ^{٢٩٣}، يَسْرُهُ ما يسرُّها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسخطه ما أسخطها، ألم تعلم أنه لم يدع أحداً من أصحابه وخطائهم، وأقاربه وسجرائه^{٢٩٤} إلا أبانه بفضيلةٍ، وخصَّه بمزيةٍ، وأفراده بحالةٍ لو أصفقت الأمة عليه لكان عنده إيالتها^{٢٩٥} وكفالتها وكرامتها وعزازتها، أتظنُّ أنه ﷺ ترك الأمة بشراً سدىً، بدداً عديً،

٢٩١ - تقول العرب: ليس لي عنده حوجاء ولا لوجاء، أي ليس لي فيه أو منه غرض أو غاية أو حاجة.

٢٩٢ - تخلج: من الاختلاج وهو الاضطراب.

٢٩٣ - حَدِبٌ يحذب: تعطف، وهو حَدِبٌ على أخيه، وفيه ما شئت من العطف والحذب.

٢٩٤ - السجراء جمع سجير وهو: المخال والمخالط، لأنه يسجر إلى صاحبه: يحق.

٢٩٥ - إيالتها من آل: تولى، ويقال: آل على القوم إيالة، أي: تولى سياسة أمورهم.

عباهل مباحل^{٢٩٦}، طُلاحي مفتونةً بالباطل، مغبونةً عن الحقِّ، لا ذائد ولا قائد، ولا حائط ولا رابط، ولا ساقِي ولا راقِي، ولا هادي ولا حادي؟ كلاً! والله ما اشتاق إلى ربِّه تعالى، ولا سأله المصير إلى رضوانه إلا بعد أن ضرب الصُّوى^{٢٩٧}، وأوضح الهدى، وأمن المهالك والمطوح^{٢٩٨}، وسهّل المبارك^{٢٩٩} والماتح^{٣٠٠}، إلا بعد أن شدَّخ^{٣٠١} يافوخ^{٣٠٢} الشرك بإذن الله، وشَرَم النفاق لوجه الله، وجَدَع أنف الفتنة في جنب الله، وتَفَلَّ^{٣٠٣} في عين الشيطان بعون الله.

وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في دار واحدة، وبقعة جامعة، إن استقادوا^{٣٠٤} لك، أو أشاروا إليّ^{٣٠٥}، فأنا واضعٌ يدي في يدك، وصائزٌ إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى فادخل في صالح ما دخل في المسلمون، وكن العون على مصالحهم، والفتاح لمغالقتهم، والمرشد لضاقتهم، والرَّادع لغاويتهم، فقد أمر الله بالتعاون على البرِّ، وأهاب إلى التناصر على الحقِّ. ودعنا

٢٩٦ . عباهل مثل مباحل، وكلاهما تفيدي الإهمال والترك، من عبهل الإبل إذا تركها وحدها ترعى، ومنها: العباهل الذين أقرُّوا على ملكهم لا يُزالون عنه.

٢٩٧ . الصوى والأصواء: الأعلام المنصوبة المرتفعة في غلظ..

٢٩٨ . المطوح من طاح يطوح ويطيح طوحاً: أشرف على الهلاك، وقيل هلك وسقط وذهب.

٢٩٩ . المبارك: الموضوع الذي تبرك فيه الإبل، من: برك البعير يبرك بروكاً أي: استنخ، وأبركته أنا فبرك، وأيضاً: برك البعير: ألقى بركته بالأرض وهو صدره.

٣٠٠ . الماتح أماكن المتح، ومفردها متح، والمتح: جذبك رشاء الدلو تمُدُّ بيد وتأخذ بيد على رأس البئر، وقيل الماتح: المستقي، والماتح: الذي يملأ الدلو من أسفل البئر.

٣٠١ . الشدخ: الكسر في كلِّ شيء رطب، وقيل: هو التهشيم، يعني به كسر اليابس وكل أجوف.

٣٠٢ . يافوخ: ملتقى عظم مقدم الرأس ومؤخره، جمعه: يوافيخ.

٣٠٣ . تفل يتفل يتفيل تفلأً: بصق.

٣٠٤ . استقادوا لك: أعطوك قيادهم.

٣٠٥ . أي أشاروا إلي لتكون خليفة.

نقضي هذه الحياة الدنيا بصدورٍ بريئةٍ من الغلِّ، ونلقى الله عزَّ وجلَّ بقلوبٍ سليمةٍ من الضَّغن.

وبعد، فالناس ثمانية^{٣٠٦}، فافرق بهم، واحنُّ عليهم، ولين لهم، ولا تُشقِّ نفسك بنا خاصَّةً، واتركِ ناجم الحقد حصيداً، وطائر الشر واقعاً، وباب الفتنة غلقاً. فلا قال، ولا قيل، ولا تبع^{٣٠٧}، والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة: فلما تهيأت للنهوض قال لي عمر: كن لدى الباب هنيئة^{٣٠٨} فلي معك ذرَّة^{٣٠٩} من القول.

فوقفت لا أدري ما كان بعدي، إلا أنه لحقني بوجه يندى تهللاً، وقال لي: قلْ لعليّ: الرقاد ملحمةٌ، واللجاج ملحمةٌ، والهوى مفحمةٌ، وما منا أحدٌ إلا وله مقام معلوم، وحقُّ مشاعٍ أو مقسومٌ، ونبأٌ ظاهرٌ أو مكتوم، وإنَّ أكيس الكيسى من منح الشَّارد تألفاً، وقرب البعيد تلطُّفاً، ووَزَن كلَّ امرئٍ بميزانه، ولم يخلط خبره بعيانه، ولم يجعل فِتره مكان شِبره؛ ديناً كان أو دِيناً، ضلالاً كان أو هدًى. ولا خير في معرفة مشوية بنكرة، وعلم معتمَل في جهل. ولسنا كجلدة رُفِع^{٣١٠} البعير بين العجان^{٣١١} وبين الذَّنَب.

٣٠٦ . الثمة والثمام والثمامة: نبتٌ ضعيف، وقيل: نبت معروف بالبادية، وقيل: شجر، وهو ضعيف.

٣٠٧ . التبع: التابع والتابع والتببع: النصير أو الناصر.

٣٠٨ . الهنيئة والهنية والهنيهة: البرهة من الزمان.

٣٠٩ . الذرء: الشيء اليسير من القول، ويقال: بلغني ذرَّةٌ من خبر أي: طرف منه ولم يتكامل.

٣١٠ . الرفغ بالفتح والضم: أصول الفخذين من باطن، وهما ما اكتنفا أعالي جانبي العانة عند ملتقى أعالي بواطن الفخذين وأعلم البطن، وهما أيضاً: أصول الإبطين، والجمع: أرفع وأرفاع ورفاغ.

٣١١ . العجان: في قول: الدبر، والأصح أنه ما بين القبل والدبر، والجمع: أعجنة وعُجن.

وكلُّ صالٍ فبناره، وكل سليلٍ فيلى قراره، وما كان سكوت هذه العصابة
إلى هذه الغاية لِعَيِّ وشيِّ^{٣١٢}، ولا كلامها اليوم لِفَرَقٍ أو رَفَقٍ^{٣١٣}، فقد جَدَعَ اللهُ
بِمحمد ﷺ أنف كلِّ ذي كِبَرٍ، وقَصَمَ ظهر كلِّ جَبَّارٍ، وقَطَعَ لسان كلِّ كذوب.
فماذا بعد الحقِّ إلا الضَّلال؟!!

ما هذه الخنزوانة^{٣١٤} التي في فَرَّاش^{٣١٥} رأسك؟ وما هذا الشَّجا المعترض
في مدارج أنفاسك؟ وما هذه الوحرة^{٣١٦} التي أكلت شراسيفك^{٣١٧}، والقذاة التي
أعشت ناظرِك؟ وما هذا الدَّحس^{٣١٨} والدَّس اللذان يدلَّان على ضيق الباع،
وخَوَر الطَّبَّاع؟ وما هذا الذي لبست بسببه جلدة النمر، واشتملت عليه
بالشحناء والتُّكر، لشدِّ ما استسعيت لها، وسرَّيت^{٣١٩} سرِّي ابن نقد^{٣٢٠} إليها؟
إنَّ العوان^{٣٢١} لا تُعَلَّم الخِمْرَة^{٣٢٢}، والحِصان^{٣٢٣} لا تكلم خبيرة^{٣٢٤}، وما
أحوج الفرعاء^{٣٢٥} إلى فال، وما أفقر الصلعاء إلى حال، لقد خرج رسول

٣١٢ . العي: الكلام غير المقدر المعنى، أو هو: العجز عنه، والشئ من الإنباع.

٣١٣ . الفرق من الفرقة، والرفق من الرفقة.

٣١٤ . الخنزوانة: الكبير.

٣١٥ . الفراش: عظام دقاق تلي القحف.

٣١٦ . الوحرة في الأصل: وزعة صغيرة تلصق، ومنها سمي الحقد وحرّاً للصوقه بالقلب، وقيل هي: دويبة تشبه
الوزعة، تقع في الطعام فيفسد.

٣١٧ . الشرسف والشرسوف، وجمعها شارسيف: الطرف المشرف على البطن من الضلع.

٣١٨ . الدَّحس: التَّدسيس في الأمر استبطاناً وطلباً.

٣١٩ . السري ومنا سرى: المشي ليلاً، والسير ومنها سار: مشى نهاراً.

٣٢٠ . ابن نقد: القنفذ.

٣٢١ . العوان: المرأة التي أسنت ولما تحرم.

٣٢٢ . الخِمْرَة: الاختمار، وقصده أن المرأة التي بهذا السن ليست بحاجة إلى أن تعلم الاختمار.

٣٢٣ . الحصان (بفتح الحاء): المرأة المحصنة، العفيفة.

الله ﷻ والأمر مَبْدٌ مَحْيَسٌ^{٣٢٦}، ليس لأحدٍ فيه ملمس ولا مأنس، ولم يُسَيِّرْ فيك قولاً، ولم يستنزل فيك قرآناً، ولم يجزم في شأنك حكماً، ولسنا في كسروية كسرى، ولا في قيصرية قيصر، تانك لأخدان فارس، وأبناء الأصفر، قوم جعلهم الله جَزْراً^{٣٢٧} لسيوفنا، وجَزْراً لرماحنا، ومُزْعاً^{٣٢٨} لطعاننا، وتبعاً لسلطاننا. بل نحن في نور نبوة، وضياء رسالة، وثمره حكمة، وآثار رحمة، وعنوان نعمة، وظل عصمة، بين أمة مهديّة بالحقّ والصدق، مأمونة على الفتق والرتق، لها من الله قلب أبيّ، وساعد قويّ، ويد ناصرة، وعين باصرة، أتظنُّ ظناً أن أبا بكر وثب على هذا الأمر^{٣٢٩} مُفْتاناً على هذه الأمة، خداعاً لها، ومتسلطاً عليها؟ أتراه امتلح^{٣٣٠} أحلامها، وأزاغ^{٣٣١} أبصارها، وحلَّ عقودها، وأحال عقولها، واستلَّ من صدورها حميَّتها، وانتزع من أكبادها عصبِيَّتها، وانتكث^{٣٣٢} رشاءها^{٣٣٣}، وأنضب ماءها، وأضلَّها عن هداها،

٣٢٤ . لا تكلم خبيرةً أي: لا يجوز أن تخاطب بصيغة الاختبار أو بقصده.

٣٢٥ . الفرعاء: طويلة الشعر.

٣٢٦ . المخيس: المذل، من الخِيسَة، وهي الضعة والذل.

٣٢٧ . الجزر بالتحريك، ومنها الجزار: كل شيء مباح للذبح.

٣٢٨ . الزرع جمع مزعة: وهي القطعة من اللحم.

٣٢٩ . أي الخلافة.

٣٣٠ . الملتح: قبضك على عضلة عضلاً وجذباً، وملخ الشيء يملخه ملخاً وامتلحه: اجتذبه في استلال، يكون ذلك قبضاً وعضلاً. ومن ذلك: امتلخ اللحام من رأس الدَّائبة: انتزعه، وكذلك: امتلخ الرطبة من قشرها، واللحمة من عظمها.

٣٣١ . الزيغ: الميل، زاغ يزيغ زيوغاً وزيوغاً.

٣٣٢ . النكث (بفتح النون): نقض العهد، والنكث (بكسر النون): تقطيع النسيجة قطعاً صغاراً.

٣٣٣ . الرشاء: الجبل.

وساقها إلى رداها^{٣٣٤}، وجعل نهارها ليلاً، ووزنها كيلاً، ويقظتها رقاداً،
وصلاحها فساداً؟

إن كان هكذا إنَّ سحره لمبين، وإنَّ كيدَه لمُتِين. كلاً والله بأيِّ خيلٍ
ورجلٍ^{٣٣٥}، وبأيِّ سنانٍ ونصل، وبأيِّ قوَّة ومِنَّة، وبأيِّ ذخرٍ وعُدَّة، وبأيِّ أيدٍ
وشدَّة، وبأيِّ عشيرة وأُسرة، وبأيِّ تدرِيج وبسطة^{٣٣٦}.

لقد أصبح عندك بما وسمته منيع الرُّتبة، رفيع العتبة. لا، والله! ولكن سلا
عنها، فَوَلَّهتْ له، وتطامن^{٣٣٧} لها فلصقت به، ومال عنها فمالت إليه، واستمرَّ
دونها فاشتملت عليه، حبوة حباه الله بها، وعاقبة بلَّغه الله إيَّها، ونعمة سرِّبه
جمالها، ويداً أوجب عليه شكرها، وأُمَّةً نظر الله به لها. وطالما حلقت فوقه في
أيَّام رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت لِفَتْها، ولا يرتصد وقتها، والله أعلم بخلقه،
وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيرة، وإنَّك بحيث لا يجهل موضعك من بيت
النبوة، ومعدن الرسالة، وكهف الحكمة، ولا يجحد حقك فيما آتاك ربُّك، ولكن
لك من يزاحمك بمنكبٍ أضخم من منكبك، وقربٍ أَمَسَّ من قربك، وسنٍّ أعلى
من سنِّك، وشيبة أروع من شيبتك، وسيادة لها عرق في الجاهلية، وفرع في
الإسلام، ومواقف ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة، ولا تذكر في مقدِّمة منها ولا
ساقه، ولا تَضْرِب فيها بذراعٍ ولا إصبع، ولا تخرج منها مَجْبُوع^{٣٣٨} ولا رُزِع^{٣٣٩}.

٣٣٤ - من الردى: الموت.

٣٣٥ - الرَّجَل (بفتح الراء): جمع راجل، أي المترجل.

٣٣٦ - التدرِيج: طي الثوب ولفه، والبسطة عكسها، أي: الانبساط.

٣٣٧ - طأمن الشيء: سكَّنه، والطمأنينة: السكون. واطمأن مقلوب، فيما رأى بعضهم، وأصله طأمن.

٣٣٨ - الهُجِع (بضم الهاء): هو ما يسمى بالعامية: (الراجوع)، أي: الذي ينتج في آخر الشتاء فيكون ضعيفاً.

والهبع (بفتح الهاء): ضرب من المشي، وهبع هبوعاً: مشى مشي حمار بليد، الهُجِع (بضم الهاء): الفصيل،

فأمّا أبو بكر الصديق فلم يزل حَبَّة قلب رسول الله ﷺ، وعلاقة^{٣٤٠} همّه، وعيبة^{٣٤١} سرّه، ومثوى حزنه، ومرمى طرفه، وذلك كلّه بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرته غنية عن الدلالة عليه، ولعمري إنك أقرب قرية^{٣٤٢}، والقرابة لحمٌ ودمٌ، والقرية روحٌ ونفسٌ، وهذا فرق قد عرفه المسلمون، ولذلك صار معه المؤمنون أجمعون، ومهما شككت فلا تشكّ [في] أن يد الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة، فادخل فيما هو خيرٌ لك اليوم، وأنفع لك غداً، والفظ من فيك ما تعلق بلهاتك، وانفث السخيمة^{٣٤٣} من صدرك. فإن يكن في الأمل طول، وفي الأجل فسحة فستأكله مريئاً أو غير مريء، وستشربه هنيئاً أو غير هنيء، حين لا رادّ لقولك إلا من كان منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك، يمحض إهابك، ويفري أديمك، ويزري على هديك، فهناك تفرع السنن، وتجرع الماء مضروجاً بدمٍ، وحينئذٍ تأسى على ما مضى من عمرك، ودرج على قومك، فتودُّ أن لو سقيت بالكأس التي أبيتها، ورددت للحال التي استبريتها^{٣٤٤}، والله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه، وغيبٌ هو شاهده، وعاقبةٌ هو المرجو لضرائها وسرائها، وهو الولي الحميد، الغفور الودود.

ينتج في حمارة القيظ، سمي هُبعا لأنه إذا مشى هبع، أي استعان بعنقه.

٣٣٩ - الرُّبْع (بضم الراء وفتح الباء): الصغير من أولاد الإبل، الذي يولد في الربيع.

٣٤٠ - العلاقة: الهوى والحب اللازم للقلب.

٣٤١ - العيبة: وعاء من آدم، تكون فيها المتاع، والجمع عياب وعيب، وقد سميت الصدور عياباً لحفظها أحصّ

أسرار أصحابها التي لا يحب شيوعها، تشبيهاً بعياب الثياب.

٣٤٢ - القرية: المنزل والمكانة، والفرق بينها وبين القرابة (صلة النسب) واضحة في السياق.

٣٤٣ - السخيمة: الحقد.

٣٤٤ - استبريتها: استبرأت منها، أو طلبت البراءة منها.

قال أبو عبيدة:

فمشيت متزماً، أتوجأ^{٣٤٥} كأنما أخطو على أم رأسي فرقاً من الفرقة، وشققاً على الأمة، حتى وصلت إلى عليّ عليه السلام في خلاء، فأبشثته الأمر كله، وبرئت إليه منه، ورفقت به، فلما سمعها ووعاها، وسرت في أوصاله حُمياها، فقال:

حلّت مُعَلَّوْطَةٌ^{٣٤٦}، ووَلَّتْ مَخْرُوطَةٌ^{٣٤٧}، حلّ لا حليت^{٣٤٨} التّعس أولى لها من أقول لعا^{٣٤٩}:

إحدى لياليك فهيسي هيسي^{٣٥٠}

لا تنعمي الليلة بالتّعريس^{٣٥١}

نعم يا أبا عبيدة، أكلُ هذا في أنفس القوم يحتبون به، ويطجعون عليه؟

قال أبو عبيدة: فقلت:

لا جواب لك عندي، إنّما قاضٍ حقّ الدين، وراتق فتق الإسلام، وسادُّ

ثلثة الأمم، يعلم الله ذلك من خلجات قلبي، وقرارة نفسي، فقال عليّ عليه السلام:

٣٤٥ . أتوجأ من الوجا، وهو: الحفا، وقيل شدّة الحفا، ووجي وجأ، ورجلٌ ووجٍ ووَجِيٌّ، وإنّه ليتوجى في مشيته فهو

وجٍ، وقيل أيضاً: الوجا: أن يشتكي البعير باطن خفه، والفرس باطن حافره.

٣٤٦ . معلوطة من اعلوط: ركب رأسه من غير رويّة، والمعلوطة: الدابة التي توسم في عنقها.

٣٤٧ . المخروطة: الدابة الجموح.

٣٤٨ . حلّ لا حليت: كانت العرب إذا زحرت الإبل قالت لها: حلّ حلّ، فإذا لم تزجر قالت لها: حلّ لا

حليت، أي: لا أصبت خيراً.

٣٤٩ . لعا: تقول العرب للفرس النجيب وللناقة النجيبة إذا تعثر الواحد منهما: تعساً لك، ولغيرهما: لعا لك.

٣٥٠ . الهيس: السير أي ضرب كان، وهاس يهيس هيساً: سار أي سير كان.

٣٥١ . مثل يضرب لمن يقع في مأزق شديد يحوجه إلى شديد الجد الجهد.

والله ما كان قعودي في كسر هذا البيت قصداً للخلاف، ولا إنكاراً للمعروف، ولا زياية على مسلم، بل لما وقفتني^{٣٥٢} به رسول الله ﷺ بفراقه، وأودعني من الحزن بفقدته، وذلك أنني لم أشهد بعده مشهداً إلاَّ جدَّد لي حزناً، وذكَّرني شجناً، وإنَّ الشَّوق إلى اللِّحاق به كافٌّ عن الطَّمع في غيره، فقد عكفت على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرَّق منه رجاء ثواب مُعدٍّ لمن أخلص عمله، وسلَّم لعلمه ومشيتة أمره. على أنني ما علمت أنَّ التَّظاهر عليّ واقعٌ، ولا عن الحقِّ الذي سبق إليَّ دافعٌ، وإذ قد أفعم الوادي بي، وحشد النَّادي من أجلي، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين، وفي النفس حاجات لولا سابق قول، وسالف عهدٍ، لشفيت غيظي بخصري وبنصري، وخضت بجلته بأخصي ومفرقي. لكئي ملجئاً إلى أن ألقى ربي، وعنده أحتسب ما نزل بي، وأنا غادٍ إلى جماعتكم، ومبايعٌ لصاحبكم، وصائرٌ على ما ساءني وسرَّكم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وكان الله على كلِّ شيءٍ شهيداً.

قال أبو عبيدة: فعدت إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقصصت القول على غرِّه^{٣٥٣}، ولم أختزل شيئاً من حلوه ومرِّه، وذكرت غدوّه إلى المسجد، فلمَّا كان صباح يومئذٍ وافى عليّ ﷺ، فخرق الجماعة إلى

٣٥٢ . الوقذ: شدة الضرب، وقذه يقذه وقدأ: ضربه حتَّى استرخى وأشرف على الموت، والوقيد والموقوذ: الشديد

المرض الذي أشرف على الموت، وقد وقذه المرض والغم.

٣٥٣ . الغرُّ (بكسر أوله): الكسر المشني في جلد الثوب، وقوله على غرِّه يعني به أنَّه نقله على حرفه وكأنَّه ينقل

الثوب على كسره المثني من غير ما تغيير في طيِّته.

أبي بكر رضي الله عنه فبايعه، وقال خيراً، ووصف جميلاً، وجلس زميتاً^{٣٥}، واستأذنه للقيام، ونهض فشيّعه عمر رضي الله عنه، تكرمة له واستبراءً لما عنده، فقال له علي رضي الله عنه :

ما قعدت عند صاحبكم زهداً فيه، ولا أتيتك فرقاً منه، وما أقول ما أقول تعلقةً، وإني لأعرف مسمى طرفي، ومخطى قدمي، ومنزع قوسي، وموقع سهمي. ولكي أزمّت^{٣٥٥} على فآسي، ثقة بالله في الإدالة في الدنيا والآخرة.

فقال عمر رضي الله عنه : كفكف غزبك^{٣٥٦}، واستوقف سربك، ودع العصا بلحائها، والدّللو على رشائها، فإننا من خلفها وورائها، إن قدحنا أورينا، وإن متحنا أروينا، وإن قرحنا^{٣٥٧} أدمينا، وإن نصحنا أربينا، ولقد سمعت أمائلك التي لغوت بها عن صدرٍ أكل بالجوی، ولو شئت لقلت مقاتلك ما إذا سمعته ندمت على ما قلته.

زعمت أنك قعدت في كسر بيتك لما وقدك به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقه، أفرسول الله صلى الله عليه وسلم وقدك وحدك ولم يقذ سواك؟! بل مصابه أعظم وأعز من ذلك، وإن من حق مصابه ألا يصدع شمل الجماعة بكلمة لا عصام لها، ولا يزري على اختيارها بما لا يؤمن كيد الشيطان في عقبها. هذه العرب من حولنا، والله لو تداعت علينا في مصبح يوم لم نلتق في ممساه.

٣٥٤ . الزميت (بكسر أوله وبضمه): الحليم الساكن، القليل الكلام، كالصميت.

٣٥٥ . الأزم: شدّة العضّ بالفم كله، وقيل بالأنياب، والأنياب هي الأوزم، وقيل: هو أن يعضه ثم يكرر عليه ولا يرسله.

٣٥٦ . الغرب: اضمال الدمع من العين، أو هو واحدة الغروب وهي: الدموع حين تخرج من العين.

٣٥٧ . الرقح: الجرح (بالفتح والضم لكليهما)، والقريح: الجريح، وقد قرحه يقرحه قرحاً: جرحه.

وزعمت أن الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطَّمع في غيره، فمن الشَّوق إليه نصرته دينه، ومؤازرة أولياء الله تعالى ومعاونتهم فيه.

وزعمت أنك عكفت على عهد الله تجمع ما تبدد منه، فمن العكوف على عهده النَّصيحة لعباده، والرَّأفة على خلقه، وبذل ما يصلحون به، ويرشدون إليه.

وزعمت أنك لم تعلم أن التَّظاهر عليك واقعٌ، ولا لك في الحق الذي سيق إليك دافع، فأبي تظاهر وقع عليك، وأبي حقٌّ لَطَّ^{٣٥٨} دونك؟ قد علمت ما قالت الأنصار لك سرًّا وجهراً، وما تقلبت عليه بطناً وظهراً، فهل ذكرتك أو أشارت بك، أو وجدت رضاها عندك؟

هؤلاء المهاجرون والأنصار من الذي بلسانه قال: إنك تصلح لهذا الأمر، أو أوماً بعينه، أو همهم في نفسه؟ أتظنُّ أن الناس قد ضلُّوا من أجلك، أو عادوا كقاراً زهداً فيك، وباعوا الله تعالى ورسوله ﷺ تحاملاً عليك؟ لا والله. ولكنك اعتزلت تنتظر الوحي، وتتوكف^{٣٥٩} مناجاة الملك، ذلك أمرٌ طواه الله ﷻ بعد محمد ﷺ، كأنَّ الأمر معقود بأنشطة^{٣٦٠}، أو مشدود بأطراف ليطة^{٣٦١}.

٣٥٨ . لَطَّ الشيء ولَطَّ على الشيء وألَطَّ: ستر، ولططت الشيء ألطه: سترته وأخفيت، واللطُّ الستر. وهو المراد هنا. وكذلك لَطَّ الشيء يَلطُّه لَطًّا: ألزقه.

٣٥٩ . توكف الأمر: تبعه، والتوكف: التوقع والانتظار. وفي الأصل: وكف الدمع والماء وكفاً وكيفاً ووكوفاً ووكفاناً: سال.

٣٦٠ . أراد بالأنشطة سهولة مناجاة الوحي لأنَّ الأنشطة سيرة الحل خلاف العقدة.

٣٦١ . وللسبب السابق ذاته استخدم الليطة التي قشر القصب، ونزع قشر القصب جدُّ يسير أيضاً.

كلاً والله، إِنَّ الغابة لمخلقة^{٣٦٢}، وَإِنَّ الشجرة لمورقة، ولا عجماء بعد
حمد الله إلا وقد أفصحت، ولا عجفاء إلا وقد سمعت، ولا بلهاء إلا وقد
فطنت، ولا شوكاء إلا وقد نفحت.
ومن أعجب شأنك قولك:

لولا سابق قول، وسالف عهدٍ، لشفيت غيظي.

وهل ترك الدين لأحدٍ من أهله أن يشفي غيظه بيده ولسانه؟!
تلك جاهلية قد استأصل الله شأفتها^{٣٦٣}، ودفع عن الناس آفتها، واقتلع
جرثومتها^{٣٦٤}، وهوّر^{٣٦٥} ليلها، وغوّر سيلها، وأبدل منها الرّوح^{٣٦٦} والريحان،
والهدى والبرهان.

وزعمت أنّك ملحمٌ، فلعمري إنّ من اتقى الله وعجلك، وآثر رضاه،
وطلب ما عنده، أمسك لسانه وأطبق فاه، وجعل سعيه
لما وراه.

قال علي عليه السلام: والله ما بذلت وأنا أريد نكته، ولا أقررت بما أقررت وأنا
ابغي حولاً عنه، وإنّ أخسر الناس صفقةً عند الله من آثر النفاق، واحتضن

٣٦٢ . مخلقة: معطاءة، من أخلق فلان فلانا إذا أعطاه.

٣٦٣ . الشأفة: قرحة تخرج في القدم، وقيل: في أسفل القدم، وفي الدعاء: استأصل الله شأفتهم، وذلك أنّ الشأفة
تكوى فتذهب، فيقال: أذهبهم الله كما أذهبها. وقيل شأفة الرجل: أهله وماله، وقيل الشأفة الأصل،
واستأصل الله شأفتهم: أصلهم.

٣٦٤ . الجرثومة: الأصل، وجرثومة كل شيء أصله ومجتمعه. وقيل: الجرثومة: ما اجتمع من التراب في أصول
الشجر.

٣٦٥ . هوّر: هدم، وأزال، من هار البناء هوراً: هدمه، وهار البناء والجرف يهور هوراً وهووراً فهو هائر وهار.

٣٦٦ . الرّوح (بضم الأول): وجمعها أرواح، معروفة. أمّا الرّوح (بفتح الأول) فهي: برد نسيم الريح.

الشَّقَاق، وبالله سلوة من كلِّ كارث، وعليه التَّوكل من كلِّ الحوادث. ارجع يا
أبا حفص إلى مجلسك نافع^{٣٦٧} القلب، مبرود الغليل، فسيح اللبان^{٣٦٨}، فليس
وراء ما سمعت وقلت إلاَّ ما يشدُّ الأزر، ويمنع الإصر، ويجمع الإلفة، ويرفع
الكلفة، ويوقع الزلفى بمعونة الله ﷻ، وحسن توفيقه.

قال أبو عبيدة: وانصرف عمر، وهذا أصعب ما مرَّ بنا بعد فراق رسول

الله ﷺ.

٣٦٧ . النافع المجتمع أو المرتوي، من نفع الماء في المسيل: اجتمع، وإنما قيل للماء نافع لأنه ينفع به العطش، أي
يروى به.

٣٦٨ . اللبان: الصدر.

رسالة الحياة

تُدرج هذه الرسالة ضمن الآثار الفلسفية والصوفية بأن معاً، فهي تتناول أنواع حيوات الإنسان ومستوياتها، وهي رسالة قيّمة وشيخة. طبعتها الدكتور إبراهيم الكيلاني مرتين؛ الأولى ضمن «ثلاث رسائل للتوحيد»، والثانية ضمن «رسائل أبي حيان التوحيدي». وقد قامت كلاود أوديبيير . Claude Audebert بترجمتها إلى الفرنسية والتعليق عليها بطبعة صدرت عن معهد الدراسات الشرقية بدمشق عام ١٩٦٣م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهو حسبي ونعم الوكيل. رب تمم بالخير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اجعل فكرنا في ملكوت سماءك وأرضك وما بينهما، عائداً علينا بمعرفتك، وبخثنا عن أسرار حكمك، مُحَرِّكاً لنا إلى خالص توحيدك، وَتَصَفِّحِنا لظاهر علمك وباطنيه، مُفَضِّياً بنا إلى الثقة بك، واستيحاشنا عن كل ما يُبْعِدُنَا عنك، باباً مفتوحاً للأنس بذكرك، وبراءتنا من عبادك الجاهلين بك، الضالين عنك، موصولة بطاعتك ومرضاتك، ومهما أثبتت في أمرنا فاخصصنا بتأييدك، واعممننا بتسديدك وأمتع قلوبنا بالرضا عنك، واهزأ أرواحنا بالشوق إليك، واشحد السنتنا بالدعاء إلى عبادتك، وطهر أفئدتنا من أدناس الشرك والريب في طلب القرية عندك، وأرنا الحق في معرضه البهي المونق حتى نتحله موقنين، وبين لنا الباطل في منظره الزري حتى نُؤلِّي عنه معرضين، وفي الجملة والتفصيل كن لنا ناصراً، ومعيناً حاضراً، وإلينا ناظراً، وهيئنا للحذر من خطرات الحيرة، ونظرات الحسرة، واملأ قلوبنا بالنور الذي من خص به أبصر ما دونه فتوقأه، وما فوقه فتلقأه، وما عن يمينه فاختاره، وما عن شماله فاحترز منه، وما أمامه فانتظره،

وما وراءه فاحتقره، وَحَلَّنَا بشعارٍ لا نَتَحَدَّثُ به إلا إليك، ولا نثني به إلا عليك، ولا نَضْرَعُ إلا لوجهك، يا ذا الجلال والإكرام، ويا مُصَرِّفَ الأيَّامِ بين التَّقْضِ والإِبْرَامِ.

حَرَّتْ أدام الله رُوحَ قلبك، وبَرَدَ فؤادك، مذاكرةٌ في البيانِ عن أصنافِ الحياة التي هي محبوبَةٌ كُلِّ نفسٍ، ومطلوبَةٌ كُلِّ ذي حسٍّ، وكان الكلامُ فيها يقسو مرّةً ويلين أُخرى، ويحمد طوراً، ويتقد طوراً، ولا يأتلف ائتلافاً. له فنونٌ ترسم بالعلم، وتنسبط باللفظ، وذلك لِكُلُولِ^(٣٦٩) الحِدةِ، وعلوِّ السِّنِّ، ونضوبِ ماءِ الوجه، وانفضاخِ^(٣٧٠) متنِ الحال، وبيدِ^(٣٧١) قوى الطَّبِيعَةِ، وتهافتِ قوَّةِ الفطرة، وخلوقةِ^(٣٧٢) الأدمَةِ والبشرة، وعوارضِ آفاتِ القرحة، وتباعدِ أقطارِ العبارةِ عن الحقائقِ المحدودةِ، ثُمَّ إِنِّي نعمت بشيءٍ منها على [.....]^(٣٧٣) في الحديثِ السَّانِحِ المعهودِ عندِ بعضِ الرُّسَاءِ، ممن آتاه الله عبرةً في أمره، وصِحَّةً استبانةً في شأنه، فَعَرَفَ ما عليه وله، وقصر زمانه على اختيارِ النَّافعِ عاجلاً، واجتنابِ الضَّارِّ آجلاً.

هذا مع أشغاله المتكاثفة، ونظرة المتوزَّع، وفكره المتعب أخذ الله بيده، وأعانته على ما يحمل من أمره، فَلَمَّا فهم أعجب، ولما أعجب، حَضَّ على

(٣٦٩) . الكُلُولُ من الكَلِّ وهو: الإعياء، نقول كلٌّ يكُلُّ كلالاً وكلالَةً: أعياء. والمراد هنا الكَلُّ الذي هو قفا السيف والسكين الذي ليس بجاد.

(٣٧٠) . الفُضْحُ: كسر كلِّ شيءٍ أجوفٍ. وَفُضِّحَ رأسُهُ: شُدِّحَهُ، وَأفْضَحَ سَنَامَ البعيرِ: انشُدِّحَ، وكلُّ شيءٍ اتَّسع وعرض فقد انفضح.

(٣٧١) . البيد مصدر، نقول: باد ببيد بيدا.

(٣٧٢) . من خلُقِ الثوبِ خُلُوقاً إذا عتق وبلي.

(٣٧٣) . نقص في الأصل.

تأليفه في كتاب، وتَلَطَّفَ في ذلك بأحسن قول، ووَعَدَ عليه أجزل ثواب، وقِيلَ
الرَّأْيُ في النُّكُولِ عنه، والرَّضَى بالجواز عليه. وقال:

في نشر الحكمةِ ثوابٌ رُوحيٌّ، وذكرٌ دهرِيٌّ، وصِيَتْ باقٍ، وبهجةٌ مرموقةٌ.
ولو لم يكن فيه إلا التَّلذُّدُ به، واستنتاج باب بعد باب يليه لكان يجب ألا
يُكْسَلَ عنه، ولا يُجَنَّحَ إلى التَّفْرِيطِ والتَّقَاعِدِ دونه.

وهذا الذي قاله هذا السَّيِّدُ ظاهِرُ الصَّوابِ، ناصعُ الدَّلِيلِ، موجودُ
البرهانِ، غير مشكوكٍ فيه، ولا مرتابٍ منه، ولكن أين البالُ الرَّحِيٍّ، والفؤادُ
الدَّكِيَّ، واللسانُ الحليْفِ، والصديقُ المساعدِ، والمستمع الواعي، والطَّالِبُ
الرَّاعِبِ، وأتَى لي الأمان من الخطأ والسَّلامَةُ على المنحى.

هذا وقد قال سقراط^(٣٧٤) الإلهي:

افرح بما لم تَنطِقْ به من الخطأ أكثر من فَرِحَكَ بما لم تَسْكُتْ عنه من
الصَّوابِ.

وهذا كلامٌ نفيسٌ يحثُّ على معرفة مواقع التُّطُقِ والصَّمْتِ، وهذه المعرفةُ
نتائجٌ للفكر الصَّحيحِ، آتيةٌ بالحقِّ، جَلُوبَةٌ للرُّشْدِ. هيهات، غامت سماءُ العلمِ،
وأظلم جوُّ البيانِ، وانكسر فقارُ الدِّينِ، وَحَطَّ عَمُودُ الشَّبَابِ، وقلَّ نصيرُ
الأدبِ، وتَفَوَّضَ بناءُ الخيرِ، وبلِيَ ثوبُ المروءةِ، وغارت عينُ الحياةِ، وعقمت أمُّ
الوفاءِ. فلا جَرَمَ؛ لا بابٌ للعرْفِ إلا وهو مَسدودٌ، ولا جُرْفٌ للعقلِ إلا وهو
مُنْهَارٌ، ولا جانبٌ للقيضِ إلا وهو مُنْثَلَمٌ، ولا نَعْرٌ للحكمةِ إلا وهو مُسْتَبَاحٌ.
فالمصيبةُ عامَّةٌ، وإن كان العزاءُ خاصًّا، والبلاءُ شاملًا، وإن كان المكترثُ به

(٣٧٤) - سقراط: من أشهر فلاسفة اليونان. ولد نحو سنة ٤٤٧ ق.م وتوفي سنة ٣٩٩ ق.م.

قليلاً، والعَجَبُ حاضرٌ، وإن كان المتعجَّبُ غائباً، والعليلُ مستغيثٌ، وإن كان الطَّيِّبُ مفقوداً.

وأقْفُ عن هذا الحديث فإنه قد قيلَ مُسلسلاً ليس بين يديه حاجزٌ يصدُّ، ولا مانعٌ إلا أن يأذن الله بفرحةٍ يَقْيِضُهَا^(٣٧٥)، ونشأةٍ أُخْرَى يُعِيدُهَا، ونظرةٍ يَجْرُ بِهَا كسر الزَّمان، وجذم^(٣٧٦) أصله وفصله الحدثان، ومن دون ذلك ما يترحزُ عن هذه البقعة الغاصَّةِ بأنواع الأسي والحُرقة. نسأل الله العظيم أن يقضي ذلك مرفوعاً بغفرانه قبل أن يُتمنى بالقلب واللسان فالأوَّل يقول:

فالموتُ خيرٌ للفتى فليَهْلِكَنَّ وبه بَقِيَّةُ

مِنْ أَنْ يُرَى تَهْدِيهِ وَلِدَانُ الْمُقَامَةِ بِالْعَشِيَّةِ

فإنَّهُ وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

نعم أبقاك الله وأتمَّ نعمته عليك، ومع الذي قَدَّمْتُ وأخَرْتُ، وصعدتُ وصوبتُ، فإني لم أرَ من حقِّ هذا الصَّدِيقِ الكريمِ أنْ أخالفه عامداً، وأنحرفَ عن مراده معانداً، بل رأيتُ أنْ أتقلَّدَ الكلامَ في ذلك بالغاً وقاصراً، ومنتهياً، ومتوسطاً، لأبجُو من عتبه، وأفوزَ بمرضاته، وليكونَ وجهي في طاعته أغرَّ واضحاً، وصوابي عنده مقبولاً، وخطئي لديه مُحْتَمِلاً.

وأعودُ فأقولُ في شرحِ أصنافِ الحياةِ بمبلغِ العلمِ الذي عندي، فإذا فرغتُ منه أضفتُ إلى جمليتهِ فِقْراً شريفةً، بعباراتٍ مألوفةٍ، على قَدْرِ الرِّسَالَةِ فإنَّ تلكَ

(٣٧٥) . القِيضُ: العَوْضُ، ومنه: المَقايِضَةُ، يقال: قاضه يقِيضُه تَقْيِيضاً إذا عاضه. والقِيضُ التمثيلُ، والتَهْيِئَةُ.

بينما قاض يقوض تقويضاً: هدم.

(٣٧٦) . الجذم: سرعة القطع؛ جذمه يجذمه جذماً فهو جذم، والجذمة: القطعة من الشيء يقطع طرفه ويبقى

جذمه، وهو أصله.

أشبهه للحال، وأجلب للفائدة، وأحسم لمادّة التّكلف، وأبلغ إلى الغرض المنحو،
وأتى على المراد المقصود إن شاء الله تعالى.

أصناف الحياة^(٣٧٧)

أصناف الحياة عشرة: ثمانية مُتَّعَتْ بها البَشَرُ على التّفاوتِ الواقعِ بين
الحيِّ كَمَا سَنَبِّئُ من بعد، واثنان مُرْتَقِيَانِ إلى ما يشكّل العلم به إلّا في الجملة،
ويعتاصُ المرادُ منه إلّا مع التّسليم:

والصَّنْفُ الأوَّلُ يقالُ له: حياةُ الحِسِّ والحركة.

والصَّنْفُ الثّاني يقالُ له: حياةُ العلم والبصيرة.

والصَّنْفُ الثّالثُ يقالُ له: حياةُ العمل والكدح.

والصَّنْفُ الرّابعُ يقالُ له: حياةُ الخُلُقِ والسّجّية.

والصَّنْفُ الخامسُ يقالُ له: حياةُ التّدينِ والسّكينة.

والصَّنْفُ السّادسُ يقالُ له: حياةُ الكمالِ الأوَّل.

والصَّنْفُ السّابعُ يقالُ له: حياةُ الظن والتوهّم ويقالُ له أيضاً: حياة

الذّكر.

والصَّنْفُ الثّامنُ يقالُ له: حياةُ الكمالِ الثّاني وهي حُبُّ العاقبة.

فهذه ثمانية أصناف، ويتدرّج فيها الواحدُ بعد الواحدِ من البشرِ بحسبِ
السّهامِ العُلوية، والمكاسبِ السُّفلية، والتّأهيلِ الإلهيِّ بالمواهبِ السّابقة، والتّكاملِ
البشريِّ والمساعيِ السّابقة. والصّنفانِ الآخِرانِ أحدهما حياةُ الملائكةِ والآخِر
ما يقالُ له: إنّ الله عزَّ وجلَّ حيٌّ، وهاتانِ الحياتانِ نقتنع في أمريهما بالكتابة

(٣٧٧) . هذا العنوان وعناوين الفقر الأخرى غير موجودة في الأصل، وإنما أدرجناها تبسيطاً وتيسيراً.

عنهما، لإشكال الكُنْهَ فيهما، ولإضراب العقل عن تحديدهما، وَحَرَجَ الصَّدْرِ عن تَوْهِيهِمَا وتمثيلهما فيك فنقول:

حَيَاةُ الْحِسِّ وَالْحَرَكَةِ

أما الحياةُ الأولى فهي حياةُ الإنسان التي بِهَا يُحْسُ ويتحرَّكُ ويلدُّ وينعم ويشتكى ويألم، وهذه مشتركة أعني أَنَّ ضروبَ الحيوان من فَرَسٍ وِحِمَارٍ وخنزيرٍ وقرَدٍ وغير ذلك لها هذه الحياة التي تشتمل عِلَّةَ الحِسِّ والحركةِ والقُوْمِ إلى الغذاء، والحاجة إلى البقاء، وبِهَا يَتَعَلَّقُ إلى تحلُّلِ المُنْحَلِّ منها، وبِهَا يَتَشَوَّقُ إلى استحلابِ أمثاله إليها، ولا تفاوتَ في تلك الحياة بين هذه الضُروبِ بل كُلُّها تجتمع في الصِّفَاتِ، وتقبل بالطَّبَعِ الأول هذه الحالات فلهذا لا يقال: هذا الحي أحيًا من هذا الحيِّ.

وقد يُقال: زيدٌ أحيًا من عمرو أي أنه أكثرُ حياءً منه.

وَلَعَلَّهُ يقال أيضاً: هذا الحيوانُ أحيًا من هذا الحيوان، أي أطول مدَّةً في الحياة، فأما في نفس الحياة فهي في الجنس والنَّوع والشَّخصِ واحدٌ، فقد بانَ أَنَّ الصِّنْفَ الأوَّلَ من أصنافِ الحياةِ قد اشترك فيه، وهذا الاشتراك وقع بالحكمة كالأساس لباقيها، وكالعُرسِ لِكُلِّ ما يدخل في حوزتها.

حَيَاةُ الْعِلْمِ وَالْبَصِيرَةِ

وأما الحياةُ الثَّانِيَةُ فهي حياةُ العلمِ والمعرفةِ والفَهْمِ والدَّرَايَةِ والحفظِ والرَّوْيَةِ والحكمةِ والبحثِ والاستنباطِ والمسألةِ والجوابِ وهذه الحياة تُستفادُ بالتَّأييدِ الإلهيِّ؛ والاختيارِ البشريِّ، مع النِّيَّةِ الحَسَنَةِ، والسَّعْيِ الدَّائِمِ، والحَبَّةِ النَّفْسِيَّةِ، واللطافةِ الرُّوحِيَّةِ، والرَّقَّةِ المِزاجِيَّةِ.

فَأَمَّا الْحَيَاةُ الْأُولَى فَهِيَ مَعَ الْجِلَّةِ وَالْفِطْرَةِ. وَهِيَ صَوْرَةُ الطَّيْنَةِ. وَلِذَلِكَ وَقَعَ فِيهَا الْإِشْتِرَاكُ مِنَ الْجَمِيعِ. وَهَذِهِ الْحَيَاةُ هِيَ الْمَادِيَةُ لِصَاحِبِهَا إِلَى نَيْلِ الْكَمَالِ وَتُلُوغِ الْأَمَالِ. وَالتَّفَاضُلُ الْوَاقِعُ فِي هَذِهِ بِحَسَبِ الْحِطِّ وَالْإِطْلَاعِ وَالسُّلُوكِ وَالزَّمَاعِ^(٣٧٨)، فَإِنَّ عَرَضَ النَّقْصِ فِي سُلُوكِ هَذِهِ الْحَيَاةِ فَإِنَّ صَاحِبَهَا يَصِيرُ شَبِيهَاً بِضُرُوبِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي وَصَفْنَاهَا مِنْ قَبْلِ. وَإِنْ كَانَ أَرْفَعَ مِنْهَا فِي الْجَوْهَرِ، وَالسَّنَخِ^(٣٧٩)، وَالْعُنْصُرِ، وَالشَّكْلِ. وَالنَّفْسُ وَإِنْ اسْتَمَرَّ صَاحِبُ هَذِهِ الْحَيَاةِ عَلَى أَحْذِ الْفَوَائِدِ الْمَجْدِيَةِ، وَاقْتِنَاسِ الْمَعَارِفِ الْمُحَقَّقَةِ صَارَ شَبِيهَاً بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ بِسَائِطِهِمْ مُرَكَّبَةٌ عَلَى تَرْكِيبَاتِهِمْ، وَجَسْمِيَّتِهِمْ مُلَوَّكَةٌ^(٣٨٠) بِرُوحَانِيَّتِهِمْ، وَكثَافَتِهِمْ مَغْلُوبَةٌ بِلَطَافَتِهِمْ. فَعَلَى هَذَا إِنْ قِيلَ:

إِنَّ الْعَالِمَ أَحْيَا مِنْ الْخَامِلِ، أَيِ أَكْثَرَ حَيَاةً فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي فَسَّرْنَا لَمْ يَكُنْ مُنْكَرًا وَلَا بَعِيدًا.

حياة العمل والكدح

وَأَمَّا الْحَيَاةُ الثَّلَاثَةُ فَهِيَ حَيَاةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ بِالرَّفْعِ وَالْوَضْعِ، وَالْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ، وَالْعِشْرَةِ، وَالصَّدَاقَةِ، وَالْوَدَاعَةِ، وَحُسْنِ الْعَهْدِ وَصِدْقِ الْوَعْدِ. وَهَذِهِ الْحَيَاةُ إِذَا انضَمَّتْ إِلَى الْحَيَاتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ كَمَلَّتِ الْإِنْسَانَ، وَزَادَتْ فِي قِيَمَتِهِ، وَعَلَّتْ مِنْ دَرَجَتِهِ، وَأَفَادَتْهُ شَرْفًا أَبَدِيًّا، وَعِزًّا سَرْمَدِيًّا، وَأَبَسَتْهُ جِلْبَابَ الْبَقَاءِ، وَسَلَّكَتْهُ إِلَى كَنْفِ السَّعَادَةِ، وَخَلَطَتْهُ بِزَمْرَةِ الْمَلَائِكَةِ.

(٣٧٨) . الزَّمَاعُ: الْعِزْمُ عَلَى الْأَمْرِ، وَالْمُضِيُّ فِيهِ، وَمِنْهُ قَوْلُنَا: أَرْمَعْتُ عَلَى كَذَا.

(٣٧٩) . السَّنَخُ: الْأَصْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْجَمْعُ أَسْنَخٌ وَسَنُوخٌ.

(٣٨٠) . مُلَوَّكَةٌ: مِنْ لَاكٍ يَلُوكُ.

حَيَاةُ التَّدِينِ وَالسَّكِينَةِ

وأما الحياةُ الرَّابِعَةُ فهي حياةُ الدِّيانةِ والسَّكِينَةِ، وبها يَنَالُ صاحبُها خَيْرَ العاجلةِ والآجلةِ، لأنَّ سِرْبَالَ الدِّينِ صَافٍ، وَقُلْتُهُ عَلَيْهِ، وَعُقْبَاهُ مَأْمُولَةٌ، وَسِرِيرَتُهُ ظَاهِرَةٌ، وَعَلَانِيَتُهُ مَرْضِيَّةٌ، فَبِالتَّدِينِ يَكْمَلُ النَّاقِصُ، وَيَزِدُّ الرَّاغِبُ، وَيَنْجُو المِشْفِيُّ، وَيَبْرَأُ العَلِيلُ، وَيُرْشِدُ العَوِيُّ، وَيَسْتَبْصِرُ العَمِيُّ، وَيَهْتَدِي الضَّالُّ، وَيَسْتَقِيمُ المَعْوَجُّ، وَيُدْرِكُ الفَائِثُ، وَيُسْتَبَانُ الغَيْبُ، وَتَمْجِيدُ الدِّينِ طَوِيلٌ لَا غَايَةَ لَهُ فَيُوقِفُ عِنْدَهَا، وَلَا حَدَّ لَهُ فَيُنْتَهَى إِلَيْهِ فَلذَلِكَ نَبَسَطُ عُذْرَنَا فِي الإِمْسَاكِ عَنْهُ بَعْدَ الدَّلَالَةِ عَلَى نَصِّهِ.

حَيَاةُ الخُلُقِ وَالسَّجِيَةِ

فَأَمَّا الحَيَاةُ الخَامِسَةُ فهي حَيَاةُ الأَخْلَاقِ الَّتِي مَنْ هَدَّهَا، وَمَنْ تَهَدَّبَ بِهَا، وَنَفَى خَبِيئَتَهَا، وَتَحَلَّى بِطَيِّبِهَا، هُنَا عَيْشُهُ وَعَيْشُ مَنْ يَعَايِشُهُ، وَصَفَتْ سِرِيرَتُهُ مِنَ الكَدْرِ، وَبَرَّ سَعِيَهُ فِي كُلِّ مَا حَلَا وَأَمَرَ. وَإِنَّمَا أَفْرَزْنَا الأَخْلَاقَ مِنَ الدِّيانةِ وَالسَّكِينَةِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ لِأَنَّ الخُلُقَ تَابِعٌ لِلخُلُقِ بِالمُضَارَعَةِ اللَّفْظِيَّةِ، وَهُوَ يَنْقَسِمُ بَيْنَ مَا يَزُولُ بِالرِّيَاضَةِ كُلِّ الرِّوَالِ، أَوْ يَقِلُّ بَعْضُ الإِقْلَالِ، وَبَيْنَ مَا يَكُونُ صَوْرَةً لِلنَّفْسِ لَا يُطْمَعُ فِي البِرَاءَةِ مِنْهُ، وَالطَّهَارَةَ عَنْهُ، وَقَدْ صَنَّفَ الحُكَمَاءُ الأَوَّلُونَ وَالأُخْرُونَ كِتَابًا فِي الأَخْلَاقِ وَذَكَرُوا أَعْيَانَهَا بِأَسْمَائِهَا وَصِفَاتِهَا، وَحُدُودَهَا وَرَسُومَهَا، وَمَجْمَلَهَا وَمَفْصَلِهَا، وَدَلُّوا عَلَى الحَسَنِ وَالقَبِيحِ مِنْهَا، وَدَعَا إِلَى التَّحَلِّيِ بِأَحْسَنِهَا، وَالتَّعَرِّيِ مِنْ أَسْمَجِهَا^(٣٨١)، فَضَرَبُوا لَهَا الأَمْثَالَ، وَسَحَّبُوا عَلَيْهَا ذِيُولَ

(٣٨١) - السَّمَجُ: الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَلَاةٌ، وَقَدْ سَمَّجَ (بَضَمَ عَيْنَهُ) يَسْمَجُ سَمَاجَةً: قَبِحٌ.

المقال، فلذلك كَفَتِ الإشارة في الجملة إليها دون التّفصِيلِ الدّالِّ على خُلُقٍ منها، ولو مَيَّزنا الأخلاق بالشرّح في هذا المكان للزم أيضاً أن نشرح الدّين والعمل وجميع ما سلف اللفظ به وأتى الذّكر عليه.

حَيَاةُ الْكَمَالِ الْأَوَّلِ

وأما الحياةُ السّادسةُ فهي أن تُستجمعَ من جملة الحَيَواتِ المتقدّمةِ لأنّنا كما رسمنا كُفْلَ واحدةٍ منها باللفظِ الوجيزِ، والعبارةُ الخاصّةُ دلّلتنا في هذا المكان على صورة أُخرى تَحَدُثُ هَآ بِالتَّنَاطُمِ والتَّلَازِمِ والاجتماعِ والتَّأَلِيفِ لم تكن من قبل لأنّ الأشياءَ المفردةَ صُورُهَا مخالفةٌ للأشياءِ المتضامّةِ، وكذلك الأشياءُ المتباينة ليست كالأشياءِ المتلائمةِ، وهذا عيان وهو غنيٌّ عن البرهان، فمن فاز بهذه الحياة علا شأنه، وشرفَ مكانه، وبلغ إلى فَجْوَةِ النجاة.

حَيَاةُ الظَّنِّ وَالتَّوَهُّمِ

وأما الحياةُ السّابعةُ فهي حياةُ الظَّنِّ والتَّوَهُّمِ. أعني ما يغلب على الإنسان من الذّكرِ والصّيّةِ والشّهرةِ بأيّ وجهٍ كان، ولذلك قال الأوّل: إِنَّ التَّنَاءَ هُوَ الخُلْدُ.

ولما شَعَرَ الإنسانُ بالبقاءِ جَدَّ في طلبه بكلِّ وجهٍ، وشامَ برفقهُ^(٣٨٢) بكلِّ طَرَفٍ، وحلّمَ به في كلِّ نَعَاسٍ، وتمنّاهُ في كلِّ انتباهٍ، وكلُّ أحدٍ يتوهّمُ نوعاً غير نوع صاحبه بِقَدْرِ مزاجِهِ، ونقصه وزيادته، وعقله ورأيه، وبديهته وروبيته وعلى هذا وهما^(٣٨٣) الناس.

(٣٨٢) . شام البرق: نظر إليه أين يقصد وأين يعطر.

(٣٨٣) . هكذا في الأصل، ولعلّ تمّة نقص سهواً، أو أن تكون حالاً لفعل مقدر.

وصاحب هذا العَرَضِ لما غفل عن البقاء الحقَّ سَعَى في كسب الحياة التي كأنها بالذِّكْرِ والصِّيتِ والاشتهار كالحياة المألوفة بالحسِّ والحركة، ومن هذا الضَّرْبِ طَلَبَ الإنسانُ النَّسْلَ لِأَنَّهُ يَتَخَيَّلُ لبقاء النَّوعِ شيئاً لبقائه الشَّخصيِّ ولهذا يقال:

نَسْلُهُ أَي نُسْلٍ مِنْهُ، وَسُلَالَتُهُ أَي سُلٍّ مِنْهُ، وَمُصَاصَتُهُ أَي مَصٍّ مِنْهُ.
والفرق بين الحياة والبقاء، والعيش والدَّوامِ، والثَّباتِ والخُلْدِ، والكونِ والوجودِ، مشهورٌ واضحٌ. فإِنْ تركنا ذكره ميلاً إلى تخفيف الرِّسالةِ جازاً، وان هَشَشْنَا للإشارةِ إليه ساغ. وتقول في ذلك بعد هذا الشَّرْحِ عليه ما يتيسَّر، وإن كان غير آتٍ على الغاية أمَّا البقاءُ فهو أعمُّ من الحياة لأنَّا نقولُ في الحيِّ باقٍ. وفي غير الحيِّ أيضاً تقول: باقٍ. والحياةُ أَدْخَلُ في الحِسِّ لأنَّها أعلق بالحركة، والباقي قد يكون بحركة وغير حركة، فأما العيشُ فَإِنَّهُ أَشَدُّ لطفاً بمادَّةِ الحياة، وكذلك يقال: خرج فلان في طلب المعاش. فأما الحياة فقد كانت قبل هذا الخروج، ولذلك يقال في الله تعالى حيٌّ ولا يقال عايش.

وأما الثَّباتُ فالإشارةُ فيه إلى الرُّسوخِ، والامتدادِ منه عارض. وأما الدَّوامُ فالامتدادِ فيه أبْرُ إلا أنه في المحسوسِ أُخْرَى.

وأما الخُلْدُ فكأنَّه أَدْخَلُ في الامتدادِ الذي لا طرف له.

وأما الكونُ فهو من حركات الزَّمانِ وأثر الحِدْثانِ.

وأما الوجودُ فليسَ من هذا القبيلِ لِأَنَّهُ في الحقيقةِ في حِضْنِ الدَّهْرِ إِلَّا أَنَّ

الدَّهْرَ لَمَّا كانَ أَمَّ الزَّمانِ استعيرَ منه، ونُعِتَ بولده الذي هو الزَّمانِ.

وفي الجملة إذا تشابهت الأسماء دَقَّ الفرقُ بينهما كما أنه إذا تباينت الأسماء شَقَّ الجمعُ بينهما، والنَّعْتُ إِنَّمَا يَصْحُحُ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ نَوْرُ الْحِسِّ وَيَتَحَقَّقُ إِذَا طَافَ بِهِ نَوْرُ الْعَقْلِ، وَكُلُّ خَفِيٍّ فِي سَاحَةِ الْحِسِّ فَهُوَ بَادٍ فِي فِضَاءِ الْعَقْلِ، وَكُلُّ بَادٍ فِي فِضَاءِ الْعَقْلِ فَهُوَ خَفِيٌّ فِي سَاحَةِ الْحِسِّ وَلَوْلَا هَذَا الْبُؤْنَ لَكَانَ الْاِسْتِدْلَالُ مِنَ الشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ سَهْوًا، وَالِاسْتِنْبَاطُ مِنَ الْغَائِبِ فِي الشَّاهِدِ لِعَوًا، أَوْ لَكَانَتْ الْأُمُورُ ظَاهِرَةً عَلَى سِيرٍ لَا يُخْتَلَفُ فِي تَنَاوُلِهَا وَإِدْرَاكِهَا وَالِإِحَاطَةُ بِهَا وَلَكِنْ لَيْسَ الْأَمْرُ هَكَذَا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تَرِيدُ فَأَرِدُ مَا يَكُونُ، فَعَلَى هَذَا لَا تَتَّقُ بِشَهَادَةِ الشَّاهِدِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، لَكِنْ أَضِفْ أَبَدًا إِلَى حُجَّةِ الشَّاهِدِ أَثَرًا مِنَ الْغَائِبِ، وَأَضِفْ إِلَى الْغَائِبِ أَثَرًا مِنَ الشَّاهِدِ حَتَّى يَبِينَ لَكَ الْقِيَاسُ، فَإِنَّ الْعَالَمَ مَتَلْبَسٌ أَعْنِي أَنَّ بَلَدَ الْحِسِّ مُتَاخِمٌ لِبَلَدِ الْعَقْلِ، إِلَّا أَنَّ نَوْرَ الْحِسِّ وَإِنْ كَانَ شَائِعًا فَهُوَ قَمَرِيٌّ، وَنَوْرُ الْعَقْلِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ شَائِعٍ فَهُوَ شَمْسِيٌّ، وَأَنَّ دَائِرَةَ هَذَا، أَعْنِي الْقَمَرَ، مِنْ دَائِرَةِ هَذَا، أَعْنِي الشَّمْسَ، فَافْهَمْ فَإِنَّ هَذِهِ التُّكْنَةَ مُتَلَقَّاةٌ بِالتَّحِيَّةِ، وَهَذِهِ الْعَوِيصَةُ مُوَشَّحَةٌ بِالرَّحْمَةِ.

قد بَعَدْنَا عَمَّا كُنَّا فِيهِ بِهَذَا الْاِعْتِرَاضِ، وَالرَّأْيُ الرَّجُوعُ إِلَيْهِ، فَالْكَلَامُ إِذَا وَجَدَ مَسْرَحًا لَمْ يَقِفْ، وَالخَاطِرُ إِذَا أَصَابَ سَحًّا^(٣٨٤) لَمْ يَكْفِ.

حَيَاةُ الْكَمَالِ الثَّانِي

نعم، وَأَمَّا الْحَيَاةُ الثَّامِنَةُ فَهِيَ حَيَاةُ الْعَاقِبَةِ. وَهِيَ الَّتِي تُنَالُ بَعْدَ الْمَفَارِقَةِ الَّتِي تُسَمَّى الْمَوْتَ وَيَسْتَفْظَعُهَا الْجُمْهُورُ، وَالِاجْتِهَادُ وَالسَّعْيُ وَالكَدْحُ وَالذُّؤُوبُ

(٣٨٤) - السح: المطر، والمراد هنا التداعي و التوارد.

والاعتماد والتَّحُمُّل والتَّكَلُّف والقيام والقعود والعبادة والزَّهَادَة والتَّعَب والمشقَّة والقلق والسُّؤال والجواب والاستعانة كلها لهذه.

وإنَّما احتيَج إلى جميع ما سَلَفَ القول فيه من أجلها لأَنَّ الغرض الأقصى وإليها المنتهى. وهي بالتَّمثِيل شخصٌ، وما سواها ظِلٌّ وَعَيْنٌ، وما عداها أثرٌ ويقظَةٌ، وما قبلها حُلْمٌ، وإنَّما كان كدح الفلاسفة اليونانيين والإلهيين والطبيعيين والمتقدِّمين والمتأخِّرين [...] بهذه الحياة الجامعة بين السُّرور والبقاء السَّرْمديِّ في حظيرة القدس ومراد الأُنس، حيث لا يَتَعَدَّرُ مطلوبٌ ولا يُفقد محبوبٌ، حيث الطمأنينة والرُّوحانيَّة عند ربوَّة ذات قرارٍ ومَعِين، وحيث لا عبارة لنا عن كنهه لأنَّه بَلَدٌ لا عهد لنا به ولا ألفة بيننا وبين شكله، وإنَّما شعرنا بهذا كُلِّهِ بنورٍ إلهيٍّ سَرَى إلينا فشاخ فينا ووجدناه يقيناً لا ريب فيه، وشهدناه عياناً لا مَرِيَّةَ به، والعيان العقليُّ فوق القياس الحسِّي، لأنَّ العَقْلَ مَوْلى والحِسَّ عَبْدٌ، وشهادة المولى مقدَّمةٌ على شهادة العبد، فلذلك عَرَّينا أنفسنا جُهدنا وطاقاتنا عن كُلِّ أَصْفَرٍ وأحمرٍ، وعن كُلِّ حَلِوٍ وحامضٍ، وعن كُلِّ لَيِّنٍ وناعمٍ، وعن كُلِّ زَبِجٍ^(٣٨٥) رائقٍ، وفاخرٍ فائقٍ. وفي الجملة عن كلِّ ما أوثق القيد، وأوثق^(٣٨٦) النَّفْسَ، وأوقع الدين، وبالغ في اجتلاب الهلكة.

نعم، ورفعنا قرناء السُّوء من داخلٍ وخارجٍ رغبةً في تلك الحياة، وشوقاً إلى هذا الملكوت ووجدنا بهذه الغبطة، وطرباً إلى هذا النَّسيم، وشقاً للحجب على هذه النِّعمة، تَدْرُجاً إلى هذه العاقبة. ولعمري إنَّ من سافر إلى بَلَدِ العَدْلِ

(٣٨٥) . الزبج: الوشي، الذهب، زينة السلاح.

(٣٨٦) . وبق الرجل يبق وبقاً ووبوقاً واستوبق: هلك، والمهلك.

والأمن والحِصْبِ مَرَّ في طريقه على كلِّ مشقَّةٍ، وقلةِ أعوانٍ، وحَدْبٍ. وما هذا والله بالصَّعْبِ، ولا بالشَّدِيدِ مع هذا العمر القصير، والعيش العسير، والعوارض المؤذية، والشَّدائد المعترضة والآفات المتردِّدة.

نسأل الله الذي بيده ملكوت كلِّ شيءٍ أن يُحوِّلنا من هذا العناء المحشوِّ بالعناء بعد العناء إلى ذلك الجوارِ المكنون بالقرارِ بتيسيرٍ وتسهيلٍ، ورضى قلبٍ، وتسليمِ نفسٍ، ورفقةٍ بالٍ، وفؤادٍ مجيد قريب مجيب.

الحياتان الأخيرتان

فهذا شَرِّحُ أصنافِ الحياة الثمانية على ما جادت القريحةُ، وساعدت العبارة عليه، فأما الحياتان الباقيتان اللتان أحدهما للملائكة، والأخرى التي بها يقال لله تعالى جدُّه حَيٌّ فليستا من الأصنافِ التي يَلِجُ الوهم في كُنْهها، أو يُلِمُّ النُّطق بحقيقتها، وتُعَوِّثها لم تقع إلينا جملةً في عَرْضِ التَّسليمِ والتَّعظيمِ، وكم من جملةٍ نَبأ التَّفصيلُ عنها، وكم من تفصيلٍ وقف عن جملته البيان، ولهذا حَسُنَ أن نسلو عن كلِّ فائتٍ من تلك المعان، ونَتَعَلَّلَ بما وضَحَ لنا في هذا المكان، ولا نَتَكَلَّفَ ركوبَ البحرِ بلا سفينةٍ صحيحةٍ، ولا آلةٍ حاضرةٍ، ولا ملاحٍ ماهرٍ، وذلك الجَرْمُ^(٣٨٧) محروس من إشراق الوهم، ومن تغلغل العقل. ومن رسومِ الدَّواتِ، ومن حدودِ الصِّفاتِ ومن الجَسَّارةِ على ما يجلُّ عنه، ويعتلي عليه.

نَحْنُ مكائِبُونَ، زمايِبُونَ، خياليُونَ، وهميُونَ، ظنيُونَ، مُتَقَسِّمُونَ مِمَّا كَانَ وما يكون، حَرِيْبُونَ بالجهلِ، جديرون بالنَّقْصِ. وإمَّا نُدرِكُ بعضَ ما ندرِكُ إذا

(٣٨٧). الجرم: ألواح الجسد وجمثامته.

صَفَتْ طِينُهَا، وَزَالَ عَنَّا تَقَسُّمُنَا، وَفَارَقْنَا وَهْمُنَا، وَزَالَ حُسْنُنَا، وَعَلَا زَمَانُنَا إِلَى دَهْرِنَا، وَعَطَفَ عَلَيْنَا الْعَقْلُ بِشُعَاعِهِ، وَأَوْدَعْنَا مَا هُوَ مِنْ جَوَاهِرِهِ وَدُرَرِهِ. فَأَمَّا مَا دَمْنَا نَرْتَكِضُ فِي ظِلِّهِ الْهَيُولِيِّ^(٣٨٨) فَإِنَّا نَفْقَدُ كُلَّ حِزِّ جَسِيمٍ، وَنَتَّجِعُ عَلَى كُلِّ فَائِتٍ مَتَمَّتِي، فَإِذَا أَقْرَرْنَا بِهَذَا الْإِشْكَالِ الْعَوِيصِ فَقَدْ حَزَمَ الْكَلَامُ فِي هَاتَيْنِ الْحَيَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ لَيْسَتَا مِنْ بَابِ الْهَيُولِيِّ وَالصُّورَةِ وَتَخْطِيطِ الطَّيْنَةِ الْمُهَيَّبَةِ، إِلَّا مِنْ جِهَةِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْاسْمِ الْمُسْتَعَارِ لَهَا فَذَا هَذَا. وَقَدْ سَقْنَا كَلَامًا لَزِمْنَا مِنْ حَثٍّ عَلَى نِظْمٍ مَمْتَشِرٍ، وَجَمْعٍ مَمْتَشِرٍ، عَلَى أَنَّا لَوْ أَرَدْنَا شَرْحَ ذَلِكَ بِنَوْعٍ آخَرَ مِنَ الْبَيَانِ لَكُنَّا نَعْجِزُ عَنْهُ، أَوْ نَتَعَرَّضُ لِحُدُوثِ الْمَلَلِ مِنْهُ، وَنَرْجِعُ إِلَى مَا وَعَدْنَا مِنْ إِضَافَةِ لَمَعٍ مِنْ كَلَامِ فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى مَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مَعُونَةً لِمَا مَضَى وَتَنْبِيهًا عَلَى حَقِيقَتِهِ وَنَفِيًّا لِلشُّبْهَةِ إِنْ عَرَضَتْ فِيهِ، وَإِنْ وَجَدْنَا قُوَّةً فِي الْكَلَامِ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا وَصَلْنَا بِمَا يَزِيدُهَا صِقَالًا عِنْدَ السَّمْعِ، وَيَزِيدُهَا جَمَالًا عِنْدَ الْفَهْمِ، وَيُكْسِبُهَا ثِقَةً عِنْدَ النَّفْسِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الحيوات عند الفلاسفة

الاعتداء بالله

قَالَ أُوْمَيْرُوسُ^(٣٨٩): إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنَ النَّاسِ وَهُمْ يُمْكِنُهُمُ الْاِقْتِدَاءُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيَدْعُونَ ذَلِكَ إِلَى الْاِقْتِدَاءِ بِالْبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ.

(٣٨٨) . الهَيُولِيُّ: لَفْظٌ يُونَانِي الْأَصْلُ وَيَعْنِي: الْأَصْلُ وَالْمَادَّةُ، أَوْ هُوَ الْمَادَّةُ الَّتِي يَتَكُونُ مِنْهَا الشَّيْءُ، وَالصُّورَةُ هِيَ الشَّكْلُ الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ هَذَا الشَّيْءُ، أَوْ الشَّكْلُ الَّذِي تَتَمَطَّهَرُ بِهِ الْمَادَّةُ.

(٣٨٩) . أُوْمَيْرُوسُ: هُوَ هُوْمَيْرُوسُ، شَاعِرٌ إِغْرِيْقِي شَهِيْرٌ، تَنْسَبُ إِلَيْهِ الْإِلْيَاذَةُ وَالْأُوْدِيْسَةُ.

فَقَالَ تلميذه: لَعَلَّ هذا هو لأنَّهُم قد رأوا أَنَّهُم يموتونَ كما تموتُ البهائم.
فَقَالَ اوميرُوس: فلهذا السَّبب يكثُر تعجُّبي منهم؛ من قبل أَنَّهُم
يحبسون أَنَّهُم لا يسونَ بَدَنًا مَيِّتًا ولا يحسبون أَنَّ في ذلك البَدَنِ نفساً حيَّةً غير
مائيَّة.

وفي هذا الذي قال هذا السَّيِّدُ تنبيهٌ تامٌّ، وزجرٌ نافعٌ، وإيضاحٌ لبعض
ما يمرُّ بأطرافه الشكُّ. ويعد في أحكام الحكمة أن يكون الإنسان مع فضائله
الَّتِي هي العقلُ والتَّمييزُ والمعرفة والعلم يفارق البهيميَّة والسَّبَّعيَّة في الأوَّل
بالتَّحقيق، ثُمَّ يصيرُ مشاكلاً لهذا الثَّاني أعني في الفناء والبُطلان، كأنَّ مُعْتَمَلَهَا
في منافع هذه الحياة الَّتِي مُنَحَّها وخصَّ بها إمَّا كان الغرضُ فيها أن مُعْتَمَلَهَا
في منافع هذه الحياة النَّاقصة المنقصة والأحوال البائدة المنتهية. لا وحقَّ العقل
الذي إذا شهد صدق، وإذا بيَّن حَقَّق، بل وقعت الميزة والخصُوصيَّة في هذا
الطَّرْف لتكوُن مستصحبَةً للتَّضاعفِ والتَّزايد والاستثمار إلى الطَّرْف الآخر، ولا
تضيع ولا تضمحلُّ بل تبقى وتثبت وتنمو وتركوها لأنَّها لو انقضت
بانقضاء الإنسان ولم تُثمر في الثَّاني بعد أن أزهرت في الأوَّل ولم تخف أنفأ كما
وعدت سابقاً، ولم تتم بباطنها كما نقصت بظاهرها، ولم ترمز لغايتها كما
أفصحت لشاهدها لكانت الحكمةُ مبتورةً، والقُدْرَةُ مقصورةً، والجوُدُ
مَشُوباً^(٣٩٠)، والكرَمُ مروباً^(٣٩١)، واليأسُ واقعاً، والخبيَّةُ غالبَةً، والرَّجاءُ ضائعاً،
ومعاذ الله من ذلك.

(٣٩٠) . المشوب: من الشوب، وهو العسل.

(٣٩١) . المروب من الروب، وهو اللبن الرائب، والعرب تقول: ما عندي شوب ولا روب، ومن أمثالهم في الذي

يخطئ ويصيب: هو يشوب ويروب.

بل لَمَا كَانَ مَبْدَأَ السَّبَاعِ وَالبِهَائِمِ مَخَالِفًا لِمَبْدَأِ الْإِنْسَانِ بِالصُّورَةِ الْمَشَاهِدَةِ
بِالْعَيْنِ وَالصُّورَةِ الْمُدْرَكَةِ بِالعَقْلِ كَانَ الْإِنْسَانُ مَخَالِفًا لِمُنْتَهَى البِهَائِمِ وَالسَّبَاعِ
بِالاعتبارِ الْمستفادِ مِنَ العَقْلِ، وَالتَّمييزِ الْحَاكِمِ بِالأولى وَالأخرى، وَالرَّأْيِ الْمصْفَى
مِنَ الهوى.

العَيْشُ الْعَقْلِيُّ

قال سقراط: نَحْنُ نعيش عيشاً طَبِيعِيًّا كِي نعيشَ عيشاً عَقْلِيًّا. فإذا كان
العَيْشُ الطَبِيعِيُّ إِنَّمَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلعَيْشِ الْعَقْلِيِّ فَلَا نَعْطِي القُوَّةَ الطَبِيعِيَّةَ شَيْئاً أَكْثَرَ
مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ وَالضَّرُورَةُ.

وهذا الذي قاله هذا الفاضلُ بَيِّنٌ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ التَّفْسِيرِ وَقد نَصَّرَ مَا
تَرَدَّدَ الخُطَابُ فِيهِ، وَتَأَلَّفَ القَوْلُ عَلَيْهِ، وَسَارَتِ العِبَارَةُ الصَّرِيحَةُ وَالإِشَارَةُ الكُلِّيَّةُ
نَحْوَهُ.

الخَوْفُ مِنَ المَوْتِ

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ رِفَاعَةَ^(٣٩٢) لِتَلْمِيذِهِ: لَا تَخَفْ مَوْتَ البَدَنِ، وَلَكِنْ يَجِبُ
عَلَيْكَ أَنْ تَخَافَ مَوْتَ النَّفْسِ.

فَقَالَ تَلْمِيذُهُ: لِمَ قُلْتَ: خَافُوا مَوْتَ النَّفْسِ، وَالنَّفْسُ النَّاطِقَةُ لَا تَمُوتُ
عِنْدَكَ.

فَقَالَ: إِذَا انْتَقَلَتِ النَّاطِقَةُ مِنْ حَدِّ النُّطْقِ إِلَى حَدِّ البِهَيْمِيِّ، وَإِنْ كَانَ
جَوْهَرُهَا لَا يَبْطُلُ فَإِنَّهَا قَدْ مَاتَتْ مِنَ العَيْشِ الْعَقْلِيِّ.

(٣٩٢) - هُوَ زَيْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ رِفَاعَةَ أَبُو الْخَيْرِ الْهَاشِمِيُّ، مِنْ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ. عَاشَ فِي الرِّيِّ وَالبَصْرَةِ،
تَبَحَّرَ فِي مَعْظَمِ عُلُومِ عَصْرِهِ وَفَنُونِهِ، تَوَفِّيَ بَعْدَ سَنَةِ ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م.

تعليق السجستاني على موت النفس

قَالَ أَبُو سَلِيمَانَ: صَدَقَ هَذَا السَّيِّدُ، لِأَنَّ النَّفْسَ كَمَا تَسْتَنِيرُ بِالْمَعَارِفِ الصَّحِيحَةِ وَالْعَقَائِدِ الْيَقِينِيَّةِ، وَالْحَرَكَاتِ الْمَعْتَدَلَةِ، وَالْفِعَالِ الْوَاجِبَةِ كَذَلِكَ تَصْدَأُ وَتُظْلَمُ وَتَثْوِي بِالْجَهَالَاتِ الرَّكَدَةِ، وَالْآرَاءِ الْفَاسِدَةِ، وَالْحَرَكَاتِ الْمَخْتَلِطَةِ، وَالْأَعْمَالِ الشَّنِيئَةِ^(٣٩٣)، وَالْحَالَاتَانِ فِي طَرَفَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ وَليْسَ الصَّدَى كَالْمَجْلُوِّ، وَلَا الطَّلَعُ كَالْغَارِبِ، وَلَا الْوَجْهَ كَالْقَفَا، وَلَا الْعَالِي كَالسَّافِلِ؛ الْأُمُورُ مُوزَوْنَةٌ، وَالْمَثَالُ وَاضِحٌ، وَالْقِيَاسُ صَدُوقٌ، وَالْإِعْتِبَارُ حَقٌّ، وَالتَّقْصِيرُ وَبَالٌ، وَالهُوَيْنَاءُ سَفَةٌ، وَالْإِحْتِيَاطُ مَحْمُودٌ، وَالْمُسْتَظْهَرُ مَغْبُوطٌ، وَالرَّاعِبُ إِلَى الْفَانِي فَانٍ، وَالرَّاعِبُ فِي الْبَقَاءِ بَاقٍ، وَمَنْ طَلَبَ وَجَدَ، وَمَنْ جَبُنَ اسْتَنَجَدَ.

الْحَيَاةُ الطَّبِيعِيَّةُ وَالْحَيَاةُ النَّفْسِيَّةُ

قَالَ سَوِيقْلِسُ^(٣٩٤): إِنَّ الَّذِي لَا يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ حَيَاةً طَبِيعِيَّةً فَقَطُّ فَهُوَ شَقِيٌّ. وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الطَّبِيعِيَّةَ شَبِيهَةٌ بِالظِّلِّ الرَّائِلِ، وَالنَّبَاتِ السَّرِيعِ الْجُفُوفِ، وَبِقَاءِ صَاحِبِهَا عَلَى الْأَرْضِ قَلِيلٌ يَسِيرٌ بِسِيرَةِ الْبَهَائِمِ، فَأَمَّا الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ مَعَ ذَلِكَ حَيَاةً نَفْسِيَّةً يَغْدُوهَا بِالنُّطْقِ فَإِنَّهُ غَيْرُ مَائِتٍ، وَهُوَ مَغْبُوطٌ بَاقٍ يَقْتَدِي بِأَفْعَالِهِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الخروج من الدنيا

قَالَ أَفْلَاطُونُ: لِيَتَكُنْ مَبَادِرْتُكُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا كِمَبَادِرْتِكُمْ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْوَلِيمَةِ إِلَى أَهَالِيكُمْ.

(٣٩٣) - الشَّنِيئَةُ: الْبَغِضَةُ.

(٣٩٤) - سَوِيقْلِسُ: سَوِيفُوكْلَيْسُ، مِنْ أَشْهُرِ كِتَابِ الْمَسْرُوحَةِ الْيُونَانِ، لَهُ مَسْرُوحَاتٌ كَثِيرَةٌ أَشْهُرُهَا: أَوْدَيْبُ مَلِكًا، أَوْدَيْبُ فِي كُولُونِ، الْكُتْرَا، ثُمَّ: نِسَاءُ تَرَاحِيْسُ، أَنْتِيْجُونَةُ، أَجَاكْسُ، فِيلُوكْنِيْتِ، وَغَيْرُهَا.

هذا مثلاً صحيحٌ واضحٌ ولو قال: لتكن مبادرتكم إلى الخروج من الدنيا كمبادرتكم في الخروج من السجن إلى أحببتكم في الجنان الملتقّة، والحدائق المونقة لكان أبلغ، وفي الحقيقة أوغل.

الموت موتان

وقال أفلاطون: الموت موتان؛ موتٌ إراديٌّ وموتٌ طبيعيٌّ فمن أمات نفسه موتاً إرادياً، كان موته الطبيعيُّ حياةً له.

هذا أيضاً في غاية الظهور، ونزيده نُوراً بالعطفِ عليه، فإنَّ الكلام يكون تارةً خافياً، وتارةً في غاية الخفاء، أشدُّ من الحاجة إلى ما هو في أوّل الظهور، وهذا كشعاع الشّمس لما كان في غاية الظهور والانتشار كان صعب المدرك، وما هكذا القمر، فإنّه إذا كان دون ذلك أمكن إدراكه، ويستريح النَّظر فيه. فبهذا العُدْر نجسر على تفسير ما هو ظاهر بما هو أظهر منه، أو على تفسير ما هو أظهر بما هو اعدل منه أي أقرب إلى الفهم، وألوط^(٣٩٥) بالدّهن، وأقرب منالاً من العقل. فنقول:

الموتُ الإراديُّ هو قمعُ الشّهواتِ المرديّة، وإخماد نيرانها المحرقة، وتسكين سوانحها المتلّفة، ونفي نوازيتها الجامحة. فهذه الحالة تفرغ النَّفسَ العاقلة لاقتناء كمالاتها الإلهيّة، وإفاضة حركاتها العدليّة، وإبراز سكناتها الكماليّة، فأما إذا كانت الشّهواتُ واقدة، واللذات مطلوبة، والعادات غالبية، فإنَّ النَّفسَ العاقلة إما أن تكون ذليلةً في مكائنها، أو مهزومةً عن أوطانها، أو في حرب دائرة الرّحى، مخوفة العاقبة والمنتهى. وأما الموت الطبيعيُّ فهو غير مشكوك فيه لأنّه حائلٌ

(٣٩٥). ألوط: ألسق.

الأخلاق، ذو قُوَّةٍ متناهيةٍ، والأخلاق مقاديرها محدودةٌ، والدَّوْبَانِ والسَّيْلَانِ
يعملان عليها في الجملة والتفصيل والزَّمان بتصاريفه بمدِّ الفناء، وتحْيُفُ البقاء
حَتَّى يكون آخر ذلك بالفراق الحسِّي. لكن بهذا الفراق الحسِّي يقع ذلك
الوصال العقليُّ. فهذا هذا.

وأما قوله: فَمَنْ أَمَاتَ نَفْسَهُ فَيَأْتِيهَا أَرَادَ النَّفْسَ الشَّهْوِيَّةَ، فلا تغلط في الاسم إذا
شابه الاسم، فالأسماء قد تقترن في مواضع ومعانيها مفترقةً، والمعاني قد تنتظم في
أماكن وأسمائها منتشرةً، ولهذا احتيج إلى الآلة المنطقيَّة والأمثلة القياسية في الأمور
الجزئية.

وأما قوله: كان موته الطَّبيعيُّ حياةً له فقد تَقَدَّمتْ شهادة الحقِّ في طيِّ
ما سَلَفَ من الشَّرح.

إِمَاتَةُ الشَّهَوَاتِ

وقال ديمقراطيس^(٣٩٦): أَمِتِ الشَّهَوَاتِ فِي النَّفْسِ، وَلَا تُمِتِ النَّفْسَ فِي
الشَّهَوَاتِ، فَإِنَّكَ إِذَا أَمِتَّ الشَّهَوَاتِ فِيهَا فَقَدْ أَلْقَيْتَهَا فِي الشَّهَوَاتِ وَإِذَا أَمِتَّهَا
فِي الشَّهَوَاتِ فَقَدْ حَرَمْتَهَا الشَّهَوَاتِ.

يريد بذلك أَنَّكَ إِذَا حَرَمْتَهَا حَظُوظَهَا الْعَاجِلَةَ فَقَدْ وَهَبْتَ لَهَا حَظُوظَهَا
الْأَجَلَةَ، وَإِذَا غَمَسْتَهَا فِي حَظُوظَهَا الْعَاجِلَةَ فَقَدْ حُلَّتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَظُوظَهَا
الْأَجَلَةَ وَهَذَا وَاضِحٌ.

وقال فيثاغورس^(٣٩٧): النَّفْسُ بَحْرُ الشَّهَوَاتِ، وَالْعَقْلُ بَحْرُ النِّجَاةِ،
وَالْحِكْمَةُ بَحْرُ الْخَيْرَاتِ، وَالْجَهْلُ بَحْرُ الضَّلَالَاتِ؛ وَالْمَوْتُ بَحْرُ الْحَيَاةِ.

(٣٩٦) . ديمقراطيس أو ديموقريطس: فيلسوف يوناني (٤٦٠ ق.م. - ٣٧٠ ق.م.) اشتهر بفلسفته الذرية، من كتبه:
فيثاغورس، في جهنم، في الفضيلة، في الأفلاك، في طبيعة الإنسان، مسائل في السماء.

المَوْتُ بَيْنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ

وقيل لدوفنطس: ما تقول في الموت أَخَيْرٌ هو أو شَرٌّ؟

فقال: أيُّ خير في فرقة الأحباب، وذوي المودَّات لولا الفلْكُ من الأسر،
والرَّاحة من الجبر والكسر.

وقيل لنقوماخوس^(٣٩٨) ذلك فقال: نَعَم المأْبُ لولا فُرْقَةُ الأحباب وما
تتوعَّدنا [به] الآلهة من العذاب.

هذه إشارةٌ إلى سُوءِ العاقبة الذي كسبه بسوء الاختيار. واسم الآلهة ها
هنا مستعارٌ.

وسمعتُ بعضَ الزهَّادِ عند موتِهِ يقولُ وقد نَظَرَ في وجودِ أصدقائه وأصحابه
وهم عند رأسه: ما أشدَّ مفارقةَ الأصدقاء.

فقلتُ له: إن كنتَ على ثِقَةٍ من القُدومِ على أصدقائك الذين قَدَّمْتهم
فلا تأسفُ على أصدقائك الذين حَلَفْتهم، وإن كنتَ على غيرِ ثِقَةٍ فلا تأسفُ
وأمضُضْ نفسك بالأسفِ عليها فقد فاتتكَ وقتٌ بفوتها.

وقال انكاساغورس^(٣٩٩): كما أنَّ الموتَ رديءٌ لمن الحياةُ جيِّدةٌ له،
فكذلك هو جيِّدٌ لمن الحياةُ له رديئةٌ، فليس ينبغي أن يُقال: إنَّ الموتَ رديءٌ

(٣٩٧) . فيثاغورس: فيلسوف يوناني اشتهر بفلسفته الرياضية والصوفية، وبنظرياته الرياضية، ولد سنة ٥٧٠ ق.م
وتوفي سنة ٥٠٠ ق.م.

(٣٩٨) . نقوماخوس أو نيقوماخوس: والد أرسطو الفيلسوف اليوناني الأشهر، كان طبيباً للملك آمنتاس كلك
مقدونيا.

(٣٩٩) . انكاساغورس أو أناكسجوراس: فيلسوف يوناني، اشتهر بفلسفته الذرية التي مثل انتداداً لها، فأنكر
الصلوورة المطلقة التي تحول الكون تحولاً مستمراً من الوجود إلى الوجود، ومن اللاوجود إلى الوجود، ولد
نحو سنة ٥٠٠ ق.م.

فَقَطُّ بِلِ حَيْدٌ أَيْضاً، لَا بَلٌ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: الْمَوْتُ لَيْسَ حَيْدًا وَلَا رَدِيئًا لَكِنَّهُ
بِالإِضَافَةِ إِلَى شَيْءٍ مَا يَكُونُ حَيْدًا أَوْ رَدِيئًا.

النُّفُوسُ وَالْأَبْدَانُ

وَقَالَ فُوثَاغُورَسٌ: إِنَّ آثَارَ الطَّبِيعَةِ فِي هَذَا الْعَالَمِ قَدْ زُمِرَتْ بِظَاهِرِهَا رَمزًا
بَعْدَ رَمزٍ لِيَلخَصَ باطن ما في هذا العالم الذي هو قبالة ذلك العالم. فمن تلك
الآثار أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَمْ تُخْرِجْ أَشْخَاصَ نَوْعِ الْإِنْسَانِ كَامِلَةَ الأَعْضَاءِ، صَحِيحَةَ
الآلاتِ، بَلْ مِنْهَا الشَّخْصُ التَّامُّ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ ذَا لِسَانٍ وَعَيْنَيْنِ وَيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ
وَسَائِرِ مَا يَتِمُّ بِهِ الْبَدَنُ وَيَقْدَرُ عَلَى مَنَافِعِهِ الْحَاضِرَةِ وَالْغَائِبَةِ، وَمِنْهَا الشَّخْصُ
الْمَشْوُوهُ النَّاقِصُ كِإِنْسَانٍ لَا يَدَ لَهُ وَلَا عَيْنَ أَمَامَ الْعَاهَاتِ الْمَعْرُوفَةِ وَالْآفَاتِ
الْمَعْهُودَةِ.

وَكَمَا أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ ظَاهِرٌ فِي أَشْخَاصِ هَذَا النَّوعِ كَذَلِكَ الْحُكْمُ وَاضِحٌ
فِي نَفُوسِ هَذِهِ الْأَشْخَاصِ، أَعْنِي أَنَّ مِنْهَا النَّفْسَ الْفَاضِلَةَ، الْكَامِلَةَ، النَّقِيَّةَ،
الْمَقْدَّسَةَ. وَمِنْهَا النَّفْسُ النَّاقِصَةُ، الْخَسِيسَةُ، الضَّعِيفَةُ، الْمُدْنَسَةُ. وَمِنْهَا النَّفْسُ
الْمَتَوَسِّطَةُ. هَكَذَا يُمْكِنُ أَنْ نَبْعَثَ بَعْدَهُ. وَكَمَا أَنَّ الْأَشْخَاصَ الَّتِي عَدِمَتْ هَذِهِ
الآلاتِ الَّتِي بِهَا تَتِمُّ مَنَافِعُهَا هَا هُنَا مَعْدَبَةٌ، كَذَلِكَ الْأَنْفُسُ الشَّرِّيرَةُ أَحْوَالُهَا فِي
مَعَادِهَا وَمَنْقَلِبِهَا رَدِيئَةٌ.

السَّعَادَةُ وَالشَّقَاءُ

قَالَ أَبُو سَلِيمَانَ: وَهَذِهِ عِبَارَةٌ شَافِيَةٌ فِي الشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ؛ قَالَ: وَلَوْ أَنَّ
إِنْسَانًا قَالَ: إِنَّ الْعَمَى وَالْخَرَسَ أَوْ الزَّمَانَ أَوْ مَنْ أَشْبَهَهُ هُوَ لَاءِ شَقِيٍّ لَمْ يَبْعُدْ، وَإِنَّ
الْبَصِيرَ النَّاطِقَ الصَّحِيحَ السَّوِيَّ هُوَ سَعِيدٌ لَمْ يَبْعُدْ، كَذَلِكَ الَّذِي نَرَى أَنَّ الْعَالَمَ

الخَيْرِ الحَكِيمِ فِي المَعَادِ سَعِيدٍ، وَإِنِ الجَاهِلِ الشَّرِّيرِ السَّعِيدِ فِي المَعَادِ شَقِيٍّ لَمْ يَبْعُدْ
فَهَكَذَا أَيْضاً هَذَا.

طبقات الناس

قال أبو زكريا الصِّمِيرِي^(٤٠٠): طبقاتُ النَّاسِ مِنْ عَالِمٍ خَيْرٍ أَوْ عَالِمٍ
شَرِّيرٍ، أَوْ جَاهِلٍ خَيْرٍ أَوْ جَاهِلٍ شَرِّيرٍ. قال: وليس في القسمة أن يكون العالم
لا خيراً ولا شراً، وأن يكون الجاهل لا خيراً ولا شراً قال: فهذه الأحوال
مَنْوُطَةٌ بِرِقَابِ أَهْلِهَا فِي الأَوَّلِ والآخِرِ، وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ أَي قَبْلَ المَوْتِ بِالحَيَاةِ
وَبَعْدَ المَوْتِ.

إبصار المعاد

قال عيسى بن زُرْعَةَ^(٤٠١): قالَ بعضُ أصحابنا مِنَ النَّصارَى مَنْ
تَفَلَّسَفَ وَتَقَشَّفَ وَتَرَهَّبَ: كَيْفَ يُبْصِرُ الإنسانُ مَعادَهُ بِعَيْنِ التَّقْهِ، وَعَقْلَهُ
مَسْتَأْسِرٍ فِي بِلادِ الشَّهْواتِ، وَأَمَلَهُ مَوْقُوفٍ عَلَى اجْتِنابِ اللَّذاتِ، وَسِيرَتَهُ
جاريةً عَلَى أَسْرِ العاداتِ، وَدِينَهُ مَسْتَهْلِكٌ بِضُرُوبِ الضَّلالاتِ، وَاللَّهُ لو انْسلَّ
مِنْ نَفْسِهِ الغَضُوبِ، وَمِنْ نَفْسِهِ المَرْغُوبِ، وَصارَ فِي باحَةِ الصَّفَاءِ، وَفِضائِ
الطَّهارةِ وَالسَّنَاءِ، لَكَانَ الإِلفَ الَّذِي نَشَأُ مِنْشَأَهُ، وَقَوِيَّ بِقَوْتِهِ، وَزادَ بِزِيادَتِهِ
وَشَرُفَ بِامْتِدادِهِ يُقْذِي عَيْنَهُ، وَيُدْمِي جَبِينَهُ، وَيَغْطِي عَلَيْهِ أَبْنَهُ، وَيَلْفَتُهُ عَنِ

(٤٠٠) . ذكره التوحيدى غير مرة في المقابسات بوصفه من أصحاب المجالس.

(٤٠١) . ابنُ زُرْعَةَ: هو أبو عليّ عيسى بن إسحاق بن زُرْعَةَ؛ عالمٌ بالفلسفة والمنطق، من نصارى بغداد، ترجم
عدّة مؤلفات إلى العربية. ولد ببغدا سنة ٣٧١هـ / ٩٨٢م وتوفي فيها سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م، بينما روى
القفطيُّ أنَّه توفيَّ سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٨م.

سُنَّتَهُ، وَيُرْزَلُ قَدَمَهُ فِي مَسْلَكِهِ، فَكَيْفَ وَهُوَ فِي الشَّهَوَاتِ مَنْغَمَسٌ وَفِي الشُّبُهَاتِ مُرْتَكِسٌ وَعَنِ الرِّيَاضَةِ نَائِمٌ، وَعَنِ النَّاصِحِ مُعْرَضٌ، وَعَلَى الْمُرْشِدِ مُعْتَرِضٌ وَإِلَى مَا يَضُرُّ جَانِحٌ، وَعَمَّا يَنْفَعُ نَازِحٌ.

قال أبو الخير الخمار^(٤٠٢): إِنَّمَا شَقَّ عَلَى الْإِنْسَانِ الْخُرُوجُ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ مِنْ نَاحِيَةِ تَرْكِيبِهِ الَّذِي كَانَ بِهِ مَوْجُوداً فِي عَالَمِ الْحَسِّ. وَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ بِالتَّرْكِيبِ كَانَ إِنْسَاناً، وَبِالْحِكْمَةِ كَانَ كَامِلاً عَلِمَ أَنَّ الْوَجُودَ الَّذِي كَانَ لَهُ بِالتَّرْكِيبِ كَانَ مُسْتَفَاداً مِنْ هَذَا الْبَسِيطِ، وَأَنَّ أَحَدَ الْوَجُودَيْنِ ظِلٌّ لِلْوَجُودِ الْآخَرَ، وَأَنَّ الظِّلَّ زَائِلٌ، وَالشَّخْصَ ثَابِتٌ، وَلَكِنْ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُحْسُ بِمَا بَيَقَى فِي النَّوعِ مِنْ بَعْدِهِ كَذَلِكَ لَا يُحْسُ بِمَا بَيَقَى فِي الْعَقْلِ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِلْفُ التَّرْكِيبِ يَحْدُ عَنْ الْاسْتِيحَاشِ مِنَ الْبَسِيطِ لِأَنَّهُ عَدَمٌ مَا يَنْظُرُ الْحَسَّ، أَعْنِي الْمَوْتَ، وَالْعَدَمَ كَوْنَهُ جَمَلَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ كَمَا شَقَّ عَلَى الْإِنْسَانِ النَّاقِصِ الثَّقَلَةَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، هَانَتْ عَلَى الْإِنْسَانِ الْفَاضِلِ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مُطَّلِعاً عَلَى الْغَيْبِ، مَنْقَطِعاً عَنِ الشَّهَادَةِ أَقْبَلَ عَلَى بَسِيطِهِ الَّذِي كَانَ غَرِيباً مِنْ تَرْكِيبِهِ وَعَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْحَالُ إِنَّمَا هِيَ تَحْيِيلُهُ تَرْكِيبَهُ الَّذِي وَرَثَهُ مِنَ الْهَيُولَى وَالصُّورَةِ إِلَى بَسِيطِهِ الَّذِي نَالَهُ مِنَ الصُّورَةِ، فَهَذَا الْعِرْفَانُ فِي هَذَا الْمَكَانِ مَسْكَنَةٌ لِلنَّفْسِ، وَمَصْرُفَةٌ لِلْقَلْبِ، وَمَجْلِبَةٌ لِلْأَنْسِ، وَهَاهُنَا يَحْدُثُ الشَّقُوقُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَإِلَى مَا أَعَدَّ لِلْعَارِفِينَ وَالْمُوحِّدِينَ لَهُ، وَالطَّالِبِينَ لِمَرْضَاتِهِ، وَالرَّاعِيْنَ فِي خِدْمَتِهِ، وَابْجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ وَالشَّائِمِينَ لَوَائِحِ مَا سَطَعَ مِنْ عِنْدِهِ.

(٤٠٢) . هو أبو الخير الحسن بن سوار بن بابا بن بجرم المعروف بابن الخمار البغدادي المنطقي.

غفلة القلوب

قال أبو سليمان: إنما أُتِيَ النَّاسُ فِي اضْطِرَابِ أَسْرَارِهِمْ عِنْدَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ
لِلْعَفْلَةِ الْجَاهِثَةِ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

فَقَالَ الْأَنْدَلِسِيُّ: مَا الْعَفْلَةُ؟

فَقَالَ: سَهُوُ الْفُرَادِ بِرُكَاكَةِ الْمِرْجَاحِ، وَبِلَادَةِ الطَّبَّاعِ.

ثُمَّ قَالَ: وَالْعَفْلَةُ فِي الْيَقِظَةِ بِإِزَاءِ الْخُلْمِ فِي النَّوْمِ، وَالْيَقِظَةُ فِي الْحِسِّ بِإِزَاءِ
الِاسْتِزْءَاءِ فِي الْعَقْلِ عَلَى نَوْعَيْنِ، فَأَحَدُ نَوْعِي الْيَقِظَةِ فِي الْحِسِّ أَنَّ صَاحِبَهَا
يَنْقُذُ فِي الْأُمُورِ الْحَسِّيَّةِ، وَيَتَوَعَّلُ فِيهَا بِمَكْرٍ وَدِهَاءٍ وَكَيْسٍ وَفِطَانَةٍ وَاحْتِيَالٍ، وَالنَّوْعُ
الْآخَرُ فِي الْيَقِظَةِ أَنَّ صَاحِبَهَا يُقْبَلُ عَلَى نَفْسِهِ وَجَوْهَرِهِ وَحَقِيقَتِهِ فَيَعْتَنِي بِمَعْرِفَتِهَا،
وَالْعِنَايَةُ بِهَا بِتَرْبِيَةِ الْعَقْلِ مِنْ حَرَكَاتٍ تَعْظُمُهَا بِالْعَدَالَةِ وَسُكُنَاتٍ تَنْبِرُهَا بِالسَّوَاءِ.
وَفِي الْجُمْلَةِ يَلْحِظُ عَوَالِي الْأُمُورِ، وَيَتَحَلَّى بِعَالِي الْخُلَاقِ، وَيَكُونُ فِي ظَاهِرِهِ
إِنْسَانًا مَجْهُودًا وَفِي بَاطِنِ ظَاهِرِهِ مَهْدَبًا زَكِيًّا، وَفِي ظَاهِرِ بَاطِنِهِ مَلَكًا كَرِيمًا. وَهَذَا تَمَثِيلٌ
عَلَى تَقْرِيْبِ، وَاللَّفْظُ ظُلُومٌ، وَالْعِبَارَةُ فُتَّانَةٌ، إِمَّا تَضَعُ إِلَى التَّقْصِ الْمَتَحِيْفِ، وَإِمَّا تَرْفَعُ
إِلَى الزِّيَادَةِ الْمُهْسِدَةِ.

الاستضاءة بالعقل

وَأَمَّا أَحَدُ نَوْعِي الْاسْتِزْءَاءِ فِي الْعَقْلِ فَهُوَ مَا يَحْصُلُ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الْمُعْنِي
بِخَاصَّةِ نَفْسِهِ، الْمُعَانِ عَلَى الْاِقْتِبَاسِ بِعَقْلِهِ، الْقَاصِدُ إِلَى اِقْتِبَاسِ حَيَاتِهِ الدَّائِمَةِ مِنْ
حَيَاتِهِ الْمَيْتَةِ الْمُنْقَطِعَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا؟ وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يِقْتَبَسَ حَيَاةَ دَائِمَةً مِنْ حَيَاةِ

مُنْقَطِعَةٍ؟

فهذا أوّل غفلتك، وأجنى جانٍ عليك. أنت قد تشعل سراجك من سراج
آخر قد أشفى على الانطفاء، فَيَتَّصِلُ الثَّانِي وينقطع الأوّل.
فإن قلت إن هذا الثَّانِي إذا اشتعل فهو أيضاً إلى الخمود، فاعلم أنّ ذلك إمّا
هو كذلك لأنك نَقَلْتَ شيئاً من زمانٍ إلى زمانٍ الحقّ متشابهه حكماً بما فيه، وهذا
التَّشابه لا يعاند الحكم الأوّل أعني أَنَّهُ إن زَهَرَ السَّرَاجُ^(٤٠٣) الثَّانِي باشتعاله من
الأوّل الخامد. فأما المقتبس لحياته الدَّائمة من حياته المنقطعة فإنّه يسير من حياة
زمانية إلى حياة دهريةً بدليل أنّ الزَّمان خلفية الدَّهر، فما كان محفوظ العين
بالزَّمان كان محفوظ العين بالدَّهر، لا فاصلة بين الزَّمان والدَّهر، لأنّ آخر الزَّمانِ
موصولٌ بأوّل الدَّهر؛ والدَّهرُ زمانٌ ولكن في هذا العالم. والزَّمانُ دهرٌ ولكن في
ذلك العالم. فلا تعجب من زمانيّ تحوّل دهرياً بالمشاهدة النَّفسية والمشاكلة الجوهريّة.
فالحياتان واحدة وإن توسَّطهما الموت. كما أنّ الشَّمسَ واحدة، وإن توسطتها
الأرض وأعني قرص الشَّمس، والشُّعاع المبسوط على الأرض.

ما يكمل به الإنسان

تَنفَسَ القول بما اعترض، وطال قليلاً ونرجع إلى فضّ ما كنا عليه ونقول:
وأما النَّوع الآخر فهو ما يكمل الإنسان كما لا عبارة لنا عنه في هذا الوطن، ولا
خبر عنه عند أحد من هذا النَّوع. وهذا هو الذي خلص من جميع ما دعا إليه
الأنبياء عليهم السلام، وحضّ عليه الحكماء، وتردّد بين تعريض في غاية الحلاوة،
وتصريح في نهاية الخطابة، وهاهنا نستغني عن كُليل دليلٍ وبرهانٍ، وعن كُليل قيلٍ
وقالٍ، لأنّ المطلوب يصير وجوداً، والملتمس يصير مدركاً، والمبتغى، يصير حاضراً،
فما أولانا بعد الإشراف على هذه السَّبيل الواضحة بالعقل، المسلوكة بالقصد أن

(٤٠٣). زَهَرَ السَّرَاجُ: أضاء.

نُنْفِقُ هذه الأيامَ اليسيرةَ القصيرةَ السَّاعاتِ، المحدودةَ المعدودةَ في طلبِ هذه المراتبِ العليَّةِ، والدَّرجاتِ الشَّرِيفةِ والأحوالِ الحَسَنَةِ الكريمةِ.

النَّاسُ فِي حَدِيثِ الْمَوْتِ

قال أبو سليمان: النَّاسُ فِي حَدِيثِ الْمَوْتِ ثَلَاثَةٌ، فَأَمَّا الْغَنِيُّ ذُو الْجِدَّةِ وَالْقُدْرَةُ وَالشَّرْوَةُ فَهُوَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ بِالْبَيِّنَةِ، وَفِي مَقَابِلَتِهِ الْفَقِيرُ الشَّقِيُّ السَّيِّئُ الْبَخْتِ الْمَحْرُومُ الْمَرْحُومُ. وَهَذَا عَلَى الضَّدِّ يَتَمَتَّى الْمَوْتُ.

وَالأَوَّلُ إِذَا يَكْرَهُهُ لِأَنَّهُ يَحِبُّ أَنْ يِنَالَ اللَّذَّةَ، وَيَغْرُقُ فِي الشَّهْوَةِ، وَيَسْتَمْتِعُ بِالنَّعْمَةِ، وَإِنْ كَانَتْ غَايَتُهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ الْكَلَالِ وَالْإِنْخِلَالَ وَالْإِنْقِطَاعِ.

وَالثَّانِي أَعْنِي الْفَقِيرَ إِذَا يَتَمَتَّى الْمَوْتَ لِيَتَخَلَّصَ مِنَ الْحَسْرَةِ الْخَانِقَةِ، وَالْحَرْقَةِ اللَّازِمَةِ، وَالْحَاجَةَ الْفَاضِحَةَ، وَالْأَسْفَ الرَّاتِبَ، وَالضَّجْرَ الْغَالِبَ، فَهَذَا عَلَى تَقَابُلِهِمَا مَنْقُوصَانِ مَنْحُوسَانِ قَدْ زَلَّأَ وَضَلَّأَ وَتَرَدَّدَا فِي الْهُوَّةِ السُّفْلَى وَمَا لِهَما نَاعِشٌ^(٤٠٤)، وَلَا نَاصِرٌ، وَلَا شَفِيقٌ، وَلَا نَاصِحٌ.

قال: فَأَمَّا الثَّالِثُ فَهُوَ الْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ وَثِقَ بِالْمَعَادِ، وَاطْمَأَنَّ إِلَى حُسْنِ الْمُنْقَلَبِ فَهُوَ يَدَّابُ فِي أَخَذِ الْعِتَادِ، وَإِعْدَادِ الرَّادِ لِلْحَيَاةِ الصَّافِيَةِ الَّتِي هِيَ فِي مَقَابِلَةِ الْحَيَاةِ الْكَادِرَةِ، وَيَكُونُ دَوُوبُهُ وَنَصْبُهُ عَلَى قَدْرِ اسْتِبْصَارِهِ وَشَوْقِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي وَزْنِ مَعْرِفَتِهِ بِاللَّهِ، وَمَطَالَعَتِهِ عَلَى حَسَبِ يَقِينِهِ فِي نَفْسِهِ، وَخَطَوَاتِهِ عَلَى اسْتِقَامَةِ صِرَاطِهِ، وَاجْتِهَادِهِ فِي مِثَالِ قَرَبِهِ، وَحَنِينِهِ يَتْلُو رُقِيَّتَهُ، وَرُقِيَّتُهُ فِي وَزْنِ صِفَائِهِ، وَهَذِهِ مَقَالَةٌ لَا تَلِجُ كُلُّ أُذُنٍ، وَصُوبٌ^(٤٠٥) لَا يَلِينُ بِهِ كُلُّ طِينٍ، وَعَيْنٌ

(٤٠٤) . ناعش: منعش.

(٤٠٥) . الصوب: نزول المطر.

لا يشرب منها كلُّ وارد، وترثم لا يطرب عليها كلُّ سامع، ولحن لا يفهمه كلُّ فطِن.

قال: وإِنَّمَا حَرَمْتَ هَذِهِ الْحِكْمَ لِأَنَّ النَّاسَ قَدْ مَلَكَتْهُمُ الطَّبِيعَةُ، وَخَدَعَتْهُمُ الْعَاجِلَةُ، وَقَمَرَهُمْ^(٤٠٦) الشَّبَابُ وَخَمَّرَهُمُ الشَّرَابُ، وَسَبَّاهُمُ الْهَوَى، وَتَحَكَّمَ فِيهِمُ الرَّدَى. وَلَا جَزَمَ، وَالْحَقُّ كَالْبَارِقِ فِي عَقُولِهِمْ، وَالْحِكْمَةُ كَاللَّعِقَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، لَا فِي دَرَجَاتِ الدِّيَانَةِ يَرْتَقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا بِنَصَائِحِ الْحِكْمِ يَتَنَفَّوْنَ مِنْ أَوْسَاحِ الشُّبْهَةِ وَالظَّنَّةِ.

وكانَ أبو سليمان إذا نَزَلَ هذا الوادي من القول قام خطيباً، فَبَدَأَ كُلَّ قَائِلٍ، وَسَبَقَ كُلَّ جَوَادٍ، وَاسْتَوَى عَلَى كُلِّ أَمْدٍ، وَأَنشَدَ أَبُو سُلَيْمَانَ قَوْلَ شَاعِرِهِمْ:

إِنَّمَا الْعَيْشُ فِي بَهِيمِيَّةٍ

اللَّذَّةِ لَا مَا يَقُولُهُ الْفَلَسَفِيُّ

حُكْمُ كَاسِ الْمُنُونِ أَنْ يَتَسَاوَى

فِي حَسَاهَا الْغَيْبِيُّ وَالْأَلْمَعِيُّ

وَيَصِيرُ الْغَيْبِيُّ تَحْتَ ثَرَى الْأَرْضِ

كَمَا صَارَ تَحْتَهَا اللَّوْدَعِيُّ

فَسَلِ الْأَرْضَ عَنْهُمَا أَنْ أزالَ

الشُّكَّ وَالشُّبْهَةَ السُّؤَالَ الْخَفِيَّ

(٤٠٦) . قامر الرجل يقامر مقامرة وقماراً: راهن..

فَقَالَ: هذا التَّمَطُّ مَفْسَدَةٌ للشَّبَابِ الأغرار، والذين ليست لهم بصيرةٌ في الأمور، وهم عبيد الاحساسات الوافدة بالعادات الفاسدة، والاعتقادات الرديئة بتلقين قرناء السوء، وقائل هذا قد عاندَ الدين، وخلع رِبْقَةَ^(٤٠٧) الحياء، وأفصح عن الفساد، وصدَّ عن الحكمة، وقدَحَ بزِنْدِ الشُّبْهَةِ في النُّفوسِ الضَّعِيفَةِ، والعقول الخفيفة.

وهم التساوي

يا مَسْكِينُ! أَمِنْ أَجْلِ أَنَّ الصَّالِحَ وَالطَّالِحَ وَالجاهِلَ صاروا تحت التُّرابِ يتساوون في العاقبة؟ أَمَا تساوى قومٌ سافروا من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ فَلَمَّا بلغوا المقصد نَزَلَ كُلُّ واحدٍ في مكانٍ كانَ معدًّا له. وتُلَقِّيَ بغير ما تُلْقِي به صاحبه؟ أَمَا دَخَلَ قومٌ داراً فَأَجْلَسَ كُلُّ واحدٍ منهم في بقعةٍ بعينها وقوبل هذا بشيء، وهذا بشيء آخر ثُمَّ تَقُول: سَلِ الأَرْضَ عنهما!

قد سألنا وخبرنا أنها ضُمَّت أجسادهم وجثثهم وأبدانهم لا كفرهم وإيمانهم، ولا أنسابهم وأحسابهم، ولا حكمتهم وسفهمهم، ولا طاعتهم ومعصيتهم، ولا أقوالهم وأفعالهم، ولا يقينهم وشكهم، ولا زهادتهم وتسبيحهم، ولا معرفتهم وتوحيدهم، ولا خيرهم وشرهم. ولا جورهم وعدلهم. والمنقلب إلى المعاد موقوفٌ على هذه الحالات التي عددناها وعلى أمثالها وإن لم نعدّها على الجثث البالية، والأبدان المتحلّلة، واللحوم المنتنة، والشحوم الدّائبة، والمهل^(٤٠٨) الجاري، وهذا كُلُّه خبرٌ عن الأصداف، فأين الخبرُ عن

(٤٠٧) . الرِّبْقَةُ: الحبلُ والحلقة تشدّ بها الغنم الصغار لئلا ترضع، وجمعها أرباق ورباق وريق، ومنها استعيرت الريقة للعهد، فنقول: خلع الريقة: نكث بالعهد.

(٤٠٨) . المهل (بفتح الميم وتسكين الهاء): ما ذاب من معدن أو نحوه، وكذلك: القيح والصديد، والمهلة، والمهل

الدُّرَرِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْأَصْدَافِ؟ وَأَيْنَ الْأَعْلَافِ مِنَ الْحَقَاقِ، وَأَيْنَ الْأَمْتَعَةِ مِنَ الْأَوْعِيَةِ، وَأَيْنَ اللَّطَائِفِ مِنَ الْكُثَائِفِ؟ وَأَيْنَ الْجَوَاهِرِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الْأَعْرَاضِ الْفَانِيَةِ؟

النَّاظِرُونَ نَوْعَانِ

ثُمَّ قَالَ: اعْلَمْ أَنَّ النَّاطِرَ فِي هَذَا الْكِتَابِ رَجُلَانِ: رَجُلٌ يَنْظُرُ إِلَى الْأَشْيَاءِ وَرَجُلٌ يَنْظُرُ فِي الْأَشْيَاءِ. فَالْأَوَّلُ يَحَارُ فِيهَا لِأَنَّ صُورَهَا وَأَشْكَالَهَا وَمَخَاطِطِهَا تَسْتَفْرِغُ ذَهَنَهُ، وَتَسْتَمْلِكُ حَسَّهُ، وَتَبَدَّدُ فِكْرَهُ فَلَا يَكُونُ لَهُ مِنْهَا ثَمَرَةٌ الْإِعْتِبَارِ، وَلَا زَبَدَةُ الْإِحْتِيَارِ، وَإِذَا فَقَدَ الْإِعْتِبَارَ فِي الْأَوَّلِ فَقَدَ فَائِدَةَ الْإِحْتِيَارِ فِي الثَّانِي، وَأَمَّا النَّاطِرُ فِي الْأَشْيَاءِ فَإِنَّهُ يَتَأَنَّى فِي نَظَرِهِ، وَتَأَنِّيهِ يَبْعَثُهُ عَلَى التَّصْفُحِ الْبَالِغِ، وَالتَّصْفُحِ الْبَالِغِ يُؤَدِّيهِ إِلَى تَمْيِيزِ الصَّحِيحِ مِنَ السَّقِيمِ، وَالْبَاقِي مِنَ الْفَانِي، وَالذَّائِمِ مِنَ الْعَارِضِ، وَمَا هُوَ قَشْرٌ مِمَّا هُوَ لُبٌّ، وَمَا هُوَ شَعَارٌ مِمَّا هُوَ ذِتَارٌ، وَمَا هُوَ شَجَرَةٌ مِمَّا هُوَ ثَمَرَةٌ، فَيَعْلَمُ حِينَئِذٍ أَنَّ الدُّنْيَا قَشْرَةُ الْآخِرَةِ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ لُبُّ الدُّنْيَا، وَأَنَّ الْمَوْتَ صِرَاطٌ إِلَيْهَا، وَالْعَابِرَ عَلَى الصِّرَاطِ حَرِيٌّ بِجَمْعِ الزَّادِ وَتَمْهِيدِ الْمَهَادِ، وَأَنَّ نَشَأَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ لَمْ يَكُنِ الْإِسْتِيطَانُ وَالْخَلُودُ، وَلَكِنْ لِلْجَوَازِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ يَصْلِحُ لِلْمَقَامِ وَالتَّبَوُّعِ وَالتَّمْهِيدِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِلَى ذَلِكَ دَعِيَ بِكُلِّ لُغَةٍ وَبِكُلِّ لَطِيفَةٍ. فَمَنْ أَطَاعَ وَأَجَابَ فَقَدْ هَدِيَ إِلَى سِوَاءِ الصِّرَاطِ، وَمَنْ أَبَى فَقَدْ تَرَدَّى فِي هَوَّةِ الْعَذَابِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْإِجَابَةِ إِلَّا بَعْدَ رَفْضِ كُلِّ مَا خَدَعَ النَّفْسَ، وَخَبَلَ الْعَقْلَ، وَأَضَلَّ الرَّأْيَ، وَزَيَّنَ الْعَاجِلَةَ، وَطَرَحَ التُّهْمَةَ فِي الْآجِلَةِ، وَكَانَ يَنْشُدُ كَثِيرًا:

(بفتح الميم وبضمها): صديد الميت.

النَّفْسُ تَشْتَأِقُ إِلَى قُدْسِهَا

وَالجِسْمُ مَطْبُوعٌ عَلَى حَبْسِهَا

وَفِعْلُهَا يَخْرُجُ عَنْ حَدِّهِ

لِإِلْفِهَا مَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهَا

وَحَبْسُهَا فِي السُّفْلِ مِنْ جِنْسِهَا

وَحَبْسُهَا فِي السُّفْلِ مِنْ عُلوِّهَا

أَدَلُّ بُرْهَانٍ عَلَى بَخْسِهَا

فهذا هذا، وعلى كلِّ حالٍ وبكلِّ نظرٍ، فقد بانَ ووضحَ أنَّ الظَّنَّ عن هذا المكانِ ضروريٌّ، وأنَّ النِّيَّةَ غيرَ محتملةٍ لِلْبَثِّ لِأُمُورٍ باديةٍ وخافيةٍ، فينبغي الآن أن نصدِّقَ البحثَ عن المصيرِ إلى الثَّاني، أهو إلى البقاءِ أو إلى الفناء، وإلى الوجودِ أو إلى العَدَمِ، وإلى الكمالِ أو إلى النُّقصانِ. أمَّا لسانَ كلِّ دينٍ قديمٍ أو حديثٍ فقد أفصحَ عن البقاءِ والدَّوامِ والخلودِ السَّرْمَدِ فِي الثَّاني على اختلافِ الحالاتِ، وأمَّا الحكمةُ فبجميعِ أجزائها وفنونها قد نطقتْ ونادت إلى الحياةِ الثَّانيةِ بعد هذه الحياةِ المعروفةِ، ولم يبقَ وراءَ هذين اللسانينِ البليغينِ إلَّا ما يهذي به ناسٌ سَخَفَتْ عقولهم، وخفَّت أحلامهم، وزاغت آراؤهم، وغلبت أهواؤهم، وقصُرَ نظرهم، وخبُثت طباعهم فشقَّ عليهم الإقرارُ بالمعادِ والمنقلبِ وظنُّوا أنَّه متى لم تكن هذه الحالِ عياناً أو كالعيانِ فإنَّما هو ظنٌّ وتخيُّلٌ وحسبانٌ.

اختلاط الأمور لولا العقل

قَالَ: ولو كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا زَعَمُوا لَمْ يُخْتَجَّ إِلَى الْعَقْلِ وَبِحِثِّهِ، وَالنَّظَرِ وَاسْتِنْبَاطِهِ وَالِاعْتِبَارِ وَتَمَثِيلِهِ، وَكَانَ الشَّاهِدُ كَالْغَائِبِ، وَالْغَائِبُ كَالشَّاهِدِ، وَالظَّاهِرُ كَالْبَاطِنِ. وَالْبَاطِنُ كَالظَّاهِرِ، وَالْعَيْنُ كَالْأَثَرِ، وَالْأَثَرُ كَالْعَيْنِ، وَالرَّاجِمُ بِهَذَا الظَّنِّ مَغْرُورٌ، وَالْمَتَمَنِّي لِهَذِهِ الْحَالِ مَرْحُومٌ. وَلَا فَرْقَ بَيْنَ هَذَا التَّمَنِّيِّ وَبَيْنَ مَنْ تَمَنَّى أَنْ تَكُونَ جَوَاهِرُ الْبَحْرِ كُلُّهَا طَافِيَةً عَلَى سَاحِلِهِ حَتَّى يُكْفَى مَوْوَنَةَ الْغَوْصِ فِي قَعْرِهِ، وَذَهَبُ الْأَرْضِ كُلُّهُ مَوْضُوعًا عَلَى حَدِيدِهَا حَتَّى يُكْفَى الْعِنَاءَ فِي اسْتِخْرَاجِهِ مِنْ مَعْدِنِهِ، وَتَكُونَ الْجِبَالُ كُلُّهَا مَدْكُوكَةً حَتَّى يُكْفَى مَشَقَّةَ صَعُودِهَا فِي حَوَائِجِهِ، وَتَكُونَ ثَمَارُ الْأَشْجَارِ مَدْرُكَةً يَانِعَةً فِي كُلِّ أَوَانٍ وَمَكَانٍ حَتَّى يُكْفَى التَّعَبَ وَالسَّقْيَ وَالْغَرَسَ وَالِانْتِظَارَ.

وَعَلَى هَذَا بَابُ التَّمَنِّيِّ لَا قِفْلَ عَلَيْهِ وَلَا حَائِلَ دُونِهِ. وَأَمَّا اللَّيْبُ صَاحِبُ الْحَزْمِ الْمَصِيبِ فَهُوَ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى الْعَالَمِ نَظْرًا بَالِغًا صَحِيحًا تَامًّا وَلَا يَعْكُسُهُ عَمَّا هُوَ بِهِ، وَلَا يَنْكَسُهُ إِلَى مَا لَيْسَ عَلَيْهِ، وَيَأْخُذُ مِنْهُ شَهَادَةٌ فِي شَيْءٍ سَمِّيَ بِمَعُونَةِ الْعَقْلِ النَّيِّرِ ذِي الشُّعَاعِ الْمُنْتَشِرِ الَّذِي فَضَّلَ بِهِ عَلَى الْجِنْسِ الَّذِي هُوَ مِنْهُ وَعَلَى كَثِيرٍ مِنْ نَوْعِهِ الَّذِي هُوَ بِهِ حَتَّى يَنْكَشِفَ لَهُ بِالْعَقْلِ مَا هُوَ مَلْبُوسٌ بِالْحَسِّ، وَيَتَّضِعُ لَهُ بِالْحَسِّ مَا هُوَ غَامُضٌ بِالْعَقْلِ، وَيَشْهَدُ لَهُ الذَّهْنُ بِمَا هُوَ مَجْهُودٌ بِالظَّنِّ، وَيَنْصَحُهُ الْإِدْرَاكُ فِيمَا هُوَ مَغْشُوشٌ بِالْوَهْمِ، وَيَقْرِبُهُ الْيَقِينُ مِمَّا يَبَاعِدُهُ الشُّكُّ ثُمَّ لَا يَبْقَى أَثَرٌ لِلتَّسْوُلِ وَالتَّضْلِيلِ إِلَّا مَحْوًا وَلَا كَدْرٌ فِي طَلْبِ الْمَعْتَقَدِ إِلَّا صَافِيًا، فَحَيْثُذُ يَصَادَفُ الْحَقُّ غَيْرَ مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَيَدْرِكُ الْمَرَادَ غَيْرَ مَرْتَابٍ بِهِ، وَيُوصِلُ إِلَى الْمَطْلُوبِ، وَاللَّبُّ رَخِيٌّ، وَالْمَشْرَبُ هَنِيٌّ، وَالثَّقَّةُ حَاصِلَةٌ،

والطمأنينة واصله، وقال من يتدرج إلى هذه الدرورة إلا بعد أن يكون وثيق العروة، صحيح البصيرة، قوي العزيمة، محكم الأصل، مرهف النصل، وهذا قليل، ومع قلته مأمول.

مآل النفس

وقلت يوماً لأبي سليمان: أنشدني جماعة من أهل الرِّي لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي^(٤٠٩) بيتين وهما:

لَعْمَرِي لَا أُدْرِي وَ قَدْ أَدْنُ الْبَلَى

بِعَاجِلِ تَرْحَالٍ إِلَى أَيْنَ حَالِي؟

وَ أَيْنَ مَكَانِ النَّفْسِ بَعْدَ خُرُوجِهِ

مِنَ الْهَيْكَلِ وَ الْجَسَدِ الْبَالِي

فَقَالَ: وما علينا من جهله إذا لم يدر إلى أين ترحاله، أما ترحالنا فيلى نعيم دائم، وخلود مُتَّصِلٍ، ومقام كَرِيمٍ، ومحل عَظِيمٍ في جوارٍ من له الخلق والأمر، وهو الأول بالحق والموجود بالضرورة، والمعروف بالفطرة، والمشتاق إليه في السرِّ والعلانية، والمفزوع إليه بكل إشارة وعبارة، والمشهود بكل سكون وحركة، والمستعان به عند كل نائبة وفادحة، والمعهود منه كل برٍّ وكرامة، الذي لا يسمح الخاطر إلا به، ولا تعنو^(٤١٠) النفس إلا له، ولا يسكن القلب إلا له، ولا يسكن القلب إلا معه، ولا يطمئن الفؤاد إلا بذكره، ولا يُدْرِكُ النَّجَاحَ إلا بتوفيقه، ولا يطرب إلا بنسيم لطفه، ولا يطرد أمد إلا بعناية، ولا يستقيم ذو أودٍ إلا برفقه، ولا يفي شاردٍ إلا بتألفه،

(٤٠٩). أبو بكر محمد بن زكريا الرازي: فيلسوف، غلبت عليه مهنة الطب وبه اشتهر، سمي جالينوس

العرب، برع في الموسيقى والرياضيات الفلك والكيمياء والمنطق والأدب ... ولد

سنة ٢٥٠هـ/٨٦٥م - ٣١٢هـ/٩٢٥م.

(٤١٠). العنو: الخضوع والطاعة.

ولا ينقاد مارداً إلا بتلطّفه، ولا يُسلك طريقاً إلا بهدأيته، ولا يُنجا من كربها إلا بكلاءته^(٤١١)، ولا يُتعجّب إلا من صنعه، ولا يُصاب برّد اليقين إلا بفضله، ولا يُتَهَنأ إلا بعطائه، ولا تُنال السعادة إلا باختصاصه، ولا يعرف نعت شيء إلا باقتصاصه، ولا يطرب إلا بترّم ذكره، ولا يُتبرّك في أمرٍ إلا بتقديم ذكره واسمه، ولا يُجاب بلدٍّ وعزٍّ إلا بدليله، ولا يعالج عسيراً إلا بتسهيله، ولا يقطع أمرٌ إلا بتقديره، ولا يدرك مأمولٌ إلا بتيسيره، ولا يستولي على الأمد إلا بطاعته، ولا يعتزُّ إلا بمعرفته، ولا يوثق إلا بكرمه، ولا يُحظى عنده إلا بتوحيده، هو الذي وهب الإحساس ليستمتع بنعمه، وكرّر الأنفاس حتى تُجال في أكناف ملكه، ومَنَحَ العقول حتى يُستضاء بنورها في تصفّح عالمه، وحشا الملكوت بالعجائب حتى يُجَارَ في قُدْرته، وأبرز أموراً حتى يُعترفَ بإلهيته، وغيّب أموراً حتى يكون مستبداً بربوبيته، فالجود ظاهرٌ بالموجود، والقُدرة جاريةٌ بالتصريف، والحكمة شائعةٌ بالنظام، والحاجة قائمةٌ إلى التوفيق، والثقة مستحكمةٌ بالكرم، والإيمان ثابتٌ في القلب، والمعرفة مريعةٌ^(٤١٢) في النفس، والتمجيد باللسان، والجوارح منصرفةٌ بالعبودية، والشوق حديدٌ إلى اللقاء.

فالحمدُ لله على ذلك كُلِّهِ بخالصِ عقيدةِ السرِّ وغايةِ قُوّةِ البشْرِ. فهذا

هذا.

وأما ترحالُ ابنِ زكريا فيلَى محلِّ الحيرة، ومطمأنَّ الحسرة، بحسب ما ضلَّ وأضلَّ، وهانَ وعزَّ واعتزَّ، لأنَّه خلَّق بالدَّعوى في كتبه حتى ظننا أنَّه ملك، وأسفَّ بالشكِّ حتى تيقنَّ أنَّه قد هلك والسَّلام.

(٤١١) . الكلاءة: الحفظ أو الرعاية أو الحراسة، من: كالأك الله كلاءة: حفظك ورعاك.

(٤١٢) . مريعة: خصبة وكثيرة.

قد أتينا على العَرَضِ في هذه الرِّسالة على ما تَقَدَّمَ الوعدُ به من شرح أصناف الحياة، وإضافة اللَمَعِ المضمومةِ إليه بقدرِ الوُسْعِ وأرجو أن يكون مكانه من نفس الحاثِّ على تصنيفه غير نابٍ، ورضاه عني فيه غير مُتَعَدِّرٍ، على أيِّ والله ما كتبه إلا بعدَ جُمُودِ الخاطر، وفلولِ الحدِّ، وعوزِ النَّشاطِ، فقد عَلَتِ السِّنُّ، ونَهَكَتِ الكِبَرُ، وانحنى الصلب، ودَوَى الفهم، وهَرِمَ الذَّهنُ، وغَلَبَ الوسواسُ، وأزِفَ الرَّحيلُ، وبَيَدِ اللهِ الفَرَجُ، وإليه المعراجُ والمعرجُ وعليه التَّوكيلُ.

نمت الرسالة والحمد لله وحده،

والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه آمين.

* * *

مرسالة
في بيان ثمرات العلوم

على الرُّغم من أوجه الفلاسفة المسلمين إلى التّوفيق بين الفلّسفة
والدين فقد أترّ كثيرُونَ نفّي أيّ صلةٍ بين الفلّسفة والدين، وقد
نَهَدَ التّوحيديُّ للردِّ على هذا الادّعاء وعلى من عاب المنطق ولم
يجدْ له مدخلاً في الفقه. إلى جانب تصنيف العلوم العربيّة
الإسلاميّة وتعريفاتٍ دقيقةٍ لها. نشرها أحمدُ فارسُ الشّدياقُ مع
«الصّدّاقة والصّدّيق» في كتاب: «رسالتان للعلامة الشّهير أبي
حيّان التّوحيدي» عام ١٨٨٤م. وقام مارك بيرجيه.
Marc Berge بتزجتها إلى الفرنسيّة، ونشرها بمعهد الدّراسات
الشّرقية بدمشق عام ١٩٦٣م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أطالَ اللهُ بقاءكم، وأدامَ كرامتكم وَحَرَسَ نِعْمَهُ عَلَيْكُمْ، وحفظ مواهبه لديكم،
ولا أخلاكُم من عوائدهِ الجسيمةِ، وفوائدهِ الكريمةِ.
وَجَعَلَ حَظَّ الغَريبِ السَّلامَةَ بينكم، إذا فاتته الغنيمَةُ منكم وقد كان
يقالُ:

مَنْ لَمْ يَغْضَبْ لِنَفْسِهِ ناصراً، لم يَغْضَبْ لِنَبِيِّ جَنسِهِ منتصراً. ومن لم
يَخِيفَ عندَ العَظيمةِ منتصفاً، لم يُرْجُ عندَ النَّوائِبِ مُسْعِفاً، ومن لم يَأْنفِ من
القذعِ^(٤١٣) في عَرِضِهِ آيأاً لم يَبْتَ عَلَيَّ الخسِفِ^(٤١٤) إلا راضياً.
فالغضبُ، وإن كان مدموماً عند بعض الخلال^(٤١٥)، فَإِنَّهُ محمودٌ في
بعض الأحوال، وكما أَنَّ استمرارَ العَظَبِ، في جميعِ الأحوالِ، نوعٌ من فسادِ
الأخلاقِ، كذلك أيضاً الرِّضا في جميعِ الأمورِ، ضَرَبٌ من ضروبِ النَّفاقِ، ولا
بُدَّ من التَّقَلُّبِ بين الرِّضا والغضبِ، كما أَنَّه لا بُدَّ من التَّرَدُّدِ بين الرَّاحةِ
والتَّعبِ.

(٤١٣) . القذع: الخنى والفحش، قَدَعَهُ يَقْدَعُهُ قَدْعاً وأقْدَعَهُ وأقْدَعُ له إقْداعاً: رماه بالفحش وأساء القول فيه.

(٤١٤) . الخسِف: سُؤخ (سيخان) الأرض بما عليها، وخسِف اللهُ به الأرض: أي غاب به فيها.

(٤١٥) . الخلال هنا جمع خِلَّة: صفة أو حال. والخلال الأثناء، والخِلَّة: الخمر عامَّة، وقيل ضروب محددة من الخمر.

وقد كنتُ أحبُّ لصديقي، وجليسي، ومن يأنسُ بمكاني، ألاَّ يجعل
اللَّجَاجَ مُطِيبَتَهُ، والمكرَ طَوِيبَتَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْسَنُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَزِينُ لَهُ عِنْدَ
النَّاسِ.

ومن بعدِ ذلك، فَإِنِّي لَمْ أُرِدْ بِلَادِكُمْ مِنَ الْعِرَاقِ مُبَاهِيًا لَكُمْ، وَلَا حَضْرَتُ
مَجَالِسِكُمْ طَاعِنًا فِيكُمْ؛ وَلَا تَأَخَّرْتُ عَنْكُمْ مَتَطَاوَلًا عَلَيْكُمْ، وَلَا تَتَّبَعْتُ مَسَاوِيكُمْ
شَامِتًا بِكُمْ، بَلْ وَرَدْتُ مُسْتَفِيدًا وَمُفِيدًا؛ وَمُبَاحِثًا وَمُسْتَزِيدًا.

فما هذا الذي بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِكُمْ، عَلَى حُسْنِ تَوْفُرِي عَلَى صَغِيرِكُمْ
وَكَبِيرِكُمْ؟ أَمَا إِنَّهُ لَوْ أَنْصَفَ لَعَلِمَ أَيُّيَّ إِلَى تَسْمُحِهِ أَحْوَجَ مِنِّي إِلَى تَصْفُحِهِ،
وهو، بِمَجَامِلَتِهِ، أَسْعَدَ مِنِّي بِمَجَادَلَتِهِ، وَأَنَا لِإِحْسَانِهِ أَشْكُرُ مِنِّي لِامْتِحَانِهِ. وهذا
بَابٌ بَاطِنُهُ ظَاهِرٌ، وشَاهِدُهُ حَاضِرٌ، وَخَفِيَّتُهُ جَلِيٌّ. وَلَكِنْ مَا أَصْنَعُ؟ وَالشَّاعِرُ
يقول:

* إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا *

ولعمري، ما زال النَّاسُ يَعْتَادُونَ التَّقَاذِفَ وَالتَّتَقَارُفَ^(٤١٦)، وَلَكِنْ كَانُوا يَرُونَ
التَّعَاسِفَ^(٤١٧) وَالتَّنَاصِفَ، وَلَا يَنْسَوْنَ بَيْنَهُمُ التَّعَاوُنَ وَالتَّوَاظُرَ^(٤١٨)، وَالتَّرَادُفَ^(٤١٩)
وَالتَّنَاصَرَ.

والذي هاجني لهذه الشكوى، وأحوجني إلى هذه العدو، قَوْلُ قَائِلٍ
منكم:

(٤١٦) . التتعارف من: القرف.

(٤١٧) . التعاسف من: العسف: الظلم.

(٤١٨) . التوازر من: الموازة، أي أن يؤازر بعضهم بعضاً، وهي الإعانة والتقوية على الأمر والآخر.

(٤١٩) . الردف: ما تبع الشيء، وكلُّ تبع شيئاً فهو ردفه، وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو: الترادف.

لَيْسَ لِلْمَنْطِقِ مَدْخَلٌ فِي الْفِقْهِ، وَلَا لِلْفَلَسَفَةِ اتِّصَالٌ بِالدِّينِ، وَلَا
لِلْحِكْمَةِ تَأْتِيرٌ فِي الْأَحْكَامِ.

وهذا كلامٌ من لو أنعمَ النَّظَرَ، واستقصى الحال، لَوَقَّفَ على ما
عليه فيه، وَعَرَفَ ما له منه، فكانَ يستبدلُ بالخلافِ وفاقاً، وبالمنازعةِ
خلاقاً^(٤٢٠).

عابَ هذا الرَّجُلُ المنطقَ، وهَجَّنَ طريقةَ الأوائلِ، وزرَى على الحكمةِ،
وقِيلَ^(٤٢١) رأْيُ النَّاطِرِ فيها، وَقَبَّحَ اختيارَ الباحثِ عنها. وهذا كُلهُ، وإن لم يكن
قَلَّةَ تحصيلٍ وسوءَ تمييزٍ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أن يكونَ ضَيْقَ عَطَنِ^(٤٢٢)، وخرج صدرٍ،
ومجازفةً في القولِ، وانحرافاً عن الصَّوابِ، وأمنأً من الأعقابِ.

الدَّلِيلُ على ذلك والبرهانُ فيه أَنَّهُ قد سَبَقَ في قضايا العقولِ الصَّحيحةِ،
وثبت في مقدِّماتِ البابِ الصَّريحَةِ؛ أَنَّ العِلْمَ أشرفُ من الجهلِ، بل لا شرف
للجهلِ، فيكونَ غيرُهُ أشرفَ منه، لأنَّ الجهلَ عَدَمٌ، هكذا قيل، والوجودُ أشرفُ
من العَدَمِ، والصَّحَّةُ أشرفُ من السَّقَمِ.

فإذا كان العلمُ شريفاً وأشرفَ من كلِّ شيءٍ فقد استوعبَ الجنسَ هذا
العمومَ، واشتملَ على الأصلِ والفرعِ هذا الإِطلاقُ لأنَّ العلمَ بالألفِ واللامِ لا
يختصُّ معلومَ، ولا مشاراً إليه دون مدلولٍ عليه. فقد دَخَلَ في هذا الطَّيِّ كلُّ ما
أنبأ عن شيءٍ، كان ذلك من قبيلِ الحسِّ عند مُصادمَتِهِ، أو من قبيلِ العقلِ عند
مُصادفَتِهِ.

(٤٢٠) . الخلاق: الحظ والنصيب والصلاح، ولعلها هنا من الاخلاوق: التجمع بعد الافتراق.

(٤٢١) . قِيلَ رأيه: قَبَّحَهُ وخطأه.

(٤٢٢) . العطن بالمجاز: السعة والقدرة.

وسأبيّنُ أصنافَ العلم، في هذا الموضع، على وجه الإيجاز، فإن استقصاءها لا تحويه هذه الرسالة، ولا يتسعُ له هذا الوقتُ على أنَّ شيوخ العلم وأربابَ الحكمةِ وفُرسانِ الأدبِ قد فرغوا من جميع ذلك، في كتبٍ مشهورةٍ، تشتملُ على آدابِ مأثورةٍ، مثلَ كتابِ أقسامِ العلوم، وكتابِ اقتصاصِ الفضائل، وكتابِ تسهيلِ سُبُلِ المعارف. فَمَنْ نَظَرَ في هذه الكتبِ عَرَفَ مَعَازِي الحكماءِ، ومرامي العلماءِ، وبان له في المشكَلِ دليلاً، ووضح عند الخصامِ احتجاجه، فحينئذٍ لا يُعادي ما جهل، ولا يناوئ مَنْ عَلم، ولا يستطيلُ على من عرف، ويعتقدُ ما في المداراةِ من الخير، وما في المماراةِ من الشرِّ.

الفقه

وأما الفقهُ فإنه دائرٌ بين الحلال والحرام، وبين اعتبارِ العِللِ في القضايا والحكّام، وبين الفَرَضِ والنافلةِ، وبين المحظورِ والمباح، وبين الواجبِ والمستحبِّ، وبين المحثوثِ عليه والمنزّه عنه.

الكتاب

وكلُّ ذلك موقوفٌ على ظاهرِ الكتابِ وباطنه، وتنزيله وتأويله، ومُحكّمه ومُتشابهه، وناسخه ومنسوخه؛ وتقديمه وتأخيره، وعُمومه وخُصُوصه، وإجماله

وتفسيره، وإطلاقه وتقييده، وجمعه وتوحيده، وكنايته وضميره، ومجازه وحقيقته، وتعريضه وتصريحه، وإشباعه وإشمامه^(٤٢٣)، ونصّه وأغراضه، ومفهومه وشرحه، وحذفه وزيادته، وإشارته وتوكيده، ووعدده ووعيدده، سوى أسرار تجلُّ عن أفهام الخلق.

فسبحانَ من أنزله مُحْكَمًا، وَجَعَلَهُ بين العباد حَكَمًا. ولذلك قال بعضُ السَّلَفِ:

القرآنُ فيه خَبْرٌ من بَعْدِكُمْ، وَحُكْمٌ ما بينكم. القويُّ يعجزُ عن معارضته، والعقولُ تَتَحَيَّرُ في عجائبه. لا يزلُّ الحقُّ عنه، ولا يعلو الباطلُ عليه.

السنة

والسُّنَّةُ، من بعده، تاليةٌ له . أعني الكتاب . في حُدُودِهِ ورُسُومِهِ، وأسمائِهِ ومعانيهِ، وأسبابِهِ وأغراضِهِ، على أَنَّ منها ما يُحدِثُ العلمَ إحداثًا، ومنها ما يُوجِبُ العَمَلَ إيجابًا. ولشائِعها حُكْمٌ ليس لمتواترها، ولوأحدها شأنٌ ليس لمشهورها، ولجموعها حالٌ ليس لمفردِها. وليس، في جميع عوارضها، أشدُّ من معرفةٍ صحيحها من سقيمها، وجائزها من مُحَالِها. والكلامُ في ذلك بينَ أهلها.

(٤٢٣) . الإشمام عكس الإشباع لأنَّه يعني في الأصل عدم الإشباع، وكذلك أخذ القليل.

القياس

ثُمَّ القياسُ، من بعدهما، أصلٌ يُعَوَّلُ عليه. وَرَكْنٌ يُسْتَنْدُ إليه، وَعُرْوَةٌ يُسْتَمْسَكُ بِهَا. وَالطَّاعِنُ فِيهِ يَعْلَمُهُ، وَإِنْ أَنْكَرَهُ، وَيَفْزَعُ إِلَيْهِ، وَإِنْ أَبَاهُ، وَلَا يَجِدُ مَحِيداً عَنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِقْ بِهِ. وَإِنَّمَا يَتَّفَرَّدُ بِهِ بِمَخْتَلَفِ أَلْفَاظٍ تُوَدِّيهِ إِلَى نَفْسِ القياسِ.

والذي يوحشُ منه، فسادُ بعضِهِ عند الاعتبار، وتوقُّفُهُ عن الاستمرار. وليسَ ذلكَ رافعاً لأصلِهِ، ولا قادحاً في حكمه. وما بنا حاجةً، في هذا الموضوع، إلى البيانِ عن صورته، وحالِ نافية. فَإِنَّهُ يَمِيلُ عَنِ سَنَنِ كَلَامِنَا، وَمُتَوَجِّهٍ غَرَضِنَا.

الكلام

وَأَمَّا عِلْمُ الكَلَامِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنَ الاعتبارِ فِي أصولِ الدِّينِ، يَدُورُ النَّظَرُ فِيهِ عَلَى مَحْضِ العَقْلِ، فِي التَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ، وَالإِحَالَةِ وَالتَّصْحِيحِ، وَالإِيجَابِ وَالتَّجْوِيزِ، وَالإِقْتِدَارِ وَالتَّعْجِيزِ وَالتَّعْدِيلِ وَالتَّجْوِيرِ، وَالتَّوْحِيدِ وَالتَّكْفِيرِ. وَالاعتبارُ فِيهِ يَنْقَسِمُ بَيْنَ دَقِيقٍ يَتَفَرَّدُ العَقْلُ بِهِ، وَجَلِيلٍ يُفْزَعُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ.

ثُمَّ التَّفَاوُثُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْمُتَحَلِّينَ بِهِ، عَلَى مَقَادِيرِهِمْ فِي الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيرِ^(٤٢٤)، وَالْفِكْرَ وَالتَّحْيِيرَ، وَالْجَدَلَ وَالْمَنَاظِرَةَ، وَالْبَيَانَ وَالْمَنَاظِلَةَ. وَالظَّفْرُ بَيْنَهُمْ فِي الْحَقِّ سِحَالٌ، وَلَهُمْ عَلَيْهِ مَكْرٌ وَمَجَالٌ وَبَابُهُ مُجَاوِزٌ لِبَابِ الْفِقْهِ، وَالْكَلَامُ فِيهِمَا مَشْتَرِكٌ وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا انفصالٌ وَتَبَايُنٌ، فَإِنَّ الشَّرْكَةَ بَيْنَهُمَا واقِعَةٌ، وَالْأَدِلَّةُ فِيهِمَا متضارعةٌ.

أَلَا تَرَى أَنَّ الْبَاحِثَ عَنِ الْعَالَمِ فِي قِدَمِهِ وَحُدُوثِهِ وَامْتِدَادِهِ وَانْقِرَاضِهِ يُشَاوِرُ الْعَقْلَ وَيُجَدِّدُهُ، وَيَسْتَضِيءُ بِهِ وَيَسْتَفْهَمُهُ. كَذَلِكَ النَّاطِرُ فِي الْعَبْدِ الْجَانِي: هَلْ هُوَ مِثَابَةٌ لِلْمَالِ فَيَرُدُّ إِلَيْهِ أَوْ مِثَابَةٌ لِلْحُرِّ فَيُحْمَلُ عَلَيْهِ، فَهُوَ يَجْدُمُ الْعَقْلَ وَيَسْتَضِيءُ بِهِ.

وَمَتَى خَلَصْتَ هَذِهِ الْمِشَاوِرَةَ وَالِاسْتِضَاءَةَ، وَالِاسْتَفْهَامَ وَالْمَنَاظِرَةَ مِنَ الْهُوَى وَالتَّعَصُّبِ، وَالنَّكْرِ وَالتَّغَضُّبِ، وَمِنَ التَّشَاكُسِ وَالِاسْتِرْسَالِ، وَمِنَ التَّوَانِي وَالِاسْتِعْجَالِ، وَمِنَ سُرْعَةِ التَّكْذِيبِ وَالتَّصْذِيقِ، وَمِنَ سُوءِ التَّحْصِيلِ وَالتَّحْقِيقِ. نَعَمْ، وَمِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ، مِنْ الْإِلْفِ وَالْعَادَةِ، وَتَقْلِيدِ الرُّؤْسَاءِ وَالسَّنَادَةِ، كَانَ الْحَقُّ رَسِيلًا^(٤٢٥) طَلَبَ الطَّالِبِ، وَمُظْفورًا بِهِ عِنْدَ قِصْدِ الْقَاصِدِ. فَهَذَا بَابَانِ قَدْ أَحْكَمْنَا أُسَاسَهُمَا، وَذَلَّلْنَا الْبَيَانَ عَنْهُمَا، لِنَسُوقَ إِلَيْهِمَا غَيْرَهُمَا، فَيَكُونُ فِي حُكْمِهِمَا.

(٤٢٤) . التَّنْقِيرُ: التَّفْتِيشُ، وَيُقَالُ: رَجُلٌ نَقَّارٌ وَمَنْقَرٌ. وَالْمَنَاظِرَةُ: مَرَاجِعَةُ الْكَلَامِ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَبَيْنَهُمَا أَحَادِيثُهُمَا وَأُمُورُهُمَا.

(٤٢٥) . الرِّسِيلُ: الرِّسُولُ.

النحو

وأما النحو فمقصود على تتبع كلام العرب في إعرابها، ومعرفة خطئها وصوابها، واعتياد ما تواطأت عليه وألفت استعماله. ولولا انفتاح أبواب المعاني به، لم يكن في النحو أكثر من مخالفة الحركة باللفظ.

لكن قد صحَّ بالتَّجربة والاستعراض أنَّ مخالفة حركات الألفاظ فسَادُ المعاني والأغراض. ولا بُدُّ لنا، ما دُمنا تبعاً لهذه الأمة . أعني العرب . ألا ترى أنَّك تتبع نبأ اللفظ في قولهم:

أذهب؟. إذا نواوا استفهاماً.

وفي قولهم: سيذهب. إذا نواوا خبراً منتظراً.

وفي قولهم: قد ذهب. إذا نواوا خبراً ماضياً.

كذلك، تتبع حركات اللفظ، لأنَّ حدَّ الإعراب هو تغيير أو آخر الكليم، كالذال من زيد. ألا ترى أنَّك تقول:

جاءني زيد، ومررتُ بزيد، ورأيت زيداً.

فزيد هو واحدٌ في هذه المواضع، لكنَّ صُوْرُهُ مختلفةٌ للإعراب الفاصل بين

مُرَادٍ ومُرَاد.

وفنونٌ هذا الباب كثيرةٌ، وعللها عويصةٌ. والنَّاظرُ فيه يقومُ بمعانيه، على

حسب عنايته ودرايته.

اللغة

وأما اللغة فجدواها عظيمة، ومنافعها جمّة، لأنها مادّة الكلام، والنحو صورة من صورها، ولأنّها تُحيطُ بالاشتقاق وأصوله، والتّصريفِ وأبنيته، والوزن وأمثله. وبأبها مردودٌ إلى توسّع السّماع، كما أنّ باب النّحو موقوفٌ على تتبّع الطّباع.

فكلُّ من تكامل حظُّه من اللغة، وتوقّر نصيبه من النّحو، كان بالكلام أمهر، وعلى تصريف المعاني أقدر، وازداد بصيرةً في قيمة الإنسان المفضّل على جميع الحيوان، وعرف عوار المتكلّمين، ووقّف على عادة الفقهاء في أمر. فإن شدّاً^(٤٢٦)، بعد ذلك، شيئاً من المنطق، فقد سبق جميع النّاطقين.

المنطق

وأنا أصفُ لك المنطق وصفاً، ليكونَ ما قلناه تماماً ونظاماً. أمّا المنطقُ فهو اعتبارُ معاني الكلام في اعتدالها وانحرافها، واختلافها وائتلافها، وإبهامها وإيضاحها، وإغماضها وإفصاحها، وتمييزها والتباسها، وإطرادها وانعكاسها، واستمرارها واستقرارها.

(٤٢٦) - الشّدو: الشيء القليل، وشدا: أخذ بالقليل.

وبه تُفصلُ الحُجَّةُ من الشُّبْهَةِ، وتُنْفَى الشُّبْهَةُ عن الحُجَّةِ، وتُعرفُ حِيلَةُ
المِغالَطِ ونصيحَةُ المحقِّقِ، وهو آلةٌ عند أربابه، كالميزانِ يَرْتُونُ به كُلَّ مختلِفٍ فيه،
ومُتَّفِقٍ عليه. وليس فيه، كُفْرٌ ولا جَهْلٌ، ولا دينٌ ولا مذهبٌ ولا نِحْلَةٌ ولا مِقالَةٌ.
وإنَّما هو تصفيةُ المعاني، وتنقيةُ الألفاظِ.

فَمَنْ عَمَرَ الشُّكَّ في هذا القولِ، واعتراه الرِّيبُ عند هذا الوصفِ، فليَتقدَّمْ
ناظراً فيه، مُتصَفِّحاً لأوائلهِ وثوانيه^(٤٢٧). فَإِنَّهُ يَجِدُ بيانَ هذا القولِ حاضراً،
والشَّاهدَ فيه ظاهراً.

وقد عابه ناسٌ، ولكن كانوا عامَّةً أو أشباهَ عامَّةٍ. فأما الخاصَّةُ فلا يعيونه،
ولا يُجيزون عَيْبَهُ. والصُّورُ الماثلةُ للعينِ، والأحوالُ الجاريةُ في العالمِ، والمعاني
القائمةُ بالعقلِ، والأمورُ الثَّابِتَةُ في النَّفْسِ، هي كُلُّها لا تخرُجُ عن هذا الاعتبارِ
المنطوي على الإضافاتِ والتَّخصيصاتِ والتَّعميماتِ. وهذا لأنَّ العالمَ منوطٌ
بعضُهُ إلى بعضٍ، ومقيسٌ بعضُهُ ببعضٍ، ومنسوبٌ بعضُهُ إلى بعضٍ، ومقيسٌ
بعضُهُ على بعضٍ.

الطَّبُّ

والتَّناظُرُ في الطَّبِّ غَرَضُهُ حِفْظُ الصِّحَّةِ إِذَا وَجَدَهَا، وَطَلْبُهَا إِذَا فَقَدَهَا.
وهو خَادِمٌ لِلطَّبِيعَةِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، عِلْمٌ يُحِيطُ بِعَيْنِ الْعِلَّةِ، وَعَمَلٌ يَأْتِي عَلَى
اجْتِلَابِ الصِّحَّةِ.

(٤٢٧). ثوانيه: من الثَّنية.

النجوم

والنَّاطِرُ فِي النُّجُومِ يَنْقَسِمُ نَظَرُهُ، أَيْضاً، إِلَى أَحَدِ عَرَضَيْنِ: أَمَّا إِلَى عِلْمِ أَحْوَالِ الْكَوَاكِبِ، فِي اخْتِلَافِ مَسِيرِهَا وَوَقُوفِهَا، وَطُلُوعِهَا وَعُزُوبِهَا، وَاقْتِرَانِهَا وَاخْتِلَافِهَا. فَيَكُونُ اطِّلَاعُهُ عَلَى ذَلِكَ اطِّلَاعَ رَبِّ الْبَيْتِ عَلَى زَوَايَا بَيْتِهِ؛ وَاخْتِلَافِ مَتَاعِهِ وَأَثَانِهِ، وَعَدَدِ سُكَّانِهِ وَمُجَاوِرِيهِ. وَلَهُ فِي هَذَا النَّظَرِ تَعَجُّبٌ يَفْتَحُ قَلْبَهُ، وَيَشْرَحُ صَدْرَهُ، وَيَقْوِي تَوْحِيدَهُ، وَيُكْثِرُ عِبْرَتَهُ؛ وَيُشَوِّقُ نَفْسَهُ.

وَفِي الْقِسْمِ الْآخِرِ، يَرِيدُ النَّاطِرُ أَنْ يَفْتَسِحَ الْأَحْكَامَ فِي الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ. وَهَذَا عَزِيزٌ جَدًّا، كَتِمَازُجِ صُورِ الْكَوَاكِبِ، وَدِقَّةِ أَفْعَالِ النُّجُومِ، وَاخْتِلَافِ أَشْكَالِ الْفَلَكَ، وَاعْتِيَاصِ^(٤٢٨) أَسْرَارِ الْفَضَاءِ، وَبُعْدِ مَرَامِ الْقَدَرِ وَالْجَبْرِ الْمَوْجُودِ فِي الْعَالَمِ. وَصَاحِبُ هَذَا الْعَرَضِ شَدِيدُ التَّعَبِ، قَلِيلُ الدَّرَكِ^(٤٢٩). خَطَأَهُ أَكْثَرَ مِنْ إِصَابَتِهِ، وَإِصَابَتُهُ أَضْرُّ مِنْ جَهْلِهِ. وَالْأَوَّلُ الَّذِي أَفَادَ التَّعَجُّبَ، وَاسْتَكْثَرَ مِنَ الْعِبْرَةِ، أَرْخَى بِالْأَى، وَأَحْسَنَ اخْتِيَارًا، وَأَقْرَبَ إِلَى الرُّشْدِ مِنْ هَذَا الثَّانِي.

(٤٢٨) . الْاِعْتِيَاصُ مِنْ: اِعْتَصَصَ وَأَعْوَصَ فِي الْمَنْطِقِ: غَمَّضَهُ، وَقَدْ عَاصَ يَعَاصُ وَيَعْوِصُ وَعَوِصَ وَيَعْوِصُ، وَاعْتَصَصَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ يَعْتَصِصُ، فَهُوَ مَعْتَصِصٌ إِذَا تَنَاسَّ عَلَيْهِ فَلَمْ يَهْتَدِ لِحُجَّةِ الصَّوَابِ فِيهِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: أَعْوَصَ بِالْخَصْمِ: أَدْخَلَهُ فِيهِمَا لَا يَفْهَمُ فِيهِ.

(٤٢٩) . الدَّرَكُ: الْإِدْرَاكُ.

الحساب المفرد بالعدد

وأما الناظر في الحساب المفرد بالعدد فهو شريك صاحب النجوم اللهم إلا أن يتفرد بالحساب والعمل فحينئذ لا يستحق شرف العلماء، لأنه يكون في درجة الصنّاع، كالكتاب والماسح.

الهندسة

وأما الناظر في الهندسة فإنه، أيضاً، إن سلك الصنائع بها، فهو نظير حافر النهار ومجرى الأودية، وباني الحمامات، ومن قام بمصالح العباد، وعمل البلاد، وإن سلك طريق من يفرض المقادير فرضاً، ويتكلم عليها كلاماً، فهو العالم العاري من العمل.

البلاغة

وأما الناظر في البلاغة، فإنه مشام لكل ما سلف وصفه، وتقدم نعته، لأنه يباشر بلسانه وقلمه، أحوالاً مشبهة، يروم فيها أقصى معانيها.

والذي لا يُجِبُّ البتَّة أن يكونَ القليلُ فيه القيامَ بطُرُقِ الألفاظِ، ومشاركة
فرق المعاني، لأنَّه قد يُدفعُ بصناعته إلى سلِّ السَّخائم^(٤٣٠)، وإلى حلِّ الشَّكائِم،
وإلى السَّفارةِ في الملك، وإلى دقيق ما يَتعلَّقُ بالخاصَّةِ، وجليل ما يرجعُ نفعُهُ إلى
العامةِ. فعقله أبداً مسافرٌ، ولفظه مُتتَبِع.

والنَّاسُ أعداءٌ، لأنَّهم بين جاهلٍ لا يلاحظُ ما لحظَ، وعالمٍ، يجسدهُ على
ما لفظ. وعند ذلك، يلزمه مداواةُ العالمِ بالانقباض، لئلاً ينقذ فيه من الأوَّل
سهمةً، ولا ينفثَ عليه من الثاني سُمَّهُ.

والذي ينبغي له أن يبرأ منه، ويتباعد طبعاً عنه، التَّكَلُّف. فإنَّه مَفْضَحَةٌ،
وصاحبُهُ مزحومٌ، ومن وُسِمَ به مُقْت، ومن اعتاده سُخْف. والتَّكَلُّفُ، وإن كان
هكذا في كلِّ ما دخله وتخلَّله، فإنَّه في البيانِ أبينُّ عواراً، وأظهرُ عاراً، وأقبحُ سمةً،
وأشنعُ وصمةً.

ومن استشار الرَّأيَ الصَّحيحَ في هذه الصَّناعةِ الشَّرِيفةِ، علم أنَّه إلى
سلاسة الطَّبع، أحوجُّ منه إلى مُغالبة اللفظ، وأنَّه متى فاتهُ اللفظُ الحُرُّ، لم يظفر
بالمعنى الحُرِّ، لأنَّه متى نَظَمَ معنى حُرّاً، ولفظاً عبداً، أو معنى عبداً، ولفظاً حُرّاً،
فقد جمَعَ بين متنافرين بالجوهر، ومُتناقضين بالعنصر.

وما أحسن ما حصر هذا الباب ابن المعتز، وأبو العباس
عبد الله بن المعتز؛ عليَّ المحلِّ في بلاغتي النَّظْمِ والنَّثْرِ، وكلامه السَّحْرُ الحلالُ
والعذبُ الزُّلالُ، واللؤلؤُ المَثورُ، والرُّوضُ المَطُورُ، بمعانٍ دقيقة وألفاظٍ رقيقة،
يُريك من نفسه ملكاً في زيِّ مسكينٍ ومسكيناً في همَّةِ جبار.

(٤٣٠) . السَّخائم جمع سَخِيمَة، والسَّخِيمَة: الحقد والضغينة والموجدة.

قال: مدار الكلام على أربعة أركان: منها ما جاد لفظه وخسّ معناه، ومنها ما خسّ لفظه وجاد معناه. هذا قوله. فقد وضع للمُنصف أن ثلاثة أركانٍ من هذه الأربعة قد تَهَدَّمت وتداعت، وأن المَفْرَع إلى الأوّل. قد أطلنا هذا الفصل جرياً مع القلم وذهاباً في السّهو وأرجو أن لا أستحقّ به ذمّاً، إن شاء الله.

التَّصَوُّفُ

وإذا شفيْنَا بعضَ الغليلِ، بمعابَةِ من هَجَرَ الحِكمَةَ وَحَسَدَ الفاضِلِ، وشرح مراتب العلم، على حدّ ما سمح الرّأيُ به، وانفسح الوقتُ له، فما أحرانا بذكر مرتبة التّصوّفِ. فإنّه اسمٌ قد رُمِّ (٤٣١) به معنى، ولفظٌ قد ضمن مُراداً. إن لهيْنَا عنه، بدا علينا من العَجْزِ ما يشمتُ به العدوُّ ويشمئزُّ منه الصّدِيقُ.

اعلم أنّ التّصوّفَ علمٌ يدورُ بين إشاراتِ إلهيّةٍ، وعباراتٍ وهميّةٍ، وأغراضٍ عُلوّيّةٍ، وأفعالٍ دينيّةٍ، وأخلاقٍ مُلوكيّةٍ. وللنكرة، في بعض ذلك، مجالٌ، وذلك لفسادٍ يعرضُ في البيان، وللتّحيزِ في ذلك مُتصَرِّفٌ ولكنّ ذلك ليس يعيبُ عند الامتحان.

وقد لحق الطّريقةَ حيفٌ، لكثرة الدّخلاء فيها. كما لحق البلاغة لكثرة مُدّعِيها. ومتى صحّ تصفّحك، علمت أنّ شيئاً من هذه المعارف،

(٤٣١) - ريم: فعل مبني للمجهول من رام يروم.

عند أصحابها، ليس على حقيقة ما ينبغي. وهذا لانقراض الدنيا، وقرب
أشراط القيامة. ولذلك لا تجذ النَّاسِكَ في نسكِهِ، ولا الفاتِكَ في فتكِهِ،
ولا السَّائِسَ في سياسته، ولا الرَّئِيسَ في رِئَاسَتِهِ، في الغاية المطلوبة والنَّهاية
المحبوبة.

ولا بدَّ من نُقصانٍ يعترى الإنسان، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، كيلا يستبدَّ
بإستطاعته، ولا يغترَّ بكَمالِهِ، ولا يَحْتالَ في مَشِيَّتِهِ، ولا يَتَهَكَّمُ في لفظه، ولا
يَتَحَكَّمُ على رَبِّهِ، ولا يعدو على بني جنسه، ولئلا يعرى من مذكر بالله،
وزاجر عن أمر الله، وداعٍ إلى ما عند الله، ومحدِّدٍ من عقاب الله، ومُرَعِّبٍ في
ثوابِ الله، وليعلم أنَّ الذي امتحنهُ بالنَّقصِ هو الذي يملكُ الزَّيادةَ، وأنَّ الذي
ضَرَبَهُ بالبلاء هو الذي ضَمِنَ له الجَنَّةَ، وأنَّ الذي قد تابع له الأدلَّة هو الذي
قد أراد له المعرفة، وأنَّ الذي تعرَّفَ إليه بالنَّعم هو الذي خَوَّفَهُ بالإصرار على
مخالفته، والاعتزاز بشبابه وجدَّته، وأمره ونهيه.

فسبحان من له هذه الأسرار واللطائفُ، وهذه النِّعمُ والأيادي،
وهذه المواهبُ والتَّقْضُلُ. أليس حقيقاً أن يُعرَفَ ويُعبَدَ ويُطاعَ ويُحَبَّبَ؟ بلى،
ولكن:

﴿الْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (٤٣٢)

أَخَذَ اللهُ بِأَيْدِينَا وَأَيْدِيكُمْ، وَعَطَفَ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ، وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ،
بِحَنِّهِ وَلُطْفِهِ.

(٤٣٢) . القرآن الكريم . سورة المعارج . الآية ٢٠ .

هذا ما أجريناه إليه الكلام من معاتبته وموعظته، في جملة ما أوضحناه من شرح مراتب العلوم. وإذا أتاح الله تعالى الفرج من عنده، وأزاح الحرج من عبده، أتى البيان من وراء ما يكون لفقاً^(٤٣٣) له وناضحاً عنه. وأنا أسأل جماعتكم، عند قراءتكم هذه الرسالة إشار النصفية^(٤٣٤)، والأخذ بحكم الدين والمروءة. فإن ذلك أولى بي وبكم، وأحسن لذكركم وذكركم، وأنظم لشملي معكم.

وأنا أستخلف الله منكم وعليكم. واستغفره لي ولكم. إنه عفور رحيم، منوح كريم. أطل الله بقاءكم، وأدام كرامتكم، وحفظ مواهبه لديكم، ولا أخلاكم من عوائده الجسيمة، وفوائده الكريمة، إن شاء الله.

اللهم صن وجهنا باليسار؛ ولا تبذلنا للإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شرار خلقك. فتبتلي بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم ولي الإعطاء، وييدك خزائن الأرض والسماء، يا ذا الجلال والإكرام.

* * *

(٤٣٣) . لفقاً من لفق الثوب لفقاً: ضم أحد شقي الثوب إلى الآخر وخاطه.

(٤٣٤) . النصفية: الانتصاف والعدل.

موضوعات الرسالة

الفقه

الكتاب

السنة

القياس

الكلام

النحو

اللغة

المنطق

الطب

النجوم

الحساب المفرد بالعدد

الهندسة

البلاغة

النصوف

* * *

مقتطفات من

رسالة في تفرير الجاحظ

لَمْ يَكُنِ التَّوْحِيدِيُّ التَّلْمِيذَ النَّجِيبَ لِلجَاحِظِ بِانْتِهَاجِ نَهْجِهِ
وَاقْتِنَاءِ آثَارِهِ وَحَسْبِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ الْمُخْلِصَ لِمُعَلِّمِهِ، الْمُعْتَرِفَ
بِفَضْلِهِ. يَدُلُّنَا عَلَى ذَلِكَ إِفْرَادُهُ هَذَا الْكِتَابَ لِتَقْرِيبِهِ. لَمْ يَصِلْنَا
هَذَا الْكِتَابُ كَامِلًا وَإِنَّمَا اجْتَزَى فِي مُقْتَطَفَاتٍ أوردَهَا ياقوتُ
الْحَمَوِيُّ صَاحِبُ ((مُعْجَمِ الْأَدْبَاءِ)) فِي تَرْجُمَتِهِ لِأَحْمَدَ بْنِ دَاوُدَ
الدَّيْنَوْرِيِّ وَأَبِي سَعِيدِ السِّيرَافِيِّ. وَعَنْهُ نَقَلَ النَّاقِلُونَ نُصُوصَهُمْ
لدى الحديث عن هذه الرسالة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أولاً: من ترجمة الدينوري^(٤٣٥)

قَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي كِتَابِ تَقْرِيطِ^(٤٣٦) الْجَاحِظِ: وَمَنْ خَطَّهُ الَّذِي لَا أَرْتَابُ فِيهِ نَقَلْتُ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْأَنْدَلِسِيِّ، يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَمُودِ الزُّيْدِيِّ، وَكَانَ مِنْ عِدَادِ أَصْحَابِ السِّيْرَافِيِّ، وَلَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ ذِكْرٌ، وَقَدْ اخْتَلَفَتْ أَصْحَابُنَا فِي مَجْلِسِ أَبِي سَعِيدِ السِّيْرَافِيِّ، فِي بِلَاغَةِ الْجَاحِظِ، وَأَبِي حَنِيفَةَ صَاحِبِ النَّبَاتِ، وَوَقَعَ الرِّضَا بِحُكْمِكَ، فَمَا قَوْلُكَ؟ فَقَالَ: أَنَا أَحَقُّرُ نَفْسِي^(٤٣٧) عَنِ الْحُكْمِ هُمَا وَعَلَيْهِمَا. فَقَالَ: لَا بَدَّ مِنْ قَوْلِي. قَالَ: أَبُو حَنِيفَةَ أَكْثَرَ نَدَارَةً^(٤٣٨)، وَأَبُو عَثْمَانَ أَكْثَرَ حِلَاوَةً، وَمَعَانِي أَبِي عَثْمَانَ لِأَنْطَةَ^(٤٣٩) بِالنَّفْسِ، سَهْلَةٌ فِي السَّمْعِ، وَلَفْظُ أَبِي حَنِيفَةَ أَعْدَبُ وَأَغْرَبُ، وَأَدْخَلَ فِي أَسَالِيبِ الْعَرَبِ^(٤٤٠). قَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَالَّذِي أَقُولُ،

(٤٣٥) . آثرنا إيراد هذا القسم أولاً لأنه يبدو أنه فاتحة كتاب التوحيد في تقریط الجاحظ.

(٤٣٦) . قَرَّظَهُ يَقَرِّظُهُ مِنَ التَّقْرِيطِ وَهُوَ مَدْحُ الْإِنْسَانِ وَهُوَ حَيٌّ، وَأَثَبَهُ مِنَ التَّأْبِينِ مَدْحَهُ مِيتاً.

(٤٣٧) . أَيِ إِيَّيْ أَقَلَّ شَأْنًا مِنْهُمَا لِلْحُكْمِ فِيهِمَا، أَوْ لَسْتَ أَهْلًا لِلْمَوَازَنَةِ بَيْنَهُمَا.

(٤٣٨) . أَيِ ذَكَرًا لِلنَّوَادِرِ.

(٤٣٩) . مِنْ لَاطٍ بِالْقَلْبِ أَيِ: التَّصَقُّ بِهِ وَتَعَلَّقَ، وَمِنْهُ: لِيَطَّةٌ بِالْقَلْبِ، أَيِ: التَّصَاقُ بِهِ وَتَعَلُّقٌ.

(٤٤٠) . أَدْخَلَ فِي أَسَالِيبِ الْعَرَبِ: أَكْثَرَ دَخُولاً فِيهَا، أَيِ صَمِيمَةً فِي الْعَرَبِيَّةِ.

وَأَعْتَقِدُ، وَأَخُذُ بِهِ، وَأَسْتَهِمُ^(٤٤١) عَلَيْهِ، أَيْ لَمْ أَجِدْ فِي جَمِيعِ مَنْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ [إِلَّا]^(٤٤٢) ثَلَاثَةً لَوْ اجْتَمَعَ الثَّقَلَانُ^(٤٤٣) عَلَى تَقْرِيبِهِمْ، وَمَدْحِهِمْ، وَنَشْرِ فَضَائِلِهِمْ؛ فِي أَخْلَاقِهِمْ، وَعِلْمِهِمْ، وَمُصَنَّفَاتِهِمْ وَرِسَائِلِهِمْ، مَدَى الدُّنْيَا إِلَى أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ بِزَوَالِهَا، لَمَا بَلَغُوا آخِرَ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، أَحَدُهُمْ هَذَا الشَّيْخُ الَّذِي أَنْشَأَنَا^(٤٤٤) لَهُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ، وَبَسَبِيهِ جُشْمَنَا هَذِهِ الكِلْفَةَ، أَعْنِي أَبَا عُثْمَانَ عَمَرَ بْنَ بَحْرٍ.

وَالثَّانِي: أَبُو حَنِيفَةَ أَحْمَدُ بْنُ دَوَادِ الدِّينَوْرِيُّ، فَإِنَّ مِنْ نَوَادِرِ الرِّجَالِ، جَمَعَ بَيْنَ حِكْمَةِ الفلاسفةِ، وَبَيَانِ العَرَبِ، لَهُ فِي كُلِّ فَنٍّ سَاقٌ وَقَدَمٌ، وَرُؤَاةٌ^(٤٤٥) وَحُكْمٌ، وَهَذَا كَلَامُهُ فِي الأَنْوَاءِ^(٤٤٦)، وَيَدُلُّ عَلَى حِظِّ وَافِرٍ مِنْ عِلْمِ النُّجُومِ، وَأَسْرَارِ الفَلَكِ، فَأَمَّا كِتَابُهُ فِي النَّبَاتِ فَكَلَامُهُ فِيهِ، فِي عُرُوضِ كَلَامِ آبَدِيٍّ بَدَوِيٍّ، وَعَلَى طِبَاعِ أَفْصَحِ عَرَبِيٍّ، وَلَقَدْ قِيلَ لِي:

(٤٤١) . أَسْتَهِمُ عَلَيْهِ: أُرَاهُنَّ عَلَيْهِ.

(٤٤٢) . غير موجودة في الأصل وفي كلتا الحالتين يستقيم التعبير ولكن مع اختلاف دقيق المعنى، فمن دون (لا) يكون المعنى: لم أجد ثلاثة معاً ينطبق عليهم الحكم معاً. وبوجود (لا) يكون المعنى: لم أجد ثلاثة معاً أو متفرقين يصدق أو ينطبق عليهم الحكم متفرقين أو معاً.

(٤٤٣) . أي الإنس والجن.

(٤٤٤) . في الصَّفدي والأصل أنشدنا، عن المعجم.

(٤٤٥) . الرِّيُّ والرُّؤَاةُ: المنظر الحسن، فمن الأولى قوله تعالى: {أحسن أثنائاً وريئاً}، وفي الثانية قولنا: رجلٌ له رُؤَاةٌ أي له منظر، أو منظرٌ حسنٌ. قال أبو موسى: في الرِّاءِ والواو وقال: هو من الرِّيِّ والارتواء، قال: وقد يكون من المرأى والمنظر في الرِّاءِ والهمزة.

(٤٤٦) . الأنواء والنُّوَانُ جمع نَوْءٍ، وهو النجم إذا مال للمغيب.

إِنَّ لَهُ فِي الْقُرْآنِ كِتَابًا، يَبْلُغُ ثَلَاثَةَ عَشْرَ مَجْلَدًا، مَا رَأَيْتَهُ، وَإِنَّهُ مَا سَبَقَ إِلَى ذَلِكَ النَّمَطِ، هَذَا مَعَ وَرَعِهِ وَزُهْدِهِ، وَجَلَالَةِ قَدْرِهِ، وَقَدْ وَقَفَ الْمُؤَوَّقُ عَلَيْهِ، وَسَأَلَهُ وَتَحَقَّى بِهِ.

وَالثَّلَاثُ: أَبُو زَيْدٍ أَحْمَدُ بْنُ سَهْلٍ الْبَلْخِيُّ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ فِي الْأَعْصُرِ الْأَوَّلِ، وَلَا يُظَنُّ أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ نَظِيرٌ فِي مَسْتَأْنَفِ الدَّهْرِ، وَمَنْ تَصَفَّحَ كَلَامَهُ فِي كِتَابِ أَقْسَامِ الْعُلُومِ، وَفِي كِتَابِ أَخْلَاقِ الْأُمَمِ، وَفِي كِتَابِ نِظْمِ الْقُرْآنِ، وَفِي كِتَابِ اخْتِيَارِ السِّيَرِ، وَفِي رِسَائِلِهِ إِلَى إِخْوَانِهِ، وَجَوَابِهِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ، وَيُبَدِّهُ^(٤٤٧) بِهِ، عَلِمَ أَنَّهُ بَحْرُ الْبُحُورِ، وَأَنَّه عَالِمُ الْعُلَمَاءِ، وَمَا رُئِيَ فِي النَّاسِ مِنْ جَمَعَ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالشَّرِيعَةِ سِوَاهُ، وَإِنَّ الْقَوْلَ فِيهِ لَكَثِيرٌ، وَلَوْ تَنَاصَرْتُ^(٤٤٨) إِلَيْنَا أَحْبَابُهُمَا، لَكُنَّا نَحْبُ أَنْ نَفْرَدَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تَقْرِيطًا مَقْصُورًا عَلَيْهِ، وَكِتَابًا مَنَسُوبًا إِلَيْهِ، كَمَا فَعَلْتُ بِأَبِي عَثْمَانَ.

* * *

(٤٤٧) . يُبَدِّهُ بِهِ أَي: يُفَاجِئُ بِهِ، مِنْ بَدَا بِالسُّؤَالِ إِذَا فُوجِيَ بِهِ.

(٤٤٨) . تَنَاصَرْتُ: نَصَرَ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَنَاصَرْتُ أَخْبَارُهُمَا أَوْ الْأَخْبَارَ شَدَّتْ أَزْرَ بَعْضُهَا بَعْضًا وَنَصَرْتَهُ صَدَقًا وَقُوَّةً، فَتَطْمَئِنُّ بِذَلِكَ النَّفْسُ إِلَى صِحَّتِهَا وَصِدْقِهَا.

ثانياً : من ترجمة السيرافي

قرأت بخط أبي حيان التوحيدي في كتابه الذي ألفه في تقييد عمرو بن بحر: وقد ذكر جماعة من الأئمة، كانوا يُقدِّمون الجاحظ ويفضّلونه فقال:

ومنهم أبو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ، وإمام الأئمة معرفةً بالنحو والفقه، واللغة والشعر، والعروض والقوافي، والقرآن والفرائض، والحديث والكلام، والحساب والهندسة. أفتى في جامع الرضاة خمسين سنةً على مذهب أبي حنيفة، فما وجد له خطأً، ولا عُثِرَ منه على زلّةٍ. وقضى ببغداد، وشرح كتاب سيويه في ثلاثة آلاف ورقة بخطه في السليمان، فما جازاه فيه أحدٌ، ولا سبّقه إلى تمامه إنسانٌ. هذا مع الثقة والديانة، والأمانة والرواية. صام أربعين سنةً، وأكثر الدهر كُله.

* * *

ثالثاً : من ترجمة الجاحظ (٤٤٩)

قال أبو حيان في كتاب التّقرّيز، ومن خطّه نقلتُ:
وحدّثنا أبو دُلف (٤٥٠) الكاتب قال: صُدّر الجاحظُ في ديوان الرّسائل
أيّام المأمون ثلاثة أيّام ثمّ إنّه استعفى فأعفي.
وكان سهل بن هاورن (٤٥١) يقول: إنّ نَبَتَ الجاحظ في هذا الدّيوان أفل
نجم الكُتّاب.

(٤٤٩) . أغلب الظنّ أنّ هذا النصّ، الذي يبدأ من هذه الفقرة حتى آخر هذا الفصل، هو من رسالة التّوحيدي في تقرّيز الجاحظ، على الرغم من طوله الذي قد يوحي بأنّه ليس كله للتوحيدي، والذي حدا بنا إلى هذا الظنّ جملة من الأسباب: أولها أن من عادة ياقوت أن ينقل النصوص الطويلة مع الإشارة إلى أصحابها، بدليل أنه في ترجمته للسيرافي نقل أربعة نصوص عن التوحيدي تشكل أكثر تسعة أعشار الترجمة، اثنان منها طويلان جداً، وكلها موجودة في هذا الكتاب، وهي: نص من تقرّيز الجاحظ، ونصان في المحاضرات والمناظرات ونص المناظرة. وثانيها أن السياق يدل على أنّ الكلام كله للتوحيدي من خلال المعطوفات المتتالية، مع الترابط، بين الفقرات التي تشير إلى أن ياقوت يتابع النقل. وثالثها أن من عادة ياقوت أن يقول: قرأت لفلان وكتب فلان ... ويأتي بالقول، ولكنه بدأ هنا بقوله: ... ومن خطّه نقلت وكان الترجمة اللاحقة كلها للتوحيدي. ورابعها أنّه لا يستبعد أن يكون النصّ كله للتوحيدي من تقرّيزه للجاحظ، أو أن تشكل هذه الترجمة معظم هذه الرسالة، فإن كان نقل عنه النصوص الأكثر طولاً في غير هذا الموضع فمن الأقرب إلى الظنّ أن يكون قد نقل عنه جل هذه الترجمة.

(٤٥٠) . أبو دلف: أبو دلف القاسم بن عيسى بن إدريس العجلي؛ أحد قواد المأمون ثمّ المعتصم البارزين. وكان أديباً مصتفاً كريماً سريّاً جواداً ممدحاً، له مؤلّفات منها: سياسة الملوك، البراة والصّيد ... توفي سنة ٢٢٦هـ / ٨٤٠.

(٤٥١) . سهل بن هارون: هو أبو عمر سهل بن هارون بن راهيون الدستيمساني، كاتب بليغ، ومصنف معروف، كلفه المأمون بخزانة بيت الحكمة.

قال أبو عبد الله المرزباني^(٤٥٢): حَدَّثَ إِسْحَاقُ الْمَوْصِلِيُّ^(٤٥٣) وَأَبُو الْعِيَاءِ^(٤٥٤) قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَادٍ^(٤٥٥) بَعْدَ قَتْلِ ابْنِ الزِّيَّاتِ^(٤٥٦) فَجِئْتُ بِالْجَاحِظِ مَقِيداً وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ الزِّيَّاتِ وَفِي نَاحِيَّتِهِ، فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ قَالَ:

وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا مَتَنَاسِياً لِلنَّعْمَةِ، كَفُوراً لِلصَّنِيعَةِ، مَعْدُداً لِلْمَسَاوِي، وَمَا قُتِنِي بِاسْتِصْلَاحِي لَكَ. وَلَكِنَّ الأَيَّامَ لَا تَصْلُحُ مِنْكَ لِفَسَادِ طَوْبِيَّتِكَ، وَرِدَاءِ دَاخِلَتِكَ، وَسُوءِ اخْتِيَارِكَ، وَتَغَالِبِ طَبْعِكَ.

فَقَالَ لَهُ الْجَاحِظُ: خَفِّضْ عَلَيْكَ . أَيْدَكَ اللَّهُ . فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَكُونَ لَكَ الأَمْرُ عَلَيَّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي عَلَيْكَ، وَلَأَنْ أُسِيءُ وَتَحْسُنُ أَحْسُنُ عَنكَ مِنْ أَنْ أَحْسِنَ فُتْسِيءُ، وَأَنْ تَعْفُو عَنِّي فِي حَالِ قَدْرَتِكَ أَجْمَلَ مِنَ الِانْتِقَامِ مَيِّ.

(٤٥٢) . هو: أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، أصله من خراسان، كان من الأدباء الإخباريين المصنفين، وله كتب كثيرة في الأدب والتاريخ. توفي سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م.

(٤٥٣) . إسحاق الموصلي: هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ماهان التميمي بالولاء، المعروف بابن النسم الموصلي، اشتهر بمنادمته الخلفاء، وهو من العلماء باللغة والأشعار وخبير الشعراء، توفي نحو ٢٥٦هـ/٨٦٩م.

(٤٥٤) . أبو العيلاء: هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد الهاشمي، ولد سنة ١٩١هـ/٨٠٧م. أخباري أديب شاعر صاحب نوادر. توفي سنة ٢٨٣هـ/٨٦٩م.

(٤٥٥) . أحمد بن أبي دؤاد: هو أبو عبد الله الإيادي القاضي أحمد بن أبي دؤاد، أصله من قنسرين، معتزلي، نشأ بالشام وعلى علمائها برع في الفقه وعلم الكلام، قصد بغداد فحظي بالمكانة الرفيعة عند الخلفاء: المأمون والمعتصم والواثق، تولى المظالم والقضاء وقضاء القضاة، اشتهر بالمروءة وفصاحة اللسان والاعتداد بالانتماء للعروبة، توفي سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م.

(٤٥٦) . ابن الزيات: هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان، كاتب شاعر أديب بليغ عالم باللغة والنحو، استوزره المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل، توفي سنة ٢٣٣هـ/٩٤٣م.

فقال له ابن أبي دؤاد: قَبَحَكَ اللهُ، ما علمتك إلا كثيرَ تزويقِ الكلام، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك، ثمَّ اصطفت فيه النِّفاق والكفر. ما تأويل هذه الآية؟:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^(٤٥٧)

قَالَ: تِلَاوَتُهَا تَأْوِيلُهَا. أَعَزَّ اللهُ الْقَاضِي.

فَقَالَ: جِئُوا بِحَدَّادٍ.

فَقَالَ: . أَعَزَّ اللهُ الْقَاضِي . لِيُقُكَّ عَنِّي أَوْ لِيَزِيدَنِي ؟

فَقَالَ: بَلْ لِيُقُكَّ عَنْكَ.

فَجِيءَ بِالْحَدَّادِ، فَعَمَّرَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْمَجْلِسِ أَنْ يَعْنَفَ بِسَاقِ الْجَاحِظِ، وَيَطِيلَ أَمْرَهُ قَلِيلًا. فَلَطَمَهُ الْجَاحِظُ وَقَالَ:

اعْمَلْ عَمَلَ شَهْرٍ فِي يَوْمٍ، وَعَمَلْ يَوْمٍ فِي سَاعَةٍ، وَعَمَلْ سَاعَةٍ فِي لَحْظَةٍ، فَإِنَّ الضَّرَرَ عَلَى سَاقِي، وَلَيْسَ بِجَذَعٍ وَلَا سَاجَةٍ^(٤٥٨).

فَصَحَّحَكَ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ وَأَهْلُ الْمَجْلِسِ مِنْهُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي دُؤَادٍ لِمُحَمَّدِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَكَانَ حَاضِرًا:

أَنَا أَتَّقُ بِظُرْفِهِ وَلَا أَتَّقُ بِدِينِهِ.

ثُمَّ قَالَ: يَا غَلَامَ، صِرْ بِهِ إِلَى الْحَمَامِ وَأَمِطْ عَنْهُ الْأَذَى، وَاحْمِلْ إِلَيْهِ تَحْتَ ثِيَابٍ^(٤٥٩) وَطَوِيلَةٍ^(٤٦٠) وَخُفًّا.

(٤٥٧) . سورة هود . الآية ١٠٢ .

(٤٥٨) . الساج: الخشب مطلقاً، والساجة: الخشبة المنحوتة المهياة.

(٤٥٩) . تحت الثياب: خزانة الثياب.

(٤٦٠) . الطويلة: ثوب بعينه، مفتوح من الأمام يشبه العباءة.

فَلَيْسَ ذَلِكَ ثُمَّ أَتَاهُ، فَتَصَدَّرَ فِي مَجْلِسِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ:

هَاتِ الْآنَ حَدِيثَكَ يَا أَبَا عَثْمَانَ...

وَمِنْ شِعْرِ الْجَاحِظِ فِي ابْنِ أَبِي دُوَادٍ:

وَعَوِيصٍ مِنَ الْأُمُورِ بِهِمْ

غَامِضُ الشَّخْصِ مُظْلِمٌ مَسْتُورٌ

قَدْ تَسَنَّمْتَ مَا تَوَعَّرَ مِنْهُ

بِلِسَانٍ يَزِينُهُ التَّحْيِيرُ

مِثْلُ وَشْيِ الْبُرُودِ هَلَلَهُ النَّسْ

حُجٌّ وَعِنْدَ الْحِجَاجِ دُرٌّ نَشِيرٌ

حَسَنُ الصَّمْتِ وَالْمَقَاطِعِ إِمَّا

نَصَتْ الْقَوْمُ وَالْحَدِيثُ يَدُورُ

ثُمَّ مِنْ بَعْدِ لَحْظَةٍ تُورِثُ الْيُسْرَ

وَعَرَضٌ مُهَذَّبٌ مَوْفُورٌ

وَكَتَبَ الْجَاحِظُ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دُوَادٍ:

لَا تَرَانِي وَإِنْ تَطَاوَلْتَ عَمْدًا

بَيْنَ صَفِيهِمْ وَأَنْتَ تَسِيرُ

كُلُّهُمْ فَاضِلٌ عَلَيَّ بِمَالٍ

وَلِسَانِي يَزِينُهُ التَّحْيِيرُ

فَإِذَا ضَمَّنَا الْحَدِيثُ وَيَيْتُ

وَكَأَنِّي عَلَى الْجَمِيعِ أَمِيرُ

رُبَّ خَصْمٍ أَرْقُ مِنْ كُلِّ رُوْحٍ

وَلَفَرَطِ الذِّكَا يَكَادُ يَطِيرُ

فَإِذَا رَامَ غَايَتِي فَهُوَ كَابٍ (٤٦١)

وَعَلَى الْبُعْدِ كَوَكَبٌ مَبْهُورٌ (٤٦٢)

وَحَدَّثَ أَبُو الْعِيَاءِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ رِيَّاحٍ قَالَ: أَتَانِي جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ
كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَّعِي أَنَّهُ مَدَّحَنِي بِهَذِهِ الْآيَاتِ وَأَجْزِيهِ عَلَيْهَا:

بَدَأُ^(٤٦٣) حِينَ أَثْرَى بِإِخْوَانِهِ

فَقَلَّلَ عَنْهُمْ شَبَابَةَ الْعَدَمِ

وَذَكَرَهُ الدَّهْرُ صَرَفَ الزَّمَانِ

فَبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النَّعَمِ

فَتَى خَصَّهُ اللَّهُ بِالْمَكْرَمَاتِ

فَمَازَجَ مِنْهُ الْحَيَا بِالْكَرَمِ

وَلَا يَنْكُتُ الْأَرْضَ عِنْدَ السُّؤَالِ

لِيَقْطَعَ زُورَاهُ عَنْ نَعَمِ

وَيُقَالُ إِنَّ الْجَاحِظَ مَدَّحَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَادٍ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ
رِيَّاحٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْجَهْمِ^(٤٦٤).

(٤٦١) - الكافي: الساقط.

(٤٦٢) - المبهور: الذي غلب النور بصره، وكذلك الكوكب المبهور: الذي طغى على نوره نور غيره من الكواكب.

(٤٦٣) - بدأ: مخففة من بدأ.

(٤٦٤) - محمد بن الجهم: هو أبو عبد الله السمري محمد بن الجهم الكاتب، وهو محدث ثقة من رواة السند،

ولد سنة ١٨٨هـ/٨٠٤م، وتوفي سنة ٢٧٧هـ/٨٩٠م.

وَحَدَّثَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ رِيَّاحٍ قَالَ: مَدَحَنِي حَمْدَانُ بْنُ أَبَانَ اللَّاحِقِيُّ وَذَكَرَ
مِثْلَ مَا مَضَى، وَقَالَ فِي آخِرِهِ:

إِنَّ مَادِحَكَ . أَعَزَّكَ اللَّهُ . يَجِدُ مَقَالاً ، وَالْجَاحِظُ يَمْلَأُ عَيْنِيهِ مِنِّي وَلَا
يَسْتَحِي .

قال: وَحَدَّثَ يَمُوتُ بْنُ الْمَرْزُوعِ^(٤٦٥) قَالَ: هَجَا خَالِي أَبُو عَثْمَانَ
الْجَاحِظُ الْجَمَّازَ بِأَيِّاتٍ مِنْهَا:

نَسَبُ الْجَمَّازُ مَقْصُورٌ رٌ إِلَيْهِ مُنْتَهَاهُ
تَنْتَهَى الْأَحْسَابُ بِالنَّا سٍ وَلَا تَعْدُو قَفَاهُ

فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْجَمَّازُ:

يَا فَتَى نَفْسُهُ إِلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ تَائِقَهُ
لَكَ فِي الْفَضْلِ وَالتَّرَهْ هِدِ وَالتُّسْكِ سَابِقَهُ

وَمِنْ هِجَاءِ الْجَمَّازِ لِلْجَاحِظِ قَوْلُهُ:

قَالَ عَمْرُو مَفَاخِرًا نَحْنُ قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ
قُلْتُ فِي طَاعَةِ لِرُبِّ سِكَ أَبْلَيْتَ ذَا النَّسَبِ

وَحَدَّثَ أَبُو الْعَيْنَاءِ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ قَالَ: كَانَ لِي صَدِيقٌ فَجَاءَنِي يَوْمًا
فَقَالَ لِي:

(٤٦٥) . يموت بن المرزوع: هو أبو بكر يموت بن المرزوع العبدي البصري، شاعر أديب أخباري، اشتهر أيضاً
بأنه أصحاب نوار، وهو ابن أخت الجاحظ، سمى نفسه محمداً تحاشياً للتطير باسمه. توفي سنة
٣٠٣هـ/٩١٥م.

أريدُ الخروجَ إلى فلان العامل، وأحببتُ أن يكونَ معي إليه وسيلةً، وقد سألتُ: من صديقه؟ فقيلَ لي: أبو عثمان الجاحظ، وهو صديقك، وأحبُّ أن تأخذَ لي كتابه إليه بالعناية.

قالَ: فَصِرْتُ إلى الجاحظ فقلتُ له: جِئْتُكَ مسلماً، وقاضياً للحقِّ، ولي حاجةٌ لبعضِ أصدقائي وهي كذا وكذا.

قالَ: لا تشغلنا السَّاعةَ عن المحادثة وتعرف أخبارنا، إذا كان في غدٍ وَجَّهْتُ إليك بالكتاب.

فلَمَّا كانَ مِنْ غَدٍ وَجَّهَ إليَّ بالكتاب. فقلت لابني: وجَّه هذا الكتاب إلى فلان ففيه حاجته. فقال لي:

إنَّ أبا عثمان بعيدُ الغور، فينبغي أن نفضَّه وننظر ما فيه.

فَفَعَلَ، فإذا في الكتاب:

«هَذَا الْكِتَابُ مَعَ مَنْ لَا أَعْرِفُهُ، وَقَدْ كَلَّمَنِي فِيهِ مَنْ لَا أُوجِبُ حَقَّهُ، فَإِنْ قَضَيْتَ حَاجَتَهُ لَمْ أَحْمُدْكَ، وَإِنْ رَدَدْتَهُ لَمْ أذُمَّكَ»

فلَمَّا قرأتُ الكتابَ مضيتُ إلى الجاحظ من فوري، فقالَ: يا أبا عبد الله، قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ أَنْكَرْتَ مَا فِي الْكِتَابِ.

فقلتُ: أَوْلَيْسَ مَوْضِعَ نَكْرَةٍ؟

فقالَ: لا، هذه علامةٌ بيني وبين الرَّجل فيمن أعتني به.

فقلتُ: لا إله إلا الله، ما رأيت أحداً بطبعك ولا ما جبلت عليه.

مَنْ هَذَا الرَّجُلُ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ قَالَ:

. أُمُّ الْجَاحِظِ عَشْرَةُ آلَافٍ فِي عَشْرَةِ آلَافِ قَحْبَةٍ، وَأُمُّ مَنْ يَسْأَلُهُ حَاجَةً.

فقلتُ له: ما هذا؟ تشتتمُ صديقنا!

فقال: هذه علامتي فيمن أشكره.

فَضَحَكَ الجاحظ.

وَحَدَّثَ الفتح بن خاقان^(٤٦٦)، وَحَدَّثَ الفتح المتوكل: فذلك كان

سَبَبُ اتِّصَالِي بِهِ وَإِحْضَارِي إِلَى مَجْلِسِهِ.

وَحَدَّثَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكَاتِبُ قَالَ: كَانَ الْجَاحِظُ يَتَّقَلَّدُ

خِلَافَةَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ الصُّوْلِيِّ^(٤٦٧) عَلَى دِيْوَانِ الرِّسَائِلِ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى

الدِّيْوَانِ جَاءَهُ أَبُو الْعَيْنَاءِ، فَلَمَّا أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ تَقَدَّمَ الْجَاحِظُ إِلَى حَاجِبِهِ

[بِأَنَّ^(٤٦٨)] إِذَا وَصَلَ الدَّهْلِيْزَ أَلَّا يَدْعُهُ يَخْرُجُ، وَلَا يُمَكِّنُهُ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ. فَخَرَجَ

أَبُو الْعَيْنَاءِ ففعل به ذلك. فنادى بأعلى صوته: يَا أبا عثمان قد أريننا قُدْرَتَكَ

فأرنا عفوك.

ومن كلام الجاحظ: احذر من تأمن كأنك حذِرٌ مِمَّنْ تَخَافُ.

وقال: أجمع النَّاسُ على أربع: أَنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَثْقَلُ مِنْ أَعْمَى، وَلَا

أَبْغَضُ مِنْ أَعُورٍ، وَلَا أَخْفُ رُوحاً مِنْ أَحُولٍ، وَلَا أَقْوَدُ مِنْ أَحْدَبٍ.

قَالَ الْمَرْزُبَانِيُّ: وَرَوَى أَصْحَابُنَا أَنَّ الْجَاحِظَ صَارَ إِلَى مَنْزِلٍ بَعْضِ إِخْوَانِهِ

فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ غُلَامٌ عَجْمِيٌّ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟

(٤٦٦) . الفتح بن خاقان: هو الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، شاعر أديب فصيحٌ اشتهر بشجاعته،

كان وزير المتوكل وصديقه، وتوفي معه في سنة واحدة هي ٢٤٧هـ/٨٦١م.

(٤٦٧) . الصولي: هو أبو إسحاق إبراهيم بن العباس الصولي، شاعر وكاتب مشهور، تنقل في أعمال السلطان

ودواوينه، توفي سنة ٢٤٣هـ/٨٥٨م.

(٤٦٨) . غير موجودة في الأصل والمعنى لا يتم إلا بها أو بمثلها.

قال: الجاحظ.

فَدَخَلَ الْغُلَامُ إِلَى صَاحِبِ الدَّارِ فَقَالَ: الْجَاحِذُ بِالْبَابِ، وَسَمِعَهَا الْجَاحِظَ.
فَقَالَ صَاحِبُ الدَّارِ لِلْغُلَامِ: اخْرُجْ فَانظُرْ مِنَ الرَّجُلِ؟ فَخَرَجَ يَسْتَخْبِرُ عَنْ
اسْمِهِ، فَقَالَ: أَنَا الْحَدَقِيُّ^(٤٦٩). فَدَخَلَ الْغُلَامُ فَقَالَ: الْحَلَقِيُّ.

وسمعتها الجاحظ فصاح به في الباب: رُدَّنَا إِلَى الْأَوَّلِ، يريد أن قل له
الجاحد مكان الجاحظ أسهل عليه من الحلقي مكان الحدقي، فعرفه الرجل
فأوصله واعتذر إليه.

وقال الجاحظ: أربعة أشياء ممسوخة: أكلُّ الأرزِّ البارد، و[.....] في
الماء، والقُبْلُ على النَّقَابِ، والغناء من وراء ستارة.
وَقَالَ الْجَاحِظُ بِحَضْرَةِ السِّدْرِيِّ: إِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ عَاقِلَةً ظَرِيفَةً كَامِلَةً كَانَتْ
فَحْبَةً.

فقال له السدري: وكيف؟

قال: لِأَنَّهَا تَأْخُذُ الدَّرَاهِمَ، وَتَمْتَعُ^(٤٧٠) النَّاسَ بِالطَّيِّبِ، وَتَخْتَارُ عَلَى عَيْنِهَا
مَنْ تَرِيدُ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ لَهَا مَتَى شَاءَتْ.

فقال له السدري: وكيف عقل العجوز^(٤٧١) حفظها الله؟

قال: هِيَ أَحْمَقُ النَّاسِ وَأَقْلَهُمْ عَقْلاً.

(٤٦٩) . يريد نتوء حدقتيه الذي جعله جاحظاً وبذلك سمي الجاحظ.

(٤٧٠) . تمتع: تمتع.

(٤٧١) . يريد أم الجاحظ.

وحدَّث المبرِّدُ قال: قالَ الجاحظُ: أتيتُ أبا الرِّبيعِ الغنوي أنا ورجلٌ من
بني هاشم، فاستأذنا عليه، فخرَجَ إلينا وقال:

خرَجَ إليكم رَجُلٌ كريمٌ والله.

فقلت له: من خيرِ الخلقِ يا أبا الرِّبيعِ؟

فقال: النَّاسُ والله.

قلت: ومن خيرِ النَّاسِ؟

قال: العَرَبُ والله.

قلتُ: فمَنْ خيرِ العَرَبِ؟

قال: مضرٌ والله.

قلتُ: فمَنْ خيرِ مُضَرَ؟

قال: قيسٌ والله.

قلت: وَمِنْ خيرِ قيسِ؟

قال: أعصُرُ والله.

قلت: فمَنْ خيرِ أعصُرِ؟

قال: غنيٌّ والله.

قلت: فمَنْ خيرِ غنيِّ؟

قال: أنا والله.

قلت: فأنت خير الخلق؟

قال: أي والله.

قلت: أيسرُك لو أنك تزوجت بنت يزيد بن المهلب؟

قال: والله لا أدنس كرمي بلؤمها.

قلت: على أن لك الجنة.

ففكر ساعة ثم قال: على ألا تلد مني. وأنشد:

تَأبَى لِأَعْصَرَ أَعْرَاقُ مُهْدَبَةٌ

مِنْ أَنْ تُنَاسِبَ قَوْمًا غَيْرَ أَكْفَاءِ

فَإِنْ يَكُنْ ذَاكَ حَتْمًا لَا مَرَدَّ لَهُ

فَادْكُرْ حُدَيْفَ فَإِنِّي غَيْرُ آبَاءِ

قال حذيفة بن بكر، وإنما ذكره من بين الأشراف لأنه أقرَّبهم إليه نسباً،

لأنَّ أعصرَ ابن سعد بن عيلان. وحذيفة ابن^(٤٧٢) بدر بن عمرو بن جويه بن

لوذان بن ثعلبة بن عدي بن فزارة بن ذبيان بغيض بن ريث بن غطفان بن

سعد بن قيس بن عيلان.

قال المرزباني: وحدَّث أبو الحسن الأنصاري، حدَّثني الجاحظُ قال:

كَانَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ تَشَيَّعَ، وَكَانَ ظَرِيفًا، فَقَالَ ابْنُ عَمِّ لَهُ:

بَلَعْنِي أَنْتَ تُبْغِضُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَوَاللَّهِ لَنْ فَعَلْتَ لَتَرَدَّنَّ عَلَيْهِ الْحَوْضَ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَسْقِيكَ.

(٤٧٢) - ابن هذه، وابن التالية لأعصر مثبتتا الألف لأحدهما خير.

قال: والحوضُ في يَدِهِ يومَ القيامةِ!؟

قال: نعم.

قال: وما لهذا الرَّجُلِ الفاضلِ يُقْتَلُ النَّاسَ في الدُّنيا بالسَّيفِ وفي الآخرةِ

بالعطشِ!؟

ف قيل له: أتقولُ هذا مَعَ تشيُّعِكَ ودينِكَ!؟

قال: والله لا تركتُ النَّادِرةَ ولو قَتَلْتَنِي في الدُّنيا وأدخلتني النَّارَ في الآخرةِ.

وقال **الجاحظُ**: ينبغي للكاتب أن يكون رقيقَ حواشي اللسان، عذبَ

ينابيعِ البيانِ، إذا حاورَ سَدَّدَ سَهْمَ الصَّوابِ إلى غَرَضِ المعنى، لا يُكَلِّمُ العامَّةَ بكلامِ الخاصَّةِ، ولا الخاصَّةَ بكلامِ العامَّةِ.

وحدَّثَ **المبرِّدُ** قال: سمعتُ **الجاحظَ** يقول: كُلُّ عِشْقٍ يُسَمَّى

حُبًّا، وليسَ كُلُّ حُبٍّ يُسَمَّى عِشْقًا، لأنَّ العِشْقَ اسمٌ لما فضلَ عن المحبَّةِ، كما أنَّ السَّرْفَ اسمٌ لما جاوزَ الجودَ، والبخلَ اسمٌ لما قَصَرَ عن الاقتصادِ، والجبنُ اسمٌ لما فضلَ عن شِدَّةِ الاحتِراسِ، والهَوَجُ اسمٌ لما فضلَ عن الشَّجَاعَةِ.

وحدَّثَ **ميمون بن هارون الكاتب عن الجاحظ** قال: ذمَّ رجلٌ النَّبِيذَ

فقال: مِنْ مِثَالِهِ أَنْ صاحبه يَتَكَرَّهَهُ قَبْلَ شُرْبِهِ، ويكلِّحُ وَجْهَهُ عِنْدَ شَمِّهِ، ويستنقصُ السَّاقِي من قَدْرِهِ، ويعتبرُ عليه مكياله، ويمزجه بالماء الذي هو ضِدُّهُ ليخرجه عن معناه وحدِّهِ، ثُمَّ يكرعه على المبادرةِ ويعبُّهُ، ويتجرَّعه ولا يكادُ يُسِيغُهُ، ليقَلَّ مَكْنُثُهُ في فيه، ويُسَرِّعُ على اللهواتِ اجتيازَهُ، ثُمَّ لا يستوفي كَلِمَتَهُ

وَيَرَى أَنْ يَجْعَلَ عَاقِبَةَ الشَّرَابِ فَضْلَةً فِي قَدْحِهِ، وَيَشَاحُ السَّاقِي (٤٧٣) فِي الْمُنَازَرَةِ
عَلَى مَا بَقِيَ مِنْهُ عِنْدَ رَدِّهِ، لِيَصْرِفَ عَنِ نَفْسِهِ عَادِيَةَ شُرْبِهِ، وَيَذْهَبُ بِسَاعَتِهِ،
وَيَمْنَعُ مِنْ تَهَوُّعِهِ (٤٧٤)، كَمَا يُفْعَلُ بِطَبِخِ الْغَارِيْقُونَ عِنْدَ شُرْبِهِ وَحُبِّ
الْإِسْطِيخْمُولِ.

وكان الجاحظ يقول: إِنَّ تَهْيَأَ لَكَ فِي الشَّاعِرِ أَنْ تَبْرَهُ وَتَرْضِيهِ وَإِلَّا فَاقْتَلِهِ.

وقال أبو العيْناء: أَنشَدَنِي الْجَاحِظُ لِنَفْسِهِ:

يَطِيبُ الْعَيْشُ أَنْ تَلْقَى حَلِيمًا

غِذَاهُ الْعِلْمُ وَالرَّأْيُ الْمُصِيبُ

لِيَكْشِفَ عَنْكَ حِيلَةَ كُلِّ رَيْبٍ

وَفَضْلُ الْعِلْمِ يَعْرِفُهُ الْأَرِيبُ

سَقَامُ الْحِرْصِ لَيْسَ لَهُ شِفَاءٌ

وَدَاءُ الْبُخْلِ لَيْسَ لَهُ طِيبُ

وَأَنشَدَ الْمَبْرَدُ لِلْجَاحِظِ:

إِنْ حَالَ لَوْنُ الرَّأْسِ عَنْ لَوْنِهِ

فَفِي خِصَابِ الرَّأْسِ مُسْتَمْتَعٌ

هَبْ مَنْ لَهُ شَيْبٌ لَهُ حِيلَةٌ

فَمَا الَّذِي يَحْتَالُهُ الْأَصْلَعُ؟

(٤٧٣) . أَي يَتَّهَمُ بِالشَّحِّ.

(٤٧٤) . تَهْوَعُهُ: تَقِيَعُهُ، مِنْ: هَاعَ يَهْوَعُ وَيَهَاعُ هَوْعًا وَهَوَاعًا: قَاءَ. وَقِيلَ: قَاءَ مِنْ غَيْرِ كَلْفَةٍ. وَتَهْوَعُ: قَاءَ بِتَكْلُفٍ.

وحدَّث أبو العيناء قال: قال الجاحظ: كان الأصمعيُّ مانويًّا^(٤٧٥)،
فقال له العباسُ بن رستم:

لا والله، ولكن نذكرُ حينَ جلستَ إليه تَسأَلُهُ، فَجَعَلَ يأخِذُ نَعْلَهُ
بيده وهي مخصوفةٌ بجديدٍ ويقول: نَعَمْ قِنَاعُ القَدْرِيِّ^(٤٧٦)، فَعَلِمْتَ أَنَّهُ يَعْنِيكَ
فَقُتِمَتْ.

وحدَّث يحيى بن علي بن المنجم قال: قلت للجاحظ: مثلك
في علمك ومقدارك في الأدب يقول في كتاب ((البيان والتبيين)): «وَيُكْرَهُ
للجارية أن تشبَّه بالرجال في فصاحتها! ألا ترى إلى قول مالك بن أسماء
الفزاري:

وَحَدِيثُ أَلَدُهُ هُوَ مِمَّا

يَنْعَتُ النَّاعِثُونَ يُوزَنُ وَرْنَا

مَنْطِقُ صَائِبٍ وَ تَلْحَنُ أَحْيَانًا

وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا

فَتَرَاهُ مِنْ لَحْنِ الإِعْرَابِ. وَإِنَّمَا وَصَفَهَا بِالظَّرْفِ وَالْفِطْنَةِ، وَإِنَّمَا تَلْحَنُ أَي
تُورِي فِي لَفْظِهَا عَنْ أَشْيَاءٍ وَتَتَنَكَّبُ مَا قَصَدَتْ لَهُ.

فقال: فطنْتُ لذلك.

(٤٧٥) . المانوية: ديانة أو نزعة أسسها ماني (٢١٦م-٢٧٣م)، الذي ادَّعى أَنَّهُ البارقليط أو المنقذ الذي بشر به
المسيح عليه السلام في الإنجيل، ولذلك فإن مادة المانوية الأساسية هي المسيحية، ولكنها مطعمة بعناصر
زرادشتية وبوذية.

(٤٧٦) . القدرية: فرقة كلامية أسسها محمد بن خالد الجهمي وخلفه عيلان بن مروان الدمشقي، وقد سميت
بذلك من باب التسمية بالضد، واستناداً إلى قول الرسول ﷺ: {القدرية مجوس هذه الأمة}. ذلك أَنَّ
هذه الفرقة لم تقبل بالقدر فالإنسان حر وله القدرة على أعماله.

قلت: فغيره.

قال: فكيف لي بما سارت به الركبأن؟ فهو في كتابه على خطئه.

قال أبو ملحم: أراد الفزاري بقوله هذا أن خير الحديث ما أومأت إليَّ

به، وورثت عن الإفصاح به لئلا يعلمه غيرنا، ومثله قول الكلابي:

لَقَدْ لَحْنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْهَمُوا

وَوَحَيْتُ وَحِيًّا لَيْسَ بِالْمُرْتَابِ

ومنه قوله تعالى:

﴿ وَتَعْرِفْتُهُمْ فِي مَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ (٤٧٧)

أي فيما يتوَحَّونه بينهم من النفاق والطعن.

قال المؤلف^(٤٧٨): وقد انتصر أبو حيان لهذا القول الذي اعترف

الجاحظُ بِخَطئه فيه، فقال: وعندي أن المسألة مُحْتَمَلَةٌ للكلام، لأنَّ مقابل

المنطقِ الصَّائب المنطق الملحون، واللحن من الغواني والفتيات غَيْرُ منكرٍ ولا

مكروه، بل يستحبُّ ذلك، لأنَّه بالتَّأنيثِ أشبه، وللشَّهوةِ ادَّعى، وَمَعَ العَزَلِ

أجرى. والإعرابُ جِدُّ، وليس الجِدُّ من التَّعْزُلِ والتَّعَشُّقِ والتَّشاجي^(٤٧٩) في

شيء. وعلى مذهب علي بن يحيى أنَّ المنطق الصَّائب هو الكلامُ الصَّريحُ،

(٤٧٧) . سورة محمد . الآية ٣٠ .

(٤٧٨) . قوله: قال المؤلف: وقد انتصر أبو حيان ... دليل على أنَّ النقل ما زال عن التَّوحيدي من رسالته في

تقريظ الجاحظ، لأنَّه من بداية النص وحتى هنا لا يوجد ما يشير إلى أنَّ ثمة مؤلف غير التوحيدي، وقوله

«قال المؤلف» إشارة منه إلى دخوله على نص التوحيدي الذي لم يذكر سواه مصدراً.

(٤٧٩) . التشاجي: من تشاحت المرأة على زوجها تشاجياً: إذا تمتعت وتجازنت.

وَأَنَّ اللَّحْنَ هُوَ التَّعْرِضُ، وَأَنَّهَا تَعْرِفُ هَذَا وَهَذَا، فَهَبَّ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى مَقْبُولٌ، لَمْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى لَهْجاً^(٤٨٠) وَمَرْدوداً؟ وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَرَادُ الشَّاعِرِ ذَاكَ، لِأَنَّ الشَّاعَرَ يَشْعُرُ بِهَذَا كَمَا يَشْعُرُ بِهَذَا. قَالَ أَبُو الْعَيْنَاءِ:

أَنْشَدَنِي الْجَاحِظَ لِنَفْسِهِ فِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ رَبَاحٍ:

وَعَهْدِي بِهِ وَاللَّهُ يُصْلِحُ أَمْرَهُ

رَحِيبُ مَجَالِ الرَّأْيِ مُنْبَلِحَ الصَّدْرِ

فَلَا جَعَلَ اللَّهُ الْوِلَايَةَ سُبَّةً

عَلَيْهِ فَإِنِّي بِالْوِلَايَةِ ذُو خُبْرٍ

فَقَدْ جَهَدُوهُ بِالسُّؤَالِ وَقَدْ أَبَى

بِهِ الْمَجْدُ إِلَّا أَنْ يَلِجَ^(٤٨١) وَيَسْتَشْرِي

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ التَّنُوخِيُّ: حَدَّثَنِي أَبُو الْحَسَنِ أَحْمَدُ بْنُ

مُحَمَّدٍ الْأَخْبَارِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنِي

الْحَسَنُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ مَهْرُوبٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ الْوَكِيلِ قَالَ:

كَنتُ يَوْمًا عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَدْبَرِّ فَرَأَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ رُقْعَةً يُرَدِّدُ النَّظَرَ إِلَيْهَا

فَقُلْتُ لَهُ:

مَا شَأْنُ هَذِهِ الرُّقْعَةِ؟ كَأَنَّهُ اسْتَعْجَمَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْهَا؟

فَقَالَ: هَذِهِ رُقْعَةٌ أَبِي عَثْمَانَ الْجَاحِظِ، وَكَلَامُهُ يَعْجِبُنِي، وَأَنَا أُرَدِّدُهَا عَلَى

نَفْسِي لِشِدَّةِ إِعْجَابِي.

(٤٨٠) - لهجاً: من لهج الأمر: لم يحكمه ولم يبرمه. واللهوحة والتلهوج: التعجل والتسرع.

(٤٨١) - يلج من الحاجة وهي الإلحاح.

فقلتُ: هلَّ يَجُوزُ أنْ أقرأها؟

قال: نعم.

وألقاها إليّ، فإذا فيها:

مَا ضَاءَ لِي نَهَارٌ، وَلَا دَجَا لِي لَيْلٌ مُدُّ فَارَقْتُكَ، إِلَّا وَجَدْتُ الشَّوْقَ
إِلَيْكَ قَدْ حَزَّ فِي كَيْدِي، وَالْأَسْفُ عَلَيَّكَ قَدْ أُسْقَطَ فِي يَدِي، وَالنِّزَاعُ نَحْوَكُ
قَدْ حَانَ جَلْدِي، فَأَنَا بَيْنَ حَشَا خَافِقَةٍ وَدَمْعَةٍ مُهْرَاقَةٍ، وَنَفْسٍ قَدْ ذَبَلَتْ بِمَا
تُجَاهِدُ، وَجَوَانِحُ قَدْ أُبْلِيَتْ بِمَا تُكَابِدُ، وَذَكَرْتُ وَأَنَا عَلْضَى فِرَاشِ الْارْتِمَاضِ
مَمْنُوعٌ مِنْ لَذَّةِ الْإِغْمَاضِ قَوْلَ بَشَّارِ:

إِذَا هَتَفَ الْقُمْرِيُّ نَارَعِنِي الْهُوَى

بِشَوْقٍ فَلَمْ أَمْلِكْ دُمُوعِي مِنَ الْوَجْدِ

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَنَا

وَكُنَّا كَمَاءِ الْمُزْنِ شَيْبَ مَعَ الشَّهْدِ

لَقَدْ كَانَ مَا بَيْنِي زَمَانًا وَبَيْنَهَا

كَمَا كَانَ بَيْنَ الْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ وَالْوَرْدِ

فَانْتَضَمَ وَصَفُ مَا كُنَّا نَتَعَاشَرُ عَلَيْهِ، وَنَجْرِي فِي مَوَدِّنَا إِلَيْهِ فِي شِعْرِهِ هَذَا،
وَذَكَرْتُ أَيْضاً مَا رَمَانِي بِهِ الدَّهْرُ مِنْ فِرْقَةِ أَعْرَائِي مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ أَنْتَ أَعَرَّهُمْ،
وَيَمْتَحِنِي بِمَنْ نَأَى مِنْ أَحْبَابِي وَخَلِصَانِي^(٤٨٢) الَّذِينَ أَنْتَ أَحْبَبْتَهُمْ وَأَخْلَصْتَهُمْ،

(٤٨٢) . الخالصان، بضم الخاء: الخالص المخلص من الأصحاب والأخذان، ويستوي فيه الجمع والمفرد.

وَيُجَرِّعُنِيهِ مِنْ مَرَارَةٍ تَأْيِيهِمْ وَبَعْدُ لِقَائِهِمْ، وَسَأَلْتَ اللَّهَ أَنْ يَفْرِنَ آيَاتِ سُرُورِي
بِالْقَرَبِ مِنْكَ، وَلِيَنْ عَيْشِي بِسُرْعَةِ أَوْبَتِكَ، وَقَلْتُ أَيْبَاتًا تَقْصُرُ عَنْ صِفَةِ وَجْدِي،
وَكُنْهِ مَا يَتَضَمَّنُهُ قَلْبِي، وَهِيَ:

بِحَدِّي مِنْ قَطْرِ الدُّمُوعِ نُدُوبُ

وَبِالْقَلْبِ مِنِّي مُدَّ نَأَيْتَ ذُنُوبُ

وَلِي نَفْسٌ حَتَّى الدُّجَى يُصَدِّعُ الْحَشَا

وَرَجَعُ حَيْنٍ لِلْفُؤَادِ مُذِيبُ

وَلِي شَاهِدٌ مِنْ ضُرِّ نَفْسِي وَ سَقْمِهِ

يُخَبِّرُ عَنِّي أَنِّي لَكَيْبُ

كَأَنِّي لَمْ أَفْجِعْ بِفُرْقَةٍ صَاحِبِ

وَلَا غَابَ عَن عَيْنِي سِوَاكَ حَيْبُ

فقلتُ لابن المدبر: هذه رُقعةٌ عاشقٍ لا رُقعةٌ خادِمٍ، ورقعةٌ غائبٍ لا
رقعةٌ حاضرٍ.

فَصَحِّحْكَ وَقَالَ: نَحْنُ نَنْبَسِطُ مَعَ أَبِي عَثْمَانَ إِلَى مَا هُوَ أَرْقُ مِنْ هَذَا
وَالطَّفِ. فَأَمَّا الْعَيْبَةُ فَإِنَّا بَجْتَمِعِ كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَتَأَخَّرَ ذَلِكَ لِشُغْلِ عَرْضِ لِي،
فَخَاطَبَنِي مَخَاطَبَةَ الْغَائِبِ، وَأَقَامَ انْقِطَاعَ الْعَادَةِ مَقَامَ الْغَيْبَةِ.

قال الجاحظ: كان يأتيني رجلٌ فصيحٌ من العجم. قال: فقلتُ له: هذه
الفصاحةُ، وهذا البيانُ، لو ادَّعيتُ في قبيلةٍ من العربِ لكنتُ لا تُنَارَعُ فيها. قال:

فأجابني إلى ذلك، فجعلتُ أَحْفَظُهُ نَسْبًا حَتَّى حَفِظْتُهُ وَهَذِهِ هَذَا^(٤٨٣). فقلتُ له: الآن لا تَبْتِه عَنَّا.

فقال: سُبْحَانَ اللَّهِ. إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَنَا إِذَنْ دَعِيٌّ.

ومن كلامِ الجاحظ يَصِفُ البلاغةَ: وَمَتَى شَاكَلَ . أَبْقَاكَ اللَّهُ .
اللفظُ مَعْنَاهُ، وكان لذلك الحَالِ وَفَقَاءً، ولذلك القَدْرِ لِفَقَاءً^(٤٨٤)، وخرج من سَمَاجَةِ الاستكراهِ، وَسَلِمَ مِنْ فَسَادِ التَّكْلِيفِ، كَانَ قَمِنًا بِمُحْسِنِ الموقِعِ، وحقيقاً^(٤٨٥) بانْتِفَاعِ المِستَمِعِ، وَجَدِيرًا أَنْ يَمْتَعَ جَانِبُهُ مِنْ تَأْوِيلِ الطَّاعِنِينَ، وَيَحْمِي عِرْضَهُ مِنْ اعْتِرَاضِ العَائِبِينَ، وَلَا يَزَالُ القُلُوبُ بِهِ مَعْمُورَةً، وَالصُّدُورُ بِهِ مَاهُولَةً، وَمَتَى كَانَ اللفظُ أَيضاً كَرِيماً فِي نَفْسِهِ، مُتَخَيِّراً مِنْ جِنْسِهِ، وَكَانَ سَلِيماً مِنَ الفُضُولِ، بَرِيئاً مِنَ التَّعْقِيدِ، حُبَّبَ إِلَى النُّفُوسِ، وَاتَّصَلَ بِالأَذْهَانِ، وَالتَّحَمَّ بِالعُقُولِ، وَهَشَّتْ إِلَيْهِ الأَسْمَاعُ، وَارْتَاخَتْ لَهُ القُلُوبُ، وَخَفَّتْ عَلَى أَلْسِنِ الرُّوَاةِ، وَشَاعَ فِي الأَفَاقِ ذِكْرُهُ، وَعَظُمَ فِي النُّفُوسِ خَطَرُهُ، وَصَارَ ذَلِكَ مَادَّةً لِلعَالِمِ الرَّئِيسِ، وَرِيَاضَةً لِلْمَتَعَلِّمِ الرَّيِّضِ^(٤٨٦) وَمَنْ أَعَارَهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ نَصِيباً، وَأَفْرَغَ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ ذَنْوباً، حَبَّبَ إِلَيْهِ المَعَانِي، وَسَلَّسَ لَهُ نِظَامَ اللفظِ، وَكَانَ قَدْ أَغْنَى المُسْتَمِعَ عَنِ كَدِّ التَّكْلِيفِ، وَأَرَاخَ قَارِئِ الكِتَابِ مِنْ عِلاجِ التَّنْفُهِمِ.

(٤٨٣) . الهذ والهذذ: سرعة القطع وسرعة القراءة، يقال: هذ القرآن ويهذه هذاً، ويهذ الحديث أي: يسرده مسرعاً في سرده.

(٤٨٤) . اللفق: أحد شقي الملاءة، والمراد التوافق بين اللفظ والمعنى توافق اللفق للفق.

(٤٨٥) . حقيق: خليق، جدير.

(٤٨٦) . الأمر الريض: الذي لم يحكم تدييره.

وقرأت بخطّ أبي حيّان التّوحّيدي من كتابه الذي ألفه في تقرّيب الجاحظ:
 وحدّثنا أبو سعيد السّيرافي . وهُمّك من رَجُلٍ، وناهيك من عالمٍ،
 وشَرَعك^(٤٨٧) من صدوقٍ . قال: حدّثنا جماعةٌ من الصّابئين الكتاب أنّ
 ثابت بن قرّة قال: ما أحسّد الأُمّة العرَبِيَّةَ إلا على ثلاثة أنفس فإنّه:

عَقَمَ النِّسَاءَ فَلَا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ
 إِنَّ النِّسَاءَ بِمِثْلِهِ عَقُمُ

فقليل له: أحص لنا هؤلاء الثلاثة.

قال: أوّلهم عمرُ بن الخطّاب في سياسته ويقظته وحذره،
 وتحفّظه ودينه وتقيّته، وجرّالته وبدّالته وصرامته وشهامته، وقيامته في صغيّر
 أمره وكبيره بنفسه، مع قريحة صافية، وعقلٍ وافرٍ، ولسانٍ عَضْبٍ^(٤٨٨)،
 وقلبٍ شديدٍ، وطويّة مأمونة، وعزيمة مأمومة، وصدرٍ مُنْشَرِحٍ، وبالٍ
 مُنْفَسِحٍ، وبديهة نضوح^(٤٨٩)، ورويّة لُقُوحٍ^(٤٩٠)، وسرّ طاهرٍ، وتوفيقٍ
 حاضرٍ، ورأيٍ مصيبٍ، وأمرٍ عجيبٍ، وشأنٍ غريبٍ. دَعَمَ الدّينَ،
 وشيّد بُنيانَهُ، وأحكَمَ أساسَهُ، ورَفَعَ أركانَهُ، وأوضح حُجَّتَهُ، وأنارَ برهانه.
 ملكٌ في زيِّ مسكينٍ، ما جنح في أمرٍ إلى وئى^(٤٩١)، ولا غضّ طرفه عن

(٤٨٧) . همك، وناهيك، وشرعك من رجل: كلها بمعنى: حسبك.

(٤٨٨) . العضب: القطع، عضبه يعضبه عضباً: قطعه، ولسان عضب: ذليق.

(٤٨٩) . النّضوح: كثير النضح، والبديهة النضوح: الممتلئة المتقدّدة التي لا تعوزها الحيلة.

(٤٩٠) . الناقة اللقوح: الحلوبة، والروية اللقوح الممتلئة الدرارة.

(٤٩١) . الونا: الضعف والفتره (الفتر)، والتواني والونا: ضعف البدن، وقد وني ونياً وويّ فهو وانٍ: ضعف.

خناً^(٤٩٢). ظهرته كالبطانة، وبطانته كالظهارة، جَرَحَ وأسَا، ولَانَ وَقَسَا، وَمَنَعَ وأعطى، واستخذى^(٤٩٣) وَسَطًا، كُلُّ ذَلِكَ فِي اللَّهِ وَوَاللَّهُ. لَقَدْ كَانَ مِنْ نَوَادِرِ الرَّجَالِ.

قال: والثَّانِي الحَسَنُ بن أَبِي الحَسَنِ البَصْرِيِّ، فَلَقَدْ كَانَ مِنْ دَرَارِيِّ النُّجُومِ عِلْمًا وَتَقْوَى وَزُهْدًا وَوَرَعًا وَعِفَّةً وَرِقَّةً وَتَأَهُلًا وَتَنْزُهًا وَفَقْهًا وَمَعْرِفَةً وَفَصَاحَةً وَنِصَاحَةً^(٤٩٤)، مَوَاعِظُهُ تَصِلُ إِلَى الْقُلُوبِ، وَأَلْفَاظُهُ تَلْتَبَسُ بِالْعُقُولِ، وَمَا أَعْرَفُ لَهُ ثَانِيًا، وَلَا قَرِيبًا وَلَا مُدَانِيًا، كَانَ مَنْظَرُهُ وَفَقُّ مَخْبَرِهِ، وَعِلَانِيَّتُهُ فِي وَزْنِ سَرِيرَتِهِ، عَاشَ سَبْعِينَ سَنَةً لَمْ يُقْرَفْ^(٤٩٥) بِمَقَالَةٍ شَنْعَاءَ، وَلَمْ يُرَنَّ^(٤٩٦) بِرَبِيبَةٍ وَلَا فَحْشَاءً. سَلِمَ الدِّينَ، نَقِيَ الأَدِيمَ، مَخْرُوسُ الحَرِيمِ، يَجْمَعُ مَجْلِسُهُ ضُرُوبَ النَّاسِ وَأَصْنَافَ اللِّبَاسِ لِمَا يُوَسِّعُهُمْ مِنْ بَيَانِهِ، وَيَفِيضُ عَلَيْهِمْ بِافْتِنَانِهِ؛ هَذَا يَأْخُذُ عَنْهُ الحَدِيثُ، وَهَذَا يُلَقَّنُ مِنْهُ التَّأْوِيلُ، وَهَذَا يَسْمَعُ الحَلَالَ وَالحَرَامَ، وَهَذَا يَتَّبِعُ فِي كَلَامِهِ العَرَبِيَّةَ، وَهَذَا يُجَرِّدُ لَهُ المَقَالَةَ، وَهَذَا يَحْكِي الفَتْيَا، وَهَذَا يَتَعَلَّمُ الحُكْمَ والقَضَاءَ، وَهَذَا يَسْمَعُ المَوْعِظَةَ، وَهُوَ جَمِيعُ هَذَا: كَالْبَحْرِ العِجَاجِ تَدْفُقًا، وَكَالسَّرَاجِ الوَهَّاجِ تَأَلُّقًا. وَلَا تَنْسَ مَوَاقِفَهُ وَمَشَاهِدَهُ بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالتَّنْهِي عَنِ المُنْكَرِ عِنْدَ الأَمْرَاءِ وَأَشْبَاهِ الأَمْرَاءِ بِالكَلَامِ الفَصْلِ، وَاللَّفْظِ الجَزْلِ، وَالصَّدْرِ الرَّحْبِ، وَالوَجْهِ الصَّلْبِ، وَاللِّسَانِ العَضْبِ، الحَجَّاجِ وَفُلَانِ وَفُلَانِ

(٤٩٢). الخنا: من قبيح الكلام، خنا في منق وكلامه يخنو خنواً، والخنأ: الفحش.

(٤٩٣). استخذى: خضع، وسطاً: من السطوة.

(٤٩٤). النصيحة: من النصح والنصيحة.

(٤٩٥). لم يُقْرَفْ (بالبناء للمجهول): لم يعب، ولم يتهم.

(٤٩٦). لم يُرَنَّ (بالبناء للمجهول): لم يرم بريبة أو فاحشة.

من شارة الدين، وبهجة العلم، ورحمة التقي. لا تنبيه لائمة في الله، ولا تذهله رائحة^(٤٩٧) عن الله، يجلس تحت كُرْسِيِّهِ قَتَادَةُ صاحب التفسير، وعمرو^(٤٩٨) وواصل^(٤٩٩) صاحب الكلام، وابن أبي إسحق صاحب النحو، وفرقد السبخي صاحب الدقائق، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم. فمن ذا مثله، ومن يجري مجراه؟!

والثالث أبو عثمان الجاحظ، خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومدرة^(٥٠٠) المتقدمين والمتأخرين، إن تكلم حكي سبحان^(٥٠١) في البلاغة، وإن ناظر ضارع النظام^(٥٠٢) في الجدال، وإن جد خرج في مسك عامر بن عبد قيس^(٥٠٣)، وإن هزل زاد على مزبد^(٥٠٤) حبيب القلوب ومزاج الأرواح.

(٤٩٧) . الرائحة: العشي، أو من الزوال إلى أول الليل.

(٤٩٨) . عمرو: هو عمر بن عبيد، من أبرز شيوخ المعتزلة، اشتهر كثيراً بزهده وتبحره في المسائل الدينية والأخلاقية. رفض الاستزاق بالعلم، ولد سنة ٦٨٠هـ/٦٩٩م وتوفي سنة ١٤٤هـ/٧٦١م.

(٤٩٩) . واصل: هو واصل بن عطاء، اختلف مع أستاذه الحسن البصري في شأن مرتكب الكبيرة واعتزل بسببها حضور حلقاته فقال الحسن: اعتزلنا واصل، فسمي أتباعه بالمعتزلة. توفي سنة ٣١١هـ/٧٤٨م.

(٥٠٠) . مدرة القوم: الدافع عنهم، والمدرة: السيد الشريف، سمي بذلك لأنه يقوى على الأمور ويهجم عليها، والمدرة: المقدم اللسان واليد عند الخصومة والقتال ومنه: رجل مدره حرب.

(٥٠١) . سبحان وائل: هو سبحان بن زفر بن إياس الوائلي، خطيب يضرب به المثل في البيان والخطابة. أسلم في زمن النبي ﷺ ولم يجتمع به، وأقام في دمشق وتوفي بها سنة ٥٤هـ/٦٧٤م.

(٥٠٢) . النظام: هو إبراهيم بن سيار النظام، متكلم من أعلام المعتزلة وشيوخها، اشتهر بمنطقية تحليلاته وتأويلاته، انتقد آراء الفقهاء والجبرية والمرجئة، ورد على المانوية بكتاب، توفي سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م.

(٥٠٣) . عامر: هو عامر بن عبد قيس العبدي الزاهد، عرف بأنه عابد زمانه. روى الحديث عن عمر، توفي سنة ٧٠هـ/٦٩٠م.

(٥٠٤) . مُزْبِدٌ: هو أبو إسحاق مزبد المدني، اشتهر بنوادره المضحكة وبسرعة خاطره ولطيف ملحده، له أخبار كثيرة في البخل فإنه كان مبخلاً إلى الغاية، كثير من نوادره مذكورة في: البيان والتبيين، والحيوان،

وشَيْخُ الْأَدَبِ وَلِسَانُ الْعَرَبِ، كُتِبَهُ رِياضُ زَاهِرَةٌ، وَرَسَائِلُهُ أَفْنَانٌ مُثْمِرَةٌ، مَا نَازَعَهُ مَنَازِعٌ إِلَّا رَشَاهُ أَنْفَاءً، وَلَا تَعَرَّضَ لَهُ مَنَقُوصٌ إِلَّا قَدَّمَ لَهُ التَّوَاضِعَ اسْتِبْقَاءً. الْخُلَفَاءُ تَعَرَّفُوهُ، وَالْأَمْرَاءُ تَصَافِيهِ وَتَنَادَمَهُ، وَالْعُلَمَاءُ تَأْخُذُ عَنْهُ، وَالْخَاصَّةُ تُسَلِّمُ لَهُ، وَالْعَامَّةُ تُحِبُّهُ. جَمَعَ بَيْنَ اللِّسَانِ وَالْقَلَمِ، وَبَيْنَ الْفِطَنِ وَالْعِلْمِ، وَبَيْنَ الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ، وَبَيْنَ النَّثْرِ وَالنَّظْمِ، وَبَيْنَ الذِّكَاةِ وَالْفَهْمِ، طَالَ عَمْرُهُ، وَفَشَتْ حِكْمَتُهُ، وَظَهَرَتْ خِلَّتُهُ، وَوُطِئَ الرَّجَالُ عَقِبَهُ (٥٠٥)، وَتَهَادَوْا أَدَبَهُ، وَافْتَخَرُوا بِالْإِنْتِسَابِ إِلَيْهِ، وَبَجَحُوا بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ. لَقَدْ أَوْتِيَ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخَطَابِ.

هذا قولٌ ثابت، وهو قول صابئٍ لا يرى للإسلام حُرْمَةً، ولا للمسلمين حقًا، ولا يُوجِبُ لأحدٍ منهم ذِمًّا، قد انتقدَ هذا الانتقادَ، ونظَرَ هذا النَّظَرَ، وحكَمَ هذا الحُكْمَ، وأبصرَ الحقَّ بعينٍ لا غشاوةَ عليها من الهول (٥٠٦)، ونَفَسٍ لا لَطَخَ (٥٠٧) بها من التَّقْلِيدِ، وعقلٍ ما تحيَّلَ بالعصبيَّةِ، ولسنا نجهلُ مع ذلك فَضْلَ غيرِ هؤلاء من السَّلَفِ الطَّاهِرِ، والخَلْفِ الصَّالِحِ، ولكنَّا عَجِبْنَا فَضْلَ عَجَبٍ من رَجُلٍ ليس مِنَّا ولا من أهلِ مِلَّتِنَا ولغتنا. ولعلَّه ما خبرَ عمر بن الخطَّابِ كلَّ الخبرة، ولا استوعبَ كلَّ ما للحسن من المنقبة، ولا وقفَ على جميعِ ما لأبي عثمان من البيان والحكمة. يقول هذا القول، ويتعجَّبُ هذا العجب، ويَحْسُدُ أُمَّتُنَا بهم هذا الحسد، ويحتُم

والبصائر والذخائر، وثمار القلوب.

(٥٠٥). - وطئ الرجال عقبه: أي اقتدوا به واقتفوا أثره.

(٥٠٦). - أي من الخوف.

(٥٠٧). - أي: اللوث.

كلامه بأبي عثمان، ويصفه بما يأبى الطَّاعن عليه أن يكون له شيءٌ منه،
ويغضبُ إذا ادَّعى ذلك له لَمْؤُوفٍ^(٥٠٨) عليه، هل هذا إلا الجهل الذي يرحم
المبتلى به ؟

* * *

قال أبو حيان: وحدَّثنا ابن مقسم . وقد طارَ دِكْرُ الجاحظ
لأبي هفان^(٥٠٩) . قيلَ لأبي هفانَ لِمَ لا تهجو الجاحظ وقد نَدَدَ بِكَ وَأَخَذَ
بِمَخَنِقِكَ؟

فقال: أمثلي يخدعُ عن عقله، والله لو وَضَعَ رِسالَةَ في أرنبَةٍ أنفي لما
أمست إلا وبالصَّينِ شهرةً، ولو قلت فيه ألفَ بيتٍ لما طَنَّ مِنْهَا بَيْتٌ في ألفِ
سَنَةٍ.

قال أبو حيان: سَمِعْتُ أبا معمر الكاتب في ديوان بادوريا قال: كَتَبَ
الفتحُ بنُ خاقان إلى الجاحظ كتاباً يقول في فصل منه: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَجِدُ
بِكَ، وَيَهْشُ عِنْدَ ذِكْرِكَ، وَلَوْلا عَظَمَتِكَ في نَفْسِهِ لِعَلِمِكَ وَمَعْرِفَتِكَ، لِحَالِ
بَيْنِكَ وَبَيْنَ بُعْدِكَ عَن مَجْلِسِهِ، وَلِعَصَبِكَ رَأْيِكَ وَتَدْبِيرِكَ فِيمَا أَنْتَ مَشغُولٌ بِهِ

(٥٠٨) . لَمْؤُوفٌ أَي: حَفِيذٌ.

(٥٠٩) . أبو هفان: هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزومي العبدي البصري، نحوي لغوي، راوية للشعر عالم
به ومصنف له. توفي سنة ٢٥٧هـ/٨٧٠م.

ومتوقِّفٌ عليه، وقد كان ألقى إليَّ من هذا عنوانه، فزدتك في نفسه زيادةً كفَّ بها عن بَحْشِيمِكَ، فاعرف لي هذه الحال، واعتقد هذه المنَّة على كتاب الرِّدِّ على النَّصاري، وافرغ منه وعجِّل به إليَّ، وكُنْ من جدًّا^(٥١٠) به على نفسه، تُنالُ مُشَاهَرَتُكَ وقد استطلقتَه لما مضى، واستسلفتُ لك لِسِنَّةً كاملةً مستقبليةً، وهذا ممَّا لم تَحْتَكِمَ به نفسك، وقد قرأت رسالتك في بصيرةٍ عَنَّا، ولولا أيُّ أزيد في مخيلتك لعرفتُك ما يعتريني عند قراءتها والسَّلَام.

قال الجاحظُ: قلتُ للحزامي: قد رَضِيتُ بقول النَّاسِ فيكَ: إنَّكَ بَخِيلٌ.

قال: لا أعدمُني اللهُ هذا الاسمَ، قال: لأنَّه لا يقالُ: فلانٌ بَخِيلٌ إلا وهو ذو مالٍ، فإذا سلِمَ المالُ فادَّعِني بأيِّ اسمٍ شئتُ.

قلتُ: ولا يقالُ سَخِيٌّ إلا وهو ذو مالٍ، فقدَّ جَمَعَ هذا الاسمَ المالَ والحمدَ، وجمَعَ ذاكَ الاسمَ المالَ والدَّمَ.

قال: بينهما فرقٌ.

قلت: هاته.

قال: في قولهم بَخِيلٌ تثبِيتٌ لإقامةِ المالِ في مُلْكِهِ، واسمُ البَخِيلِ اسمٌ فيه حَزْمٌ وَدَمٌّ، واسمُ السَّخَاءِ فيه تَضْيِيعٌ وَحَمْدٌ، والمالُ نافعٌ مكرمٌ لأهله معزٌّ، والحمدُ رِيحٌ^(٥١١) وسُخْرِيَّةٌ، واستماعه ضعفٌ وفُسُولَةٌ^(٥١٢)، وما أقلَّ غناءَ الحمدِ عنه إذا جاع بطنه، وعريَّ جَسَدُهُ، وشِمَّتْ عدوُّه.

(٥١٠) . جدًّا على الأمر: أعطاه النفع والجدوى.

(٥١١) . أي كالريح لا ثبات له ولا دوام.

(٥١٢) . الفُسُولَةُ: الحِصَّةُ والتَّدَالَةُ، والفُسُولُ: الذي لا مروءة له.

قال أبو حيان: وَمِنْ عَجِيبِ الْحَدِيثِ فِي كُتُبِهِ مَا حَدَّثَنَا بِهِ عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى النَّحْوِيُّ الشَّيْخُ الصَّالِحُ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الْأَخْشَادِ^(٥١٣) شَيْخَنَا أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ: ذَكَرَ أَبُو عَثْمَانَ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْحَيَوَانَ أَسْمَاءَ كُتُبِهِ لِيَكُونَ ذَلِكَ كَالْفَهْرَسْتِ، وَمَرَّ بِي فِي جَمَلَتِهَا ((الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّئِ))، وَكِتَابٌ ((دَلَائِلُ النَّبُوَّةِ))، وَقَدْ ذَكَرَهُمَا هَكَذَا عَلَى التَّفَرُّقَةِ، وَأَعَادَ ذِكْرَ الْفَرْقِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ لِشَيْءٍ دَعَاهُ إِلَيْهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَرَى الْكِتَابَيْنِ وَلَمْ أَقْدِرْ إِلَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَهُوَ كِتَابٌ ((دَلَائِلُ النَّبُوَّةِ))، وَرَبَّمَا لَقِبَ بِالْفَرْقِ خَطَأً، فَهَمَّنِي ذَلِكَ وَسَاءَنِي فِي سُوءِ ظَنِّهِ بِهِ، فَلَمَّا شَخَّصْتُ مِنْ مِصْرَ وَدَخَلْتُ مَكَّةَ . حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى . حَاجًّا، أَقَمْتُ مَنَادِيًّا بِعَرَفَاتٍ يَنَادِي . وَالنَّاسُ حُضُورًا مِنَ الْآفَاقِ عَلَى اخْتِلَافِ بِلَدَانِهِمْ، وَتَنَازَحِ أَوْطَانِهِمْ، وَتَبَايُنِ قِبَائِلِهِمْ، وَأَجْنَاسِهِمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَمِنْ مَهَبِّ الشَّمَالِ إِلَى مَهَبِّ الْجَنُوبِ، وَهُوَ الْمَنْظَرُ الَّذِي لَا يَشَاهُهُ مَنْظَرٌ .:

. رَحِمَ اللَّهُ مَنْ دَلَّنَا عَلَى كِتَابِ الْفَرْقِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّئِ لِأَبِي عَثْمَانَ الْجَاحِظِ عَلَى أَيِّ وَجْهِ كَانَ.

قَالَ: فَطَافَ الْمَنَادِي فِي تَرَابِيعِ^(٥١٤) عَرَفَاتٍ وَعَادَ بِالْحَيْبَةِ وَقَالَ: حَجَبَ النَّاسُ مِنِّي وَلَمْ يَعْرِفُوا هَذَا الْكِتَابَ وَلَا اعْتَرَفُوا بِهِ.

قال ابن أخشاد: وَإِنَّمَا أَرَدْتُ بِهَذَا أَنْ أَبْلُغَ نَفْسِي عِذْرَهَا.

قال المؤلف^(٥١٥): وَحَسْبُكَ بِهَا فَضِيلَةٌ لِأَبِي عَثْمَانَ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ ابْنِ الْأَخْشَادِ . وَهُوَ هُوَ فِي مَعْرِفَةِ عُلُومِ الْحِكْمَةِ، وَهُوَ رَأْسٌ عَظِيمٌ مِنْ رُؤُوسِ

(٥١٣) . ابن أخشاد: هو أبو بكر أحمد بن علي بن معجور، واحد من أعلام المعتزلة وشيوخها. ولد نحو سنة ٢٧٠هـ/٨٨٢م وتوفي سنة ٣٢٦هـ/٩٣٨م.
(٥١٤) . ترابيع عرفات: منازل عرفات التي ينزل في الربيع.

المعتزلة . يُسْتَهَامُ بكتب الجاحظ حتَّى ينادي عليها بعرفات والبيت الحرام . وهذا الكتاب موجود في أيدي النَّاسِ اليوم لا تكادُ تُخْلُو خزانة منه . ولقد رأيت أنا منه نَحْوَ مِئَةِ نُسخَةٍ أو أكثر .

* * *

(٥١٥) . لا ندري هنا أي المؤلفين هو المقصود: أهو التَّوحيدي، مؤلف رسالة في تقييظ الجاحظ، أم هو ياقوت مؤلف المعجم والناقل عن التَّوحيدي .

* * *

مرسالة
في علم الكتابة

يَرْجِعُ الْفَضْلُ إِلَى التَّوْحِيدِيِّ فِي أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي فَنِّ الْخَطِّ الْعَرَبِيِّ مُفَصَّلًا فِي أُسُسِهِ وَشُرُوطِهِ وَأَنْوَاعِهِ وَجَمَالِيَّاتِهِ. وَهَذِهِ الرَّسَالَةُ مِنْ الْآثَارِ الْفَرِيدَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَتَنَاوَلُ هَذَا الْمَوْضُوعَ، وَلِذَلِكَ فَهِيَ رِسَالَةٌ مُهِمَّةٌ وَقِيَمَةٌ. ذَكَرَهَا بُرُوكْلْمَانُ - Brockelmann وَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ تُوجَدُ نُسْخَةٌ مِنْهَا فِي مَكْتَبَةِ فَيْيْنَا. طَبَعَهَا الدُّكْتُورُ الْكِيْلَانِيُّ مَرَّتَيْنِ؛ الْأُولَى ضَمَّنَ ((ثَلَاثَ رِسَائِلَ لِلتَّوْحِيدِيِّ)) وَالثَّانِيَةُ ضَمَّنَ ((رِسَائِلَ أَبِي حَيَّانِ التَّوْحِيدِيِّ)).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعَبَّاسِ التَّوْحِيدِيُّ الصُّوفِيُّ الْبَغْدَادِيُّ
رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ:

كُنْتُ . أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءِكَ وَأَدَامَ سُرُورَكَ . يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ عِنْدَ بَعْضِ
الرُّؤَسَاءِ، وَجَزَى كَلَامًا فِي نَعْتِ الْخَطِّ وَشَرَحِ أَقْسَامِهِ، وَتَفْصِيلِ فُنُونِهِ، وَوَصَفِ
مَذَاهِبِ أَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانَ هَذَا الرَّئِيسُ ذَا حِطِّ مُعْجَزٍ
مِنْهُ، وَكَانَ عَدِيمَ الْمُسَاجِلِ عَلَيْهِ . فَاذْبُرْتُ بِكَلَامٍ كُنْتُ وَعَيْتُ جُلَّهُ مِنْ
الْبَرْبَرِيِّ أَبِي مُحَمَّدٍ^(٥١٦)؛ الْمَحْرَّرِ عِنْدَنَا بِبَغْدَادَ، وَكَانَ مُبْرَّرًا فِي صِنَاعَتِهِ، وَارْتَأَى لَهَا
مِنْ أَبِيهِ وَعَمِّهِ . وَالْعِرْقُ إِذَا وَشَجَّ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالرَّذَائِلِ أَتَى
بِالْعَرَائِبِ، وَأَوْفَى عَلَى الْعَجَائِبِ . وَوَصَلْتُ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُ سَمِعْتُهُ مِنَ الْأَفْضَلِ
وَأَصْحَابِ الْأَقْلَامِ الْبَارِعَةِ، وَأَرْيَابِ الْخَطُوطِ الْيَابِعَةِ مِمَّا تَقَطَّتْهُ أَيْدِي الْأَقْلَامِ مِنْ
تَرْتِيبِ الْحُرُوفِ عَلَى أَحْسَنِ نِظَامٍ، مِنْ رِقَّةِ اللَّطَافَةِ، وَدِقَّةِ الظَّرَافَةِ مِمَّنْ تَقَدَّمُوا،
وَكَانَتْ الْعِبْرَةُ فِي زَمَانِهِمْ بِتَعْيِينِ قَوَاعِدِ الْخَطِّ الْكُوفِيِّ بِأَنْوَاعِهِ، وَهِيَ اثْنَتَا عَشْرَةَ
قَاعِدَةً.

(٥١٦) . راجع الفهرست ص ١٣، ومعجم الأدباء ج ٦ . ص ٥٩.

١. أَنْوَاعُ الْخُطِّ الْعَرَبِيِّ

الإِسْمَاعِيلِيُّ، وَالْمَكِّيُّ، وَالْمَدِينِيُّ، وَالْأَنْدَلُسِيُّ، وَالشَّامِيُّ،
وَالعِرَاقِيُّ، وَالعَبَّاسِيُّ، وَالْبَعْدَادِيُّ، وَالْمُشَعَّبِيُّ، وَالرَّيْحَانِيُّ، وَالْمَجَرَّدِيُّ،
وَالْمِصْرِيُّ. فَهَذِهِ هِيَ الْخُطُوطُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَعْمَلٌ قَدِيمًا،
وَمِنْهَا قَرِيبَةٌ الْخُدُوثِ. وَأَمَّا هَذِهِ الطَّرَائِقُ الْمُسْتَنْبَطَةُ فَهِيَ مَرْوِيَّةٌ عَنِ الصَّحَابَةِ
حَتَّى اتَّصَلَتْ بِابْنِ مَقْلَةَ^(٥١٧) وَيَأْفُوتُ وَغَيْرِهِمْ وَهُمْ تَفَنَّنُوا فِيهَا بِحَسَبِ
اجْتِهَادِهِمْ.

(٥١٧) ابن مقلة: هو أبو علي محمد بن علي الحسين بن مقلة الكاتب المشهور؛ أديبٌ وشاعرٌ استوزره المقتدرُ العباسيُّ سنة ٣١٦ هـ، والقاهرُ سنة ٣٢٠ هـ، ثمَّ استوزره الرّاضي بالله ثمَّ نَقَمَ عليه فسجنه وقطع يده اليمنى، فكان يَشُدُّ القلمَ على ساعده ويكتب به. وُلِدَ سنة ٢٧٢ هـ / ٨٦٦ م ومات في السجن سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م.

٣. أَنْوَاعُ أَقْلَامِ الْخَطِّ

وكنْتُ، أطل الله بقاءك، في مجلس ابن البربري وقد حَفَلَ بأرباب الأقلام والخطوط وصار كلُّ منهم يظهر مَحَبَاتِهِ من النوادر، فقال أحدهم: خَيْرُ الْأَقْلَامِ (الْقَصَبِ) مَا اسْتَمَكَنَ نُضْجُهُ فِي جِرْمِهِ^(٥١٨)، وَحَفَّ مَاؤُهُ فِي قَشْرِهِ، وَقُطِعَ بَعْدَ إِقْلَاءِ بَزْرِهِ، وَصَلَبَ شَحْمُهُ، وَثَقَلَ حَجْمُهُ.

وقال آخر: إِنَّ الْقَلَمَ الْمُحَرَّفَ يَكُونُ الْخَطُّ بِهِ أَضْعَفَ وَأَحْلَى، وَالْمُسْتَوِي أَقْوَى وَأَصْفَى، وَالْمُتَوَسِّطُ بَيْنَهُمَا يَجْمَعُ أَحَدَ حَالَيْهِمَا. وَمَا كَانَ فِي رَأْسِهِ طُولٌ فَهُوَ يُعِينُ الْيَدَ الْخَفِيفَةَ عَلَى سُرْعَةِ الْكِتَابَةِ، وَمَا قَصُرَ فَبِحِلَافِهِ.

(٥١٨) . الجِرْمُ: الجَسَدُ، أَوْ أَلْوَاحُ الْجَسَدِ وَجُمْهُانِهِ. وَالْجَمْعُ الْقَلِيلُ أَجْرَامٌ، وَالكَثِيرُ جُرُومٌ وَجُرْمٌ. لِسَانَ الْعَرَبِ -

٣. أنواع البري

وَقَالَ آخَرُ: الْبَرِّيُّ^(٥١٩) عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

الْفَتْحُ: وَهُوَ فِي الْقَلَمِ الصُّلْبِ أَكْثَرُ تَفْعِيرًا، وَالرَّخْوِ أَقْلٌ، وَالْمُعْتَدِلِ بَيْنَهُمَا.

النَّحْتُ: وَالنَّحْتُ نَوْعَانِ: نَحْتُ حَوَاشِيهِ، وَنَحْتُ بَطْنِهِ. أَمَّا حَوَاشِيهِ فَيَكُونُ مُسْتَوِيًّا مِنْ جِهَةِ السِّنِّينِ مَعًا، وَلَا يَحِيفُ عَلَى أَحَدِ الشَّقَيْنِ فَتَضَعُفُ سِنُّهُ. وَتَكُونُ شَحْمَةُ الْقَلَمِ فِي بَطْنِهِ مُتَسَاوِيَةً، وَأَنْ يَكُونَ الشَّقُّ مُتَوَسِّطًا لِلْجِلْفَةِ الْقَلَمِ؛ دَقٌّ أَوْ غَلْظٌ.

الشَّقُّ: وَأَمَّا الشَّقُّ فَيَاغْتَبَارُ الْأَقْلَامَ: إِنْ كَانَ صُلْبًا فَيُشَقُّ أَكْثَرُ الْجِلْفَةِ، وَإِنْ كَانَ رَخْوًا يَكُونُ مِقْدَارُ ثُلْثِ الْجِلْفَةِ، وَإِنْ كَانَ مُعْتَدِلًا يُتَوَسِّطُ.

(٥١٩). أَظُنُّ أَنَّهُ مِنَ الْمُنَاسِبِ بِمَكَانٍ أَنْ تُبَيَّنَ هُنَا أَقْسَامُ الْقَلَمِ كَيْمَا يَكُونُ مَا سِيَأْتِي وَاضِحًا مَفْهُومًا أَكْثَرُ. بِدَايَةِ لَدَيْنَا الْقَصَبَةُ وَالْقَصَبُ مَعْرُوفٌ. تُعْلَفُ الْقَصَبَةُ قِشْرَةً؛ قِشْرُهُ أَصْلُ الْقَصَبَةِ لَا الْقِشْرَةُ الْوَرَقَةُ الَّتِي تُنَزَعُ عَنْهَا. (يتبع) وَتَلْتَصِقُ بِالْقِشْرَةِ مِنَ الدَّاحِلِ الشَّحْمَةُ وَهِيَ مُتَقَاوَنَةٌ الصَّلَابَةِ مِنْ بِدَايَتِهَا حَتَّى الْقِشْرَةَ حَيْثُ تَكُونُ عِنْدَ الْقِشْرَةِ أَصْلَبَ وَفِي مُنْتَهَاهَا أَلْيَنَ، وَكُلَّمَا كَانَتْ مُتَجَانِسَةً وَازْدَادَتْ صَلَابَةً كَانَتْ أَفْضَلَ. فَإِذَا بَرِينَا الْقَلَمَ وَأَنْتَهَيْنَا مِنْ بَرِيهِ كَانَتْ الْجِلْفَةُ مِنْ مُبْتَدَأِ الْبَرِيِّ حَتَّى مُنْتَهَاهُ، أَوْ هِيَ مَكَانُ الْبَرِيِّ، وَكُلَّمَا طَالَتِ الْجِلْفَةُ كَانَ أَفْضَلَ. وَفِي الْقَصَبَةِ تَكُونُ عِنْدَ الْبَرِيِّ وَبَعْدَهُ فُتْحَةٌ مِنَ الرَّأْسِ حَتَّى مُبْتَدَأِ الْبَرِيِّ هِيَ مَا يُسَمَّى الْبَطْنَ، وَأَطْرَافُ هَذَا الْبَطْنِ نَوْعَانِ؛ فِي الْمُقَدِّمَةِ الرَّأْسُ وَوَرَاءَ الرَّأْسِ الْحَوَاشِي، أَيِ طَرَفِي الْبَطْنِ. وَنِهَائِيَةِ الرَّأْسِ الَّتِي يُكْتَبُ بِهَا هِيَ الْقَطَّةُ، وَلِلْقَطَّةِ طَرَفَانِ هُمَا السَّنَانُ الْأَيْمَنُ وَالْأَيْسَرُ.

الْقَطُّ: وَأَمَّا الْقَطُّ فَأَنْوَاعٌ: مُحَرَّفٌ، وَمُسْتَوٍ، وَقَائِمٌ، وَمُصَوَّبٌ.
وَأَجْوَدُهَا: الْمُحَرَّفُ الْمُعْتَدِلُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْنَحُ إِلَى تَدْوِيرِ الْقَطَّةِ
وَيَمُدُّهَا، وَيَرْغَبُ فِيهَا. وَأَعْنِي بِالْمَدَوَّرَةِ أَنْ لَا تُظْهَرَ لَهَا تَحْرِيفًا، وَأَنْ يَكُونَ وَضْعُ
يَدِكَ بِالسَّكِّينِ عَلَى الْاِسْتِوَاءِ لَا يَمِيلُ إِلَى جِهَةٍ بِشَيْءٍ الْبَتَّةِ. وَالْقَائِمُ أَنْ يَكُونَ
اِسْتِوَاءُ الْقِشْرَةِ وَالشَّحْمَةِ مَعًا. وَالْمُصَوَّبُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّحْمَةِ أَوْ الْقِشْرَةِ غَيْرُ
مُحْمُودٍ.

وَقَالَ الْمُدَقِّقُ الْفَاضِلُ الْوَزِيرُ الْكَاتِبُ أَبُو عَلِيٍّ بْنِ مُقَلَّةٍ فِي وَصْفِ الْقَلَمِ:
أَطْلُ الْجِلْفَةِ، وَحَسْنُهَا، وَحَرَفِ الْقَطَّةِ وَأَيْمِنُهَا، وَالْقَطُّ هُوَ الْخَطُّ.

٤ . خصائص جمال الخط

وَالكَاتِبُ يَحْتَاجُ إِلَى سَبْعَةِ مَعَانٍ: الْخَطُّ الْمَجْرَدُ بِالتَّحْقِيقِ،
وَالْمَحَلَّى بِالتَّحْدِيقِ، وَالْمَجْمَلُ بِالتَّخْوِيقِ، وَالْمُزَيْنُ بِالتَّخْرِيقِ، وَالْمُحَسِّنُ
بِالتَّشْقِيقِ، وَالْمُجَادِ بِالتَّدْقِيقِ، وَالْمُمَيِّزُ بِالتَّفْرِيقِ. فَهَذِهِ أَصُولُهُ وَقَوَاعِدُهُ
الْمُتَضَمَّنَةُ لِفُنُونِهِ وَفُرُوعِهِ، وَكُلُّ قَلَمٍ يُظْهِرُ لَهُ الْعَمَلَ عَلَى قَدْرِهِ . وَالْوَرْدُ كِفَاءً
صَدْرِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

أَمَّا الْمَجْرَدُ بِالتَّحْقِيقِ فِإِبَانَةُ الْحُرُوفِ كُلِّهَا؛ مَنْشُورَهَا وَمَنْظُومَهَا، مُفْصَلِهَا
وَمَوْصُولَهَا، بِمَدِّهَا وَقَصْرَاتِهَا، وَتَفْرِيجَاتِهَا وَتَعْوِجَاتِهَا، حَتَّى تَرَاهَا كَأَنَّهَا تَبْتَسِمُ عَنْ
تُعُورٍ مُفْلَجَةٍ، أَوْ تَضْحَكُ عَنْ رِيَاضٍ مُدْبِجَةٍ. فَهَذَا مَا يَعْمُ الْحُرُوفَ كُلِّهَا عَمَاءً،
فَأَمَّا مَا يَخْصُ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْهَا فَسَأَقُولُهُ عَلَى أَثَرِ هَذَا.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّحْدِيقِ فِإِقَامَةُ الْحَاءِ وَالْحَاءِ وَالْجِيمِ وَمَا أَشْبَهَهَا عَلَى تَبْيِضِ
أَوْسَاطِهَا، مَخْضُوعَةً عَلَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا وَفَوْقَهَا وَأَطْرَافِهَا، أَكَانَتْ مَخْلُوطَةً بِغَيْرِهَا أَوْ
بَارِزَةً عَنْهَا، حَتَّى تَكُونَ كَالْأَحْدَاقِ الْمُفْتَحَةِ.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّخْوِيقِ فِإِدَارَةُ الْوَاوَاتِ وَالْفَاءَاتِ وَالْقَافَاتِ وَمَا أَشْبَهَهَا
مُصَدَّرَةً وَمَوْسَطَةً وَمُدَنْبَةً بِمَا يُكْسِبُهَا حَلَاوَةً وَيَزِيدُهَا طَلَاوَةً.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّخْرِيقِ فَتَفْتِيحُ وُجُوهِ الْهَاءِ وَالْعَيْنِ وَالْعَيْنِ وَمَا أَشْبَهَهَا كَيْفَمَا
وَقَعَتْ أَفْرَادًا وَأَزْوَاجًا بِمَا يَدُلُّ الْحِسَّ الضَّعِيفَ عَلَى اتِّضَاحِهَا وَانْفِتَاحِهَا.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّعْرِيقِ فإِبْرَازُ النَّوْنِ وَالْيَاءِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِمَّا يَنْعُ فِي أَعْجَازِ الْكَلِمَةِ
مِثْلُ: مَنْ وَعَنَ وَفِي وَمَتَى وَإِلَى وَعَلَى بِمَا يَكُونُ كَالْمَنْسُوجِ عَلَى مَنْوَالٍ وَاحِدٍ.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّشْقِيقِ فَتَكْنُفُ الصَّادِ وَالضَّادِ وَالكَافِ وَالطَّاءِ وَالظَّاءِ وَمَا
أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْفَظُ عَلَيْهَا التَّنَاسُبَ وَالتَّسَاوِي، فَإِنَّ الشَّكْلَ بِهَيْمَا يَصِحُّ وَمَعَهُمَا
يُخْلَوُ، وَالْخَطُّ فِي الْجُمْلَةِ كَمَا قِيلَ: هَنْدَسَةٌ رُوحَانِيَّةٌ بِآلَةِ جِسْمَانِيَّةٍ.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّنْسِيقِ فَتَعْمِيمُ الْحُرُوفِ كُلِّهَا؛ مَفْصُولُهَا وَمَوْصُولُهَا
بِالتَّصْفِيَّةِ، وَحِيَاطَتُهَا مِنْ التَّفَاوُتِ فِي التَّادِيَّةِ، وَنَفْضُ الْعِنَايَةِ عَلَيْهَا بِالتَّسْوِيَةِ.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّوْفِيقِ فَحِفْظُ الِاسْتِقَامَةِ فِي السُّطُورِ مِنْ أَوَائِلِهَا وَأَوْسَاطِهَا
وَأَوَاخِرِهَا وَأَسَافِلِهَا وَأَعَالِيهَا بِمَا يُفِيدُهَا وَفَاقًا لَا خِلَافًا.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّدْقِيقِ فَتَحْدِيدُ أَذْنَابِ الْحُرُوفِ بِإِرْسَالِ الْيَدِ وَاعْتِمَالِ سِنِّ
الْقَلَمِ، وَإِدَارَتِهِ مَرَّةً بِصَدْرِهِ، وَمَرَّةً بِسِنِّيهِ، وَمَرَّةً بِالِاتِّكَاءِ، وَمَرَّةً بِالإِرْخَاءِ، بِمَا
يُضَيِّفُ إِلَيْهَا بَهَجَةً وَنُورًا وَرَوْنَقًا وَشُدُورًا.

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِالتَّفَرِيقِ فَحِفْظُ الْحُرُوفِ مِنْ مُزَاحِمَةِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ، وَمَلَابَسَةِ
أَوَّلِ مِنْهَا لِآخِرِ، لِيَكُونَ كُلُّ حَرْفٍ مِنْهَا مُفَارِقًا لِصَاحِبِهِ بِالْبَدَنِ، جُمَاعًا بِالشَّكْلِ
الْأَحْسَنِ.

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ كَافِيَةٌ مَتَى كَانَ طَبَعُ الْكَاتِبِ مُؤَاتِيًا، وَفَعَلُهُ مُوَاطِعًا، وَقَرِيحَتُهُ
عَدْبَةً، وَطَبِئَتُهُ وَطَقَةً.

٥ . أقسام الخط

وَسَمِعْتُ الْأَعْسَرَ الْخَطَّاطَ أَبَا الْحَسَنِ يَقُولُ: الْخَطُّ أَرْبَعَةٌ أَقْسَامٌ؛ فَالْأَوَّلُ هُوَ الْمُحَقَّقُ بِالْقَلَمِ الْغَلِيظِ، وَالْوَسْطُ، وَالذَّقِيقُ مُحَرَّفًا أَوْ مُقَوِّمًا، ثُمَّ الشَّيْبِيُّ فِيهِمَا. قَالَ: فَاجْتَهَدُ أَلَّا يَكُونَ الْغَلِيظُ مِنَ الْأَقْلَامِ جَافِيًا، وَلَا الْوَسْطُ مِنْهَا مُنَافِيًا، وَلَا الذَّقِيقُ مِنْهَا ضَعِيفًا.

٦ - من مبادئ الخط في أثناء الكتابة

وَقَالَ الْمُدْرَسُ بِيَابِ الطَّاقِ يَوْمًا لِابْنِ الْخَلَّالِ الْوَرَّاقِ^(٥٢٠): يَا هَذَا، إِذَا حَرَفْتَ الْقَلَمَ فَلَا تُثْقِلْ عَلَيْهِ يَدَكَ، وَإِذَا قَوَّمْتَهَا فَلَا تُخَفِّفْهَا عَنْهُ، وَعَيْبُ خَطِّكَ مَعَ حَلَاوَتِهِ أَنْ شَحَمَةَ قَلَمِكَ زَائِدَةٌ عَلَى الْحَاجَةِ، وَلَكَ فِيهِ خَطْرَةٌ تَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ الْمُبَالَاةِ، فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ سَطْرًا مِنَ التَّحْسِينِ أَنْفَعُ لَكَ، وَأَنْفَعُ عَلَيْكَ مِنْ عَشْرِ وِرْقَاتٍ فِي التَّشْمِيرِ. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمًا أَيْضًا: الْخَطُّ بِالْحَبْرِ فِي الْجُمْلَةِ مَفْسَدَةٌ.

وَسَمِعْتُ ابْنَ سُورِينَ الْكَاتِبِ يَقُولُ: «النَّاسُ يَظُنُّونَ أَنَّ إِدْمَانَ الْمَشْقِ جُحُودٌ لِلْخَطِّ، فَلَمْ أَجِدْ هَذَا الْحُكْمَ مُنْتَزِمًا بِالصَّوَابِ، وَلَا مُطْمَئِنًّا إِلَى الْحَقِّ، وَلَا مُلْفَى بِالْقَبُولِ، لِأَنَّ الْإِدْمَانَ لِلْمَشْقِ مُوَالَاةٌ الْحَرَكَةُ بِالْحَرَكَةِ مَعَ تَفَاوُتِ النَّسَبِ، وَذَلِكَ مَجْلِبَةٌ لِلشَّعْثِ، لِأَنَّهُ يَصْدُرُ عَنِ كَلَالَةِ الْيَدِ، وَرُبَّمَا أَوْرَثَ الْقَلَمَ طُعْيَانًا، أَوْ أَحَدَثَ فِي الْأَدَاةِ عِصْيَانًا.

(٥٢٠) . هناك اثنان قد عرفنا بابن الخلال أولهما أبو الحسن علي بن محمد الخلال صاحب الخط المليح والضبط الصحيح المتوفى سنة ٤٨١هـ. والثاني هو محمد بن أحمد الخلال المشتهر أيضاً بجودة خطه، وهو من معاصري أبي حيان التوحيدي.

٧ . أسرار الجمال في الخط

وَسَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ جَعْفَرِ الْكَاتِبِ لِلطَّائِعِ، وَكَانَ حَسَنَ الْخَطِّ، يَغْلُبُ عَلَيْهِ التَّدْوِيرُ يَقُولُ: لَا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلخَطَّاطِ مِنْ أَنْ لَا يُبَاشِرَ شَيْئًا بِيَدِهِ فِي رَفْعِ وَوَضْعِ، خَاصَّةً إِذَا كَانَ الشَّيْءُ ثَقِيلًا، فَإِنَّ الحُرُكَاتِ إِذَا تَمَثَّلَتْ بِالحُرُوفِ، وَالحُرُوفِ إِذَا انْدَفَعَتْ بِالحُرُكَاتِ، كَانَتْ الصُّورَةُ الخَطِيئَةَ، وَالحُرُوفُ الشَّكْلِيَّةُ مَحْفُوظَةً الأَعْيَانِ بِامْتِلَاقِهَا بِهَا، مَحْرُوسَةً الأَبْدَانِ بِانْتِسَاقِهَا إِلَيْهَا. قَالَ: وَلَقَدْ رَفَعْتُ يَدِي بِسَوَاطِي إِلَى الدَّابَّةِ مِرَارًا فِي بَعْضِ الأَيَّامِ وَقَنَّعْتُهَا بِهِ فَتَعَيَّرَ خَطِّ مَدَّةً.

فَحَكَيْتُ ذَلِكَ لِأَبِي سُلَيْمَانَ فَقَالَ: اللَّهُ دُرَّهُ! لَكَاثِمًا اشْتَقَّ هَذَا الوَصْفَ مِنَ المَوْسِقَارِ لِأَنَّهُ يَرِنُ الحُرُكَاتِ المَخْتَلِفَةَ فِي المَوْسِقَى، فَتَارَةً يَخِطُ الثَّقِيلَةَ بِالخَفِيفَةِ، وَتَارَةً يَجْرُدُ الخَفِيفَةَ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَتَارَةً يَرْفَعُ إِحْدَاهُمَا عَلَى صَاحِبَتِهَا بِزِيَادَةِ نَفْرَةٍ، أَوْ نُفْصَانِ نَفْرَةٍ، وَيَمُرُّ فِي أَثْنَاءِ الصَّنَاعَةِ بِالأَطْفِ مَا يَجِدُ مِنَ الحِسِّ فِي الحِسِّ، وَلَطِيفُ الحِسِّ مُتَّصِلٌ بِالنَّفْسِ اللطِيفَةِ، كَمَا أَنَّ كَثِيفَ النَّفْسِ مُتَّصِلٌ بِكثِيفِ الحِسِّ. وَكَانَ كَلَامُهُ أْبْلَغَ مِنْ هَذَا وَلَكِنْ لَهُ مَوْضِعٌ هُوَ أَوْلَى بِهِ.

٨ . خَصَائِصُ جَمَالِ الْخَطِّ

وسمعتُ أبا إسحاق الصَّابِي (٥٢١) يقولُ: ما حَرَرْتُ كتاباً قَطُّ عُقِبَ التَّسْوِيدِ إِلَّا وَرَايْتُ التَّنَافَرَ فِي خَطِّي، وَالتَّطَايَرَ مِنْ قَلَمِي، وَالتَّثَاقُلَ فِي يَدِي (٥٢٢)، فَأَمَّا إِذَا جَمَّمْتُ (٥٢٣) بَعْدَهُ جَمَّةً، أَوْ نَمَّتْ بَعْدَهُ نَوْمَةً فَأَنَا عَلَى صَوَابٍ مَا أُرِيدُ مِنْهُ جَرِيءٌ، وَمِنَ الْخَطِّ فِيهِ بَرِيءٌ.

وَسَمِعْتُ ابْنَ الزُّهْرِيِّ (٥٢٤) التَّالِيَةَ: «مَنْ حَقَّقَ الْحُرُوفَ الْمُفَصَّلَةَ تَحْقِيقًا ثُمَّ وَصَلَ الْاِثْنَيْنِ بِالثَّلَاثِ ثُمَّ وَصَلَ الثَّلَاثَةَ بِالرَّابِعِ عَلَى هَذَا إِلَى آخِرِ مُتَّصِلٍ بِالْكَلِمَةِ، كَقَوْلِهِمْ:

(٥٢١) . هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصَّابِي، كان كاتب الإنشاء ببغداد عند الخليفة وعند عزِّ الدولة البويهية، وتقلَّد ديوان الرِّسائل، مات قبل سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م.

(٥٢٢) . هذا ما يسمَّى بتشنُّج الكَتَّاب . Crampes D'écrivains . انظر إبراهيم الكيلاني: رسائل أبي حَيَّان التَّوْحِيدِي . ص ٢٥٠ .

(٥٢٣) . يقال: جَمَّمْتُ المِكْيَالَ جَمًّا وَأَجَمَّمْتُهُ، فَهُوَ جَمَّانٌ إِذَا بَلَغَ الْكَيْلُ جُمَامَهُ، مِنَ الْجُمَامِ وَالْجُمَامِ وَالْجُمَامِ وَالْجَمِّمِ، وَهُوَ الْكَيْلُ إِلَى رَأْسِ الْمِكْيَالِ، وَقِيلَ جُمَامَهُ طِفَافُهُ . (لسان العرب . جمم) . ولعله يريد من ذلك أَنَّهُ إِذَا بَلَغَ بِهِ هَذَا الْأَمْرَ ذُرُوتَهُ بَمَا يَشْبَهُ الرَّعْشَةَ وَهِيَ الْجَمَّةُ، كَانَ مَا كَانَ ...

(٥٢٤) . لعله الزهري الذي ورد ذكره عند التوحيدى ذاته في الإمتاع والمؤانسة عدة مرات في ج ١، ص ١٠٨ - ج ٢، ص ١٧٧ . ج ٣، ص ١٠٠ . وهو أبو الفضل عبيد الله بن عبد الرحمن البغدادي، كان محدثاً ثقة، توفي سنة ٣٨١ هـ .

فَسَيَكْفِيكَهُمُ، وَيَسْتَنْصِرُونَ، وَالْأَسْتِغْلَامُ، وَالْأَسْتِغْهَامُ،
وَالْأَسْتِغَامَةُ، وَالْأَسْتِغَامَةُ، وَحَجَّحَ، وَحَجَّجًا، وَالْأَسْتِجَاحُ، وَالْجَحَاجِحَةُ،
وَالصَّيَادِنَةُ، وَالصَّيَاقِلَةُ، وَالصَّاقِلَةُ، وَالغَطَارِفَةُ، وَالطَّرَاحِنَةُ، وَالْبَطَارِقَةُ، وَوَقَفَ
عَلَى الْمُتَمَاتِلِينَ، مِثْلُ: حَطَطْتُ، وَحَطَطْتُ، وَقَطَطْتُ، وَنَصَصْتُ، وَحَصَصْتُ،
وَقَصَصْتُ، وَاسْتَنْصَحْتُ، وَاسْتَصَحَبْتُ، وَتَكَوَّكَبْتُ، وَاسْتَنْجَحْتُ، وَاسْتَصْلَحْتُ،
وَاسْتَنْبَحْتُ، وَاسْتَشْرَحْتُ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا فَإِنَّهُ كَثِيرٌ، رَجَوْتُ لَهُ أَنْ يَبْلُغَ مِنْ رَسْمِ
الْحَطِّ الذُّرْوَةَ الْعَالِيَةَ.

٩ . صِنَاعَةُ الْجَمَالِ فِي الْخَطِّ

قَالَ^(٥٢٥): وَمَلَأُ الْأَمْرَ . فِي الْخَطِّ . تَقْوِيمُ أَعْجَازِ السُّطُورِ، وَتَسْوِيَةُ هَوَادِي^(٥٢٦) الْحُرُوفِ، وَحِفْظُ التَّنْسِيقِ، وَقَلَّةُ الْعَجَلَةِ، وَإِظْهَارُ الْقُدْرَةِ فِي عَرْضِ الْاسْتِزْسَالِ، وَإِرْسَالُ الْيَدِ فِي طَيِّ الْاِقْتِنَادِ.

وَسَمِعْتُ الْعَسْجِدِيَّ يَقُولُ: لِلْخَطِّ دِيْبَاجَةٌ مُتَسَاوِيَةٌ، وَأَمَّا وَشِيئُهُ فَشَكْلُهُ، وَأَمَّا التِّمَاعَةُ فَمُشَاكَلُهُ بِيَاضِهِ لِسَوَادِهِ بِالتَّقْدِيرِ، وَأَمَّا حَلَاوَتُهُ فَافْتِرَاقُهُ فِي اجْتِمَاعِهِ.

وَسَمِعْتُ الْمُرْزَبَانِيَّ^(٥٢٧) الْكَاتِبَ الْبَلِيغَ يَقُولُ: الْخَطُّ هِنْدَسَةٌ صَعْبَةٌ، وَصِنَاعَةٌ شَاقَّةٌ، لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ حُلُوءًا كَانَ ضَعِيفًا، وَإِنْ كَانَ مَتِينًا كَانَ مَعْسُولًا، وَإِنْ كَانَ جَلِيلًا كَانَ جَافِيًا، وَإِنْ كَانَ دَقِيقًا كَانَ مُنْتَشِرًا، وَإِنْ كَانَ مُدَوَّرًا كَانَ غَلِيظًا، فَلَيْسَ يَصِحُّ لَهُ شَكْلٌ جَامِعٌ لِصِفَاتِهِ فِي الْكِبَرِ وَالصَّغَرِ إِلَّا فِي الشَّاذِّ الْمُسْتَنْدَرِ.

(٥٢٥) . القول للزهري أيضاً.

(٥٢٦) . هوادي : أوائل .

(٥٢٧) . المرزباني: هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى، أصله من خراسان، كان من الأدباء الإخباريين المصنِّفين، وله كتب كثيرة في الأدب والتاريخ عندها صاحبُ الفهرست وقال: «إنَّه صادقُ اللهجة، واسعُ المعرفة بالروايات، كثيرُ السَّماعِ». توفي سنة ٣٧٨هـ.

١٠ . نقد بعض الخطّاطين

وَسَمِعْتُ ابْنَ الْمَشْرِفِ الْبَغْدَادِيَّ يَقُولُ: رَأَيْتُ خَطَّ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي خَالِدٍ كَاتِبِ الْمَأْمُونِ وَكَانَ مَلِكُ الرُّومِ يُخْرِجُهُ فِي يَوْمِ عِيدِهِ فِي جُمْلَةِ زِينَتِهِ، وَيَعْرِضُهُ عَلَى الْعِيُونَ. فَقَالَ: وَكَانَتْ أَلْفَانُهُ وَلَا مَائَتُهُ عَلَى غَايَةِ الْإِنْتِصَابِ وَالتَّقْوِيمِ، وَلَمْ أَجِدْ فِي جَمِيعِ حُرُوفِ خَطِّهِ عَيْبًا إِلَّا فِي الْوَاوَاتِ الْمَوْصُولَةِ، وَالْيَاءَاتِ الْمَفْصُولَةِ. قَالَ: وَرَأَيْتُ خَطَّ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ^(٥٢٨)، وَكَانَ ضَعِيفًا جِدًّا، وَلَكِنَّهُ كَانَ شَدِيدَ الْحَلَاوَةِ قَهَّارًا لِلْعِيُونَ. قَالَ: وَرَأَيْتُ خَطَّ ذِي الرِّيَاسَتَيْنِ وَكَانَ نَهَائِيَّةً، لَكِنَّهُ كَانَ لَا يَكْتُبُ بِالْقَلَمِ الْأَوْسَطِ وَلَا الدَّقِيقِ. قَالَ: وَلَيْسَ لِأَهْلِ الْمَشْرِقِ وَلَا لِأَهْلِ الْمَغْرِبِ خَطٌّ مَوْصُوفٌ.

قَالَ لَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّنْجِيِّ الْكَاتِبِ وَرَأَيْتُهُ بِأَدْرَبِيحَانَ يَكْتُبُ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَرْزَبَانَ السَّلَّارِ يَقُولُ: أَصْلَحُ الْخُطُوطِ وَأَجْمَعُهَا لِأَكْثَرِ الشُّرُوطِ مَا عَلَيْهِ أَصْحَابُنَا بِالْعِرَاقِ. فَقُلْتُ: مَا تَقُولُ فِي خَطِّ ابْنِ مُقْلَةَ؟ قَالَ: ذَاكَ نَبِيٌّ فِيهِ أُفْرَعُ الْخَطُّ فِي يَدِهِ كَمَا أُوحِيَ إِلَى النَّحْلِ فِي تَسْنُدِيسِ بُيُوتِهِ.

(٥٢٨) . إبراهيم بن العباس: هو أبو إسحق إبراهيم بن العباس الصُّولي؛ شاعرٌ وكاتبٌ مشهورٌ تنقَّلَ في أعمال السُّلطان ودواوينه إلى أن توفِّي سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م. وقد كانت ولادته سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م.

١١. خَطُّ أَهْلِ الْعِرَاقِ

وقلتُ، لأبي الجمل، وكتب لشاشنيكير نصر الدولة: بأيِّ شيءٍ تفرَّقُ
بينَ خطِّ أهلِ العراقِ؟

قال: بما لا يخفى على ذي حسٍّ، ولا يُحتاج فيه إلى شكٍّ وُحدسٍ؛ خطُّ
أصحابنا سفرٌ ناضرٌ، وخطُّ أهلِ الجبلِ كمدٌّ، جافٌ، عليه نُبوٌّ. وإذا اتَّفق فيه
قومٌ كانَ كالخطِّ في طيِّ الصَّوابِ، ثمَّ لا يكونُ رونقٌ لتأهّبِ الحروفِ الباقيةِ،
وكُلُّ شيءٍ مستغرقٌ في أشياء فلا بهجة له.

وسمعتُ أبا تمامَ الزَّيْنَبِيِّ^(٥٢٩) وكانَ حسنَ الخطِّ، بديعَ البلاغةِ، يقولُ،
وقيلَ: قيلَ له: أئنَّ لك هذا الخطُّ وهذه البلاغةُ؟ قال: أمَّا الخطُّ فإني تلقيت فيه
ابن مقلَّةَ أبا علي، وإن كنتُ بعيداً من شأوه، غير شاقِّ لِعُبارِهِ. وأمَّا البلاغةُ
فالعرق الهاشميُّ أنجبُ، والافتداءُ ببني ثوابة أفيدُ.

(٥٢٩) . ذكره التَّوْحِيدِي ذاته في الصَّفحات ١٠٠، ١٥٣، ٢١٣ من الجزء الثالث من الإمتاع والمؤانسة في

معرض حضور مجالس العلم والمناظرة، وعده في المرّة بين أكابر القوم من العلماء والأدباء ...

١٣. أقوال في الخطِّ ووظائفه

وإن كنتُ ذهبتُ أحكي جميع ما وعيتُ من سادّة هذا الشّانِ، وكُبراءِ هذه الصّناعة، طالَ وكثُر. وأروي لك في هذا الجزء فقرّاً للحكماءِ والعلماءِ تتّصلُ بوصفِ الخطِّ، ونُفيدُ ذرْبَةً لِطالِبِهِ حتّى يصيرَ محذراً به على التّنافسِ فيه، واقتباسِ الخطِّ الأوفى بِحَوْلِهِ وقوَّتِهِ، والمدائِزِ على الطّبعِ المُنفقِ، والإرادةِ القويّةِ، والتّأييدِ السّابقِ.

قالَ بعضُ السّلفِ:

الخطُّ الحسنُ يزيّدُ الحقَّ ووضوحاً.

وقالَ قُتادةٌ في قوله جَلَّ ثناؤُهُ:

﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ (٥٣٠)

قالَ: الخطُّ الحسنُ.

وروي عن وهب قالَ: إنّ رجلاً كتَبَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فأحسنَ

تَمْطِيطَهُ وَتَخْطِيطَهُ فَعَفَرَ اللهُ لَهُ.

وقالَ عُمَرُ بن الخطّابِ : شرُّ القِراءةِ الهُدْرمةُ (٥٣١)، وَشَرُّ الكِتابَةِ

المَشْنُوقُ (٥٣٢).

(٥٣٠) . سورة فاطر . الآية ١ .

(٥٣١) . الهذمة ومثلها الهذربة كثرة الكلام، وهي كذلك السرعة في القراءة والكلام والمشى . وعن ابن السكيت:

وقال عمر: أحسن الخط أبينه، وأبين الخط أحسنه.

وقال عباس: الخط لسان اليد.

والبلاغة لسان العقل.

والعقل لسان المحاسن.

والمحاسن كمال الإنسان.

إذا أسرع الرجل في الكلام ولم يتتبع فيه قيل: هَذَرَمَ هَذَرَمَةً.

(٥٣٢) . المشق: جذب الشيء ليمتد ويطول، ومنها: قَلَمَ مَشَقًّا أي: سريع الجري في القرطاس، ومشق الخطَّ

يَمَشُقُهُ مَشَقًّا؛ مدّه، وقيل أسرع فيه. ومن ذلك أيضاً: مشق الوتر؛ جذبه ليمتد.

١٣. أقوال في الأقلام ووظائفها

وقال الحكيم الأول: القلم أخذ اللسانين.

كما قيل: قلمه العيال أخذ اليسارين.

وقيل لنصر بن سيار: فلان لا يخط.

قال: تلك الزمانة^(٥٣٣) الحفية.

وقال ابن الزيات الوزير: بالقلم تُزف بنات العُقُول إلى خُدُورِ الكُتُبِ.

وقال ابن التَّوَّام: خطُّ القلم يُقرأ بكلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمانٍ، ويُترجمُ بكلِّ

لسانٍ، ولَفْظُ اللسانِ لا يجاوزُ الآذانَ، ولا يعمُّ النَّاسَ بالبيانِ، ولولا

الكتابُ لاختلقت أخبارُ الماضينَ، وانقَطَعَتْ أنباءُ الغابرينَ، وإِنما اللسانُ للشَّاهدِ

لكَ، والقلمُ للغائبِ عنكَ، وللماضي والغابرِ بَعْدَكَ، فَصَارَ نَفْعُهُ أعمَّ، والدَّواوينَ

إليه أفقرَ، والمَلِكُ المقيمُ بِوَأَسْطَةِ بلادِهِ لا يُدْرِكُ مَصالِحَ أَطرافِهِ، وسدَّ ثغورِهِ،

وتَقْوِيمَ مَمْلَكَتِهِ إِلاَّ بالكتابِ، ولولا الكتابُ لَمَّا استقرَّ التَّدبيرُ، ولا استقامتِ

الأُمُورُ.

وقال إسماعيل بن صبيح الثَّقَفِيُّ^(٥٣٤): عُقُولُ الرِّجالِ تَحْتَ أَسنانِ

أَقلامِها.

(٥٣٣) . الزَّمانَةُ؛ العاهة الدائمة.

(٥٣٤) . هو إسماعيل بن صبيح الكاتب، كتب ليحيى بن جعفر البرمكي، قلده الحراني زمام الشام، وقلده

هارون الرشيد ديواني الخراج والرسائل.

وقال قَالَ عَلِيُّ بْنُ عُيَيْدَةَ^(٥٣٥): الْقَلَمُ أَصَمُّ، وَلَكِنَّهُ يَسْمَعُ النَّحْوَى، وَأَبْكُمْ وَلَكِنَّهُ يُفْصِحُ عَنِ الْفَحْوَى، وَهُوَ أَعْيَا^(٥٣٦) مِنْ بَاقِلٍ^(٥٣٧)، وَلَكِنَّهُ أَفْصَحُ وَأَبْلَغُ^(٥٣٨) مِنْ سَحْبَانَ وَائِلٍ؛ يُتْرَجَمُ عَنِ الشَّاهِدِ، وَيُخْبِرُ عَنِ الْغَائِبِ.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَوْسُفَ^(٥٣٩) كَاتِبُ الْمَأْمُونِ: مَا عَبَّرَتْ الْعَوَانِي فِي خُدُورِهِنَّ بِأَحْسَنَ مِنْ عَبَّرَاتِ الْأَقْلَامِ فِي بُطُونِ الْكُتُبِ.
وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى^(٥٤٠) الْخَطُّ سِمْتُ^(٥٤١) الْحِكْمَةِ؛ بِهِ تُفْصَلُ شُدُورُهَا، وَبُنْظَمَ مَنثورُهَا، وَوُؤْلِفَ بَدْدُهَا، وَيُكْتَنَفُ مَدْدُهَا.

وَقَالَ التَّمْرِيُّ: الْأَقْلَامُ مَطَابُ الْفِطْنِ، وَبَرْدُ الْقَرَائِحِ، وَطَلَانِعُ الْأَلْبَابِ.
وقال جَبَلُ بْنُ يَزِيدَ: الْقَلَمُ لِسَانُ الْبَصِيرِ يُنَاجِيهِ بِمَا اسْتَتَرَ مِنَ الْأَسْمَاعِ، وَيُنَاقِيهِ بِمَا اسْتَتَارَ مِنَ الطَّبَاعِ، وَيُجَدِّدُهُ بِمَا حَدَّثَ وَإِنْ كَانَ فِي الْبِقَاعِ^(٥٤٢).

(٥٣٥) . علي بن عبيدة: هو أبو الحسن علي بن عبيدة الرِّيحاني؛ الكاتبُ البليغُ. كان له اختصاصٌ بالمأمون. وصنَّفَ كتباً عديدةً، توفي سنة ٢٩١هـ.

(٥٣٦) . أعيا من باقل: انظره في: جمع الأمثال.

(٥٣٧) . باقل: رجلٌ ضربَ به المثل في العيِّ. وغالباً ما يقترن ذكره بسحبان وائل لبلاغته؛ يقول الجاحظ: «إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل».

(٥٣٨) . أبلغ من سحبان وائل: ورد في معظم كتب الأمثال.

(٥٣٩) . هو أحمد بن يوسف بن صبيح الكاتب الشاعر، كتب للمأمون، والأرجح أنه توفي سنة ٢١٣هـ/٨٢٢م.

(٥٤٠) . هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرِّشيد المشهور.

(٥٤١) . السِّمْتُ: هو الخيط ما دام فيه الخرز أو حبات العقد، وإلا فهو سلك.

(٥٤٢) . أبو حيان التُّوحيدي: رسالة في علم الكتابة (الرِّسائل). ص ٢٥٧.

وَقَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى^(٥٤٣) كَاتِبُ مَرْوَانَ: الْقَلَمُ شَجَرٌ ثَمَرُهُ اللَّفْظُ
وَالْفِكْرُ، وَبَحْرٌ لَوْلُوهُ الْحِكْمَةُ وَالْبَلَاعَةُ، وَمَنْهَلٌ فِيهِ رِيٌّ الْعُقُولِ الظَّامِئَةِ، وَالْحَطُّ
حَدِيقَةٌ زَهْرَتُهَا الْفَوَائِدُ الْبَالِغَةُ.

وقال ابن المقفع: القلم بريدُ العلم يخبرُ بالخير، ويخفي مستور النَّظر،
ويشحد كليل الفكر، ويختنئ من مسقه ثمرة الغير والغير.
وقال أبو ذؤلف العجلي: القلم صائغ الكلام؛ يُفرِّغ ما يجمعه القلب،
ويصوغ ما يسكبه اللب.

(٥٤٣) . عبد الحميد الكاتب: هو عبد الحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب؛ كاتب مروان بن محمد
المشهور المقتول معه على أيدي العباسيين سنة ١٣٢هـ.

١٤. من وظائف القلم والخط أيضاً

وَقَالَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ: حِلْيَةُ تَصَوُّغِهِ الْيَدُ مِنْ تَبْرِ الْعَقْلِ، وَقَصَبُ يَحْوِكُهُ
الْقَلَمُ بِسِلْكِ الْحِذْقِ.

وقال فيلسوف يونان: يُنَوِّرُ الْخَطُّ تُبْصِرُ الْحِكْمَةُ، وَبِرْفَقِ الْقَلَمِ تُصَوِّرُ
السِّيَاسَةُ.

وقال ثمامة: مَا أَثَرَتْهُ الْأَقْلَامُ لَمْ تَطْمَعْ فِي دَرُوسِهِ^(٥٤٤) الْأَيَّامُ.
وقال هشام بن عبد الملك: الْخَطُّ صُورَةٌ ضَمِيلَةٌ لَكِنْ هَا مَعَانٍ جَلِيلَةٌ،
وَشَبْحٌ حَقِيرٌ لَكِنْ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ.

وقال صاحب الطاق: رَبُّ نَخَطٍ جَافٍ عَنِ الْعْيُونِ قَدْ مَلَأَ أَقْطَارَ الظُّنُونِ.
وقال هشام بن سالم: صُورَةُ الْمِدَادِ فِي الْأَبْصَارِ سَوْدَاءٌ، وَلَكِنَّهَا فِي
الْبَصَائِرِ بَيْضَاءٌ.

وقال بشر بن المعتمر^(٥٤٥): الْقَلْبُ مَعْدِنٌ، وَالْعَقْلُ جَوْهَرٌ، وَاللِّسَانُ
مُسْتَنْبِطٌ، وَالْقَلَمُ صَائِعٌ، وَالْخَطُّ صَيْعَةٌ.

(٥٤٤) . دورسه: اندثاره وزواله.

(٥٤٥) . هو أبو سهل البغدادي بشر بن المعتمر، وهو فقيه مناظر من كبار المعتزلة ومؤسس فرقة منها سميت
بالبشرية نسبة له، ومما تميز به قوله إن الأظعمة والألوان والروائح والإدراكات كلها من السمع. توفي ببغداد
سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م.

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ: الْقَلَمُ أَنْفُ الصَّمِيرِ، إِذَا رَعَفَ أَعْلَنَ أَسْرَارَهُ، وَأَبَانَ
آثَارَهُ، وَأَشَاعَ أَخْبَارَهُ.

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَنَظَرَ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ وَهُوَ يَكْتُبُ: الدُّوَاهُ مَنْهَلٌ،
وَالْقَلَمُ وَارِدٌ، وَالكِتَابُ عَطْنٌ.

وَقَالَ الْمَأْمُونُ: الْحُطُّ رَوْضَةُ الْعِلْمِ، وَقَلْبُ الْفَهْمِ، وَفَنُّ الْحِكْمَةِ، وَدِيْبَاجَةُ
الْبَيَانِ.

وقال إبراهيم بن جبلة: مرَّ بي عبد الحميد الكاتب وأنا أخطُ خطًّا
رديئاً فقال: أتحبُّ أن يجودَ خطُّك ؟
قلت: نعم.

قال: قلمك أطل جلفته، وأعد قطته. ففعلت فجاد خطِّي.
وَنَظَرَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى^(٥٤٦) إِلَى خَطِّ حَسَنِ فَقَالَ: لَمْ أَرَ بَاكِيًّا أَحْسَنَ
تَبَسُّمًا مِنَ الْقَلَمِ.

(٥٤٦) . هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد المعروف.

١٥. فوائد الخط والقلم

وَنَظَرَ الْمَأْمُونُ إِلَى مُوَأْمَرَةٍ^(٥٤٧) بِحَطِّ حَسَنِ فَقَالَ: اللَّهُ دُرُّ الْقَلَمِ كَيْفَ يَحُوكُ
وَشَيْءَ الْمَمْلَكَةِ، وَيَطْرُقُ أَطْرَافَ الدَّوْلَةِ، وَيُقِيمُ أَعْلَامَ الْخِلاَفَةِ.

وَدَخَلَ كَاتِبٌ لِعَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ عَلَى عُمَرَ فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ ابْنَ الْقَيْنِ
بِحِكْمَةٍ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ عُمَرُ: لَا يَلْبِثُ الْقَلَمُ أَنْ يَبْلُغَ بِصَاحِبِهِ.

وَكَانَ الرَّشِيدَ مُعْجَبًا بِحَطِّ إِسْمَاعِيلِ بْنِ صَبِيحٍ فَقَالَ لِأَعْرَابِيِّ: صِفْ لِي
إِسْمَاعِيلَ فِي كِتَابَتِهِ. فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ أَطْيَشَ مِنْ قَلَمِهِ، وَلَا أَتْبَتَ مِنْ حُكْمِهِ.
فَقَالَ: أَحْسَنْتَ يَا أَعْرَابِيُّ. وَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ.

(٥٤٧) . الموأمره: المشاوره، ومن ذلك نقول: أمره في الأمر ووأمره واستأمره موأمره أي شاوره.

١٦. ضرورة الخط الحسن

وَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى^(٥٤٨): رَدَاءٌ هُوَ الْخَطُّ إِحْدَى الْفِدَامَتَيْنِ^(٥٤٩)، كَمَا قَالُوا: حُسْنُ الْخَطِّ إِحْدَى الْبَلَاعَتَيْنِ.

وَنَظَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ^(٥٥٠) إِلَى خَطِّ كَاتِبٍ فَلَمْ يُرِضْهُ قَالَ:
نَحْنُو هَذَا عَنْ مَرْتَبَةِ الدِّيَوَانِ فَإِنَّهُ عَلَيْنَا الْخَطُّ وَلَا يُؤْمَنُ أَنْ يُعْدِيَ غَيْرُهُ.
وَرَفَعَ مَعْبُدُ بْنُ فُلَانٍ رُقْعَةً إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ بَخَطِّ قَبِيحٍ فَوَقَعَ فِيهَا:
أَرَدْنَا قَبُولَ عُذْرِكَ، فَأَقْطَعْنَا دُونَهُ مَا قَابَلْنَا مِنْ قُبْحِ خَطِّكَ، وَلَوْ كُنْتَ
صَادِقًا فِي اعْتِدَارِكَ لَسَاعَدْتِكَ حَرَكَةُ يَدِكَ، أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ حُسْنَ الْخَطِّ يُنَاضِلُ
عَنْ صَاحِبِهِ، وَيُبْضِخُ الْحُجَّةَ، وَيُمْكِّنُهُ مِنْ دَرْكِ الْبُعْيَةِ.
وَتَحَايَرَ غَلَامَانِ فِي خَطِّهِمَا إِلَى سَهْلِ بْنِ هَارُونَ فَقَالَ لِأَحَدِهِمَا: أَمَّا أَنْتَ
فَخَطُّكَ تَبْرٌ مَسْبُوكٌ. وَقَالَ لِلْآخَرِ: أَمَّا أَنْتَ فَخَطُّكَ وَشَيْءٌ مَحُوكٌ، تَكَافَأْتُمَا إِلَى
نَهَايَةٍ، وَتَوَافَيْتُمَا عَلَى غَايَةٍ.

(٥٤٨) . الفضل بن يحيى: هو أبو العباس الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي الجواد المشهور، كان أخصاً للرشد في الرضا، ووُزِّر له قبل أخيه جعفر بن يحيى، ثم ولَّاه خراسان. ولد سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٥ م وتوفي في رواية سنة ٢٠٨ هـ / ٨١٧ م وفي رواية أخرى سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م.

(٥٤٩) . القُدَم من النَّاس: العبي من الحجَّة والكلام مع ثق ورخاوة وقلة فهم.

(٥٥٠) . لعلَّه: أبو عبد الله بن طاهر. كان نائباً عن أبي نصر سابور، كما كان من رجالات صمصام الدولة. مات مقتولاً سنة ٣٨٠ هـ / ٨٩٤ م.

١٧- من تعريفات فلاسفة اليونان للخط

وقال إقليدس: الخطُّ هندسةٌ روحانيَّةٌ ظَهَرَتْ بِآلَةِ جَسَدِيَّةٍ.

وقال أوميرس: الخطُّ وشيٌّ أَظْهَرَهُ الْعَقْلُ بِوَسَاطَةِ الْحَسِّ فِي الْقَلَمِ، فَلَمَّا قَابَلَ النَّفْسَ عَشِقَتْهُ بِالْعُنْصِرِ الْأَوَّلِ.

وقال أفلاطون: الْقَلَمُ عُقَالُ الْعُقُولِ، وَالْخَطُّ بَسْطُ الْحَسِّ وَالْمُدْرِكِ، بِهِ مُرَادُ النَّفْسِ.

وقال مودوطيس: الْقَلَمُ قِيَمُ الْحِكْمَةِ، وَالْخَطُّ مَخْدُومُ الْقَلَمِ، وَالْمَعْنَى جُودُ الْعَقْلِ، وَالْبَلَاغَةُ زِينَةُ الْجُمْلَةِ.

وقال جالينوس: الْقَلَمُ طَيِّبُ الْخَطِّ، وَالْخَطُّ مُدَبِّرُ النَّفْسِ، وَالْمَعْنَى عَيْنُ الصَّحَّةِ.

وَقَالَ بَلِينَاَسُ: الْقَلَمُ الطَّلَسْمُ الْأَكْبَرُ، وَالْخَطُّ نَتِيَجَتُهُ.

وَقَالَ أَرْسَطَاطَالِيَسُ: الْقَلَمُ الْعَلَّةُ الْفَاعِلَةُ، وَالْمِدَادُ الْعَلَّةُ الْعُنْصِرِيَّةُ، وَالْخَطُّ الْعَلَّةُ الصُّورِيَّةُ، وَالْبَلَاغَةُ الْعَلَّةُ التَّمَامِيَّةُ (٥٥١).

وَقَالَ مَلِكُ يُونَانَ: أَمْرُ الدُّنْيَا تَحْتَ شَيْعِينَ، أَحَدُهُمَا تَحْتَ الْآخِرِ؛ السَّيْفُ وَالْقَلَمُ، وَالسَّيْفُ تَحْتَ الْقَلَمِ.

(٥٥١) . هذه هي العلل الأربع عند أرسطو، ولها مسميات أخرى، فالعلة الفاعلة هي أيضاً العلة الفاعلية، والعلة العنصرية هي العلة المادية، والعلة التمامية هي العلة الغائية. وهي عند أرسطو على الترتيب: المادية فالصورية فالفاعلية فالغائية.

وَقَالَ الاسكندرُ: لولا القَلَمُ ما استقامتِ المَمْلَكَةُ، وكُلُّ شيءٍ تحتَ
العقلِ واللسانِ لأتَّهما الحاكمانِ على كلِّ شيءٍ، والقَلَمُ يُرِيكُهما شكَّليْنِ،
ويُشْهَدُكُهما صُورَتَيْنِ.
وَزَعَمَ المُنَجِّمُونَ أَنَّ القَلَمَ نَفَّاعٌ في حِسابِ الجُمَلِ.

١٨. الخط صناعة جمال

وَقَالَ يَحْيَىٰ بن خالد: الخَطُّ صُورَةٌ، فَرُوحُهَا البَيَانُ، وَيَدُهَا السَّرْعَةُ،
وَقَدَمُهَا التَّسْوِيَةُ، وَجَارِحَتُهَا مَعْرِفَةُ الوَصْلِ.

وقيل لأعرابي: كيف ترى إبراهيم بن العباس^(٥٥٢) في كتابته؟
قال: يُتَجَنَّبُ^(٥٥٣) اللؤلؤ المنتور منطقه في الخطب، وينظم الدرّ بالأفلام في
الكتب.

(٥٥٢) - إبراهيم بن العباس: هو أبو إسحق إبراهيم بن العباس الصُّولي؛ شاعرٌ وكاتبٌ مشهورٌ، تنقَّلَ في أعمال
السلطان ودواوينه إلى أن توفي سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م. وقد كانت ولادته سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م.

(٥٥٣) - تجنَّبُ الماء: أساله فسال.

١٩. كيفية البري

وقال إبراهيم بن العباس لغلام بين يديه: لِيَكُنْ قَلَمُكَ صُلْبًا بَيْنَ الدَّقَّةِ وَالغَلْظِ، وَلَا تَبْرِهِ عِنْدَ عُقْدَةٍ فَإِنَّ فِيهِ تَعْقِيدَ الْأُمُورِ، وَلَا تَكْتُبْ بِقَلَمٍ مُلْتَوٍ، وَلَا ذِي شِقِّ غَيْرِ مُسْتَوٍ، فَإِنْ أَعْوَزَكَ (افْتَقَرْتَ إِلَى) الْفَارِسِيِّ وَالْبَحْرِيِّ وَاضْطَرَّرْتَ إِلَى النَّبْطِيَّةِ فَاخْتَرْ مِنْهَا مَا يَضْرِبُ إِلَى السُّمْرَةِ، وَاجْعَلْ سَكِّينَكَ أَحَدًا مِنَ الْمَوْسَى، وَلَا تَبْرِ بِهِ غَيْرَ الْقَلَمِ، وَتَعَهَّدْهُ بِالْإِصْلَاحِ، وَلْيَكُنْ مِقْطُكَ أَصْلَبَ الْخَشَبِ لِتَخْرُجَ الْقِطْعَةُ مُسْتَوِيَّةً، وَابْرِ قَلَمَكَ إِلَى الْإِسْتِوَاءِ لِإِشْبَاعِ الْخُرُوفِ، وَإِذَا أَجَلَلْتَ فَإِلَى التَّحْرِيفِ، وَأَجُودَ الْخَطِّ أَبْيَنُهُ، وَأَجُودَ الْقِرَاءَةِ أَبْيَنُهَا.

٣٠. مبادئ وأوليات

وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ وَهَبٍ^(٥٥٤) يَقُولُ: يَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَى خِلَالٍ، مِنْهَا:
تَجْوِيدُ بَرِّي الْقَلَمِ، وَإِطَالَةُ جَلْفَتِهِ، وَتَحْرِيفُ قَطِّعِهِ، وَحُسْنُ التَّأْنِي لِامْتِطَاءِ الْأَنَامِلِ،
وَإِرْسَالُ الْمَدَّةِ بِقَدْرِ إِشْبَاعِ الْحُرُوفِ، وَالتَّحَرُّزُ عِنْدَ إِفْرَاقِهَا مِنَ التَّطْلِيسِ، وَتَرْكُ
الشَّكْلِ عَلَى الْخَطِّ، وَالْإِعْجَامُ عَلَى التَّصْحِيفِ، وَتَسْوِيَةُ الرَّسْمِ، وَالْعِلْمُ بِالْفَضْلِ،
وَإِصَابَةُ الْمَقْطَعِ.

(٥٥٤) . هو أبو علي الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو الكاتب؛ من أسرة كتّابٍ كتبوا في الدولتين الأمويّة والعبّاسيّة. وكان الحسن يكتب بين يدي ابن الرّيات ثمّ ولي ديوان الرّسائل، وولي بعض الأعمال بدمشق وبها مات وهو يتولى البريد آخر أيّام المتوكّل.

٢١. آداب الخط

وقال سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ^(٥٥٥) الكَاتِبِ الَّذِي يَقُولُ: « مِنْ أَدَبِ الكَاتِبِ أَنْ يَأْخُذَ القَلَمَ فِي أَصْلِحِ أَجْزَائِهِ، وَأَبْعَدِ مَا يُمَكِّنُ فِي مَوْضِعِ المَدَادِ فِيهِ. وَيُعْطِيهِ مِنْ أَرْضِ القِرْطَاسِ حَظَّهُ. وَلَا يَكْتُبُ بِالطَّرْفِ النَّاقِصِ مِنْ سَنِّهِ. وَيَضَعُهُ عَلَى عِيَارِ قِسْطِهِ. وَيُصَوِّرُهُ بِأَحْسَنِ مَقَادِيرِهِ حَتَّى لَا يَقَعَ التَّمْيُّ لِمَا دُونَهُ. وَلَا يَخْطُرَ بِالبَالِ شَأُؤَ مَا فَوْقَهُ. وَيَعْدِلُهُ فِي شَطْرِهِ. وَيُشْبِهُهُ مِمَّا يَأْتِي مِنْ شَكْلِهِ. وَيَقْرُنَ الحَرْفَ بِالحَرْفِ، عَلَى قِيَاسِ مَا مَضَى شَرْطُهُ فِي تَقْرِيْبِ مَسَاحَتِهِ، وَبُعْدِ مَسَافَتِهِ. وَلَا يَقْطَعِ الكَلِمَةَ بِحَرْفٍ يُفْرِدُهُ فِي غَيْرِ سَطْرِهِ. وَيُسَوِّي أَضْلَاعَ خُطُوطِ كِتَابَتِهِ. وَلَا يُجَلِّيهِ بِمَا لَيْسَ مِنْ رِيبِهِ. وَلَا يَمْنَعُهُ مَا هُوَ لَهُ بِحَقِّهِ، فَتَخْتَلَفَ حَلِيَّتُهُ، وَتَفْسُدَ قِسْمَتُهُ»^(٥٥٦).

(٥٥٥) . سعيد بن حميد: شاعرٌ مترسلٌ يحسنُ السَّرْقَةَ حَتَّى قَالَ بعضهم: لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع إلى أهلك لما بقي معه منه شيء. وله ديوان صغيرٌ وديوان رسائل. وكان بينه وبين فضل الشَّاعرة مراسلاتٌ ومطارحات. توفي نحو سنة ٢٦٠هـ / ٦٨٤م.

(٥٥٦) . أبو حيان التَّوحِيدِي: رسالة في علم الكتابة (الرَّسَائِل). ص ٢٦٣. ٢٦٤.

٢٢. ضرورة الخط الحسن أيضاً

نصيحة سليم الحرائي: عَطَّرُوا دَفَاتِرَ آدَابِكُمْ بِسَوَادِ الْحَبْرِ.
وَنظَرَ الْعَتَابِيُّ^(٥٥٧) إِلَى وَرَاقٍ يُحْطُّ فَلَمْ يَرْتَضِ خَطَّهُ فَقَالَ لَهُ: اغْتَفِرْ رَدَاءَةَ
خَطِّكَ بِسَوَادِ حَبْرِكَ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْقُبْحِ أَوْلَى بِشِدَّةِ السَّوَادِ.
وَقَالَ الْمَأْمُونُ: كَوَاكِبُ الْحِكْمِ فِي ظُلْمِ الْمِدَادِ.
وَقَالَ ابْنُ التَّوَّامِ: شَكَّلُوا قَرَائِنَ الْآدَابِ لَا تَنْفِرْ عَنِ الصَّوَابِ.
وَرَفَعَ رَجُلٌ قِصَّةً إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ فَوَقَّعَ عَلَى ظَهْرِهَا: مَا أَحْسَنَ مَا
كَتَبَ لَوْلَا أَنَّهُ أَكْثَرَ شُؤْنِيذُهُ^(٥٥٨)!
وَقَالَ ابْنُ ثَوَابَةَ^(٥٥٩): إِعْجَامُ الْكِتَابِ يَمْنَعُ مِنَ اسْتِعْجَامِهِ.
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى الْوَزِيرُ مَا حَدَّثْنَا بِهِ ابْنَهُ عَيْسَى: الْخَطُوطُ الْمُعْجَمَةُ
كَالْبُرُودِ الْمُعْلَمَةِ^(٥٦٠).

(٥٥٧) . العتابي: هو أبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابي؛ الكاتب الشاعر المصنّف المشهور. توفي سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م.

(٥٥٨) . الشّينيز من البرز، بكسر الشين غير مهموز، هذه الحبة السوداء المعروفة بحب البركة.

(٥٥٩) . ابن ثوابة: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن خالد بن ثوابة الكاتب المشهور. توفي سنة ٢٧٣هـ/٨٨٤م أو ٢٧٧هـ/٨٩٠م.

(٥٦٠) . العَلَمُ: رَسَمُ الثَّوْبِ، وَعَلَمَهُ: رَقَمَهُ فِي أَطْرَافِهِ، وَقَدْ أَعْلَمَهُ: جَعَلَ فِيهِ عِلَامَةً وَجَعَلَ لَهُ عِلْمًا، وَأَعْلَمَ الْقَصَارِ الثَّوْبَ فَهُوَ مُعْلَمٌ، وَالثَّوْبُ مُعْلَمٌ.

وَرَفَعَ رَجُلًا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ قِصَّةً قَدْ أَكْثَرَ تُرَابَهَا فَوَقَعَ فِيهَا: إِنَّ
ضَمِنَ لَنَا مِنَ الصَّابُونِ مَا نَعْسِلُ بِهِ ثِيَابَنَا مِنْ تُرَابِ قِصَّتِهِ فَضَيْنَا حَاجَتَهُ.
وَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ الْمَوْرِيَانِي: حَلُّوا عَوَاطِلَ الْعِلْمِ بِالتَّقْيِيدِ، وَحَصَّنُوهَا مِنْ
شُبُهَةِ التَّحْرِيفِ.

٢٣. من وظائف القلم

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ الصُّوْلِيِّ: الْقَلَمُ يَنْطِقُ عَنِ السَّكَاتِ، وَيُخْبِرُ عَنِ
الْبَاهِتِ، وَيُسْرِجِمُ عَنِ الْقُلُوبِ، وَيَطَّلِعُ عَلَى الْعُيُوبِ، وَيُشَافِهُ عَلَى بُعْدِ الدَّارِ،
وَتَنَائِي الْمَزَارِ، لَا تَنْقَطِعُ أَخْبَارُهُ، وَلَا تَدْرُسُ آثَارُهُ، نَاطِقٌ سَاكِتٌ، مَقِيمٌ مَسَافِرٌ،
شَاهِدٌ غَائِبٌ، نَائٍ حَاضِرٌ، إِنْ اسْتَنْهَضَ بَادِرٌ، وَإِنْ وَعَى أَحْضَرٌ، كَتُومُ السَّرِّ،
مَأْمُونُ الشَّرِّ.

٣٤. في الكتاب والقراءة

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْوَزِيرِ: الْكِتَابُ الْمُعْجَمُ هُوَ الْعَرَبِيُّ، وَغَيْرُ
الْمُعْجَمِ هُوَ النَّبْطِيُّ.
وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً بِلا أَعْلَامٍ ضَلَّ، وَمَنْ قَرَأَ خَطّاً
بِلا إِعْجَامٍ زَلَّ.

٣٥. من خصائص جمال الخطِّ

وقال عبد الحميد: الأرض الملساء وحشة، والرّوضة الزّهراء بهجة، فإذا نُورَتْ فقد انتهى حُسْنُهَا، وكذلك الخطُّ بلا نُقْطٍ ولا إعجامٍ كالأرضِ الملساءِ، والمنقوطُ المعجمُ كالرّوضة المبوّرة.

وقال ابنُ ثوابة: الشّكلُ للكتابِ كالشّكلِ للدّوابِ.

وقال سهلُ بنُ هارون: سُوءُ الخطِّ زمانةُ الأديبِ، وقُبْحُ العبارةِ وصمةٌ على اللبيبِ.

نظَرَ الحَسَنُ بنُ وَهْبٍ إِلَى خَطِّ كَاتِبٍ فَقَالَ: هَذَا مُتَنَزِّعُ اللَّحْظِ العَنَجِ، وَمُجْتَنِي اللَّفْظِ البَهَجِ^(٥٦١).

(٥٦١) . جُئِدُ مِنْ جِلَالِ هَذَا النَّصِّ وَغَيْرِهِ مِنَ النُّصُوصِ الْمَذْكُورَةِ أَنَّ الْخَطَّ فَنٌ كَعَبْرَةٍ مِنَ الْفُنُونِ يُؤَدِّي وَطَائِفُهُ الْجَمَالِيَّةَ الْمُخْتَلِفَةَ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ؛ الْخَاصَّةُ بِمَا هُوَ فَنٌ مُسْتَقِلٌّ مُتَمَيِّزٌ بِخَصَائِصِهِ، وَالْعَامَّةُ، الَّتِي جِدَّهَا فِي كُلِّ الْفُنُونِ، وَالْمُمَثِّلَةَ خُصُوصاً فِي الْمَعَايِشَةِ الْجَمَالِيَّةِ وَمَا يَرْتَبِطُ بِهَا وَيَلْزَمُ عَنْهَا.

٢٦. نصائح لتجميل الخط

وَقَالَ عُيَيْدُ بْنُ أَبِي رَافِعٍ: كُنْتُ أَكْتُبُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فَقَالَ لِي: يَا عُيَيْدُ اللَّهُ! أَلَيْقُ^(٥٦٢) دُوَاتِكَ، وَأَطْلُ سِنَّ قَلَمِكَ، وَفَرِّجْ بَيْنَ سُطُورِكَ، وَفَرِّمِطُ^(٥٦٣) حُرُوفِكَ، وَالزِّمِ اسْتِوَاءَ.

وقال أبو سليم: كُنْتُ أَكْتُبُ الْمَصَاحِفَ فَمَرَّ بِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: أَجْلِلْ قَلَمَكَ.
فَقَصَمْتُ مِنْهُ قَصْمَةً ثُمَّ كَتَبْتُ.
فَقَالَ: نَعَمْ، هَكَذَا، نَوِّزُهُ كَمَا نَوَّزَهُ اللَّهُ.

(٥٦٢) . أَلَيْقُ من لاقَ الدَّوَاءَ لِيَقْفًا وَأَلْقَاهَا إِلْقَاءً فَلَاقَتْ أَي لَزِقَ الْمَدَادُ بِصُوفِهَا وَلُقْمَتُهَا لِيَقْفًا أَيضًا، وَالاسْمُ مِنْهُ اللَّيْقَةُ، وَهِيَ لِيَقَّةُ الدَّوَاءِ. لِسَانُ الْعَرَبِ . لِيَق.

(٥٦٣) . الْفَرِّمِطِيُّ: الْمُتَقَارِبُ الْخَطُوطِ، وَفَرِّمِطٌ فِي خَطِّهِ إِذَا قَارَبَ مَا بَيْنَ قَدَمَيْهِ. وَالْقَرْمِطَةُ فِي الْخَطِّ: دَقَّةُ الْكِتَابَةِ وَتَدْتِنِي الْحُرُوفِ، وَكَذَلِكَ الْقَرْمِطَةُ فِي مَشْيِ الْقَطُوفِ، وَفَرِّمِطُ الْكَاتِبِ إِذَا قَارَبَ بَيْنَ كِتَابَتِهِ.

٣٧. خطر الخط الرديء

وقال ابن سيرين: كان يُكره أن يُكتب القرآن مشقاً لأن في ذلك تعجرفاً
وخرقاً.

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه من خط كاتب لأبي موسى
الأشعري حناً فكتب إليه: قد أرسلت لك سوطاً وقال بل في حقّه إليك،
فكتب له الله محذوفاً.

فكتب إليه: أنا أنت اضرب كاتبه سوطاً.

٣٨. حسن الخط من كمال النفس

وقال إبراهيم بن العباس: مَنْ وَهَبَ لَهُ الْعَقْلَ فِي نَفْسِهِ، وَالْبَلَاغَةَ فِي لِسَانِهِ، وَالْحُطَّ فِي يَدِهِ، وَالسَّمْتَ فِي هَيْئَتِهِ، وَالْحَلَاوَةَ فِي شَمَائِلِهِ، فَقَدْ نُظِمَتِ الْمَحَاسِنُ لَهُ نَظْمًا، وَتُبِّرَتْ عَلَيْهِ الْفَضَائِلُ نَشْرًا، وَبَقِيَ عَلَيْهِ الشُّكْرُ وَأَبَى لَهُ ذَلِكَ.

٢٩. أثر الخطِّ في النفس

وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ الْعَنْبَرِيُّ^(٥٦٤): مَا قَرَأْتُ كِتَابًا بَلِيغًا إِلَّا
وَأَعَشَبَ فُؤَادِي سُرُورًا، وَلَا رَأَيْتُ خَطًّا حَسَنًا إِلَّا وَامْتَلَأَتْ عَيْنِي فُورًا.
وَنَظَرَ الْمُتَوَكِّلُ إِلَى خَطِّ أَحْمَدَ بْنِ الْخَطِيبِ فَرَأَهُ رَدِيئًا فَقَالَ:

مَا أَقْدَرَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ: لَقَدْ جَمَعَ هَذَا الرَّجُلُ فِرْقَ الْخِزْيِ فِي جِلْدَتِهِ؛ خُبْثَ
الطَّبْعِ، وَسَفَهَ اللِّسَانِ، وَفَسَادَ الْعَقِيدَةِ، وَسَوْءَ الْمَعَامَلَةِ، وَفُجْحَ الْوَجْهِ، وَرَدَاءَةَ
الْخَطِّ. إِنِّي أَظُنُّ أَنَّ جَلِيسَهُ مَعَهُ فِي بَلْوَى، وَخَوْفٌ عَلَيْهِ الْعَدْوَى.

وَرَأَيْتُ أَبَا الْوَفَاءِ الْمُهَنْدِسِ يَقُولُ لِابْنِ سَعْدَانَ^(٥٦٥): وَاللَّهِ أَيُّهَا الْوَزِيرُ إِنَّ
خَطَّكَ فِي الْغَايَةِ، وَإِنَّ بِلَاعَتِكَ فِي النَّهَائَةِ، فَمَا الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْاسْتِعَانَةِ
بِالصَّابِيِّ أَبِي إِسْحَاقَ^(٥٦٦) فِي مُكَاتَبَةِ ابْنِ عَبَّادٍ؟

فَقَالَ: إِنَّ ابْنَ عَبَّادٍ كَثِيرُ التَّبَعِ لِلْعَيْبِ، شَدِيدُ الشَّمَاتَةِ بِالْعَاثِرِ، وَأَنَا
أَكْرَهُ أَنْ يَرْمِينِي فَيُضْمِي وَلَا يَشْوِي، وَلَأَنْ أَحْصَنَ عَقْلِي وَعَرَضِي بِتَرْكِ
اعْتِمَالِ خَطِّي وَلَفْظِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَصْبِرَ مَلْسُوعًا بِإِبْرَتِهِ، مَكْسُوعًا^(٥٦٧)
بِحَضْرَتِهِ.

(٥٦٤) . العنبري: هو عبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري. ولي قضاء البصرة سنة ١٥٧هـ مكان سوار بن عبد الله لوفاته، وعزل عن الصلابة بالناس بعد سنتين، وفي سنة ١٦٦هـ/ ٨٨٣م عزل عن القضاء، وتوفي في السنة ذاتها.

(٥٦٥) . ابن سعدان: هو أبو عبد الله العارض، وردت ترجمته.

(٥٦٦) . هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصَّابِي، كان كاتب الإنشاء ببغداد عند الخليفة وعند عزِّ الدولة البويهية، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م، وقال النديم إنَّه مات قبل سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م.

(٥٦٧) . الكسغ: أن تضرب بيدك أو برجلك على دبر إنسان أو شيء، ومن نوادر الأعراب: كسغ فلان فلاناً

٣٠. أخيراً

قال الشيخ أبو حيان: هذا ما انتهى [إليه] القول في الخطّ وصفاته،
والعلم وحالاته، وإن زدنا على ذلك ثقل ومُلّ، وأرجو أن تُعيره من رضاك [ما]
يكون لي سبباً قوياً في المكاتبة من قبلك، والقبول في نفسك والسلام.

* * *

وكسحّه ونفنه ولظّه ولاظّه إذا طرده.

مقتطفات من
المحاضرات والمناظرات

يُدرجُ هذا الكتابُ ضمنَ الآثارِ الصُّوفِيَّةِ الَّتِي خَلَّفَهَا التَّوْحِيدِيُّ،
وقد اقتطف الغزوليُّ بعضَ فقره وضمَّنها في ((مطالع البُدر)).
ذكره ياقوتُ الحمويُّ مرَّةً تحتَ عنوان: ((محاضراتُ العلماء)).
وجاء بالعُنوان ذاته عند الصَّفديِّ في ((الوَّابي بالوفيات)). وعند
السَّيوطيِّ في ((نُعيَّة الوُعاة)).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ أَبُو حَيَّانٍ فِي كِتَابِ مَحَاضِرَاتِ الْعُلَمَاءِ (٥٦٨) قَالَ:
وَحَضَرْتُ مَجْلِسَ شَيْخِ الدَّهْرِ، وَقَرِيعِ (٥٦٩) الْعَصْرِ، الْعَدِيمِ الْمِثْلِ، الْمَفْقُودِ
الشَّكْلِ، أَبِي سَعِيدِ السَّيرَافِيِّ، وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيَّ الْحَسِينُ بْنُ مَرْدُويهِ الْفَارِسِيِّ،
يَشْرُحُ لَهُ تَرْجَمَةَ الدَّخْلِ إِلَى كِتَابِ سَيُوبِهِ مِنْ تَصْنِيفِهِ، فَقَالَ لَهُ:
عَلَّقْ عَلَيهِ، وَاصْرِفْ هَمَّتَكَ إِلَيْهِ، فَإِنَّكَ لَا تُدْرِكُهُ إِلَّا بِتَعَبِ الْحَوَاسِ، وَلَا
تَتَصَوَّرُهُ إِلَّا بِالْإِعْتِزَالِ عَنِ النَّاسِ.
فَقَالَ: أَيْدِ اللَّهُ الْقَاضِي، أَنَا مُؤَثِّرٌ لِدَلِّكَ، وَلَكِنَّ إِخْتِلَالَ الْأَمْرِ وَقُصُورَ
الْحَالِ يَجُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَا أُرِيدُهُ.
فَقَالَ لَهُ: أَلَيْكَ عِيَالٌ؟
قَالَ: لَا.

(٥٦٨) . هذا النص من كتاب المحاضرات والمناظرات أو محاضرات العلماء، ذكره ياقوت الحموي
فر ترجمته للحسن بن عبد الله المرزباني النحوي (السيرافي)، وتتألف ترجمة السيرافي من ثلاثة
نصوص مقتبسة عن التوحيد أولها هذا النص. وثانيها المناظرة في النحو، وهي مادة الفصل
الأخير من هذا الكتاب. وثالثها موجز لمناظرة أخرى بين السيرافي والعامري أغلب الظن أنها من
كتاب المحاضرات لأننا لم نجد لها في أي من كتبه، ومادتها قريبة من مادة كتاب المحاضرات
والمناظرات.

(٥٦٩) . قرِيع الشيء: خيره، وقرِيع العصر: خيره من فيه.

قَالَ: عَلَيْكَ دِيونٌ؟

قَالَ: دُرَيْهَمَاتٌ.

قَالَ: فَأَنْتَ رَيْحُ الْقَلْبِ، حَسَنُ الْحَالِ، نَاعِمُ الْبَالِ. اشْتَغِلْ بِالدَّرْسِ
وَالْمَذَاكِرَةِ، وَالسُّؤَالِ وَالْمُنَاطَرَةِ، وَاحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى خِفَّةِ الْحَاذِ^(٥٧٠)، وَحَسَنِ
الْحَالِ. وَأَنْشُدْهُ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ مَالٌ وَلَمْ يَكُنْ

لَهُ طُرُقٌ يَسْعَى بِهِنَّ الْوَلَائِدُ

وَكَانَ لَهُ خُبْزٌ وَ مِلْحٌ فَفِيهِمَا

لَهُ بُلْغَةٌ حَتَّى تَجِيءَ الْعَوَائِدُ

وَهَلْ هِيَ إِلَّا جُوعَةٌ إِنْ سَدَدَتْهَا

فَكُلُّ طَعَامٍ بَيْنَ جَنْبَيْكَ وَاحِدٌ

قَالَ: وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَى أَبِي سَعِيدِ السَّيرَافِيِّ الْكَامِلَ لِلْمَبْرِدِ، فَجَاءَهُ
أَبُو أَحْمَدَ بْنِ مَرْدَكٍ وَكَانَ هَذَا مِنْ (سَاوَةِ)، وَاسْتَوَطَنَ بَغْدَادَ وَوَلَدَ بِهَا، وَكَانَ
لَهُ قُرْبٌ وَمَنْزِلَةٌ مِنْ أَبِي سَعِيدٍ، يُوجِبُ حَقَّهُ وَيُرْعَاهُ لَهُ.

فَقَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ عِنْدِي ابْنَةٌ بَلَغَتْ حَدَّ التَّرْوِيجِ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْغُرَبَاءِ
وَالْبَغْدَادِيِّينَ يَخْطُبُونَهَا، فَمَا تَرَى، وَمَنْ أَرْوَجُهَا؟

(٥٧٠). الحَاذِ: حَقَّةُ الذَّنْبِ وَاللَّحِيَةِ، وَفَلَانٌ خَفِيفُ الْحَاذِ: قَلِيلُ الْمَالِ وَالْعِيَالِ.

فَقَالَ: مَن يَخَافُ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَكْثَرَهُمْ تَقِيَةً وَخَشِيَةً مِنْهُ، فَإِنَّ مِنْ يَخَافُ اللَّهَ
إِنْ أَحَبَّهَا بِالْعِزِّ فِي إِكْرَامِهَا، وَإِنْ لَمْ يَجِبْهَا تَخَرُّجَ مِنْ ظُلْمِهَا. فَاسْتَحْسِنَا ذَلِكَ
وَأَثْبِتْنَاهُ.

ثُمَّ قَالَ: لَا تَنْسِبُوا هَذَا إِلَيَّ، وَإِنَّمَا هُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ.

قَالَ: وَشَبِيهَ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّ رَجُلًا وَقَفَ عَلَى الْحَسَنِ فَقَالَ: عَلَّمَنِي مَا
يُقَرِّبُنِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى النَّاسِ.

قَالَ: أَمَّا مَا يُقَرِّبُكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَمَسْأَلَتُهُ. وَأَمَّا مَا يُقَرِّبُكَ إِلَى النَّاسِ فَتَرْكُ
مَسْأَلَتِهِمْ.

وَقَالَ: وَتَأَخَّرَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ عَنْ مَجْلِسِهِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، وَكَانَ يَرعى
حَقَّ أَبِيهِ فِيهِ، لِأَنَّهُ كَانَ وَجِيهًا شَرِيفًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْأَحَدِ قَالَ لَهُ: مَا الَّذِي
أَحْرَكَ؟

فَأَشَارَ إِلَى شُرْبِ الدَّوَاءِ، وَالْأَجَلِ تَأَخَّرَ عَنِ الْمَجْلِسِ، فَأَنْشَدَنَا:

لِنَعْمَ الْيَوْمُ يَوْمُ السَّبْتِ حَقًّا

لِصَيْدٍ إِنْ أَرَدْتَ بِلاَ افْتِرَاءِ

وَفِي الْأَحَدِ الْبِنَاءِ فَإِنَّ فِيهِ

تَبَدَّى اللَّهُ فِي خَلْقِ السَّمَاءِ

وَفِي الْاِثْنَيْنِ إِنْ سَافَرْتَ حَقًّا

يَكُونُ الْأَوْبُ فِيهِ بِالنَّمَاءِ

وَإِنْ تَرُمِ الْحِجَامَةَ فَالثَّلَاثَا

فَفِي سَاعَاتِهِ دَرَكُ الشِّفَاءِ

وَإِنْ شَرِبَ امْرُؤٌ يَوْمًا دَوَاءً

فَفِي يَوْمِ الْيَوْمِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ

وَفِي يَوْمِ الْخَمِيسِ قِصَاءٌ حَاجٍ

فَفِيهِ اللَّهُ آذَنَ بِالْقِصَاءِ

وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ التَّزْوِيجُ فِيهِ

وَلَدَاتُ الرِّجَالِ مَعَ النِّسَاءِ

قَالَ: وَلَمَّا قَبَلَ ابْنُ مَعْرُوفٍ شَهَادَتَهُ، عَاتَبَهُ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ الْمُخْتَصِّينَ بِهِ وَقَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، إِنَّكَ إِمَامُ الْوَقْتِ، وَعَيْنُ الزَّمَانِ، وَالْمَنْظُورُ إِلَيْهِ وَالصِّدْرُ، وَإِذَا حَضَرْتَ مَحْفَلًا كُنْتَ الْبَدْرُ، قَدْ اشْتَهَرَ ذِكْرُكَ فِي الْأَقْطَارِ وَالْبِلَادِ، وَانْتَشَرَ عِلْمُكَ فِي كُلِّ مَحْفَلٍ وَنَادٍ، وَالْأَلْسِنَةُ مُقِرَّةٌ بِفَضْلِكَ، فَمَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى الْإِنْقِيَادِ لِابْنِ مَعْرُوفٍ، وَاجْتِلَافِكَ إِلَى مَجْلِسِهِ، وَصِرْتِ تَابِعًا بَعْدَ أَنْ كُنْتَ مَتَّبِعًا، وَمُؤْتَمِّرًا بَعْدَ أَنْ كُنْتَ أَمْرًا، وَضَعْتَ مِنْ قَدْرِكَ، وَضَيَّعْتَ كَثِيرًا مِنْ حُرْمَتِكَ، وَأَنْزَلْتَ نَفْسَكَ مِنْزِلَةَ غَيْرِكَ، وَمَا فَكَّرْتَ فِي عَاقِبَةِ أَمْرِكَ، وَلَا شَاوَرْتَ أَحَدًا مِنْ صَحْبِكَ ؟

فَقَالَ: اعلموا أن هذا القاضي سَبَبُ ذِكْرِ جَمِيلٍ، وَصِيْتُ حَسَنٌ، وَمُبَاهَاةٌ وَمُنَافَسَةٌ لِأَقْرَانِهِ وَإِخْوَانِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَهُ مِنَ السُّلْطَانِ مَنَزَلَةٌ. وَبَلَّغَنِي أَنَّهُ يَسْتَضِيءُ بِرَأْيِهِ، وَيَعُدُّهُ مِنْ جَمَلَةِ ثِقَاتِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، وَعَرَّضَ بِي، وَصَرَّحَ فِي الْأَمْرِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَثَانِيَةً عَقَّبَ أُولَى، فَلَمْ أَجِبْ إِلَيْهِ، وَلَمْ أُسَلِّسْ قِيَادِي لَهُ، فَحِفْتُ مَعَ كَثْرَةِ الْخِلَافِ اعْتِمَادِي بِمَا اسْتَضُرُّ بِهِ وَيَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرِي. وَإِذَا اتَّفَقَ أَمْرَانِ، فَاتَّبَاعِ مَا هُوَ أَسْلَمَ جَانِبًا وَأَقْلُ غَائِلَةً أُولَى. وَقَدْ كَانَ الْآنَ مَا كَانَ، وَالْكَلَامُ فِيهِ ضَرْبٌ مِنَ الْهَدْيَانِ.

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ هَذَا بِأَيَّامٍ، وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ (أَمَدٍ) صَاحِبِ لِأَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ مَاهَانَ بَكْتَابٍ يَهْتَنُّ فِيهِ بِمَا تَلَبَّسَ بِهِ مِنَ الْعَدَالَةِ، وَكَانَ الْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى كَلِمَاتٍ وَجِيزَةٍ، وَالْفَظَائِدِ حَسَنَةٍ، وَمَعَانٍ مُنْتَقَاةٍ. وَكَانَ أَبُو الْعَبَّاسِ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ أَبِي سَعِيدٍ، وَمَنْ لَازَمَهُ سَنِينَ عَدَّةً، وَعَلَّقَ عَنْهُ مَا ذَكَرَهُ الشَّاشِي، زُهَاءً عَشْرَةَ آلَافٍ وَرَقَةٍ مِنْ شَرْحِهِ لِكِتَابِ سَيَبَوِيهِ وَغَيْرِهِ، دَرَسًا وَمَذَاكِرَةً.

وَكَانَتْ لَهُ أَيْضًا بَضَاعَةٌ قَوِيَّةٌ فِي عِلْمِ الْهَيْئَةِ، وَبَصَرٌ تَامٌ بِمَذْهَبِ الْكُوفِيِّينَ فِي النَّحْوِ، حَتَّى مَا كَانَ يَطَاقُ (٥٧١). وَكَانَ مِنْ أَصْدَرِ الْكِتَابِ عَلَى يَدِهِ رَجُلًا كَرْدِيًّا، عَلَيْهِ جَبَّةٌ ثَقِيلَةٌ فَوْقَهَا صِنَاعَةٌ عَظِيمَةٌ، قَدْ أَضْرَبَتْ بِهِ شَمْسُ الْهَوَاجِرِ، وَمَقَاسَاةُ السَّفْرِ، وَقَطَعُ الْمَهَامَةِ وَالْمَفَاوِزِ. وَكَانَ الشَّيْخُ يُبَيِّنُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ الْفَرْقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (٥٧٢)

(٥٧١) . يطاق من الطاقة بمعنى القدرة، أي إلى درجة عدم امتلاك طاقاته في ذلك.

(٥٧٢) . سورة الذاريات . الآية ٢٣ .

والاحتجاج عَمَّنْ نَصَبَهُ وَرَفَعَهُ، وَالكَرْدِيُّ مَا يَفْهَمُ مِنْهُ الْقَلِيلَ وَلَا الْكَثِيرَ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَبِي سَعِيدٍ وَقَالَ: يَا شَيْخُ، فِي أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ؟ وَفِي مَاذَا تَتَكَلَّمُ؟

فَقَالَ: أَتَكَلَّمُ فِي شَيْءٍ لَا يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَلَا يَتَصَوَّرُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

قَالَ: فَفَسِّرْهُ لِي لَعَلِّي أَفْهَمُهُ.

قَالَ: لَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا.

قَالَ: أَنْتَ عَالِمٌ، وَمَنْ اقْتَبَسَ مِنْكَ عِلْمًا لَزِمَكَ الْجَوَابُ.

فَقَالَ لَهُ: عَلَيْكَ بِمَجْلِسٍ يَجْرِي فِيهِ حَدِيثُ الْفَرَضِ وَالنَّفْلِ وَالسُّنَنِ، وَظَوَاهِرِ أَمْرِ الشَّرِيعَةِ لِتَسْتَفِيدَ مِنْهُ، وَتَنْتَفِعَ بِهِ.

فَأَخَذَ الْكَرْدِيُّ فِي الْمَطَاوَلَةِ، وَإِيرَادِ الْهَدْيَانِ وَمَا لَا مَحْصُولَ لَهُ. وَسَكَتَ عَنْهُ أَبُو سَعِيدٍ، وَصَمَتَ هُوَ أَيْضًا. وَجَعَلَ أَبُو سَعِيدٍ، عَلَى عَادَتِهِ، يُبَيِّنُ وَيُوضِّحُ وَيَتَكَلَّمُ، وَيَنْشُرُ الدَّرَّ وَلَا يَهْدَأُ وَلَا يَفْتُرُ لِسَانَهُ، وَلَا يَجْفُ رِيْقَهُ. وَالكَرْدِيُّ مُلَازِمُهُ، وَكَانَ كَالْمَتَبَرِّمِ بِهِ، وَالْمُسْتَقْبِلِ لَجُلُوسِهِ، وَمُلَازِمَتِهِ إِيَّاهُ إِلَى أَنْ قَامَ وَمَضَى. ثُمَّ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ:

مَا ظَنَنْتُ أَنَّ ثَقِيلًا تَمَكَّنَ مِنْ أَحَدٍ تَمَكَّنَ هَذَا مِنَّا الْيَوْمَ، وَإِنَّ أَلَمَ ثِقَلِهِ خَلَصَ إِلَى الرُّوحِ وَالْبَدَنِ كَمَا خَلَصَ إِلَيَّ، لَقَدْ هَمَمْتُ تَارَةً بِضَرْبِهِ فَقُلْتُ: رَبُّمَا ضَرْبَنِي أَيْضًا.

ثُمَّ هَمَمْتُ بِالْقِيَامِ فَقُلْتُ: ضَرْبٌ مِنَ الْخُرْقِ (٥٧٣).

(٥٧٣). الخرق: الجهل والحمق.

ثُمَّ كِدْتُ أَصِيحُ فَقُلْتُ: نَوْعٌ مِنَ الْجُنُونِ.

ثُمَّ بَقِيْتُ أَدْعُو سِرًّا، وَأَرْغُبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي صَرْفِهِ، فَفَضَّلَ اللَّهُ الْكَرِيمُ عَلَيَّ بِذَلِكَ، وَمَعَ هَذِهِ الْحَالَةِ، لَمْ تَنْزِلْ آيَاتُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمَرْزَبَانَ تَتَرَدَّدُ بَيْنَ لَهَاتِي وَلِسَانِي.

فَقُلْنَا لَهُ: وَمَا الْآيَاتُ؟ فَقَالَ:

يَا شَقِيقَ الرَّصَاصِ وَالْجَبَلِ

وَقَرِيعِ الْأَيَّامِ فِي الثَّقَلِ

أَرْحُ حَيَاتِي فَقَدْ هَجَمْتَ عَلَيَّ

نَفْسِي وَأَشْرَفْتَ بِي عَلَيَّ أَجَلِي

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ وَالِدًا حَدَبًا

وَكُنْتَ تُحْيِي الْأَمْوَاتَ فِي الْمَثَلِ

وَتَمْرُجُ الثَّلَجِ فِي الْعَسَّاسِ^(٥٧٤) لَدَى

الْقَيْظِ وَعِنْدَ الشِّتَاءِ بِالْعَسَلِ

رَحَلْتُ عَنْ ذَاكَ عِنْدَ آخِرِهِ

وَاخْتَرْتُ أَلَا أَرَاكَ فِي الرَّحْلِ

(٥٧٤) . العَسَّاسُ: جمع عَس، وهو القُدَحُ يَروي الثَّلَاثَةَ والأرْبَعَةَ.

فَخُذْ طَرِيفِي وَتَالِدِي فَإِذَا

لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ فَخُذْ إِذَا سَمَلِي (٥٧٥)

وَارْحَلْ إِلَى الظُّلْمَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ

مِنْ خَلْفِ قَافٍ يَا شَرَّ مُرْتَحِلٍ

قَالَ: وَكَانَ قَدْ ظَهَرَ بِالْعِرَاقِ رَجُلٌ مِنَ الْجَرَادِ (٥٧٦)، فَأَضْرَبَتْ بِالزُّرُوعِ (٥٧٧) والأثمارِ، وَغَلَّتِ الْأَسْعَارُ، وَأَثَّرَ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ. فَحَضَرْنَا مَجْلِسَ أَبِي سَعِيدِ السَّيرَافِيِّ، وَكُلُّ مَنَّا شَكَا حَالَهُ، وَذَكَرَ خَلَّتَهُ (٥٧٨)، وَكَانَ فِيْنَا رَجُلٌ مُزَارِعٌ، ذَكَرَ أَنَّهُ زَرَعَ بِنَوَاحِي النَّهْرَوَانِ أَرْبَعَةَ آلَافِ جُرَيْبٍ (٥٧٩) مَلَكًا وَضِمَانًا وَإِجَارَةً رَجَاءَ الْفَائِدَةِ، وَقَدْ أَتَى عَلَيْهِمَا الْجَرَادُ، وَهَلَكَ ذَلِكَ الرَّجُلُ لِأَجْلِهِ.

ثُمَّ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: لَا يَهْوَلَنَّكَ أَمْرُهَا، فَإِنَّهَا جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ مَأْمُورٌ. بَلَعْنَا أَنَّ جَرَادَةً سَقَطَتْ بَيْنَ يَدَيْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، فَأَخَذَهَا وَنَشَرَ جَنَاحَهَا، وَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا؟

قَالُوا: لَا.

قَالَ: مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: أَنَا مُعَلِّي الْأَسْعَارِ، مَعَ تَدَفُّقِ النَّهَارِ.

(٥٧٥) . السمل: الخلق من الثياب، والجمع أسمال.

(٥٧٦) . الرَّجُلُ مِنَ الْجَرَادِ: السَّرْبُ الْعَظِيمُ مِنْهُ.

(٥٧٧) . الزُّرُوعُ: جَمْعُ زَرْعٍ.

(٥٧٨) . الْخَلَّةُ: الْحَاجَةُ وَالْفَقْرُ.

(٥٧٩) . الْجُرَيْبُ: مَقْدَارٌ مَعْلُومٌ مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ مَا يَحْصُلُ مِنْ ضَرْبِ سِتِّينَ فِي نَفْسِهَا.

وأوردَ في ذِكْرِ الجرادِ مَا حَيَّرَ النَّاطِرِينَ، ثُمَّ قَالَ: وَمِنْ أَحْسَنِ مَا وُصِفَ بِهِ
الجرادُ قولُ بعضِ الخطباءِ حَيْثُ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى خَلْقَ خَلْقًا
وَسَمَّاهَا جراداً، وَأَلْبَسَهَا أَجْلاداً، وَجَنَّدَهَا أَجناداً، وَأَذْجَحَهَا إِذْماجاً، وَكَسَّاهَا مِنْ
الوشى ديباجاً، وَجَعَلَ لَهَا ذَرِيَّةً وَأَزْواجاً، إِذا أَقْبَلَتْ خِلَّتْها سَحاباً أَوْ عَجاجاً
وَإِذا أَدْبَرَتْ حَسِبَتْها قَوافِلَ وَحَجَّاجاً، مُزْخَرَفَةً المَقادِمْ، مُزْجَرَجَةً المَآخِيرِ، مُزَوَّفَةً
الأَطرافِ، مُنْقَطِعَةً الأَخفافِ، مَنْمَمَةً الحَواشِى، مَنْمَقَةً الغَواشِى. ذاتُ أَرديَّةٍ
مَزَعْفَرِيَّةٍ، وَأَكْسيَّةٍ مُعْصَفَرِيَّةٍ، وَأَحْفِيَّةٍ مَخْطَطَةٍ. مَعْتَدَلَةٌ قَامَتْها، مُؤْتَلَفَةٌ خِلَقَتْها،
مُخْتَلَفَةٌ حَيْلَتْها، مُوصُولَةٌ المِفاصِلِ، مُدرِجَةٌ الحَواصِلِ، تَسْعَى وَتَحْتالُ، وَتَمَيِّسُ
وَتَحْتالُ، وَتَطْوَفُ وَتَجْتالُ، فَتَبارِكُ خالِقُها، وَتَعالَى رازِقُها، مِنْ غَيرِ حاجَةٍ مِنْه
إِلِياها، رَحْمَةٌ مِنْه عَلَيْها، أَوْسَعُها رِزْقاً، وَأَتَمُّها خَلْقاً، وَفَتْقَ مِنْها رِيقاً، وَوَشَّجَ
أَعراقَها، وَأَلْجَمَ أَعناقَها، وَطَوَّقَها أَطواقَها، وَقَسَمَ مَعائِشَها وَأَرزاقَها، تَنْظُرُ شَريراً
مِنْ ورائِها، وَتَرْتَقِبُ النَّازِلَ مِنْ سَمائِها، وَتَحرسُ الدَّائِرَ مِنْ حَولِها. سَلاحُها عَتِيدٌ،
وَبأسُها شَديدٌ، وَمَضْرُئُها تَعديدٌ، تَدِبُّ عَلى سِتِّ وَتَطيرُ، فَسَبْحانَ مَنْ خَلَقَها
وَخَلَقَها عَجيباً، وَجَعَلَ مِنْ كُلِّ شَجرٍ نَصيباً، وَجَعَلَ لَها إِدْباراً وإِقبالاً، وَطَلَباً
وَاحْتِبالاً، حَتَّى دَبَّتْ وَدَرَجَتْ، وَخَرَجَتْ وَدَخَلَتْ، وَنَزَلَتْ وَعَرَجَتْ^(٥٨٠)، مَعَ
المنظرِ الأَنِيقِ، وَالعَصَبِ الدَّقِيقِ، وَالبَدَنِ الرِّيقِ، ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ، فَأَمْرُونِي مَاذَا
خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾^(٥٨١).

(٥٨٠) . عرجت: ارتقت، ومنها المعراج.

(٥٨١) . سورة لقمان . الآية ١١ .

ثُمَّ قَالَ: وماذا تقولون في طَيْرٍ إِذَا طَارَ بَسَطَ، وَإِذَا دَنَا مِنَ الْأَرْضِ لَطَعَ^(٥٨٢)، رِجْلَاهُ كَالْمِنْشَارِ، وَعَيْنَاهُ كَالزُّجَاجِ. عَيْنُهُ فِي جَنْبِهِ، وَرِجْلُهُ أَطْوَلُ مِنْ قَامَتِهِ، أَلَا وَهِيَ الْجُرَادَةُ.

ثُمَّ قَالَ: وَأَحْسَنُ مِنْهُ: جَيْدُهَا كَجَيْدِ الْبَقْرِ، وَرَأْسُهَا كِرَاسِ الْفَرَسِ، وَقَرْنُهَا كَقَرْنِ الْوَعْلِ^(٥٨٣)، وَرِجْلُهَا كَرِجْلِ الْجَمَلِ، وَبَطْنُهَا كَبَطْنِ الْحَيَّةِ، تَطِيرُ بِأَرْبَعَةٍ أَجْنَحَةٍ، وَتَأْكُلُ بِلِسَانِهَا، فَتَبَارَكَ اللَّهُ مَا أَحْسَنَهَا، وَأَحْسَنَ مَا فِيهَا أَهْمًا: طَعَامٌ طَاهِرٌ حَيًّا وَمَيْتًا، نُقْلٌ يُجَدِّبُ أَقْوَامًا وَتُخَصِّبُ آخَرِينَ.

قَالَ: إِنَّهَا إِذَا حَلَّتِ الْبَوَادِي وَالْفَيَافِي، وَمَوَاضِعَ الرِّمَالِ، فَهِيَ خَصْبٌ لَهَا وَمِيرَةٌ^(٥٨٤)، وَإِذَا حَلَّتْ بِمَأْوَى الزَّرْعِ وَالْأَشْجَارِ فَهِيَ بُجْدٌ، لِأَنَّهَا تَأْتِي عَلَى الشَّوْكِ وَالشَّجَرِ، وَالرَّطْبِ وَالْيَابِسِ، فَلَا تُبْقِي وَلَا تَذُرُّ.

قَالَ: وَقَالَ أَيْضًا فِي تَضَاعِيفِ كَلَامِهِ: خَادِمُ الْمَلِكِ لَا يَتَقَدَّمُ فِي رِضَاهِ خُطْوَةً إِلَّا اسْتَفَادَ بِهَا قَدَمَهُ وَحِظْوَةً.

قَالَ: وَمَا رَأَيْتَ أَحَدًا مِنَ الْمَشَايخِ كَانَ أَدْكَرَ لِحَالِ الشَّبَابِ، وَأَكْثَرَ تَأْسُفًا عَلَى ذَهَابِهِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا رَأَى أَحَدًا مِنْ أَقْرَانِهِ قَدْ عَالَجَهُ الشَّيْبُ تَسَلَّى بِهِ، وَلَمْ يَزَلْ يَسْأَلُهُ عَنْ حَالِهِ، وَكَيْفَ كَانَتْ فِي أَيَّامِ الشَّبَابِ وَزَمَنِ الصَّبَا. وَإِذَا ذَكَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّيْبِ وَالشَّبَابِ، بَكَى وَجَدًّا وَحَنًّا، وَشَكَا وَأَنَّ، وَتَذَكَّرَ عَهْدَ الشَّبَابِ. وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ مُقَطَّعَاتِ مَحْمُودِ الْوَرَّاقِ فِي الشَّيْبِ وَيَكِي عَلَيْهَا. وَأَنْشَدَ يَوْمًا:

(٥٨٢) . اللطع: ضربك مؤخر الرجل برجلك، ولطعك الشيء بلسانك هو اللبس.

(٥٨٣) . الوعل: تيس الجبل.

(٥٨٤) . الميرة: الطعام يمتاره الإنسان.

فَإِنْ بَكَى الْمَشِيبُ طَرًّا عَلَيْنَا

وَوَلَّى بِالْبَشَاشَةِ وَالشَّبَابِ

فَإِنِّي لَا أُعَاقِبُهُ بِشَيْءٍ

يَكُونُ عَلَيَّ أَهْوَنُ مِنْ خِصَابِ

رَأَيْتُ بَأْنَ ذَاكَ وَذَا عَذَابُ

فَيَنْتَقِمُ الْعَذَابُ مِنَ الْعَذَابِ

قَالَ: وَأَنْشَدَنَا لِمَحْمُودِ الْوَرَّاقِ فِي الشَّيْبِ وَعَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ:

وَلَوْ أَنَّ دَارَ الشَّيْبِ قَرَّتْ بِصَاحِبِ

عَلَى ضَيْقِهَا لَمْ نَبِغْ دَارًا بِدَارِهِ

وَلَكِنَّ هَذَا الشَّيْبَ لِلْمَوْتِ رَائِدٌ

يُخَبِّرُنَا عَنْهُ بِقُرْبِ مَزَارِهِ

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ يُفْتِي عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ وَيَنْصُرُهُ،

فَجَرَى حَدِيثُ تَحْلِيلِ النَّبِيذِ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْخُرَاسَانِيِّينَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، دَعْنَا

مِنْ حَدِيثِ أَبِي حَنِيفَةَ وَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ، مَا تَرَى أَنْتَ فِي شُرْبِ النَّبِيذِ وَالْقَدَرِ

الَّذِي لَا يَسْكُرُ وَيَسْكُرُ؟

فَقَالَ: أَمَّا المذهبُ فمَعروفٌ لا عدولَ عنه. وأَمَّا الذي يَقتضيه الرَّأيُ
وَيُوجِبُهُ العَقلُ، ويلزمُ من حيثِ الاحتياطِ، والأخذُ بالأحسنِ والأوَّلِ، فَتَرَكَهُ
والعُدولُ عنه.

فَقَالَ له: بيِّنْ لنا، عافاك اللهُ.

فَقَالَ: اعلمُ أَنَّهُ لو كَانَ المُسَكِّرُ حلالاً في كتابِ اللهُ تعالى، وَسَنَّةِ
رَسُولِهِ ﷺ، لَكَانَ يَجِبُ على العاقلِ رَفْضُهُ وَتَرَكَهُ، بِحُجَّةِ العَقلِ والاستحسانِ.
فإنَّ شَارِبَهُ محمولٌ على كُلِّ مَعْصِيَةٍ، مدفوعٌ إلى كُلِّ بِلِيَّةٍ، مذمومٌ عندَ كُلِّ ذي
عَقلٍ ومروءةٍ، يُجِيلُهُ عن مراتبِ العُقلاءِ والفُضلاءِ والأدبَاءِ، ويجعلُهُ من جُمَلَةِ
السُّفهاءِ. ومع ذلكَ فيضِرُّ بالدِّماغِ والعَقلِ، والكَبِدِ والدَّهْنِ، ويؤلِّدُ القُروحَ في
الجوفِ، وَيَسْلِبُ شَارِبَهُ ثَوْبَ الصَّلَاحِ والمروءةِ والمهَابَةِ، حتَّى يصيرَ بِمَنْزِلَةِ
المخَبِّطِ المَحْرِيقِ^(٥٨٥) والمُتَّبِعِ^(٥٨٦)، يقولُ بغيرِ فَهْمٍ، ويأمرُ بغيرِ عِلْمٍ،
ويضحكُ من غيرِ عَجَبٍ، ويكي من غيرِ سَبَبٍ، ويخضعُ لَعَدُوِّهِ، ويصولُ
على وَلِيِّهِ، ويعطي من لا يستحقُّ العَطِيَّةَ، ويمنعُ من يستوجبُ الصَّلَةَ، ويبدُرُ
في الموضعِ الذي يحتاجُ فيه أنْ يُمْسِكَ، ويُمْسِكُ في الموضعِ الذي يحتاجُ فيه أن
يبدُرَ، يصيرُ حامداً ذاماً، وأفعاله ملاماً، عبده لا يوقِّرُهُ، وأهلُهُ لا تُقَرِّبُهُ، وولده
يهرُبُ منه، وأخوه يفرُّعُ عنه، يَتَمَرَّعُ في قِيَّعِهِ، ويتقلَّبُ في سَلْحِهِ، ويبولُ في
ثيابه، وربما قَتَلَ قَرِيبَهُ، وَشَتَمَ نَسِيبَهُ، وَطَلَّقَ امْرَأَتَهُ، وَكَسَرَ آلَةَ البَيْتِ، وَلَفَّظَ
بالخنى، وَقَالَ كُلَّ غليظةٍ وفحشٍ، يدعو عليه جاره، ويزري به أصحابُهُ. عند

(٥٨٥) - المَحْرِيقُ من الحرق وهو: الحمق.

(٥٨٦) - المُتَّبِعُ: المسترخي المتهدل.

الله ملوم، وعند الناس مذموم، وربما يستولي عليه في حال سُكْرِهِ مَخَائِلُ الهُموم، فيبكي دماً، ويشقُّ جيبه حزناً، وينسى القريب، ويتذكَّرُ البعيد، والصُّبيانُ يضحكون منه، والنسوانُ يفتعلنَ التَّوادرَ عليه. ومع ذلك فبعيدٌ من الله، قريبٌ من الشَّيطانِ. قد خالفَ الرَّحْمَنُ في طاعةِ الشَّيطانِ، وتمكَّنَ من ناصيته، وزينَ في عينيه إتيانَ الكبائرِ، وركوبَ الفواحشِ، واستحلالَ الحرامِ، وإضاعةَ الصَّلَاةِ، والحنثَ في الإيمانِ، سوى ما حلَّ به عند الإفاقةِ من الندامةِ، ويستوجبُ من عذابِ الله يومَ القيامةِ.

قَالَ الرَّجُلُ: وَاللهِ إِنَّ قَوْلَكَ ووصفَكَ لهُ أَعْلَقُ بِالْقَلْبِ مِنْ كُلِّ وَاضِحٍ، وبرهانٍ لائحٍ، وحجَّةٍ وأثرٍ، وقولٍ وخبرٍ.

فَقَالَ لَهُ: لَوْلَا أَنَّ ذَهَابَ الْوَقْتِ لَا عِوَضَ لَهُ، لاسْتَدَلْتُ لِكُلِّ حَصَلَةٍ ذَكَرْتَهَا، وَلَفْظَةٍ أوردتها بآيةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، أَوْ خَبَرٍ مَأْتُورٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. حَتَّى قُلْتُ: إِنَّ الْأَلْفَاظَ مُشْتَقَّةً مِنْ ذَاكَ مُسْتَنْبِطَةٌ مِنْهُ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ فِي هَذَا أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ، مِنْ أَنْ يُبَيَّنَّ وَيُوضَّحَ. **وَأَبِي حَنِيفَةَ** مَسَائِلُ لَا أَرْضِيهَا لَهُ، وَقَدْ خَالَفه فِيهَا أَعْيَانُ أَصْحَابِهِ، وَالتَّاقِلَةُ لِمَذْهَبِهِ، وَلَكِنْ لِكُلِّ أَرَبٍ هَفْوَةٌ، وَلِكُلِّ جَوَادٍ كِبْوَةٌ، وَالكَلَامُ إِذَا كَثَرَ لَا يَخْلُو مِنَ الخَطَا، وَالقَوْلُ إِذَا تَتَابَعَ لَا يَعْزَى مِنَ التَّنَاقُضِ، وَاللهُ المَعِينُ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ.

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: دَخَلْتُ مَسْجِدًا بِبَابِ الشَّامِ يَوْمًا أَنْظَرُ أَبَا المَنْصُورِ العَمْرِيَّ فَرَأَيْتَ عَرَبِيًّا قَدْ اسْتَلْقَى وَخَلَّاتُهُ^(٥٨٧) تَحْتَ رَأْسِهِ، وَهُوَ يَتَرْتَمُّ بِهَذِهِ الْأَيَاتِ بِخَلْقِ أَطْيَبِ مَا يَكُونُ، وَصَوْتِ أُنْدَى مَا يُسْمَعُ:

(٥٨٧) - المخلاة: معروفة في العامة بأنها: ما يوضع فيه طعام الدابة ويلق بقربتها، وهي في الأصل: ما يجعل فيه

سَمَاءُ الْحُبِّ تَهْطَلُ بِالصُّدُودِ

وَنَارُ الْحُبِّ تَحْرِقُ مِنْ بَعِيدِ

وَعَيْنُ الْحُبِّ تَأْتِي بِالْمَنَايَا

فَتَغْرُسُهُ عَلَى قَلْبِ عَمِيدِ

وَ أَوَّلُ مَنْ عَشِقْتُ عَشِقْتُ ظَبِيًّا

لَهُ فِي الصَّدْرِ قَلْبٌ مِنْ حَدِيدِ

فَقُلْتُ لَهُ: أعدد الأبيات. فقال لي: دَخَلْتَ عَلَيَّ وَشَعَلْتَنِي عَمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ.
خلوتُ بنفسِي فِي هَذَا الْمَسْجِدِ أُمَّتِي أَمَانِي دُوَّهَا خَرَطُ الْقَتَادِ، فَأَفْسَدَتْهَا عَلَيَّ.
فَحَفِظْتُ الْأَبْيَاتَ مِنْ قَوْلِهِ، وَانصرفتُ وَتَرَكْتُهُ.

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَأَنْشَدَنَا أَبُو سَعِيدِ السَّيرَافِي:

تَفَكَّرْتُ فِي شَيْبِ الْفَتَى وَشَبَابِهِ

فَأَيَّقَنْتُ أَنَّ الْحَقَّ لِلشَّيْبِ وَاجِبُ

يُصَاحِبُنِي شَرْحُ الشَّبَابِ فَيَنْقِضِي

وَشَيْبِي إِلَى حِينِ الْمَمَاتِ مُصَاحِبُ

الخلي وهو: الرطب من النبات أو كل بقلة قلعتها.

ثُمَّ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَحْفَظَ لِحَوَامِعِ الرَّهْدِ نَظْمًا وَنَثْرًا، وَمَا وَرَدَ فِي الشَّيْبِ وَالشَّبَابِ، مِنْ شَيْخِنَا أَبِي سَعِيدٍ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ دَيِّنًا، وَرِعًا تَقِيًّا، زَاهِدًا عَابِدًا خَاشِعًا، لَهُ دَابُّ بِالنَّهَارِ مِنَ الْقِرَاءَةِ وَالْخُشُوعِ، وَوَرْدٌ بِاللَّيْلِ مِنَ الْقِيَامِ وَالْخُضُوعِ، صَامَ أَرْبَعِينَ سَنَةً الدَّهْرَ كُلَّهُ.

قَالَ: وَقَالَ لِي أَبُو إِسْحَاقَ الْمَدَائِنِيِّ: مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِ خَيْرًا وَلَا شَيْئًا قَطُّ فِيهِ ذَكَرَ الْمَوْتَ وَالْقَبْرَ، وَالْبَعْثَ وَالنُّشُورَ، وَالْحِسَابَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ وَالْعِقَابَ، وَالْمَجَازَةَ وَالثَّوَابَ، وَالْإِنذَارَ، وَالْإِعْذَارَ، وَدَمَّ الدُّنْيَا، وَتَقَلَّبَهَا بِأَهْلِهَا، وَتَعَبَّرَهَا عَلَى أُنْبَائِهَا، إِلَّا وَبَكَى مِنْهَا، وَجَزِعَ عِنْدَهَا، وَرَبَّمَا نَعَّصَ عَلَيْهِ يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ، وَامْتَنَعَ مِنْ عَادَاتِهِ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ. وَكَانَ يَنْشِدُنَا وَيُورِدُ عَلَيْنَا مِنْ أَمْثَالِهِ مَا كُنَّا نَسْتَعِينُ بِهِ وَنَسْتَفِيدُ مِنْهُ، وَمَا نَجْعَلُهُ حَظًّا يَوْمَنَا. وَرَأَيْتَهُ يَوْمًا يُنْشِدُ وَيَبْكِي:

حَتَّى الدَّهْرُ مِنْ بَعْدِ اسْتِقَامَتِهِ ظَهْرِي

وَأَفْضَى إِلَى تَنْغِيصِ عَيْشِهِ عُمْرِي

وَدَبَّ الْبَلَى فِي كُلِّ غُضُوٍّ وَ مَفْصَلٍ

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى سَلِيمًا عَلَى الدَّهْرِ؟

قَالَ: وَوَصَّى يَوْمًا بَعْضَ أَصْحَابِهِ وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ شَرْحَ ((الفصيح)) لابن درستويه: كُنْ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: اجْعَلْ مَا فِي كُتُبِكَ رَأْسَ مَالِكَ، وَمَا فِي صَدْرِكَ لِلتَّفَقُّهِ.

قَالَ: وَأُنشَدْنَا:

وَذِي حَيْلَةٍ لِلشَّيْبِ ظِلٌّ يَحُوطُهُ

يُقَرِّضُهُ^(٥٨٨) حِينًا وَحِينًا يُنْتَفِ

وَمَا لَطْفَتْ لِلشَّيْبِ حَيْلَةٌ عَالِمٍ

مِنَ النَّاسِ إِلَّا حَيْلَةُ الشَّيْبِ أَلْطَفُ

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: شَكَأ أَبُو الْفَتْحِ الْقَوَّاسُ إِلَيْهِ طَوْلَ عَطَلَتِهِ، وَكَسَادَ سَوْقِهِ وَوَقُوفَ أَمْرِهِ، وَذَهَابَ مَالِهِ، وَرَقَّةَ حَالِهِ، وَكَثْرَةَ دَيُونِهِ وَعِيَالِهِ، وَتَحَلَّفَ^(٥٨٩) صَبِيَانِهِ، وَسَوْءَ عَشْرَةِ أَهْلِهِ مَعَهُ، وَقَلَّةَ رِضَاهُمْ بِهِ، وَمَطَالِبَتَهُمْ لَهُ بِمَا لَا يَقُومُ بِهِ، وَأَنَّهُ يَقَعُّ وَيُقُومُ، وَيَدْخُلُ كُلَّ مَدْخَلٍ، حَتَّى يَحْصَلَ لِنَفْسِهِ وَعِيَالِهِ بَعْضَ كِفَايَتِهِمْ.

فَقَالَ لَهُ: ثِقْ بِاللَّهِ خَالِقِكَ، وَكَلِّمْ أَمْرَكَ إِلَى رَازِقِكَ، وَأَقْبَلْ مِنْ شَعْبِكَ^(٥٩٠)، وَأَجْمَلْ فِي طَلَبِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ بِمَرَأَى مِنَ اللَّهِ وَمَسْمُوعٍ، قَدْ تَكْفَلُ بِرِزْقِكَ، فَيَأْتِيكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُهُ، وَضَمِنَ لَكَ وَلِعِيَالِكَ قُوَّتَهُمْ، فَيُدِرُّ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْتَقِبُهُ، وَعَلَى حَسْبِ الثَّقَّةِ بِاللَّهِ يَكُونُ حُسْنُ الْمَعُونَةِ، وَبِمَقْدَارِ عُذُولِكَ عَنِ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ يَكُونُ كَلٌّ^(٥٩١) الْمُؤُونَةِ. وَأُنشَدَ وَذَكَرَ أَنَّهُ لِبَعْضِ الْمُحَدِّثِينَ:

(٥٨٨) . يقرضه: يقطعاه.

(٥٨٩) . المجلَّف: الذي أتى عليه الدَّهْر فأذهب ماله، وقد جَلَّفَه واجتلفه.

(٥٩٠) . الشَّعْبُ بِتَسْكِينِ الْغَيْنِ: إِثَارَةُ الشَّرِّ أَوْ تَهْيِيجِهِ، وَلَا تَكُونُ بِالتَّحْرِيكِ، وَإِنْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى التَّحْرِيكِ لَعْنَةً.

(٥٩١) . الكَلٌّ بِالْفَتْحِ: هِيَ الضَّعْفُ، وَكُلُّ الْمُونَةِ عَيْبُهَا أَوْ ثِقَلُهَا.

يَا طَالِبَ الرِّزْقِ إِنَّ الرِّزْقَ فِي طَلَبِكَ

وَالرِّزْقُ يَأْتِي وَإِنْ أَقَلَّتْ مِنْ تَعَبِكَ

لَا يَمْلِكَنَّكَ لَا حِرْصٌ وَلَا تَعَبٌ

فَيَسْلَمَاكَ وَلَا تَدْرِي إِلَى عَطَبِكَ

إِنْ تَخَفَ أَسْبَابُ هَذَا الرِّزْقِ عَنْكَ فَكَمْ

لِلرِّزْقِ مِنْ سَبَبٍ يُغْنِيكَ عَنْ سَبَبِكَ

بَلْ إِنْ تَكُنْ فِي أَعَزِّ الْعِزِّ ذَا أَرْبٍ

فَلَا يَكُنْ زَادٌ مَنْ لَمْ تَبْلُ مِنْ أَرْبِكَ

لَا تَعْرِضَنَّ لِزَادٍ لَسْتَ تَمْلِكُهُ

وَاقْنَعْ بِزَادِكَ أَوْ فَاصْبِرْ عَلَى سَعْيِكَ

وَلَسْتَ تَحْمُدُ أَنْ تُعْزَى إِلَى نَشَبٍ

إِذَا عُزِيَتْ إِلَى بُخْلِ عَلَى نَشَبِكَ

هَبْ جَاهِلَ الْقَوْمِ غَرَّتُهُ جَهَالَتُهُ

أَلَسْتَ ذَا أَدَبٍ ؟ فَاعْمَلْ عَلَى أَدَبِكَ

لَا تَكَلِّبَنَّ^(٥٩٢) عَلَى عِرْضِ الْكِرَامِ تَعَشُّ

وَالْكَلْبُ أَحْسَنُ حَالاً مِنْكَ فِي كَلْبِكَ

وَلَا تُعَبِّ عِرْضَ مَنْ فِي عِرْضِهِ جَرَبٌ

إِلَّا وَأَنْ تُوقِينَ الْعِرْضَ مِنْ جَرَبِكَ

وَإِنَّمَا النَّاسُ فِي الدُّنْيَا ذُؤُورٌ رُتَبٍ

فَأَنْهَضَ إِلَى الرُّتْبَةِ الْعَلِيَاءِ مِنْ رُتْبِكَ

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى مَجْلِسِ أَبِي سَعِيدِ عَلِيِّ بْنِ الْمُسْتَنِيرِ، وَكَانَ هَذَا ابْنُ بِنْتِ قَطْرُبٍ، وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ يَعْرِفُ لَهُ تَقَدُّمَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ يَرْجِعُ إِلَى وَطْأَةِ خُلُقٍ، وَحَسَنِ عَشْرَةٍ، وَحِلَاوَةِ كَلَامٍ، وَفَقْرٍ مُدْقِعٍ، وَضُرِّ ظَاهِرٍ، وَحَالَةٍ سَيِّئَةٍ، وَأَمْرٍ مُخْتَلٍ، وَمَعِيشَةٍ ضَيِّقَةٍ، وَكَثْرَةِ عِيَالٍ وَمُؤُونَةٍ مَعَ نَشَاطِ الْقَلْبِ، وَتَبَاتِ النَّفْسِ، وَطَلَاقَةِ الْوَجْهِ، وَكَثْرَةِ الْمَرْحِ، وَالطَّرْبِ وَالْارْتِيَاكِ.

وَقَرَأَ يَوْمًا عَلَى أَبِي سَعِيدِ دِيوَانَ الْمَرْقُوشِ وَأَخَذَ خَطَّهُ بِذَلِكَ، وَعَجَّلَ

الانصرافَ مِنْ عِنْدِهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سَعِيدٍ: أَيْنَ عَزَمْتَ ؟

قَالَ: أَذْهَبُ لِأَصْلِحِ أَمْرِ الْعِيَالِ، وَأَتَمَحَّلُ وَأَحْتَالُ.

(٥٩٢) . أي لا تلح. مستعار من كلب الكلب إذا ضرى وتعود عض الناس.

فَدَعَا لَهُ بِالرِّزْقِ وَالسَّعَةِ وَالْمَعُونَةِ وَالْكَفَايَةِ. وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ ضَاحِكٌ السِّنِّ،
قَرِيرٌ الْعَيْنِ. فَلَمَّا انصَرَفَ قُلْنَا لَهُ: هَذَا رَجُلٌ مَعَ مَا فِيهِ لَا يَعْرِفُ الْحَزْنَ فِي وَجْهِهِ،
وَلَا يَشْتَدُّ هَمُّهُ، وَيَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ.

فَالْتَفَتَ بَعْضُهُمْ فَقَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، وَرَاءَهُ حَالٌ يَخْفِيهَا عَنَّا، وَيَطْوِيهَا مِنَّا؟
قَالَ: مَا أَظُنُّ الْأَمْرَ عَلَى ذَلِكَ. لَكِنَّ الرَّجُلَ عَاقِلٌ، وَالْعَاقِلُ يَعْلُو عَلَى
هَمِّهِ وَحَزْنِهِ، فَيَقْهَرُهُمَا بِعَقْلِهِ وَعِلْمِهِ، وَالْجَاهِلُ يَشْتَدُّ هَمُّهُ وَحَزْنُهُ، وَيَرَى ذَلِكَ فِي
وَجْهِهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ لِحُجْلِهِ. فَاسْتَحْسَنَّا ذَلِكَ وَأَثْبَتْنَاهُ^(٥٩٣).

وَنظِيرُ خَبَرِ أَبِي سَعِيدٍ مَعِ مَتَّى، خَبْرُهُ أَيْضاً مَعَ أَبِي الْحَسَنِ الْعَامِرِيِّ
الْفِيلَسُوفِ النَّيْسَابُورِيِّ، ذَكَرَهُ أَبُو حَيَّانٍ أَيْضاً قَالَ:

لَمَّا وَرَدَ أَبُو الْفَتْحِ بَنُ الْعَمِيدِ إِلَى بَغْدَادَ، وَأَكْرَمَ الْعُلَمَاءَ اسْتَحْضَرَهُمْ إِلَى
مَجْلِسِهِ، وَوَصَلَ أَبُو سَعِيدِ السِّيْرَافِيِّ، وَأَبَا الْحَسَنِ عَلِيِّ بَنِ عَيْسَى الرُّمَّانِيِّ بِمَالٍ،
كَمَا ذَكَرْنَا فِي بَابِ أَبِي الْفَتْحِ عَلِيِّ بَنِ مُحَمَّدِ بَنِ الْعَمِيدِ.

قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: انْعَقَدَ الْمَجْلِسُ فِي جَمَادَى الْأُولَى سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِينَ وَثَلَاثِمِئَةَ،
وَعَصَّ بِأَهْلِهِ، فَرَأَيْتُ الْعَامِرِيَّ وَقَدْ انْتَدَبَ فَسَأَلَ أَبَا سَعِيدِ السِّيْرَافِيَّ فَقَالَ: مَا
طَبِيعَةُ الْبَاءِ مِنْ بَسْمِ اللَّهِ؟

(٥٩٣) . هنا ينتهي النص المنقول عن المحاضرات ويليهِ نصَّان من الإمتاع والمؤانسة ثانيهما المناظرة بين متى بن يونس القنائي وأبي سعيد السيرافي التي ربما تكون أيضاً جزءاً من كتاب المحاضرات والمناظرات، (وهي متن الفصل القادم) بدليل أنه: أولاً أورد ياقوت نقلاً عن التوحيدى خبر مناظرة نظيرة لها بعدها فوراً وهي غير موجودة في الإمتاع ولا في كتبه الأخرى، وثانياً أن ياقوت ختم المناظرة بقول التوحيدى: «فَكَانَ الْجَوَابُ مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ»، بينما هو في الإمتاع والمؤانسة يتابع الجواب، وهو مستقل عن المناظرة.

فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ هَذِهِ الْمَطَالِبَةِ، وَنَزَلَ بِأَبِي سَعِيدٍ مَا كَادَ بِهِ يُشَكُّ فِيهِ،
فَأَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالسَّحْرِ الْحَلَالِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَحْسَنَ مَا أَدَبْنَا بِهِ بَعْضَ الْمُوقِّعِينَ
الْمُتَقَدِّمِينَ. فَقَالَ:

وَإِذَا خَطَبْتَ عَلَى الرَّجَالِ فَلَا تَكُنْ

خَطِلَ الْكَلَامِ تَقْوُلُهُ مُخْتَلَا

وَاعْلَمْ بِأَنَّ مَعَ السُّكُوتِ لِبَابَةٌ

وَمِنَ التَّكْلِمْ مَا يَكُونُ خَبَالَا

والله يا شيخ، لعينك أكبر من فرارك، ولمرآك أوفى من دخلتك^(٥٩٤)،
ولمشورك أبيت من منظومك، فما هذا الذي طوّعت له نفسك، وسدّد عليه
رأيك؟ إني أظن أن السّلامَةَ بالسُّكُوتِ تعافك، والغنيمة بالقول ترغبُ عنك،
والله المستعان.

فَقَالَ ابْنُ الْعَمِيدِ، وَقَدْ أَعْجَبَ بِمَا قَالَ أَبُو سَعِيدٍ:

فَتَى كَانَ يَغْلُو مَفْرَقَ الْحَقِّ قَوْلُهُ

إِذَا الْخُطْبَاءُ الصَّيْدُ^(٥٩٥) عُضِّلَ قِيلُهَا^(٥٩٦)

جَهِيْرٌ وَ مُمْتَدُّ الْعِنَانِ مُنَاقِدٌ

بَصِيْرٌ بِعَوْرَاتِ الْكَلَامِ خَبِيْرُهَا

(٥٩٤) . الدّخلة بكسر الأول: باطن الأمر.

(٥٩٥) . الصّيد: جمع أصيد وهو الذي يرفع رأسه كبيراً.

(٥٩٦) . عضل قيلها: صعب وتعذر فهمه.

وقوله:

القائلُ القَوْلَ الرَّفِيعَ الَّذِي

يَمْرَعُ مِنْهُ الْبَلَدُ الْمَاحِلُ

والتفت إلى العامري فقال:

وَإِنْ لِسَانًا لَمْ يُعْنَهُ لُبَابُهُ

كَحَاطِبِ لَيْلٍ يَجْمَعُ الرَّذُلَ حَاطِبُهُ

وَذِي خَطَلٍ بِالْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ

مُصِيبٌ فَمَا يُلِمُّ بِهِ فَهَوَ قَاتِلُهُ

وَ فِي الصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْغَيْبِ وَإِنَّمَا

صَحِيفَةُ لُبِّ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَ

وَ فِي الصَّمْتِ سِتْرٌ وَهُوَ أَوْلَى بِذِي الْحِجِّي

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلتُّطْقِ وَجْهٌ وَمَذْهَبُ

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ابْنِ فَارَسٍ مَعْلَمُهُ فَقَالَ: لَسْنَا مِنْ كَلَامِ أَصْحَابِكَ فِي

الفريضة.

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا قَلْتُ لِأَبِي سَعِيدٍ: أَرَأَيْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ مَا كَانَ

مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الْخَطِيرِ عِنْدَنَا، الْكَبِيرِ فِي أَنْفُسِنَا؟

قَالَ: ما دهيت قطُّ بمثل ما دهيت به اليوم، لقد جرى بيني وبين
أبي بشر صاحب ((شرح كتاب المنطق)) سنة عشرين وثلاثمئة، في مجلس
أبي جعفر بن الفرات مناظرة، كانت أشوس^(٥٩٧)، وأشرسَ منها.

* * *

(٥٩٧) . الشَّوسُ، بالتحريك: النَّظَرُ بِمُؤَخَّرِ الْعَيْنِ تَكْبِيراً أَوْ تَغِيظاً.

المنظرة بين

أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس القنائي

بين النحو العربي والمنطق اليوناني

رَوَى أَبُو حَيَّانَ هَذِهِ الْمُنَازِرَةَ فِي كِتَابِهِ: ((الإمتاع والمؤانسة))
وَمَوْضُوعُ الْمُنَازِرَةِ مُفَاضِلَةٌ بَيْنَ عِلْمِ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ وَالْمَنْطِقِ
الْيُونَانِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْمَنْطِقِ الْأَرِسْطِيِّ نِسْبَةً إِلَى وَاضِعِهِ أَرِسْطُوطُ.
Aristotle، وَهِيَ مُنَازِرَةٌ مَشْهُورَةٌ، اقْتَطَعَهَا الْمُسْتَشْرِقُ
مَارْجَلِيُوثُ . Margoliouth مِنْ الْكِتَابِ وَطَبَعَهَا مُسْتَقَلَّةً،
مُصَدَّرًا إِيَّاهَا بِمُقَدِّمَةٍ وَمُلاحِظَاتٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَمَتَّى بْنِ
يُونُسَ، وَأَلْحَقَهَا بِتَرْجُمَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنِّي أَيُّهَا الشَّيْخُ . أَحْيَاكَ اللَّهُ لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَأَحْيَا بِكَ طَالِبِيهِ . ذَكَرْتُ
لِلْوَزِيرِ مَنَازِرَةً جَعَرْتُ فِي مَجْلِسِ الْوَزِيرِ أَبِي الْفَتْحِ
الْفَضْلِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْفَرَاتِ بَيْنَ أَبِي بَشْرٍ مَتَّى وَاخْتَصَرْتُهَا؛ فَقَالَ لِي:
اكَتَبْ هَذِهِ الْمَنَازِرَةَ عَلَى التَّمَامِ فَإِنَّ شَيْئاً يَجْرِي فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ النَّبِيهِ بَيْنَ
هَذَيْنِ الشَّيْخَيْنِ بِحَضْرَةِ أَوْلَيْكَ الْأَعْلَامِ يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَنَمَ سَمَاعُهُ، وَتُوَعَى
فَوَائِدُهُ، وَلَا يُتَهَاوَنَ بِشَيْءٍ مِنْهُ . فَكَتَبْتُ:

حَدَّثَنِي أَبُو سَعِيدٍ بَلَمَعٍ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ . فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى الشَّيْخِ
الصَّالِحِ فَإِنَّهُ رَوَاهَا مَشْرُوحَةً .

لَمَّا انْعَقَدَ الْمَجْلِسُ سَنَةَ سِتِّ وَعَشْرِينَ وَثَلَاثُمِئَةً، قَالَ الْوَزِيرُ ابْنُ الْفَرَاتِ
لِلْجَمَاعَةِ، وَفِيهِمْ:

الْخَالِدِيُّ وَابْنُ الْأَحْشَادِ وَالْكَتَيْبِيُّ وَابْنُ أَبِي بَشْرٍ وَابْنُ رِيَّاحٍ
وَابْنُ كَعْبٍ وَأَبُو عَمْرٍو قُدَّامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ وَالزُّهْرِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ عَيْسَى
الْجَرَّاحِ وَابْنُ فِرَاسٍ وَابْنُ رَشِيدٍ وَابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْهَاشِمِيِّ
وَابْنُ يَحْيَى الْعَلَوِيِّ وَرَسُولُ ابْنِ طَعْنَجٍ مِنْ مِصْرٍ وَالْمَرْزُبَانِيُّ صَاحِبُ
آلِ سَامَانَ:

ألا يَتَدَبُّ مِنْكُمْ إِنْسَانٌ لِمُنَازَرَةِ مَتَّى فِي حَدِيثِ الْمَنْطِقِ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ، وَالْخَيْرِ مِنَ الشَّرِّ، وَالْحِجَّةِ مِنَ الشُّبْهَةِ، وَالشَّكِّ مِنَ الْيَقِينِ، إِلَّا بِمَا حَوِينَاهُ مِنَ الْمَنْطِقِ وَمَلَكَنَاهُ مِنَ الْقِيَامِ بِهِ، وَاسْتَفْدِنَاهُ مِنْ وَاضِعِهِ عَلَى مَرَاتِبِهِ وَحُدُودِهِ، فَاطْلَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ اسْمِهِ عَلَى حَقَائِقِهِ. فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ وَأَطْرَقُوا.

قَالَ ابْنُ الْفَرَاتِ: وَاللَّهِ إِنَّ فِيكُمْ لَمَنْ يَفِي بِكَلَامِهِ بِمَنَازِرَتِهِ وَكَسِرِ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ وَإِنِّي لِأَعُدُّكُمْ فِي الْعِلْمِ بِحَارًا، وَلِلدِّينِ وَأَهْلِهِ أَنْصَارًا، وَلِلْحَقِّ وَطُلَّابِهِ مَنَارًا؛ فَمَا هَذَا التَّرَامُزُ وَالتَّعَامُزُ اللَّذَانِ بَجُلُونٍ عَنْهُمَا؟

فَرَفَعَ أَبُو سَعِيدٍ السَّيرَافِيُّ رَأْسَهُ فَقَالَ: اعْذُرْ أَيُّهَا الْوَزِيرُ، فَإِنَّ الْعِلْمَ الْمَصُونِ فِي الصَّدْرِ غَيْرُ الْعِلْمِ الْمَعْرُوضِ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ عَلَى الْأَسْمَاعِ الْمَصِيخَةِ، وَالْعَيُونِ الْمَحْدِقَةِ، وَالْعُقُولِ الْحَادَّةِ وَاللِّبَابِ النَّاقِدَةِ. لِأَنَّ هَذَا يَسْتَصْحَبُ الْهَيْبَةَ، وَالْهَيْبَةُ مَكْسُورَةٌ، وَيَجْتَلِبُ الْحِيَاءَ، وَالْحِيَاءُ مَعْلَبَةٌ، وَلَيْسَ الْبِرَازُ فِي مَعْرَكَةٍ خَاصَّةٍ كَالْمِصَاعِ^(٥٩٨) فِي بَقْعَةٍ عَامَّةٍ.

فَقَالَ ابْنُ الْفَرَاتِ: أَنْتَ لَهَا يَا أبا سَعِيدٍ، فَاعْتَزَارِكَ عَنْ غَيْرِكَ يُوجِبُ عَلَيْكَ الْإِنْتِصَارَ لِنَفْسِكَ، وَالْإِنْتِصَارُ فِي نَفْسِكَ رَاجِعٌ إِلَى الْجَمَاعَةِ بِفَضْلِكَ.

فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: مَخَالَفَةُ الْوَزِيرِ فِيمَا رَسَمَهُ هُجْنَةٌ، وَالْإِحْتِجَازُ عَنْ رَأْيِهِ إِخْلَادٌ إِلَى التَّفْصِيرِ. وَنَعُودٌ بِاللَّهِ مِنْ زَلَّةِ الْقَدَمِ، وَإِيَّاهُ نَسَأُلُ حُسْنَ الْمَعُونَةِ فِي الْحَرْبِ وَالسَّلْمِ. ثُمَّ وَاجَهَ مَتَّى فَقَالَ:

(٥٩٨). المصاع: من صاع الشجاع أقرانه إذا حمل عليهم ففرق جمعهم.

حدّثني عن المنطقي ما تعني به؟ فإنّنا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبُول صوابه ورَدّ خطئه على سننِ مرضيٍ وطريقةٍ معروفةٍ.

قال متي: أعني به أنّه آله من آلاتِ الكلام يُعرفُ بها صحيحُ الكلام من سقيمه، وفسادُ المعنى من صالحه، كالميزان، فإنّي أعرفُ به الرُّجحانَ من التُّقصانِ، والشَّائلِ^(٥٩٩) من الجانحِ.

فقال أبو سعيد: أخطأت، لأنّ صحيحَ الكلام من سقيمه يُعرفُ بالتَّظْمِ المألوفِ والإعرابِ المعروفِ إذا كنّا نتكلّمُ بالعربيّةِ. وفسادُ المعنى من صالحه يُعرفُ بالعقلِ إذا كنّا نبحثُ بالعقلِ، وهبَكَ عرفتَ الرَّاجحَ من النَّاقصِ من طُرُقِ الوزنِ، فَمَنْ لَكَ بمعرفةِ الموزونِ أيّما هو حديدٌ أو ذهبٌ أو شَبَهٌ^(٦٠٠) أو رصاصٌ؟ فأراك بعدَ معرفةِ الوزنِ فقيراً إلى معرفةِ جوهرِ الموزونِ وإلى معرفةِ قيمتهِ وسائرِ صفاتهِ التي يطولُ عدّها. فعلى هذا لم ينفَعَكَ الوزنُ الَّذي كانَ عليه اعتمادك، وفي تحقيقه كانَ اجتهادك، إلّا نفعاً يسيراً من وجهٍ واحدٍ، وبقيتَ عليك وجوهٌ، فانتَ كما قال الأوّل:

* حَفِظْتَ شَيْئاً وَعَابَتِ عَنْكَ أَشْيَاءُ *

وَبَعْدُ، فقد ذهبَ عليك شيءٌ هاهنا، ليس كلُّ ما في الدُّنيا يوزنُ، بل فيها ما يوزنُ، وفيها ما يُكألُ، وفيها ما يُزرَعُ، وفيها ما يُمسَحُ، وفيها ما يُجزرُ. وهذا وإن كانَ هكذا في الأجسامِ المرئيّةِ، فإنّهُ على ذلك أيضاً في المعقولاتِ المقرّرةِ. والإحساساتُ ظلالُ العقولِ تحكيها بالتَّقريبِ والتَّبعيدِ،

(٥٩٩) . الشائل من شال الميزان إذا ارتفعت إحدى كفتيه.

(٦٠٠) . الشَّبه، بالتَّحريك: النحاس الأصفر.

مَعَ الشَّبَهِ المَحْفُوظِ وَالمِمَّاثِلَةِ الظَّاهِرَةِ. وَدَعَّ هَذَا، إِذَا كَانَ المَنْطِقُ وَضَعَهُ رَجُلٌ
مِنْ يُونَانَ عَلَى لُغَةِ أَهْلِهَا وَاصْطِلَاحِهِمْ عَلَيْهَا وَمَا يَتَعَارَفُونَهُ بِهَا مِنْ
رُسُومِهَا وَصِفَاتِهَا، فَمِنْ أَيْنَ يُلْزَمُ التُّرْكُ وَالهِنْدُ وَالْقُرْسُ وَالعَرَبُ أَنْ يَنْظُرُوا
فِيهِ وَيَتَّخِذُوهُ قَاضِيًا وَحَكَمًا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ، مَا شَهِدَ لَهُمْ بِهِ قَلْبُهُ، وَمَا أَنْكَرَهُ
رَفْضُوهُ؟

قَالَ مَتَّى: إِنَّمَا لَزِمَ ذَلِكَ لِأَنَّ المَنْطِقَ بَحَثٌ عَنِ الأَغْرَاضِ المَعْقُولَةِ وَالمَعَانِي
المَدْرَكَةِ، وَتَصَفُّحٌ لِلخَوَاطِرِ السَّائِحَةِ وَالسَّوَانِحِ المَاجِسَةِ. وَالتَّاسُ فِي المَعْقُولَاتِ
سِوَاءٍ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَرْبَعَةً وَأَرْبَعَةً ثَمَانِيَّةً سِوَاءٍ عِنْدَ جَمِيعِ الأُمَمِ، وَكَذَلِكَ مَا
أَشْبَهَهُ.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: لَوْ كَانَتِ المَطْلُوبَاتُ بِالعَقْلِ وَالمَذْكُورَاتُ بِاللفظِ
تَرَجُّعٌ مَعَ شُعْبِهَا المَخْتَلِفَةِ وَطَرَائِقِهَا المَتَبَايِنَةِ إِلَى هَذِهِ المَرْتَبَةِ البَيِّنَةِ فِي أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعَةٍ
وَأَنَّهِنَّ ثَمَانِيَّةٌ، زَالَ الأَخْتِلَافُ وَحَضَرَ الأِتْفَاقُ، وَلَكِنْ لَيْسَ الأَمْرُ هَكَذَا،
وَلَقَدْ مَوَّهَتْ بِهَذَا المِثَالِ، وَلَكُمْ عَادَةٌ بِمِثْلِ هَذَا التَّمْوِيهِ. وَلَكِنْ مَعَ هَذَا أَيْضًا
إِذَا كَانَتِ الأَغْرَاضُ المَعْقُولَةُ وَالمَعَانِي المَدْرَكَةُ لَا يُؤْصَلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِاللُّغَةِ الجَامِعَةِ
لِلْأَسْمَاءِ وَالأَفْعَالِ وَالحُرُوفِ، أَفَلَيْسَ قَدْ لَزِمَتِ الحَاجَةُ إِلَى مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: أَحْطَاتُ، قُلْ فِي هَذَا المَوْضِعِ: بَلَى.

قَالَ: بَلَى، أَنَا أَقْلُدُكَ فِي مِثْلِ هَذَا.

قَالَ: أنتِ إِذَا لستِ تدعوننا إلى علمِ المنطقِ، إِنَّمَا تدعو إلى تَعَلُّمِ اللُّغَةِ اليونانيَّةِ وَأنتِ لا تعرفُ لغةَ يونانَ، فكيفَ صِرْتِ تدعوننا إلى لُغَةٍ لا تفني بها؟ وقد عَفَتْ منذ زمنٍ طويلٍ، وبأدِّ أهلها، وانقرضَ القومُ الَّذِينَ كَانُوا يتفاوضونَ بها، ويتفاهمونَ أغراضَهُم بتصاريفها. على أَنَّكَ تَنقُلُ من السَّرِيانيَّةِ، فما تقولُ في معانٍ مُتَحَوِّلَةٍ بالنَّقْلِ من لُغَةٍ يونانَ إلى لغةٍ أُخْرَى سريانيَّةِ، ثُمَّ من هذه إلى أُخْرَى عربيَّةٍ؟

قَالَ مِثِّي: يونانُ وَإِنْ بادَتْ مَعَ لُغَتِهَا، فَإِنَّ التَّرْجِمَةَ حَفِظْتَ الأَغْرَاضَ وأدَّتِ المعاني، وأخلصتِ الحقائق.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: إِذَا سَلَّمْنَا لَكَ أَنَّ التَّرْجِمَةَ صَدَقَتْ وما كَذَبَتْ، وَقَوِّمَتْ وما حَرَفَتْ، وَوَزَنْتْ وما جَرَفَتْ^(٦٠١)، وَأَهَّأَ ما التَّائِثُ^(٦٠٢) ولا حَافَتْ، ولا نَقَصَتْ ولا زادتْ، ولا قَدَّمَتْ ولا أَخَّرَتْ، ولا أَحَلَّتْ بِمَعْنَى الخاصِّ والعامِّ، ولا بأخصِّ الخاصِّ ولا بأعمِّ العامِّ. وَإِنْ كَانَ هذا لا يكونُ، وليسَ هو في طبائعِ اللغاتِ ولا في مقاديرِ المعاني. فَكَأَنَّكَ تقولُ: لا حُجَّةَ إِلا عُقُولَ يونانَ، ولا برهانَ إِلا ما وَضَعُوهُ، ولا حقيقةَ إِلا ما أبرزوه.

قَالَ مِثِّي: لا، ولكنَّهُم من بَيَّنَّ الأُمَّمَ أصحابَ عنايةٍ بالحكمةِ والبحثِ عن ظاهرِ هذا العالمِ وباطنِهِ، وعن كلِّ ما يَتَّصِلُ بِهِ وينفصلُ عنه. وبفضلِ عِنَايَتِهِمْ: ظَهَرَ ما ظَهَرَ، وانتَشَرَ ما انتَشَرَ، وفَشَا ما فَشَا، ونَشَأَ ما نَشَأَ من أنواعِ العلمِ وأصنافِ الصَّنَائِعِ. ولمَّ يَجِدْ هذا لغيرهم.

(٦٠١) . يُقَالُ جَزَفَ فُلَانُ الشَّيْءَ إِذَا بَاعَهُ أَوْ اشْتَرَاهُ جِزَافًا بِلَا كَيْلٍ وَلَا وَزْنَ.

(٦٠٢) . اللُّوثُ: البَطءُ فِي الأَمْرِ، لُوثٌ لُوثًا وَالتَّائِثُ، وَالتَّائِثُ فِي عَمَلِهِ: أَبْطَأَ.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَخْطَأْتُ وَتَعَصَّبْتُ وَمَلَّتْ مَعَ الْهَوَى، فَإِنَّ عِلْمَ الْعَالَمِ مَبْثُوثٌ فِي الْعَالَمِ بَيْنَ جَمِيعِ مَنْ فِي الْعَالَمِ، وَهَذَا قَالَ الْقَائِلُ:

الْعِلْمُ فِي الْعَالَمِ مَبْثُوثٌ وَنَحْوُهُ الْعَاقِلُ مَحْثُوثٌ

وَكَذَلِكَ الصَّنَاعَاتُ مَفْضُوضَةٌ عَلَى جَمِيعِ مَنْ عَلَى جَدَدٍ^(٦٠٣) الْأَرْضِ، وَهَذَا غَلَبَ عِلْمٌ فِي مَكَانِ عِلْمٍ، وَكَثُرَتْ صِنَاعَةٌ فِي بَقْعَةٍ دُونَ صِنَاعَةٍ. وَهَذَا وَاضِحٌ وَالزِّيَادَةُ عَلَيْهِ مَشْعَلَةٌ. وَمَعَ هَذَا فَإِنَّمَا كَانَ يَصْحُ قَوْلُكَ وَتَسَلَّمَ دَعْوَاكَ لَوْ كَانَتْ يُونَانُ مَعْرُوفَةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْأُمَمِ بِالْعِصْمَةِ الْغَالِبَةِ، وَالْفِطْنَةِ الظَّاهِرَةِ، وَالْبِنِيَةِ الْمُخَالِفَةِ، وَأَنْتُمْ لَوْ أَرَادُوا أَنْ يَخْطِئُوا لَمَا قَدَرُوا، وَلَوْ قَصَدُوا أَنْ يَكْذِبُوا مَا اسْتَطَاعُوا، وَأَنَّ السَّكِينَةَ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ، وَالْحَقُّ تَكْفَّلَ بِهِمْ، وَالْخَطَأُ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَالْفَضَائِلُ لَصَقَتْ بِأَصُولِهِمْ وَفُرُوعِهِمْ، وَالرَّدَائِلُ بَعَدَتْ مِنْ جَوَاهِرِهِمْ وَعُرُوقِهِمْ. وَهَذَا جَهْلٌ مِمَّنْ يَظُنُّهُ بِهِمْ، وَعِنَادٌ مِمَّنْ يَدَّعِيهِ لَهُمْ. بَلْ كَانُوا كَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ يُصَيِّبُونَ فِي أَشْيَاءٍ وَيَخْطِئُونَ فِي أَشْيَاءٍ، وَيَعْلَمُونَ أَشْيَاءً وَيَجْهَلُونَ أَشْيَاءً، وَيَصْدُقُونَ فِي أُمُورٍ وَيَكْذِبُونَ فِي أُمُورٍ، وَيُحْسِنُونَ فِي أَحْوَالٍ وَيَسِيئُونَ فِي أَحْوَالٍ. وَلَيْسَ وَاضِعُ الْمُنْطَقِ يُونَانُ بِأَسْرَهَا، إِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ مِنْهُمْ^(٦٠٤)، وَقَدْ أَخَذَ عَمَّنْ قَبْلَهُ كَمَا أَخَذَ عَنْهُ مَنْ بَعْدِهِ، وَلَيْسَ هُوَ حُجَّةٌ عَلَى هَذَا الْخَلْقِ الْكَثِيرِ وَالْجَمِّ الْغَفِيرِ، وَلَهُ مُخَالَفُونَ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ. وَمَعَ هَذَا فَالِاخْتِلَافُ فِي الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ وَالْبَحْثِ وَالْمَسْأَلَةِ وَالْجَوَابِ سِنْخٌ^(٦٠٥) وَطَبِيعَةٌ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلٌ بِشَيْءٍ يَرْفَعُ بِهِ هَذَا الْخِلَافَ أَوْ

(٦٠٣) . الْجَدُّ: مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ.

(٦٠٤) . الْمَقْصُودُ بِهِ هُوَ أَرَسَطُو لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَ الْمُنْطَقَ.

(٦٠٥) . السِنْخُ: الْأَصْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْجَمْعُ أَسْنَاخٌ وَسِنْوُخٌ.

يُجْلِحُهُ أَوْ يُؤَثِّرُ فِيهِ؟ هِيَ هَاتِهِ هَذَا مَحَالٌّ، وَلَقَدْ بَقِيَ الْعَالَمُ بَعْدَ مَنْطِقِهِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ مَنْطِقِهِ. فَاْمَسَحَ وَجْهَكَ بِالسَّلْوَةِ عَنْ شَيْءٍ لَا يَسْتَطَاعُ لِأَنَّهُ مُنْعَقِدٌ بِالْفِطْرَةِ وَالطَّبَاعِ، وَأَنْتَ لَوْ فَرَّغْتَ بِالكَ وَصَرَفْتَ عِنَايَتَكَ إِلَى مَعْرِفَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي تَحَاوَرْنَا بِهَا، وَتَجَارَيْنَا فِيهَا، وَتَدَارَسُ أَصْحَابُكَ بِمَفْهُومِ أَهْلِهَا وَتَشْرَحُ كُتُبَ يُونَانَ بِعَادَةِ أَصْحَابِهَا، لَعَلِمْتَ أَنَّكَ عَنِّي عَنْ مَعَانِي يُونَانَ كَمَا أَنَّكَ عَنِّي عَنْ لُغَةِ يُونَانَ.

وَهَاهُنَا مَسْأَلَةٌ، تَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ عُقُوبُهُمْ مَخْتَلِفَةٌ، وَأَنْصِبَاؤُهُمْ مِنْهَا مُتَفَاوِتَةٌ.
قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: وَهَذَا الْاِخْتِلَافُ وَالتَّفَاوُتُ بِالطَّبِيعَةِ أَوْ بِالِاِكْتِسَابِ؟
قَالَ: بِالطَّبِيعَةِ.

قَالَ: فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَاهُنَا شَيْءٌ يَرْتَفِعُ بِهِ هَذَا الْاِخْتِلَافُ الطَّبِيعِيُّ وَالتَّفَاوُتُ الْأَصْلِيُّ؟

قَالَ مَتَّى: هَذَا قَدْ مَرَّ فِي جَمَلَةِ كَلَامِكَ أَنْفَاءً.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَهَلْ وَصَلْتُهُ بِجَوَابٍ قَاطِعٍ وَبَيَانٍ نَاصِعٍ؟ وَدَعَّ هَذَا. أَسْأَلُكَ عَنْ حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ دَائِرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَمَعَانِيهِ مُمَيِّزَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعَقْلِ، فَاسْتَخْرِجِ أُنْتَ مَعَانِيَهُ مِنْ نَاحِيَةِ مَنْطِقِ أَرِسْطُو طَالِيْسِ الَّذِي تُدِلُّ بِهِ وَتُبَاهِي بِتَفْخِيمِهِ، وَهُوَ الْوَاوُ مَا أَحْكَامُهُ؟ وَكَيْفَ مَوَاقِعُهُ؟ وَهَلْ هُوَ عَلَى وَجْهِ أَوْ وُجُودٍ؟

فَبُهِتَ مَتَّى وَقَالَ: هَذَا نَحْوٌ، وَالنَّحْوُ لَمْ أَنْظُرْ فِيهِ، لِأَنَّهُ لَا حَاجَةَ بِالْمَنْطِقِيِّ إِلَيْهِ، وَبِالنَّحْوِيِّ حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ إِلَى الْمَنْطِقِ، لِأَنَّ الْمَنْطِقَ يَبْحَثُ

عن المعنى والنحو يبحثُ عن اللفظِ، فإنَّ مرَّ المنطقيُّ باللفظِ فَبِالْعَرَضِ، وإنَّ عَنَرَ النَّحْوِيُّ بِالْمَعْنَى فَبِالْعَرَضِ وَالْمَعْنَى أَشْرَفُ مِنَ الْلفظِ، واللفظُ أَوْضَعُ مِنَ الْمَعْنَى.

فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَخْطَأْتُ، لِأَنَّ: الْكَلَامَ، وَالتُّنْقُوقَ، وَاللُّغَةَ، وَاللفظَ، وَالإفصاحَ، وَالإعرابَ، وَالإبانَةَ، وَالْحَدِيثَ، وَالإخبارَ، وَالاستخبارَ، وَالْعَرَضَ، وَالتَّمْيِيزَ، وَالنَّهْيَ، وَالْحَضَّ، وَالِدُّعَاءَ، وَالنَّدَاءَ، وَالطَّلَبَ، كُلُّهَا مِنْ وَادٍ وَاحِدٍ بِالْمَشَاكِلَةِ وَالْمَمَائِلَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّ رَجُلًا لَوْ قَالَ:

«نَطَقَ زَيْدٌ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ مَا تَكَلَّمَ بِالْحَقِّ، وَتَكَلَّمَ بِالْفُحْشِ وَلَكِنْ مَا قَالَ الْفُحْشَ، وَأَعْرَبَ عَن نَفْسِهِ وَلَكِنْ مَا أَفْصَحَ، وَأَبَانَ الْمُرَادَ وَلَكِنْ مَا أَوْضَحَ، أَوْ فَاهَ بِحَاجَتِهِ وَلَكِنْ مَا لَفَظَ، أَوْ أَخْبَرَ وَلَكِنْ مَا أَنْبَأَ».

لَكَانَ فِي جَمِيعِ هَذَا مُحَرَّفًا وَمُنَاقِضًا وَوَاضِعًا لِلْكَلامِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَمُسْتَعْمِلًا لِللفظِ عَلَى غَيْرِ شَهَادَةٍ مِنْ عَقْلِهِ وَعَقْلِ غَيْرِهِ، وَالنَّحْوُ مَنْطِقٌ وَلَكِنَّهُ مَسْلُوكٌ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمَنْطِقُ نَحْوٌ، وَلَكِنَّهُ مَفْهُومٌ بِاللُّغَةِ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ بَيْنَ الْلفظِ وَالْمَعْنَى أَنَّ الْلفظَ طَبِيعِيٌّ وَالْمَعْنَى عَقْلِيٌّ، وَهَذَا كَانَ الْلفظُ بَائِدًا عَلَى الزَّمَانِ، لِأَنَّ الزَّمَانَ يَقْفُو أَثَرَ الطَّبِيعَةِ بِأَثَرِ آخَرَ مِنَ الطَّبِيعَةِ وَهَذَا كَانَ الْمَعْنَى ثَابِتًا عَلَى الزَّمَانِ، لِأَنَّ مُسْتَمَلَى الْمَعْنَى عَقْلٌ، وَالْعَقْلُ إلهِيٌّ، وَمَادَّةُ الْلفظِ طَبِيعِيَّةٌ، وَكُلُّ طَبِيعِيٍّ مَتَهَافِتٌ، وَقَدْ بَقِيَتْ أَنْتَ بِلَا اسْمٍ لِمَنْعَتِكَ الَّتِي تَنْتَحِلُهَا، وَآلَتِكَ الَّتِي تُزْهِى بِهَا، إِلَّا أَنْ تَسْتَعِيرَ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ لَهَا اسْمًا فُتْعَارُ، وَيَسَلِّمُ لَكَ بِمَقْدَارٍ. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ بَدٌّ مِنْ قَلِيلٍ هَذِهِ اللُّغَةِ مِنْ أَجْلِ التَّرْجُمَةِ فَلَا بَدَّ لَكَ

أيضاً من كثيرها من أجل تحقيق التّرجمة واحتلاب الثّقفة والتّوقّي من الخلّة اللاحقة.

فَقَالَ مِثِّي: يكفيني من لُعْتِكُمْ هذه الاسم والفعل والحرف، فإني أتبلّغ بهذا القدر إلى أغراضٍ قد هدّبتّها لي يونان.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أخطأت، لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقيرٌ إلى وصفها وبنائها على التّرتيب الواقع في غرائز أهلها. وكذلك أنت محتاجٌ بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف، فإنّ الخطأ والتّحريف في الحركات كالخطأ والفساد في المتحرّكات، وهذا بابٌ أنت وأصحابك ورهطك عنه في غفلة. على أنّ هاهنا سرّاً ما علق بك، ولا أسفر لعقلك، وهو أنّ تعلم أنّ لغة من اللغات لا تُطابق لغةً أُخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها، في أسمائها وأفعالها، وحروفها، وتأليفها، وتقديمها وتأخيرها، واستعارتها، وتحقيقها، وتشديدتها، وتحقيقها، وسعتها وضيقها، ونظمها ونثرها وسجعها، ووزنها وميلها، وغير ذلك ممّا يطول ذكره. وما أظنُّ أحداً يدفع هذا الحكم أو يشكُّ في صوابها ممّن يرجع إلى مُسكّة من عقلٍ أو نصيبٍ من إنصافٍ، فمن أين يجب أن تثق بشيءٍ تُرجم لك على هذا الوصف؟ بل أنت إلى تعرّف اللغة العربيّة أحوج منك إلى تعرّف المعاني اليونانيّة. على أنّ المعاني لا تكون يونانيّة ولا هنديّة، كما أنّ اللغات تكون فارسيّة وعربيّة وتركبيّة.

ومع هذا فإنّك تزعم أنّ المعاني حاصلّة بالعقل والفحص والفكر، فلم يبق إلا أحكام اللّغة، فلم تُزرى على العربيّة وأنت تشرّح كتب أرسطو طاليس بها، مع جهلك بحقيقتها؟

وحدّثني عن قائلٍ قَالَ لَكَ: حالي في مَعْرِفَةِ الحَقَائِقِ وَالتَّصَفُّحِ لها والبحثِ عنها حالٌ قَوْمٍ كَانُوا قَبْلَ واضعِ المنطقِ؛ أنظرُ كما نظروا، وأتدبّرُ كما تدبّروا، لأنَّ اللغةَ قد عَرَفْتُهَا بالمنشأ والوراثَةِ، والمعاني نَقَرْتُ عنها بالنظرِ والرأيِ والاعتقَابِ والاجتهادِ. ما تقولُ له؟ أتقولُ: إِنَّهُ لا يصحُّ له هذا الحُكْمُ ولا يَسْتَتِبُّ هذا الأمرُ، لأنَّه لا يعرفُ هذه الموجوداتِ من الطَّرِيقِ الَّتِي عَرَفْتَهَا أَنْتَ؟ وَلَعَلَّكَ تفرحُ بتقليدهِ لَكَ. وإن كَانَ على باطلٍ. أَكثَرَ مِمَّا تفرحُ باستبدادهِ وإن كَانَ على حَقٍّ، وهذا هو الجهلُ المبيهُنُّ، والحُكْمُ المشينُ.

وَمَعَ هذا، فَحدّثني عن الواوِ ما حُكْمُهُ؟ فَإِنِّي أريدُ أنْ أبيِّنَ أنَّ تفخيمَكَ للمنطقِ لا يُعْنِي عنكَ شيئاً، وَأَنْتَ تجهلُ حرفاً واحداً في اللغةِ الَّتِي تدعو بها إلى حِكْمَةِ يونان، وَمَنْ جهلَ حرفاً أمكنَ أنْ يجهلَ حروفاً، وَمَنْ جهلَ حروفاً جازَ أنْ يجهلَ اللغةَ بكاملها، فَإِنْ كَانَ لا يجهلُها كُلَّها ولكن يجهلُ بَعْضَهَا، فَلَعَلَّهُ يجهلُ ما يَحْتَاجُ إليه، ولا يَنْفَعُهُ فيه علمٌ ما لا يَحْتَاجُ إليه. وهذه رتبةُ العامَّةِ أو رتبةُ من هو فوقَ العامَّةِ بِقَدْرِ يسيرٍ؛ فَلِمَ يَتَأَبَّى عَلَيَّ هذا ويتكَبَّرُ، وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ من الخاصَّةِ وخاصَّةِ الخاصَّةِ، وَأَنَّهُ يعرفُ سرَّ الكلامِ وغامضَ الحكمةِ وخفيَّ القياسِ وَصَحِيحَ البرهانِ؟

وَأَمَّا سَأَلْتُكَ عن معاني حرفٍ واحدٍ، فكيفَ لو نَثَرْتُ عليك الحروفَ كُلَّها، وطلبْتُكَ بمعانيها ومواقعها الَّتِي لها بالحقِّ، وَالَّتِي لها بالتَّجَوُّزِ، سمعتكم تقولون:
 . إِنَّ (في) لا يعرفُ النَّحْوِيُّونَ موقعها، وَأَمَّا يقولون: هي (للوعاءِ) كما يقولون: إِنَّ الباءَ للإلصاقِ؛ وَإِنَّ (في) تَقَالُ على وجودِ: يَقَالُ الشَّيْءُ في الإِناءِ والإِناءِ في المكانِ والسَّائِسُ في السَّيَاسَةِ والسَّيَاسَةُ في السَّائِسِ.

أَتَرَى أَنَّ هَذَا التَّشْقِيقَ هُوَ مِنْ عَقُولِ يُونَانَ وَمِنْ نَاحِيَةِ لُغَتِهَا؟ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعَقَّلَ هَذَا بِعَقُولِ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْعَرَبِ؟

فهذا جهلٌ مِنْ كُلِّ مَنْ يَدَّعِيهِ، وَخَطَلٌ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي أَفَاضَ فِيهِ النَّحْوِيُّ إِذَا قَالَ (فِي) لِلْوَعَاءِ فَقَدْ أَفْصَحَ فِي الْجُمْلَةِ عَنِ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ، وَكُنِيَ مَعَ ذَلِكَ عَنِ الْوُجُوهِ الَّتِي تَظْهَرُ بِالتَّفْصِيلِ. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ، وَهُوَ كَافٍ فِي مَوْضِعِ التَّكْنِيَةِ (٦٠٦).

فَقَالَ ابْنُ الْفَرَاتِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ الْمَوْفُوقُ، أَجِبْهُ بِالْبَيَانِ عَنِ مَوَاقِعِ (الواو) حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ فِي إِفْحَامِهِ، وَحَقِّقْ عِنْدَ الْجَمَاعَةِ مَا هُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ مَشْنَعٌ بِهِ.

فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: لِلْوَاوِ وَجُودٌ وَمَوَاقِعٌ:

مِنْهَا مَعْنَى الْعَطْفِ فِي قَوْلِكَ: أَكْرَمْتُ زَيْدًا وَعَمْرًا.

وَمِنْهَا الْقَسَمُ فِي قَوْلِكَ: وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ كَذَا وَكَذَا.

وَمِنْهَا الْإِسْتِنَافُ فِي قَوْلِكَ: خَرَجْتُ وَزَيْدٌ قَائِمٌ. لِأَنَّ الْكَلَامَ بَعْدَهُ ابْتِدَاءٌ

وَخَبَرٌ.

وَمِنْهَا مَعْنَى رُبِّ الَّتِي هِيَ لِلتَّقْلِيلِ نَحْوُ قَوْلِهِمْ: وَقَاتِمِ الْأَعْمَاقِ خَاوِي

الْمَخْتَرِقِ.

وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ أَصْلِيَّةً فِي الْأِسْمِ كَقَوْلِكَ: وَاصِلٌ وَقَدْ وَافِدٌ.

وَفِي الْفِعْلِ كَذَلِكَ كَقَوْلِكَ: وَجَلَّ يَوْجَلُ.

وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ مُفْحَمَةً نَحْوَ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

(٦٠٦). التكنية: من الكناية.

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ (٦٠٧)

أي ناديناها؛ ومثله قول الشاعر:

* فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى *

المعنى: انتحى بنا؛ ومنها معنى الحال في قوله عز وجل:

﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ (٦٠٨)

أي يكلم الناس في حال كهُولته.

ومنها أن تكون بمعنى حرف الجر، كقولك: استوى الماء والخشبة أي مع
الخشبة.

فَقَالَ ابْنُ الْفَرَاتِ لِمَتَّى: يَا أَبَا بَشْرٍ: أَكَانَ هَذَا فِي نَحْوِكَ.

ثُمَّ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: دَعَّ هَذَا، هَاهُنَا مَسْأَلَةٌ عَلاَقَتُهَا بِالْمَعْنَى الْعَقْلِيَّةِ أَكْثَرُ مِنْ

عَلاَقَتِهَا بِالشَّكْلِ اللَّفْظِيِّ، مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ الْقَائِلِ:

زَيْدٌ أَفْضَلُ الْأَخْوَةِ؟

قَالَ: صَحِيحٌ.

قَالَ: فَمَا تَقُولُ إِذَا قَالَ زَيْدٌ أَفْضَلُ إِخْوَتِهِ؟

قَالَ: صَحِيحٌ.

(٦٠٧) . سورة الصافات . الآية ١٠٣ .

(٦٠٨) . سورة آل عمران . الآية ٤٦ .

قَالَ: فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا مَعَ الصَّحِّحَةِ؟

فَبَلَّحَ وَجَحَّحَ وَغَصَّ بِرَيْقِهِ.

فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَفْتَيْتَ عَلَيَّ غَيْرَ بَصِيرَةٍ وَلَا اسْتِبَانَةً. الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى جَوَابُكَ عَنْهَا صَحِيحٌ وَإِنْ كُنْتَ غَافِلًا عَنْ وَجْهِ صِحَّتِهَا. وَالْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ جَوَابُكَ عَنْهَا غَيْرُ صَحِيحٍ وَإِنْ كُنْتَ أَيْضًا ذَاهِلًا عَنْ وَجْهِ بَطْلَانِهَا.

قَالَ مَتَّى: بَيِّنْ لِي مَا هَذَا التَّهْجِينُ؟

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: إِذَا حَضَرَتِ الْحُلُقَةُ اسْتَقَدَّتْ، لَيْسَ هَذَا مَكَانَ التَّدْرِيسِ هُوَ مَجْلِسُ إِزَالَةِ التَّلْيِيسِ، مَعَ مَنْ عَادَتْهُ التَّمْوِيَةُ وَالتَّشْبِيهُ، وَالْجَمَاعَةُ تَعْلَمُ أَنَّكَ أَخْطَأْتَ، فَلِمَ تَدْعَى أَنَّ النَّحْوِيَّ إِذَا يَنْظُرُ فِي اللَّفْظِ دُونَ الْمَعْنَى، وَالْمَنْطِقِيَّ يَنْظُرُ فِي الْمَعْنَى لَا فِي اللَّفْظِ؟ هَذَا كَانَ يَصِحُّ لَوْ أَنَّ الْمَنْطِقِيَّ كَانَ يَسْكُتُ وَيَجِيلُ فِكْرَهُ فِي الْمَعْنَى، وَيَرْتَّبُ مَا يَرِيدُ بِالْوَهْمِ السَّانِحِ وَالْخَاطِرِ الْعَارِضِ وَالْحَدْسِ الطَّارِئِ. فَأَمَّا وَهُوَ يَرِيعُ أَنْ يَبْرُرَ مَا صَحَّ لَهُ بِالْإِعْتِبَارِ وَالتَّصْفُحِ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ وَالْمُنَاطِرِ، فَلَا بَدَّ لَهُ مِنَ اللَّفْظِ الَّذِي يَشْتَمَلُ عَلَى مَرَادِهِ، وَيَكُونُ طِبَاقًا لِعَرْضِهِ، وَمُوَافِقًا لِقَصْدِهِ.

قَالَ ابْنُ الْفَرَاتِ لِأَبِي سَعِيدٍ: تَمَّ لَنَا كَلَامُكَ فِي شَرْحِ الْمَسْأَلَةِ حَتَّى تَكُونَ الْفَائِدَةُ ظَاهِرَةً لِأَهْلِ الْمَجْلِسِ، وَالتَّبَكُّيْتُ عَامِلًا فِي نَفْسِ أَبِي بَشْرٍ.

فَقَالَ: مَا أَكْرَهُ مِنْ إِضْاحِ الْجَوَابِ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَّا مَلَكَ الْوَزِيرَ، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا طَالَ مُلٌّ.

فَقَالَ ابْنُ الْفُرَاتِ: مَا رَغِبْتُ فِي سَمَاعِ كَلَامِكَ وَبَيْنَ الْمَلِكِ عِلَاقَةٌ.
فَأَمَّا الْجَمَاعَةُ فَحَرَّصُوهَا عَلَى ذَلِكَ ظَاهِرًا.

فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: إِذَا قُلْتَ: (زَيْدٌ أَفْضَلُ إِخْوَتِهِ) لَمْ يَجْزُ.
وَإِذَا قُلْتَ: (زَيْدٌ أَفْضَلُ الْإِخْوَةِ) جَازَ.

وَالْفَضْلُ بَيْنَهُمَا أَنَّ إِخْوَةَ زَيْدٍ هُمْ غَيْرُ زَيْدٍ، وَزَيْدٌ خَارِجٌ عَنْ
جَمَلَتِهِمْ. وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: (مَنْ إِخْوَةُ زَيْدٍ). لَمْ
يَجْزُ أَنْ تَقُولَ: زَيْدٌ وَعَمْرُو وَبَكْرٌ وَخَالِدٌ وَإِنَّمَا تَقُولُ: بَكْرٌ وَعَمْرُو وَخَالِدٌ
وَلَا يَدْخُلُ زَيْدٌ فِي جَمَلَتِهَا. فَإِذَا كَانَ زَيْدٌ خَارِجًا عَنْ إِخْوَتِهِ صَارَ غَيْرَهُمْ،
فَلَمْ يَجْزُ أَنْ تَقُولَ: أَفْضَلُ إِخْوَتِهِ، كَمَا لَمْ يَجْزُ أَنْ تَقُولَ: (إِنَّ حِمَارَكَ أَفْرَهُ^(٦٠٩))
الْبِغَالِ) لِأَنَّ الْحَمِيرَ غَيْرُ الْبِغَالِ، كَمَا أَنَّ زَيْدًا غَيْرُ إِخْوَتِهِ، فَإِذَا قُلْتَ:
(زَيْدٌ وَعَمْرُو وَبَكْرٌ وَخَالِدٌ) فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ: (حِمَارُكَ أَفْرَهُ الْحَمِيرِ) لِأَنَّهُ
دَاخِلٌ تَحْتَ الْأَسْمِ الْوَاقِعِ عَلَى الْحَمِيرِ. فَلَمَّا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَا جَازَ أَنْ
يُضَافَ إِلَى وَاحِدٍ مَنكُورٍ يَدُلُّ عَلَى الْجِنْسِ، فَتَقُولُ: (زَيْدٌ أَفْضَلُ رَجُلٍ)
(وَحِمَارُكَ أَفْرَهُ حِمَارٍ) فَيَدُلُّ (رَجُلٌ) عَلَى الْجِنْسِ كَمَا دَلَّ الرَّجَالِ. وَكَمَا فِي
(عِشْرِينَ دَرَهْمًا وَمِئَةَ دَرَهْمٍ).

فَقَالَ ابْنُ الْفُرَاتِ: مَا بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ مَزِيدٌ، وَلَقَدْ جَلَّ عِلْمُ النَّحْوِ عِنْدِي
بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ وَهَذَا الْإِسْفَارِ.

فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: مَعَانِي النَّحْوِ مُنْقَسِمَةٌ بَيْنَ حَرَكَاتِ اللَّفْظِ وَسَكَنَاتِهِ،
وَبَيْنَ وَضْعِ الْحُرُوفِ فِي مَوَاضِعِهَا الْمُقْتَضِيَةِ لَهَا، وَبَيْنَ تَأْلِيفِ الْكَلَامِ بِالتَّقْدِيمِ

(٦٠٩) . الدابة الفارسة: النشبة الحادة القوية، تُقال للبراذين والحمير والبغال ولا تُقال للخيل.

والتأخير وتوحي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك، وإن زاع شيء عن هذا النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائعا بالاستعمال التادر والتأويل البعيد، أو مردوداً لحُزوجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم. فأما ما يتعلّق باختلاف لغات القبائل فذلك شيء مسلّم لهم ومأخوذ عنهم، وكل ذلك محصور بالتبّع والرواية والسّماع والقياس المطرد على الأصل المعروف من غير تحريف، وإما دخل العجب على المنطقيين لظنهم أن المعاني لا تُعرف ولا تُستوضح إلا بطريقهم ونظرهم وتكليفهم، فترجموا لغة هم فيها ضعفاء ناقصون. وجعلوا تلك الترجمة صناعةً، وأدّعوا على النحويين أنهم مع اللفظ لا مع المعنى.

ثم أقبل أبو سعيد على متى فقال: أما تعرف يا أبا بشر أن الكلام اسم واقع على أشياء قد اختلفت بمراتب، وتقول بالمثل: هذا ثوب والثوب اسم يقع على أشياء بها صار ثوباً، لأنّه نسج بعد أن عُزل، فسدائه لا تكفي دون لحمته وحُمته لا تكفي دون سدائه، ثم تأليفه كنسجه، وبلاغته كقصارته، ورقّة سلّكه كرقّة لفظه، وغلظّ عزله ككثافة حروفه، ومجموع هذا كله ثوب، ولكن بعد تقدّمه كلّ ما يحتاج إليه فيه.

قال ابن الفرات: سلّه يا أبا سعيد عن مسألة أخرى، فإنّ هذا كلّما توالى عليه بانّ انقطاعه، وانخفض ارتفاعه، في المنطق الذي ينصّره، والحقّ الذي لا يبصره.
قال أبو سعيد: ما تقول في رجل يقول: (لهذا عليّ درهم غير قيراط)، ولهذا الآخر عليّ درهم غير قيراط).
قال: ما لي علم بهذا التّمط.

قَالَ: لَسْتُ نَارِعاً عَنْكَ حَتَّى يَصَحَّ عِنْدَ الْحَاضِرِينَ أَنَّكَ صَاحِبُ مَخْرَقَةٍ
وَزَرْقٍ^(٦١٠)، هَاهُنَا مَا هُوَ أَحْفُ مِنْ هَذَا، قَالَ رَجُلٌ لِصَاحِبِهِ: (بِكُمْ الثُّوبَانِ
الْمَصْبُوعَانِ)، وَقَالَ آخَرَ: (بِكُمْ ثُوبَانِ مَصْبُوعَانِ) وَقَالَ آخَرَ: (بِكُمْ ثُوبَانِ
مَصْبُوعَيْنِ) بَيَّنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي تَضَمَّنَهَا لَفْظٌ لَفْظٌ.

قَالَ مَتَّى: لَوْ نَثَرْتُ أَنَا أَيْضاً عَلَيْكَ مِنْ مَسَائِلِ الْمَنْطِقِ أَشْيَاءَ لَكَانَ حَالُكَ
كَحَالِي.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَخْطَأْتُ، لِأَنَّكَ إِذَا سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ أَنْظُرُ فِيهِ،
فَإِنْ كَانَ لَهُ عِلَاقَةٌ بِالْمَعْنَى وَصَحَّ لَفْظُهُ عَلَى الْعَادَةِ الْجَارِيَةِ أَجَبْتُ، ثُمَّ لَا
أَبَالِي أَنْ يَكُونَ مُوَافِقاً أَوْ مُخَالَفاً، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُتَعَلِّقٍ بِالْمَعْنَى رَدَدْتُهُ عَلَيْكَ،
وَإِنْ كَانَ مُتَّصِلاً بِاللَّفْظِ وَلَكِنْ عَلَى وَضْعِ لَكُمْ فِي الْفَسَادِ عَلَى مَا حَشَوْتُمْ
بِهِ كُتِبَكُمْ رَدَدْتُهُ أَيْضاً لِأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى إِحْدَاثِ لُغَةٍ فِي لُغَةٍ مُقَرَّرَةٍ بَيْنَ أَهْلِهَا.

مَا وَجَدْنَا لَكُمْ إِلَّا مَا اسْتَعْرَمْتُمْ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ كَالسَّبَبِ وَالآلَةِ، وَالسَّلْبِ
وَالإِيجَابِ، وَالْمَوْضُوعِ وَالْحَمُولِ، وَالكَوْنِ وَالْفَسَادِ، وَالْمَهْمَلِ وَالْمَحْصُورِ، وَأَمَثَلَةٌ لَا
تَنْفَعُ وَلَا تُجَدِّي، وَهِيَ إِلَى الْعِيِّ أَقْرَبُ، وَفِي الْفَهَاهَةِ^(٦١١) أَذْهَبُ.

ثُمَّ أَنْتُمْ هُوَلَاءُ فِي مَنْطِقِكُمْ عَلَى نَقْصِ ظَاهِرٍ، لِأَنَّكُمْ لَا تَقُونُ بِالْكَتَبِ
وَلَا هِيَ مَشْرُوحَةٌ، فَتَدَّعُونَ الشُّعْرَ وَلَا تَعْرِفُونَهُ وَتَذَكُرُونَ الْحَطَابَةَ وَأَنْتُمْ عَنْهَا
فِي مَنْطِقِ الثُّرَابِ؛ وَقَدْ سَمِعْتُ قَائِلَكُمْ يَقُولُ: الْحَاجَةُ مَاسَّةٌ إِلَى كِتَابِ الْبِرْهَانِ
فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ فَلِمَ قُطِعَ الزَّمَانُ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ، وَإِنْ كَانَتْ الْحَاجَةُ

(٦١٠) . زرق: مخادع.

(٦١١) . الفهامة: العي.

قَدْ مَسَّتْ إِلَى مَا قَبِلَ الْبِرْهَانَ، وَإِلَّا فَلِمَ صُنِّفَ مَا لَا يُجْتَاخُ إِلَيْهِ وَيُسْتَعْنَى عَنْهُ. هَذَا كُتِبَ تَخْلِيْطُ وَرَزُقُ وَتَهْوِيلُ وَرَعْدُ وَبَرْقُ.

وَأَمَّا بِوَدِّكُمْ أَنْ تَشْغَلُوا جَاهِلًا، وَتَسْتَنْدُوا عَزِيْزًا؟ وَغَايَتُكُمْ أَنْ تَهْوَلُوا بِالْجِنْسِ وَالنَّوْعِ وَالْحَاصَّةِ وَالْفَصْلِ وَالْعَرَضِ وَالشَّخْصِ، وَتَقُولُوا: الْهَلِيَّةُ^(٦١٢) وَالْأَيْنِيَّةُ^(٦١٣) وَالْمَاهِيَّةُ وَالْكَيفِيَّةُ وَالْكَمِّيَّةُ وَالذَّائِيَّةُ وَالْعَرَضِيَّةُ وَالْجَوْهَرِيَّةُ وَالْهَيُولِيَّةُ وَالصُّوْرِيَّةُ وَالْأَيْسِيَّةُ^(٦١٤) وَاللَّيْسِيَّةُ^(٦١٥) وَالنَّفْسِيَّةُ؟

ثُمَّ تَتَطَاوَلُونَ فَتَقُولُونَ: (جئنا بالسَّحْرِ) فِي قَوْلِنَا: (لَا) فِي شَيْءٍ مِنْ (ب) وَ (ج) فِي بَعْضِ (ب)، فَ (لَا) فِي بَعْضِ (ج) وَ (لَا) فِي كُلِّ (ب) وَ (ج) فِي كُلِّ (ب) فَإِذَنْ (لَا) فِي كُلِّ (ج). هَذَا بِطَرِيقِ الْخُلْفِ، وَهَذَا بِطَرِيقِ الْإِخْتِصَاصِ.

وهذه كلها خُرَافَاتٌ وَتُرْهَاتٌ، وَمَعَالِقٌ وَشَبَكَاتٌ. وَمَنْ جَادَ عَقْلُهُ وَحَسَّنَ تَمِيْزَهُ وَلَطَّفَ نَظْرَهُ وَثَقَّبَ رَأْيَهُ وَأَنَارَتْ نَفْسُهُ اسْتَعْنَى عَنْ هَذَا كُلِّهِ . بَعَوِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ . وَجَوْدُهُ الْعَقْلِ وَحُسْنُ التَّمْيِيْزِ وَلُطْفُ النَّظْرِ وَثُقُوبُ الرَّأْيِ وَإِنَارَةُ النَّفْسِ مِنْ مَنَائِحِ اللَّهِ الْهَنْيَةِ، وَمَوَاهِبِ السَّنِيَّةِ، يَخْتَصُّ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَمَا أَعْرَفُ لِاسْتِطَالَتِكُمْ بِالْمَنْطِقِ وَجَهًا، وَهَذَا النَّاشِئُ أَبُو الْعَبَّاسِ قَدْ نَقَضَ عَلَيْكُمْ وَتَتَبَعَ طَرِيقَتَكُمْ، وَبَيَّنَّ خَطَأَكُمْ، وَأَبْرَزَ ضَعْفَكُمْ، وَلَمْ تَقْدِرُوا إِلَى الْيَوْمِ أَنْ تَرُدُّوا عَلَيْهِ كَلِمَةً وَاحِدَةً مِمَّا قَالَ، وَمَا زِدْتُمْ عَلَى قَوْلِكُمْ: لَمْ يَعْرِفْ

(٦١٢) . الْهَلِيَّةُ: نَسْبَةٌ إِلَى هَلٍ.

(٦١٣) . الْأَيْنِيَّةُ: نَسْبَةٌ إِلَى أَيْنٍ.

(٦١٤) . الْأَيْسِيَّةُ: الْأَيْسُ فِي الْإِصْطِلَاحِ الْفَلَسْفِيِّ: الْوُجُودُ.

(٦١٥) . اللَّيْسِيَّةُ: اللَّيْسُ فِي الْإِصْطِلَاحِ الْفَلَسْفِيِّ: الْعَدَمُ.

غَرَضًا وَلَا وَقَفَ عَلَى مُرَادِنَا، وَإِنَّمَا تَكَلَّمْ عَلَى وَهْمٍ. وَهَذَا مِنْكُمْ تَحَاجُزٌ وَنُكُولٌ وَرَضَى بِالْعَجْزِ وَكُلُولٌ، وَكُلُّ مَا ذَكَرْتُمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ فَعَلَيْكُمْ فِيهِ اعْتِرَاضٌ هَذَا قَوْلَكُمْ فِي (يَفْعَلُ وَيَنْفَعُ) لَمْ تَسْتَوْضِحُوا فِيهِمَا مَرَاتِبَهَا وَمَوَاقِعَهُمَا، وَلَمْ تَقِفُوا عَلَى مَقَاسِمَهُمَا، لِأَنَّكُمْ قَنَعْتُمْ فِيهِمَا بِوُقُوعِ الْفِعْلِ مِنْ (يَفْعَلُ) وَقَبُولِ الْفِعْلِ مِنْ (يَنْفَعُ)، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ غَايَاتٌ خَفِيَّتْ عَلَيْكُمْ، وَمَعَارِفٌ ذَهَبَتْ عَنْكُمْ وَهَذَا حَالِكُمْ فِي الْإِضَافَةِ.

فَأَمَّا الْبَدَلُ وَوَجُوهُهُ، وَالْمَعْرِفَةُ وَأَقْسَامُهَا، وَالنَّكِرَةُ وَمَرَاتِبُهَا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ فِيهِ مَقَالٌ وَلَا مَجَالٌ.

وَأَنْتَ إِذَا قَلْتَ لِإِنْسَانٍ: (كُنْ مَنْطِقِيًّا)، فَإِنَّمَا تَرِيدُ: كُنْ عَقْلِيًّا أَوْ عَاقِلًا أَوْ اعْقِلْ مَا تَقُولُ لِأَنَّ أَصْحَابَكَ يَزْعُمُونَ أَنَّ النُّطْقَ هُوَ الْعَقْلُ، وَهَذَا قَوْلٌ مَدْخُولٌ، لِأَنَّ النُّطْقَ عَلَى وَجْهِ أَنْتُمْ عَنْهَا فِي سَهْوٍ.

وَإِذَا قَالَ لَكَ آخَرُ: (كُنْ نَحْوِيًّا لِعَوِيًّا فَصِيحًا) فَإِنَّمَا تَرِيدُ: افْهَمْ عَنِ نَفْسِكَ مَا تَقُولُ، ثُمَّ رُمْ أَنْ يَفْهَمَ عَنْكَ غَيْرُكَ. وَقَدَّرِ اللَّفْظَ عَلَى الْمَعْنَى فَلَا يَفْضَلُ عَنْهُ، وَقَدَّرِ الْمَعْنَى عَلَى اللَّفْظِ فَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ.

هَذَا إِذَا كُنْتَ فِي تَحْقِيقِ شَيْءٍ عَلَى مَا هُوَ بِهِ. فَأَمَّا إِذَا حَاوَلْتَ فَرَشَ الْمَعْنَى وَبَسَطَ الْمُرَادِ فَاجْلُ اللَّفْظِ بِالرَّوَادِفِ الْمَوْضِحَةِ وَالْأَشْبَاهِ الْمُقَرَّبَةِ، وَالِاسْتِعَارَاتِ الْمَمْتَعَةِ، وَبَيِّنِ الْمَعَانِي بِالْبَلَاغَةِ، أَعْنِي لَوْحٌ مِنْهَا لِشَيْءٍ حَتَّى لَا تَصَابَ إِلَّا بِالْبَحْثِ عَنْهَا وَالشُّوقِ إِلَيْهَا، لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ إِذَا ظَفَرَ بِهِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكُرِّمَ وَعَلَا. وَاشْرَحْ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى لَا يُمْكِنَ أَنْ يُمْتَرَى فِيهِ أَوْ يُتَعَبَ فِي فَهْمِهِ أَوْ يُعْرَجَ عَنْهُ لِاغْتِمَاضِهِ، فَهَذَا الْمَذْهَبُ يَكُونُ جَامِعًا لِحَقَائِقِ

الأشباهِ ولأشباهِ الحقائق. وهذا بابٌ إن استقصيتهُ خرَجَ عن نَمَطِ ما نحنُ عليه
في هذا المجلس. على أيِّ لا ادري أيؤثِّرُ فيكَ ما أقول أو لا؟
ثمَّ قال: حدِّثنا هل فصلتُم قَطُّ بالمنطقِ بيْنَ مختلفين، أو رفعتُم الخلافَ
بيْنَ اثنين؟

أترَاكَ بِقُوَّةِ المنطقِ وبرهانِهِ اعتقدتَ أَنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، وأنَّ الواحدَ أكثرُ
من واحدٍ، وأنَّ الَّذي هو أكثرُ من واحدٍ هو واحدٌ، وأنَّ الشرعَ ما تذهبُ إليه،
والحقُّ ما تقولهُ؟

هيهات، هاهنا أمورٌ ترتفعُ عن دَعْوَى أصحابِكَ وهذيانهم، وتديقُ عن
عقولهم وأذهانهم.

ودعُ هذا، هاهنا مسألةٌ قد أوقعتُ خلافاً، فأزغَ ذلكَ الخلافَ بمنطقِكَ.
قالَ قائلٌ: (لِفُلانٍ مِنَ الحائِطِ إِلَى الحائِطِ) ما الحكمُ فيه؟ وما قَدْرُ
المشهودِ بِهِ لِفُلانٍ؟ فقد قالَ ناسٌ: له الحائِطانِ معاً وما بينهما. وقالَ آخرونَ: له
أحدهما. هاتِ الآنَ آيتِكَ الباهرةَ، ومعجزَتِكَ القاهرةَ، وأيُّ لكَ بهما، وهذا قد
بانَ بغيرِ نظركَ ونظيرِ أصحابِكَ.

ودعُ هذا أيضاً، قالَ قائلٌ: (مِنَ الكلامِ ما هو مستقيمٌ حسنٌ، ومنه ما
هو مستقيمٌ مُحالٌ، ومنه ما هو مستقيمٌ قبيحٌ، ومنه ما هو محالٌ كَذِبٌ، ومنه ما
هو خطأً). فسَرَّ هذه الجملة. واعتراضُ عليه عالمٌ آخرٌ، فاحكم أنتَ بيْنَ هذا
القائلِ والمعترضِ وأرنا قُوَّةَ صناعتِكَ الَّتِي تُميِّزُ بها بيْنَ الخطأِ والصَّوابِ، وبيْنَ الحقِّ
والباطلِ؟ فإن قلتَ: كيفَ أحكمَ بيْنَ اثنينِ أحدهما قد سمعتُ مقالتهُ، والآخِرُ لم
أحصلُ اعتراضه؟ قيلَ لك: استخرجِ بنظركَ الاعتراضَ إن كانَ ما قاله محتملاً له،
ثمَّ أوضحِ الحقَّ منهما، لأنَّ الأصلَ مسموعٌ لك، حاصلٌ عندك وما يصحُّ به أو

يَرِدُ عَلَيْهِ يَجِبُ أَنْ يَظْهَرَ مِنْكَ، فَلَا تَتَعَاَسَرَ عَلَيْنَا، فَإِنَّ هَذَا لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ
مِنَ الْجَمَاعَةِ.

فَقَدْ بَانَ الْآنَ أَنَّ مَرْكَبَ اللَّفْظِ لَا يَجُوزُ مَبْسُوطُ الْعَقْلِ؛ وَالْمَعَانِي مَعْقُولَةٌ
وَلَهَا اتِّصَالٌ شَدِيدٌ وَبَسَاطَةٌ تَامَّةٌ، وَلَيْسَ فِي قُوَّةِ اللَّفْظِ مِنْ أَيِّ لُغَةٍ كَانَ أَنْ يَمْلِكَ
ذَلِكَ الْمَبْسُوطَ وَيَحِيطَ بِهِ، وَيَنْصِبَ عَلَيْهِ سُورًا، وَلَا يَدْعُ شَيْئًا مِنْ دَاخِلِهِ أَنْ يَخْرُجَ،
وَلَا شَيْئًا مِنْ خَارِجِهِ أَنْ يَدْخُلَ، خَوْفًا مِنَ الْاِخْتِلَاطِ الْجَالِبِ لِلْفَسَادِ، أَعْنِي أَنَّ
ذَلِكَ يَخْلُطُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُشَبِّهُ الْبَاطِلَ بِالْحَقِّ، وَهَذَا الَّذِي وَقَعَ الصَّحِيحُ مِنْهُ فِي
الْأَوَّلِ قَبْلَ وَضْعِ الْمُنْطِقِ، وَقَدْ عَادَ ذَلِكَ الصَّحِيحُ فِي الثَّانِي بَعْدَ الْمُنْطِقِ.

وَأَنْتَ لَوْ عَرَفْتَ تَصَرُّفَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ فِي مَسَائِلِهِمْ، وَوَقَّفْتَ عَلَى
عَوْرِهِمْ فِي نَظَرِهِمْ وَعَوَّصِهِمْ فِي اسْتِنْبَاطِهِمْ، وَحُسْنِ تَأْوِيلِهِمْ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ،
وَسَعَةِ تَشْقِيقِهِمْ لِلْوُجُوهِ الْمُحْتَمَلَةِ وَالْكُنَايَاتِ الْمَفِيدَةِ وَالْجِهَاتِ الْقَرِيبَةِ وَالْبَعِيدَةِ،
لِحَقَّرْتَ نَفْسَكَ، وَازْدَرَيْتَ أَصْحَابَكَ، وَلَكَانَ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ وَتَابَعُوا عَلَيْهِ أَقْلًا فِي
عَيْنِكَ مِنَ السُّهَاءِ عِنْدَ الْقَمَرِ، وَمِنَ الْخُصَا عِنْدَ الْجَبَلِ. أَلَيْسَ الْكِنْدِيُّ وَهُوَ عَلَمٌ فِي
أَصْحَابِكَ يَقُولُ فِي جَوَابِ مَسْأَلَةٍ (هَذَا مِنْ بَابِ عَدَّ). فَعَدَّ الْوُجُوهُ بِحَسَبِ
الْإِسْتِطَاعَةِ عَلَى طَرِيقِ الْإِمْكَانِ مِنْ نَاحِيَةِ الْوَهْمِ بِلَا تَرْتِيبٍ، حَتَّى وَضَعُوا لَهُ
مَسَائِلَ مِنْ هَذَا الشَّكْلِ وَغَالَطُوهُ بِهَا وَأَرْوَهُ أَهْمًا مِنَ الْفَلَسَفَةِ الدَّاخِلَةِ، فَذَهَبَ
عَلَيْهِ ذَلِكَ الْوَضْعُ، فَاعْتَقَدَ فِيهِ أَنَّهُ صَحِيحٌ وَهُوَ مَرِيضٌ الْعَقْلِ فَاسِدُ الْمَزَاجِ حَائِلُ
الْغَرِيزَةِ مَشْوَشُ اللَّبِّ.

قَالُوا لَهُ: أَحْبَرْنَا عَنْ اصْطِكَائِ الْأَجْرَامِ، وَتَضَاعُطِ الْأَرْكَانِ؟ هَلْ يَدْخُلُ فِي
بَابِ وَجُوبِ الْإِمْكَانِ؟ أَوْ يَخْرُجُ مِنْ بَابِ الْفُقْدَانِ إِلَى مَا يَخْفَى عَنِ الْأَذْهَانِ؟

وَقَالُوا لَهُ أَيْضاً: مَا نِسْبَةُ الْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ إِلَى الصُّوَرِ الْهَيُولَانِيَّةِ؟ وَهَلْ هِيَ
مَلَابَسَةٌ لِلْكَيَانَ فِي حُدُودِ النَّظَرِ وَالْبَيَانِ، أَوْ مَزَايِلَةٌ لَهُ مَزَايِلَةٌ عَلَى غَايَةِ الْإِحْكَامِ؟
وَقَالُوا لَهُ: مَا تَأْتِيرُ فُقُودَانِ الْوِجْدَانِ فِي عَدَمِ الْإِمْكَانِ عِنْدَ امْتِنَاعِ الْوَاجِبِ
مِنْ وَجُوبِهِ فِي ظَاهِرٍ مَا لَا وَجُوبَ لَهُ لِاسْتِحَالَتِهِ فِي إِمْكَانِ أَصْلِهِ؟ وَعَلَى هَذَا
فَقَدْ حُفِظَ جَوَابُهُ عَنْ جَمِيعِ هَذَا عَلَى غَايَةِ الرِّكَائِكَةِ وَالضَّعْفِ وَالْفَسَادِ وَالْفَسَالَةِ
وَالسُّخْفِ. وَلَوْ لَا التَّوَقُّي مِنَ التَّطْوِيلِ لَسَرَدْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ.

وَلَقَدْ مَرَّ بِي فِي خَطِّهِ: التَّفَاوُتُ فِي تَلَاثِي الْأَشْيَاءِ غَيْرُ مُحَاطٍ بِهِ، لِأَنَّهُ
يَلَاقِي الْاِخْتِلَافَ فِي الْأَصُولِ وَالِاتِّفَاقَ فِي الْفُرُوعِ؛ وَكُلُّ مَا يَكُونُ عَلَى هَذَا التَّهَجِّجِ
فَالنُّكْرَةُ تُزْحَمُ عَلَيْهِ الْمَعْرِفَةُ، وَالْمَعْرِفَةُ تُنَاقِضُ النُّكْرَةَ وَالْمَعْرِفَةُ مِنْ بَابِ الْأَلْبَسَةِ الْعَارِيَةِ
مِنْ مَلَابِسِ الْأَسْرَارِ الْإِلَهِيَّةِ، لَا مِنْ بَابِ الْإِلَهِيَّةِ الْعَارِضَةِ فِي أَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ.
وَلَقَدْ حَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا الصَّابِعُونَ عَنْهُ بِمَا يُضْحِكُ الشُّكْلَى وَيُشْمِتُ الْعَدُوَّ
وَيُعْزُّ الصَّدِيقَ، وَمَا وَرَثَ هَذَا كُلَّهُ إِلَّا مِنْ بَرَكَاتِ يُونَانَ وَفَوَائِدِ الْفَلَسَفَةِ وَالْمَنْطِقِ
وَنَسَأَلُ اللَّهَ عِصْمَةً وَتَوْفِيقاً نَهْتَدِي بِهِمَا إِلَى الْقَوْلِ الرَّاجِعِ إِلَى التَّحْصِيلِ، وَالْفِعْلِ
الْجَارِي عَلَى التَّعْدِيلِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ جَمِيبٌ.

هَذَا آخِرُ مَا كَتَبْتُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَيْسَى الرُّمَّانِيِّ الشَّيْخِ الصَّالِحِ بِإِمْلَائِهِ. وَكَانَ
أَبُو سَعِيدٍ قَدْ رَوَى لَمَعًا مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ.

* * *

* * *

ثبت المصادر والمراجع

لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ مبدأ
التّصنيف المعتمد هو المبدأ الحديث الذي
يتجاهل الألقاب مثل: أبو وابن، فابن الأثير
مثلاً موجودٌ في: أثير، وابن قتيبة موجودٌ في:
قتيبة، وأبو حيّان موجودٌ في: حيّان،
وابن خلدون موجودٌ في: خلدون. أمّا الأعلام
الأخرُ فمرتبون حسب أسمائهم الحقيقيّة إلاّ
من اشتهر منهم باسم ما فهو موجود فيه مثل
الأمدي والتّعالبي وهيجل وجوته.

- ١ . د. إبراهيم الكيلاني: رسائل أبي حيّان التّوحيدي . دار طلاس . دمشق .
١٩٨٥م.
- ٢ . د. إبراهيم الكيلاني : مقدّمة رسائل أبي حيّان التّوحيدي . دار طلاس .
دمشق . ١٩٨٥م.
- ٣ . د. إبراهيم مصطفى إبراهيم: فلسفة جورج سنتيانا . دار التّهضة العربيّة .
بيروت . ١٩٩٤م.
- ٤ . ابن الأثير: الكامل في التّاريخ . دار صادر . بيروت . ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- ٥ . إحسان عبّاس: أبو حيّان التّوحيدي . د.ن . بيروت . ١٩٥٦م.

- ٦ . أحمد أمين: مقدمة الإمتاع والمؤانسة . دار مكتبة الحياة . بيروت . د.ت .
- ٧ . أحمد الحوفي: أبو حيان التّوحيدي . مكتبة نهضة مصر . القاهرة . ١٩٥٧م .
- ٨ . د. أحمد عبد الفتّاح البرّي: التّوحيدي بين العلم والمعرفة؛ دراسة في قيمة العلم عند أبي حيان التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٩ . د. أحمد عزت راجح: أصول علم النّفس . المكتب المصري الحديث للطباعة والنّشر . الإسكندرية . ط ٩ ، ١٩٧٣م .
- ١٠ . آدم ميتز: الحضارة الإسلاميّة . ترجمة؛ محمد عبد الهادي أبو ريّدة . لجنة التّأليف والترجمة والنّشر . القاهرة . ١٩٤١م .
- ١١ . أرسطو: فنّ الشّعْر . ترجمة؛ الدكتور عبد الرّحمن بدوي . دار الثّقافة . بيروت . ط ٢ ، ١٩٧٣م .
- ١٢ . الأصفهاني، حمزة بن الحسن: الدُّرّة الفاخرة في الأمثال السّائرة . تحقيق؛ عبد الحميد قطامش . دار المعارف . القاهرة . د.ت .
- ١٣ . الأصفهاني، حمزة بن الحسن: سوائر الأمثال على أفعال . تحقيق؛ د. فهمي سعد . عالم الكتب . بيروت . ١٩٨٨م .
- ١٤ . ألكسندرو روشكا: الإبداع العام والخاص . ترجمة؛ الدكتور غسان عبد الحّيّ أبو الفخر . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . الكويت . العدد ١٤٤ . كانون الأوّل . ١٩٨٩م .
- ١٥ . الأمدي، الحسن بن بشر: الموازنة بين أبي تَمّام والبحثري . تحقيق؛ السيّد أحمد صقر . دار المعارف . القاهرة . ج ١ . ط ١ ، ١٩٦١م .

- ١٦ . د. أميرة مطر: **فلسفة الجمال** . دار الثقافة للنشر والتوزيع . القاهرة . ط٣ ، ١٩٨٣م .
- ١٧ . أندريه جيد: **كورديون** . ترجمة؛ رمسيس عوض . ضمن مجلة: القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . العدد ١٦٢ . مايو/أيار ١٩٩٦م .
- ١٨ . أندريه سيبي: **مورياك** . ترجمة؛ زياد العودة . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٩٦م .
- ١٩ . أيمن بكيراتي: **الإيضاح في شرح المقامات للمطرزي** . دراسة وتوثيق وتحقيق؛ أيمن بكيراتي . رسالة ما جستير غير منشورة نوقشت في كلية الآداب بجامعة دمشق عام ١٩٩٥م .
- ٢٠ . بديع الكسم: **التربية الجمالية** . ضمن مجلة؛ **المعلم العربي** . العدد ٤ . شباط ١٩٥٠م .
- ٢١ . برجسون، هنري: **الضحك** . ترجمة؛ سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم . دار العلم للملايين . بيروت . ط٣ . ١٩٨٣م .
- ٢٢ . بـُوكلمان، كازل: **تاريخ الأدب العربي** . ترجمة؛ عبد الحليم النجار وآخرون . دار المعارف بمصر . القاهرة . ١٩٧٧م .
- ٢٣ . ابن بسّام: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** . تحقيق؛ د. إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت . ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- ٢٤ . البغدادي، أحمد بن علي الخطيب: **تاريخ بغداد** . دار الكتب العلمية . بيروت . د.ت .
- ٢٥ . البكري، أبو عبيد: **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال** . تحقيق؛

- إحسان عبّاس ود. عبد الحميد عابدين. دار الأمانة/ مؤسسة الرسالة . بيروت . ط ٣، ١٩٨٣ م.
- ٢٦ . تشرنشفسكي: علاقات الفن الجماليّة بالواقع . ترجمة؛ يوسف حلاق . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٨٣ م.
- ٢٧ . الثّعالي، أبو منصور: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب . تحقيق؛ محمد أبو الفضل إبراهيم . دار نهضة مصر . القاهرة . ١٩٦٥ م.
- ٢٨ . الثّعالي، أبو منصور: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . تحقيق؛ محيي الدّين عبد الحميد . دار الفكر . بيروت . ط ٢، ١٩٧٣ م.
- ٢٩ . الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين؛ تحقيق فوزي عطوي . الشركة اللبنانيّة للكتاب . بيروت . ١٩٦٨ م.
- ٣٠ . الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: التّربيع والتّدوير . تحقيق؛ فوزي عطوي . الشركة اللبنانيّة للكتاب . بيروت . د.ت.
- ٣١ . الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان تحقيق؛ عبد السلام محمد هارون . دار الجيل . بيروت/ دار الفكر . دمشق . ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.
- ٣٢ . جان ماري شيفر: الفن في العصر الحديث . ترجمة؛ الدكتورة فاطمة الجيوشي . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٩٦ م.
- ٣٣ . ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم . مطبعة حيدر آباد . الهند . ط ١، ١٣٥٩ هـ.
- ٣٤ . جيل دلوز: المعرفة والسّلطة؛ مدخل لقراءة فوكو . ترجمة؛ سالم يفوت . المركز الثّقافي العربي . بيروت/ الدّار البضاء . ط ١، ١٩٨٧ م.

٣٥ . حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . دار الفكر . بيروت . ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

٣٦ . حسن السندوبي . أبو حيان التوحيدي . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة . ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م .

٣٧ . حسن السندوبي: مقدمة المقابسات . المطبعة الرحمانية . القاهرة . ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م .

٣٨ . حسن المطاوي: الله والإنسان في فلسفة أبي حيان التوحيدي . مكتبة مدبولي . القاهرة . ١٩٨٩م .

٣٩ . حسين المرصفي: الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية . تحقيق وتقديم؛ الدكتور عبد العزيز الدسوقي . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٩١م .

٤٠ . الحلاج، أبو منصور: ديوان الحلاج . تحقيق؛ كامل مصطفى السبي . دار آفاق عربية . بغداد . ط ٢ ، ١٩٨٤م .

٤١ . أبو حيان التوحيدي وأبو علي مسكويه: الهوامل والشوامل . تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر . القاهرة . ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

٤٢ . أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية . تحقيق؛ الدكتور عبد الرحمن بدوي . مطبعة جامعة فؤاد الأول . القاهرة . ١٩٥٠م .

٤٣ . أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية . تحقيق؛ الدكتورة ودا القاضي . دار الثقافة . بيروت . ط ٢ . ١٩٨٢م .

٤٤ . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: الإِمْتَاع والمُؤَانَسَة . تحقيق؛ أحمد أمين وأحمد الزَّيْن . دار مكتبة الحياة . بيروت . د.ت .

٤٥ . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: البصائر والدُّخَائِر . تحقيق وتعليق؛ أحمد أمين والسَّيِّد أحمد صقر . الجزء الأوَّل . لجنة التَّأليف والتَّرْجُمة والنَّشْر . القاهرة . ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م .

٤٦ . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: البصائر والدُّخَائِر . تحقيق؛ الدُّكتور إبراهيم الكيلاني . مكتبة أطلس ومطبعة الإرشاد . دمشق . ١٩٦٤/١٩٦٦م .

٤٧ . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: البصائر والدُّخَائِر . تحقيق؛ الدكتور وداد القاضي . دار صادر . بيروت . ط ١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

٤٨ . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: الصَّدَاقَة والصَّدِيق . تحقيق؛ الدُّكتور إبراهيم الكيلاني . دار الفكر . دمشق . ١٩٦٤م .

٤٩ . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: المقابسات . تحقيق وشرح؛ حسن السَّنْدُوبِي . المطبعة الرَّحْمَانِيَّة . القاهرة . ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م .

٥٠ . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: المقابسات . تحقيق؛ محمد توفيق حسين . دار الآداب . بيروت . ١٩٨٩م .

٥١ . أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي: مثالب الوزيرين . تحقيق؛ الدُّكتور لإبراهيم الكيلاني . دار الفكر . دمشق . ١٩٦١م .

٥٢ . الخفاجيُّ، شهاب الدِّين: ربحانة الألبا . تحقيق؛ عبد الفتَّاح محمد الحلو . مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهرة . ط ١ ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م .

٥٣ . ابن خلدون: المقدمَة . المكتبة التَّجَارِيَّة الكبري . القاهرة . د.ت .

- ٥٤ . ابن خَلِّكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان . تحقيق؛ د. إحسان عبَّاس . دار صادر . بيروت . ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- ٥٥ . الخونساري؛ محمد الموسوي: روضات الجنَّات في أحوال العلماء والسَّادات . طبعة حجرية . طهران . ١٢٧١هـ .
- ٥٦ . دريني خشبة: أساطير الحب والجمال عند اليونان . دار التَّنوير / دار الأبعاد . بيروت . ١٩٨٣م .
- ٥٧ . الدَّهبي، الإمام الحافظ: ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال . تحقيق؛ علي محمد معوض وعادل عبد الموجود . دار الكتب العلميَّة . بيروت . ط ١ . ١٩٩٥م .
- ٥٨ . الرِّيدي: تاج العروس . المطبعة المنيريَّة بمصر . مصر . ط ١ ، ١٣٠٦هـ .
- ٥٩ . الزركلي، خير الدِّين: الأعلام . دار العلم للملايين . بيروت . ط ٥ ، ١٩٨٠م .
- ٦٠ . زركوب الشَّيرازي: شيرازنامه . د.ن . طهران . ١٣٥٠هـ / ١٩٣٠م .
- ٦١ . د. زكريا إبراهيم: فلسفة الفن في الفكر المعاصر . مكتبة مصر . القاهرة . ١٩٦٦م .
- ٦٢ . د. زكي مبارك: النَّثر الفنِّي في القرن الرَّابِع الهجري . دار الكتب المصريَّة . القاهرة . ط ١ ، ١٣٥٢هـ / ١٩٣٢م .
- ٦٣ . الرِّمخشري، جار الله: أساس البلاغة . د.ن . د.م . ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

- ٦٤ . الرَّمَحْشَرِي، جار الله: الفائق في غريب الحديث . تحقيق؛ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربيّة . القاهرة . ط١، ١٩٤٨م .
- ٦٥ . الرَّمَحْشَرِي، جار الله: المستقصى في أمثال العرب . دار الكتب العلميّة . بيروت . ط٢ . ١٩٧٧م .
- ٦٦ . الرَّمَحْشَرِي، جار الله: ربيع الأبرار ولصوص الأخبار . تحقيق؛ يوسف البقاعي . دار الكتاب اللبناني . بيروت . د.ت .
- ٦٧ . سالم حميش: تجربة الوجود والكتابة عند التّوحيدي . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ٦٨ . سانتيانا، جورج: الإحساس بالجمال . ترجمة؛ الدّكتور مصطفى بدوي . مكتبة الأنجلو المصريّة . القاهرة . د.ت .
- ٦٩ . السّبكي، تاج الدّين: طبقات الشّافعيّة الكبرى . تحقيق عبد الفتّاح الحلو والدّكتور محمود محمد الطناحي . هجر للطباعة والنّشر والتّوزيع والإعلان . القاهرة . ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
- ٧٠ . السّكاكي، سراج الدّين يوسف بن أبي بكر: مفتاح العلوم . القاهرة . ١٩٣٧م .
- ٧١ . سليم الحو: الموسيقى النّظريّة . دار مكتبة الحياة . بيروت . ط٢، د.ت .
- ٧٢ . السّمعاني: الأنساب . تحقيق محمد عوامة . نشر محمد أمين دمج . بيروت . ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

- ٧٣ . سمير صايغ: الفن الإسلامي؛ قراءة تأملية في خصائصه وفلسفته الجمالية . دار المعرفة . بيروت . ١٩٨٨ م .
- ٧٤ . السيد أحمد صقر: نقد الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي؛ تحقيق عبد الرحمن بدوي، في أربع حلقات . مجلة الثقافة . القاهرة . الأعداد: ٦٢٩، ٦٣٢، ٦٣٤، ٦٣٧ . ١٩٥١ م .
- ٧٥ . السيد ولد أباه: منزلة المتخيّل في الفكر الفلسفي العربي لاوسيط من خلال نموذجي الفارابي وابن عربي . ضمن مجلّة؛ دراسات عربية . العدد ١١/١٢ . ١٩٨٧ م .
- ٧٦ . السيوطي، جلال الدين: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . مصطفى البابي الحلبي . القاهرة . ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥ .
- ٧٧ . شارل لالو: مبادئ علم الجمال . ترجمة؛ خليل شطّا . دار دمشق . دمشق . ١٩٨٢ م .
- ٧٨ . شفيق جبري: الجاحظ معلم العقل والأدب . محاضرات كلية الآداب . دمشق . ١٣٥١هـ / ١٩٣٢ م .
- ٧٩ . د. شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات؛ الجزيرة العربية والعراق وإيران . دار المعارف . القاهرة . ١٩٨٠ م .
- ٨٠ . الشّيرازي، الجنيد: شدُّ الإزار عن حطِّ الأوزار . د.ن . طهران . ١٣٢٨هـ / ١٩١٠ م .
- ٨١ . الصّفدي، خليل بن أبيك الصّلاح: الوافي بالوفيات . باعتناء؛ هلموت ريتز . نشر فرانز ستاينز بفيسبادن . ألمانيا . ١٣٣٨١هـ / ١٩٦٢ م .

٨٢ . طارق الشَّريف: محاولة لتحليل كلمة آرابيسك . محاضرة ألقاها في قاعة المحاضرات في مكتبة الأسد الوطنيَّة بدمشق يوم الأربعاء ١٥/١/١٩٩٧م ضمن فعاليَّات الندوة الدوليَّة الأولى لفنون الزَّخرفة الإسلاميَّة؛ الآرابيسك. أخذنا المقبوس من جريدة؛ الثَّورة . دمشق . العدد ١٠١٩٨ . الخميس ١٦/١/١٩٩٧م.

٨٣ . طاش كبرى زادة: مفتاح السَّعادة ومصايح السيَّادة . دار الكتب العلميَّة . بيروت . د.ت.

٨٤ . د. عادل العوَّا: المذاهب الأخلاقيَّة . منشورات جامعة دمشق . دمشق . ١٩٥٨م.

٨٥ . د. عادل العوَّا: المعتزلة والفكر الحر . دار الأهالي للطباعة والنَّشر والتَّوزيع . ط ١، ١٩٨٧م.

٨٦ . عبَّاس القمِّي: الكنى والألقاب . مؤسسة العرفان . بيروت . ط ٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٨٧ . د. عبد الرَّحمن بدوي: موسوعة الفلسفة . المؤسَّسة العربيَّة للدراسات والنَّشر . بيروت . ط ١، ١٩٨٤م.

٨٨ . عبد الرزاق محي الدِّين: أبو حيان التَّوحيدي؛ سيرته وآثاره . مكتبة الخانجي . القاهرة . ١٩٤٩م.

٨٩ . عبد القادر الرِّباعي: التَّفكير النَّقدي في كتاب المقابسات للتَّوحيدي؛ مقاربات نصيَّة وقراءة ذاتيَّة . ضمن مجلَّة؛ فصول . الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ . ربيع ١٩٩٦م.

- ٩٠ . عبد القادر بدران: تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر . دار المسيرة . بيروت . ط٢ ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- ٩١ . د. عبد الكريم اليافي: مقدّمة قصيدة؛ خمرة الشّعْر للشاعر حسن البحيري . ضمن ديوان: خمرة الشّعْر . مطبعة الصّباح . دمشق . ١٩٩٧م .
- ٩٢ . عبد النبي أصطيف: أصالة ومعاصرة في مفاهيم الشّعْر عند التّوحيدي . ضمن مجلة؛ الموقف الأدبي . اتّحاد الكتّاب العرب . دمشق . العدد ٩١ .
- ٩٣ . د. عدنان رشيد: دراسات في علم الجمال . دار التّهضة العربيّة . بيروت . ط١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- ٩٤ . عزت السيّد أحمد: انهيار دعاوى الحداثة؛ الحداثة ضرورة تاريخيّة لا خيار سياسي . دار التّقافة . دمشق . ١٩٩٥م .
- ٩٥ . عزت السيد أحمد (إعداد وتقديم): بديع الكسم . وزارة التّقافة . دمشق . ١٩٩٤م .
- ٩٦ . عزّت السيّد أحمد: طبيعة الجمال . ضمن مجلة؛ المعرفة . وزارة التّقافة . دمشق . العدد ١٣٤ . حزيران ١٩٩٣م .
- ٩٧ . عزت السيّد أحمد: علم الجمال المعلوماتي؛ نحو نظريّة جديدة . دار الأصالة للطّباعة . دمشق . ١٩٩٤م .
- ٩٨ . عزت السيد أحمد: فلسفة الفن والجمال عند ابن خلدون . دار طلاس . دمشق . ١٩٩٣م .
- ٩٩ . عزت السيّد أحمد : القيم الجماليّة والأخلاقيّة عند الجاحظ . رسالة ماجستير نوقشت في جامعة دمشق عام ١٩٩٤م .

- ١٠٠ . عزيز الشّوان: الموسيقى تعبير نغمي ومنطق . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . ١٩٨٦م .
- ١٠١ . العسقلاني، ابن حجر: لسان الميزان . مؤسسة الأعلمي للمطبوعات . بيروت . ط ٢ ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .
- ١٠٢ . العسكري، أبو هلال: جمهرة الأمثال . تحقيق؛ محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش . دار الجليل . بيروت . د.ت .
- ١٠٣ . العسكري، أبو هلال: كتاب الصّناعتين . تحقيق؛ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة . ١٩١٤م .
- ١٠٤ . د. عفيف بهنسي: الحدس الفنّي عند أبي حيّان . ضمن مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٤ . العدد ٣ . خريف ١٩٩٦م .
- ١٠٥ . د. عفيف بهنسي: الخطُّ العربي؛ أصوله، نهضته، انتشاره . دار الفكر . دمشق . ١٩٨٤م .
- ١٠٦ . د. عفيف بهنسي: فلسفة الفن عند التوحيدي . دار الفكر . دمشق . ط ، ١٩٨٧م .
- ١٠٧ . د. غازي يموت: علم أساليب البيان . دار الفكر اللبناني . بيروت . ط ٢ ، ١٩٩٥م .
- ١٠٨ . غلام حسين أميرخاني: الخطُّ سلاحٌ ثقافيٌّ هامٌّ . حوارٌ أجرته معه؛ رغداء مارديني . ضمن جريدة؛ تشرين . دمشق . العدد ٦٧١٦ . الأربعاء ١٩٩٧/١/١٥م .

- ١٠٩ . غويرير: أساطير الإغريق والرُّومان . ترجمة؛ حسني فريز . دار الثقافة والفنون . عمّان . ١٩٧٦م .
- ١١٠ . فاليري جونزاليس: الفضاء في العمارة الإسلامية . محاضرة ألقته هذه المستشرقة الإسبانية في قاعة المحاضرات في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق يوم الأربعاء ١٥/١/١٩٩٧م ضمن فعاليات الندوة الدولية الأولى لفنون الزخرفة الإسلامية؛ الآرايسك . أخذنا المقبوس من جريدة؛ الثورة . دمشق . العدد ١٠١٩٨ . الخميس ١٦/١/١٩٩٧م .
- ١١١ . فراس السَّوَّاح: لغز عشطار؛ الألوهة المؤنثة وأصل الدِّين . دار علاء الدِّين . دمشق . ط ٥، ١٩٩٣م .
- ١١٢ . فراس السَّوَّاح: مغامرة العقل الأولى؛ دراسة في الأسطورة . دار علاء الدِّين . دمشق . ط ١٠، ١٩٩٣م .
- ١١٣ . الفيروزآبادي: القاموس المحيط . مؤسَّسة الرِّسالة . بيروت . ١٩٨٦م .
- ١١٤ . الفيومي، أحمد بن محمد بن علي: المصباح المنير . مكتبة لبنان . بيروت . ١٩٨٧م .
- ١١٥ . ابن قنبة: الشَّعر والشُّعراء؛ طبقات الشُّعراء . دار الكتب العلميَّة . بيروت . ١٩٨٥م .
- ١١٦ . ابن قتيبة: عيون الأخبار . تحقيق؛ د. محمد الاسكندراني . دار الكتاب العربي . بيروت . ط ١، ١٩٩٤م .
- ١١٧ . قدامة بن جعفر: نقد النُّشر . تحقيق؛ الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبَّادي . مطبعة مصر . القاهرة . ١٩٣٨م .

- ١١٨ . القزويني، الخطيب جلال الدّين: الإيضاح في علوم البلاغة . دار الكتاب اللبناني . بيروت . د.ت.
- ١١٩ . القفطي، جمال الدّين: أخبار العلماء بأخبار الحكماء . دار الآثار للطباعة و التّشّرع والتّوزيع . القاهرة . د.ت.
- ١٢٠ . القفطي، جمال الدّين: إنباه الرّواة على أنباه النّحاة . تحقيق؛ محمد أبو الفضل إبراهيم . دار الفكر العربي . القاهرة / مؤسسة الكتب الثّقافيّة . بيروت . ١٩٨٦م.
- ١٢١ . القيرواني، ابن رشيق: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه . تحقيق؛ د. محمد قزقران . دار المعرفة . بيروت . ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- ١٢٢ . كافكا: التّحوّل . ترجمة ودراسة؛ نبيل فيّاض . دار المنارة . اللاذقيّة . ط١، ١٩٩٠م.
- ١٢٣ . الكتبي، محمد بن شاكّر: فوات الوفيّات . تحقيق؛ د. إحسان عبّاس . دار صادر . بيروت . د.ت.
- ١٢٤ . العكبري، أبو البقاء: ديوان أبي الطّيب المتنبّي . ضبطه وصحّحه؛ السّقمّا والأبياري وشبلي . شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي . القاهرة . ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.
- ١٢٥ . كمال فوزي الشّرايبي: نافذة على العالم . ضمن مجلّة؛ المعرفة . وزارة الثّقافة . دمشق . العدد ٣٧٤ . تشرين الثّاني . ١٩٩٤م.
- ١٢٦ . كمال فوزي الشّرايبي: نافذة على العالم . ضمن مجلّة؛ المعرفة . وزارة الثّقافة . دمشق . العدد ٣٧٢ . أيلول ١٩٩٤م.

١٢٧ . كمال فوزي الشراي: نافذة على العالم المعرفة . ضمن مجلّة؛ المعرفة .
وزارة الثقافة . دمشق . العدد ٣٧٥ . كانون الأوّل . ١٩٩٤م .

١٢٨ . كميل الحاج: مادّة: جمال . ضمن؛ الموسوعة الفلسفيّة العربيّة .
المجلد الأوّل؛ الاصطلاحات والمفاهيم . معهد الإنماء العربي . بيروت . ط ١ ،
١٩٨٦م .

١٢٩ . لؤي علي خليل: أبو حيان التّوحيدي مفكراً جماليّاً . ضمن مجلّة؛
الموقف الأدبي . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . العدد ٢٩٨ . ١٩٩٦م .

١٣٠ . ماكس ماير هوف: من الاسكندريّة إلى بغداد . ضمن؛ التّراث
اليوناني في الحضارة الإسلاميّة . ترجمة؛ الدكتور عبد الرّحمن بدوي . دار
النّهضة العربيّة . بيروت . ١٩٦٥م .

١٣١ . المبرّد، أبو العباس: البلاغة . تحقيق؛ رمضان عبد التّواب . القاهرة .
١٩٦٥م .

١٣٢ . محمد بغدادي: موسيقى الخطّ العربي أبي حيان التّوحيدي . ضمن
مجلّة؛ فصول . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ .
ربيع ١٩٩٦م .

١٣٣ . د. محمد رجب النّجّار: حكايات الشّطار والعيّارين في التّراث
العربي . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة .
الكويت . العدد ٤٥ . أيلول . ١٩٨١م .

١٣٤ . د. محمد رمضان الحري: ابن قتيبة ومقاييسه البلاغيّة والأدبيّة

- والتَّقْدِيَّة . المنشأة العامَّة للنَّشر والتَّوزيع والإعلان . طرابلس، ليبيا .
١٩٨٤م .
- ١٣٥ . محمد كرد علي: أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي . ضمن؛ مجلَّة المجمع
العلمي العربي . ج ٣ . مج ٨ . آذار ١٩٢٨م .
- ١٣٦ . محمد كرد علي: أمراء البيان . دار الأمانة . بيروت . ط ٣ ، ١٣٨٨هـ/
١٩٦٩م .
- ١٣٧ . محمد نور الدِّين أفاية . الاهتمام بالجمال عند التَّوْحِيدِي . ضمن مجلَّة؛
فصول . الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب . القاهرة . مج ١٥ . العدد ١ .
ربيع ١٩٩٦م .
- ١٣٨ . محمد نور الدِّين أفاية: المرموز والمتخيَّل؛ نموذج دوران . ضمن مجلَّة؛
الفكر العربي المعاصر . بيروت . العدد ٥٢ . ٥٣ .
- ١٣٩ . مسكويه: تجارب الأمم . المكتب التَّجاري للطباعة والنَّشر والتَّوزيع .
بيروت . د . ت .
- ١٤٠ . ابن منظور: لسان العرب . دار إحياء التُّراث العربي ومؤسسة التَّاريخ
العربي . بيروت . ط ٣ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
- ١٤١ . الميداني، أحمد بن محمد: مجمع الأمثال . تحقيق؛ محيي الدِّين عبد
الحميد . دار النَّصر . دمشق / بيروت . د . ت .
- ١٤٢ . ناصيف نصَّار: تعريف الجمال من وجهة ميتافيزيقية . ضمن
مجلَّة؛ الوحدة . المجلس القومي للثقافة العربيَّة . الرباط . العدد ٢٤ .
١٩٨٦م .

- ١٤٣ . ابن النديم: الفهرست . مكتبة خيَّاط . بيروت . د.ت.
- ١٤٤ . نور الدين بلقاسم: أصداء المجتمع والعصر في أدب أبي حيَّان التَّوحيدي . المنشأة العامَّة للنَّشر والتَّوزيع والإعلان . طرابلس . ليبيا . ١٩٨٤م.
- ١٤٥ . نيتشه، فريدريك: ماوراء الخير والشرّ «مختارات»؛ ترجمة محمد عضيَّة . د.ن . د.م . د.ت.
- ١٤٦ . هيجل: الفن الرَّمزي، الكلاسيكي، الرُّوماني . ترجمة؛ جورج طرايشي . دار الطليعة . بيروت . ط٢، ١٩٨٦م.
- ١٤٧ . د. وداد القاضي: مقدِّمة البصائر والدُّخائر . دار صادر . بيروت . ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ١٤٨ . الوطواط: غرر الخصائص الواضحة وعرر النَّقائص الفاضحة . دار صعب . بيروت . د.ت.
- ١٤٩ . ياقوت الحموي: معجم الأديباء مدار إحياء التُّراث العربي . بيروت . د.ت.
- ١٥٠ . يوسف السَّيسي: دعوة إلى الموسيقى . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . الكويت . العدد ٤٦ . تشرين الأوَّل . ١٩٨١م.
- ١٥١ . يوسف زيدان: التَّوحيدي والصُّوفيَّة . ضمن مجلَّة: الهلال . تشرين الثَّاني / نوفمبر . ١٩٩٥م.
- ١٥٢ . يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة . دار القلم . بيروت . د.ت.

- 153 . Basch, V: **Essai Critique sur L'Esthétique de Kant**. Librairie Philosophique J.Vrin, Paris. 1927.
- 154 . Basch, V: **Essais d'Esthétique, de Philosophie, et de Littérature**. Alcan. Paris. 1934.
- 155 . Bergé, Marc: **Tawhidi un Humaniste Arabe du IVe/Xe Siècle**. Extrait de la revue *Travaux et Jours* 23, avril-juin 1967.
- 156 . Berlin, I: **Vico and Herder; Two Studies in the History of Ideas**. London. 1979.
- 157 . Durand, G: **L'Imaginaire Symbolique**. P.U.F. Paris. 1964.
- 158 . Durand, G: **Les Structures Anthropologiques de l'Imaginaire**. Bordas. Paris. 1969.
- 159 . Kant, E: **Critique of Judgment**. Trans from German by J. Bernard Hafner, London. 1931.
- 160 . Kopf, L: **The Zoological Chapter of the Kitab Al-Imta' wal-Mu'anasa of Abu Hayyan al-Tauhidi (10th century)**. Osiris. Vol.7. 1956.
- 161 . Merriam Webster: **Merriam Webster's Encyclopedia of Literature**, Massachusetts. 1995.
- 162 . Osborne, H: **Aesthetics and Criticism**. A Pelican Book. Londn. 1955.

- 163 . Reed, T.J: **Schiller**. Oxford. 1991.
- 164 . Schopenhauer, A: **The World as Will and Idea**.
Trans from German by Haldane and Kemp. 6Th,
London. 1970.
- 165 . Stern, S. M: **Abù Hayyàn Al-Tawhidi**, in: **The
Encyclopaedia of Islam**. Vol 1. Leiden. 1979.
- 166 . Ugrinsky, A: **Friedrich von Schiller and the Drama of
Human Existence**. London. 1988.

* * *

* * *

صدر للدكتور عزت السيد أحمد

١. الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .
٢. أميرة النَّار والبحار (شعر) - دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م .
٣. أنا صدى الليل (شعر) . دار الأصالة للطباعة - دمشق - ١٩٩٥م .
٤. أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩م .
٥. أنا وعيناك صديقان (شعر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١م .
٦. أنشودة الأحران (شعر) - دار الأصالة للطباعة - دمشق . ١٩٩٦م .
٧. انهيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي . ط١: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م . ط٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . الطبعة الثانية ٢٠٠١م .
٨. انهيار الشعر الحر - دار الثقافة - دمشق (ط١) ١٩٩٤م
٩. انهيار دعاوى الحداثة - دار الثقافة - دمشق - ١٩٩٥م .
١٠. انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م .
١١. بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق - ١٩٩٤م .
١٢. بشرية عمياء عرجاء؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م .
١٣. الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م .
١٤. الدخيل على المصلحة (قصص) - ن . م - دمشق - ١٩٩٣م .
١٥. دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أم أمُّ العلوم ؟ - دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م .
١٦. علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م .

١٧. غاوي بطالة (قصص قصيرة) - دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦ م.
١٨. فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون - دار طلاس - دمشق - ١٩٩٣ م.
١٩. قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨ م.
٢٠. كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢ م.
٢١. لا تعشقينني (شعر) - دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤ م.
٢٢. مكيا فيلية و نيتشوية تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨ م.
٢٣. الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) - دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤ م.
٢٤. النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣ م.
٢٥. نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩ م.
٢٦. هؤلاء أساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا - دار الثقافة - دمشق - ١٩٩٤ م.

* * *

المحتويات

٧	الإهداء
٩	المقدمة
١٦	الاختصارات والرُّموز
١٧	القسم الأول: أبو حيان التَّوحيدي
١٨	الفصل الأول: محطات في حياة التَّوحيدي
١٩	اسمه ونسبته
٢٢	مولده وأصله ونشأته
٢٣	١. ولادته
٢٥	٢. أصله
٢٨	٣. نشأته
٣٠	ثقافته وشيوخه
٣٢	١. علوم اللغة
٣٣	٢. علوم الدين
٣٥	٣. التصوف
٣٨	٤. الفلسفة
٣٩	٥. أثر الجاحظ
٤٢	وفاته
٤٥	الفصل الثاني: شخصيَّة التَّوحيدي ومكانته
٤٩	عبريَّة التَّوحيدي
٥١	يأسه وتشاؤمه
٥٨	أجَّاهه الفكري

٦١ مكانته
٦٣ الفصل الثالث: لوحة حياة الوحيددي
٧٥ الفصل الرابع: آثار التوحيددي
١٠٣ القسم الثاني: المنتخبات من الرسائل
١٠٥ رسالة إلى أبي الفتح بن العميد
١١٧ رسالة إلى أبي الوفاء البوزجاني
١٢٥ رسالة إلى القاضي أبي سهل
١٣٩ رسالة إلى أبي عبد الله بن العارض
١٤٧ رسالة إلى أبي عبد الله بن العارض
١٦٥ رسالة الإمامة (السقيفة)
١٨٧ رسالة الحياة
٢٢٣ رسالة في بيان ثمرات العلوم
٢٤٣ مقتطفات من رسالة تقرّظ الجاحظ
٢٧٧ رسالة في علم الكتابة
٣١٩ مقتطفات من المحاضرات والمناظرات
٣٤٣ المناظرة بين السيرافي والقنائي
٣٦٧ ثبت المصادر والمراجع
٣٨٩ صدر لمُعَدِّ الكتاب
٣٩١ المحتويات



* * *



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠١